



مركز دراسات الدكتوراه: "الآداب والعلوم الإنسانية والفنون وعلوم التربية"

تكوين الدكتوراه: اللغات والآداب والتواصل والإعلام

محور: الدراسات العربية

مختبر: العلوم الإنسانية التطبيقية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية في موضوع:

الموت في الثقافة الأمازيغية من خلال الطقوس الجنائزية

قبائل آيت باعمران نموذجاً

الأستاذ المشرف:

د. سعيد الناجي

إعداد الطالب الباحث:

أحمد أورير

تاريخ المناقشة: 2022/07/07

لجنة المناقشة:

رئيسا	كلية الآداب سايس فاس	الدكتور سعيد كفايتي
عضوا	المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الرباط	الدكتور حمو بلغازي
عضوا	كلية الآداب سايس فاس	الدكتور محمد الزاهير
مشرفا	المدرسة العليا للأساتذة فاس	الدكتور سعيد الناجي

السنة الجامعية: 2022-2021

شكر وتقدير

إنه من خواصي العرفان أن أتقدم بالشكر الجزيل، وخالص التقدير إلى أستاذي الدكتور سعيد الفاحي على تفضله بالإشراف على هذه الأبحاث التي لم تكن لتخرج للوجود لولا متابعاته وملاحظاته القيمة والصارمة. أشكره كذلك على مواقفه الإنسانية التي أبان عنها غير ما مرة، وعلى دعمه اللامشروط وتحفيزه اللامحدود.

أتقدم بوافر الشكر والعرفان للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة:

- الدكتور سعيد كفايتي؛
- الدكتور حمو بلغازي؛
- الدكتور محمد الزاهير؛

شكرا لكم على قبولكم مناقشة هذا البحث المتواضع، وإثرايه بملاحظاتكم المسببة رغم إلتزاماتكم الكثيرة والضاغطة، شكرا أستاذي حمو بلغازي على توجيهاتكم وحزمكم، لقد كنتم الأستاذ الذي علمنا تقنيات البحث الميداني، وحرصتم فينا شغفه.

شكرا لأساتذة المدرسة العليا للأساتذة بفاس: الأستاذة رشيدة كوجيل، الأستاذ عبد القادر رايسى، والأستاذ محمد بونجمة، على فتحهم باب الدرس الجامعي أمام المهالب الباحث، شكرا لكم على الثقة التي أوكلتمونا إياها، وتأهيريكم لنا في مختبر العلوم الإنسانية التطبيقية.

الشكر موصول لصيقي المبدع الأستاذ عبد السلام العبيسي، شكرا على جهودكم وتوجيهاتكم وعلى معلوماتكم التي أفادتنا في البحث. خالص الشكر والإمتنان لنساء ورجال قبائل آيت باعمران، على استضافتهم لنا في كل زيارتنا الميدانية وصرهم أمام أسيلتنا واستفهاماتنا. جزيل الشكر لمؤلفي الجماعات المحلية، ومؤلفي المنووبة الإقليمية للأوقاف والشؤون الإسلامية لسيدي إفني.

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير	2
فهرس الموضوعات.....	3
مدخل	10
مقدمة عامة	12
الفصل الأول: الموت في الخطاب الديني والأنثروبولوجي.....	29
1. الموت في الحضارات القديمة.....	29
1.1 الموت في بلاد الرافدين	30
1.1.1 حتمية الموت	31
2.1 الأثاث الجنائزي.....	33
3.1 مواضيع الدفن	35
4.1 أنواع القبور	37
5.1 وضعيات واتجاهات الدفن	38
6.1 الحداد	39
2. الموت في مصر القديمة	41
1.2 الروح	41
2.2 التحنيط	42
3.2 الموكب الجنائزي.....	46
4.2 فتح القم والعينين والأذنين	47
5.2 الأثاث الجنائزي.....	49
6.2 المحاكمة	50
7.2 المقابر	52

3.	الموت في المغرب القديم	56
1.3.	أنواع المدافن	56
2.3.	الأثاث الجنائزي	63
3.3.	وضعيات الدفن	65
4.3.	إحراق الموتى	67
II.	الموت والطقوس الجنائزية في الخطاب الديني	69
1.	الجنائز اليهودية	70
1.1.	الاحتضار	71
2.1.	التطهير	73
3.1.	التكفين	76
4.1.	الدفن والموارة	78
5.1.	الحداد	81
2.	الجنائز المسيحية	84
1.2.	تجهيز الميت	85
2.2.	الصلاة	86
3.2.	موكب الجناز	87
4.2.	الجنازة	88
5.2.	الحزن والحداد	90
3.	الجنائز الإسلامية	93
1.3.	التلقين	93
2.3.	تغسيل الميت	95
3.3.	التكفين	97

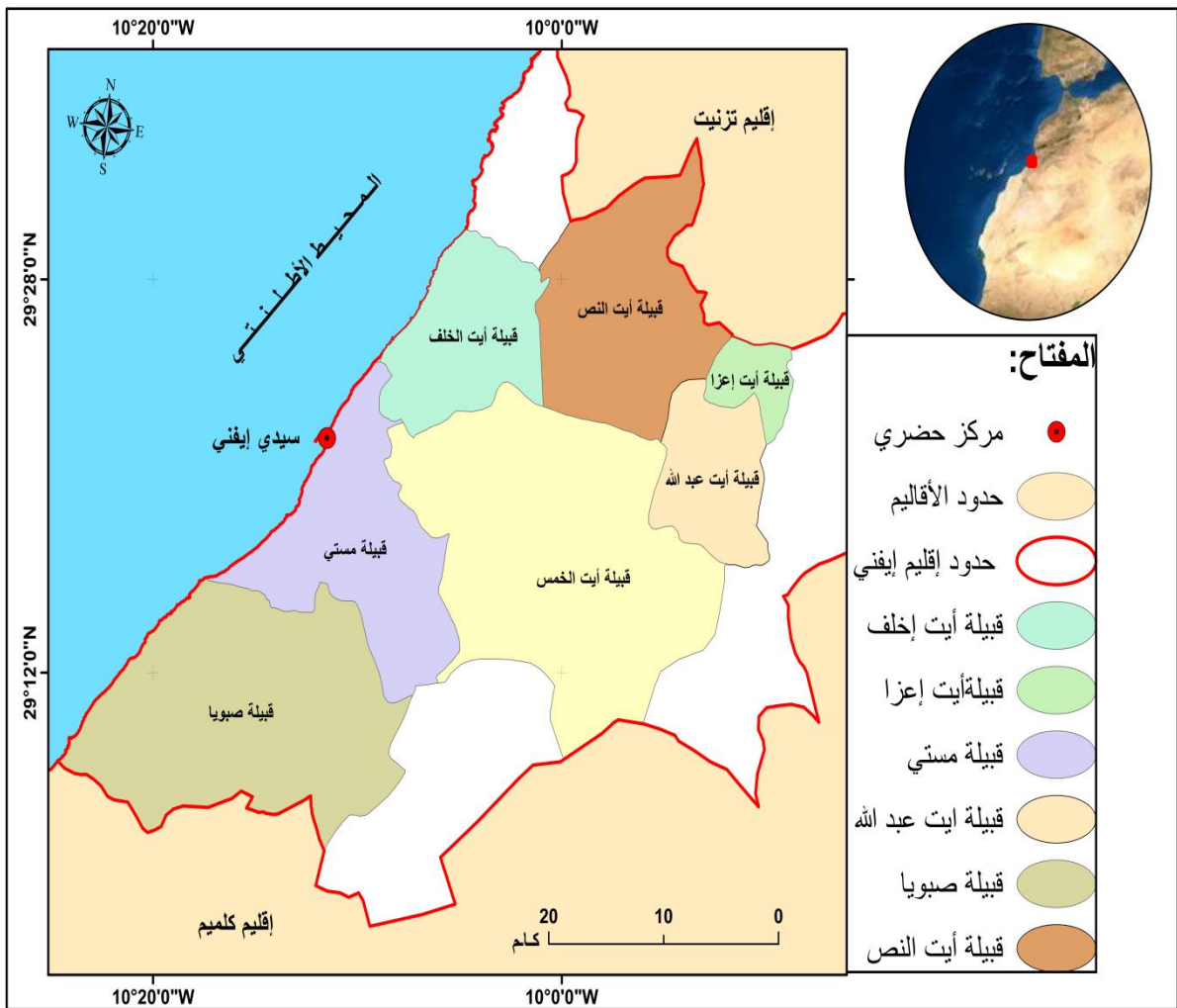
98	4.3. الصلاة على الميت
101	5.3. دفن الميت
103	6.3. التعزية
110	الفصل الثاني: الموت والفضاء الجنائزي في الثقافة الأمازيغية
110	أ. الموت في الثقافة الأمازيغية.....
111	1. الموت في الميثولوجيا
113	1.1. ميثولوجيا بابلية
115	2.1. ميثولوجيا مصرية
116	3.1. ميثولوجيا أمازيغية
125	2. الموت في الأمثال الشعبية الأمازيغية
126	1.2. تعريف المثل.....
127	2.2. أساليب التعبير في المثل الأمازيغي
130	3.2. وظائف الأمثال
131	4.2. الموت في المثل الأمازيغي
135	5.2. الموت في سياقات اجتماعية
141	3. الموت والطقوس السحرية.....
141	1.3. تعريف السحر وأنواعه
144	2.3. شروط الممارسة السحرية
146	3.3. عناصر العملية السحرية
146	4.3. مسار تكوين الساحر
148	5.3. الطقوس السحرية.....
161	II. الفضاء الجنائزي بقبائل آيت باعمران.....

162	1. المقبرة
162	1.1. تعريف المقبرة
162	2.1. إحداث المقابر
166	3.1. تنظيم المقابر
166	1.3.1. اختيار القبر
167	2.3.1. بناء القبر
170	3.3.1. شاهد القبر
173	4.1. المحافظة على المقبرة وصيانتها
178	2. الأضرحة
180	1.2. وظائف الأضرحة
181	1.1.2. الوظائف الاجتماعية
186	2.1.2. الوظيفة الاستشفائية
191	3.1.2. الوظيفة التعليمية
193	4.1.2. الوظيفة الاقتصادية
201	الفصل الثالث: الطقوس الجنائزية بآيت باعمران
201	أ. تطهير الميت وتجهيزه
202	1. الاحتضار
205	2. التلقين
208	3. التغسيل
213	4. التكفين
220	أ. الدفن والموكب الجنائزي
221	1. نُبرِخْ

223	2. حفر القبر
226	3. موكب الجنازة.....
232	4. صلاة الجنازة
237	5. مراسيم الدفن.....
244	III. طقوس الحداد والمآتم
245	1. الحداد
251	2. سُلُوكُتْ.....
257	3. إِفْقَيْرُنْ.....
259	4. حَقَّ الله.....
271	خاتمة عامة
277	قائمة المصادر والمراجع
291	الملاحق.....
291	مغسلة الرحمة
294	معجم المصطلحات الأمازيغية.....
300	لائحة المستجوبين
301	لائحة الصور
303	دليل المقابلات.....
308	ملحق الصور

أبجدية تيفيناغ

الحرف بالخط العربي	الحرف بالخط اللاتيني	الحرف بالخط الأمازيغي
أ	a	◌
ب	b	ⵇ
گ	g	ⵅ
گ	g ^w	ⵅ ^w
د	d	ⵏ
ض	ḍ	ⵏ̣
أ	e	ⵉ
ف	f	ⵉ
ك	k	ⵏ
ك	k ^w	ⵏ ^w
هـ	h	ⵓ
ح	ḥ	ⵓ̣
ع	ε	ⵉ
خ	x	ⵅ
ق	q	ⵏ̣
إ	i	ⵉ
ج	j	ⵏ̣
ل	l	ⵏ̣
م	m	ⵏ̣
ن	n	ⵏ̣
أ	u	ⵉ
ر	r	ⵓ
ر	ṛ	ⵓ̣
غ	γ	ⵓ̣
س	s	ⵓ̣
ص	ş	ⵓ̣
ش	c	ⵓ̣
ت	t	ⵓ̣
ط	ṭ	ⵓ̣
و	w	ⵓ̣
ي	y	ⵓ̣
ز	z	ⵓ̣
ز	ẓ	ⵓ̣



قبائل آيت باعمران: مجال البحث

مدخل

يمر الإنسان في حياته بعدة مراحل أساسية بدءا بالولادة والختان، البلوغ ثم الزواج، وأخيرا الموت والانتقال إلى العالم الآخر، وترافق كل مرحلة من هذه المراحل طقوس وممارسات كثيرة ومتعددة تميز كل مرحلة عن الأخرى. يقول أرلوند فان كنيب Arnolde Van Gennep "إن حقيقة العيش هي التي تفرض هذه المراحل الإنتقالية سواء من مجتمع إلى آخر، أو من حالة اجتماعية إلى أخرى؛ بحيث تتكون حياة الفرد من عدة محطات، تُشكّل نهاياتها وبداياتها مجموعات من نفس الترتيب: الولادة، البلوغ، الزواج، التدرج الطبقي، ثم الوفاة. وتتميز كل مرحلة من هذه المراحل بمراسيم وطقوس معينة، هدفها واحد هو نقل الفرد من حالة محددة إلى حالة أخرى محددة بنفس القدر"¹.

إن للموت بقبائل آيت باعمران جنوب المغرب طقوس خاصة، مستوحاة من عمق الحضارة والهوية الأمازيغية المكتسبة جيلا عن جيل عبر تاريخها الطويل، مما أعطى لهذه الطقوس حضورا قويا داخل المجتمع الباعمراني رغم التحديات والصعوبات التي تواجهه بفعل التغيرات والتقلبات التي عرفها، من خلال تأثره بمختلف الثقافات الأخرى، سواء في كيفية تغسيل وتكفين ودفن الميت، أو طريقة إعلان الحداد، وإقامة احتفالية التأبين والمآتم.

ومن أجل البحث في موقف الأمازيغ من الموت في قبائل آيت باعمران، ودراسة طقوسه الجنائزية، ورصد التغيرات التي طرأت عليه، ارتأينا أن نجعل منه موضوع دراستنا هذه ومجالا لطرح مجموعة من التساؤلات والاستفهامات. ومما لا شك فيه أن وراء كل اختيار دافع أو دوافع، هي التي تؤدي بالإنسان إلى الخوض في تجربة ما أو موضوع معين، بناء على ذلك كان وراء اختياري لموضوع علاقة الأمازيغ بالموت من خلال الطقوس الجنائزية بقبائل آيت باعمران، مجموعة من الأسباب والدوافع، بعضها ذاتية والأخرى موضوعية.

- الدوافع الذاتية: يعتبر انتماؤنا إلى قلب المجال المدروس (قبيلة آيت الخمس) من أهم الدوافع الذاتية التي حفزتنا لاختيار هذا الموضوع، مما سيساعدنا في مهمة التواصل مع السكان وجمع ما يمكن من المعطيات والمعلومات.

¹ Van Gennep, Arnold, Les Rites de Passage, Paris, Picard, 1981, p 4.

إضافة إلى معرفتنا وتمكننا من التواصل باللغة الأمازيغية باعتبارها هي السائدة في المجال المدروس.

- الدوافع الموضوعية: كان من بين الأسباب الموضوعية وراء اختيارنا لهذا الموضوع أهميته وحداثه، والمساهمة فيه لإثراء المكتبة المغربية بصفة عامة، والمكتبة الأمازيغية بصفة خاصة، من حيث البحوث والدراسات التي تهتم بالجانب الإنساني وعلاقته بمحيطه.

وللإجابة على التساؤلات التي يطرحها موضوع هذا البحث ارتأينا تقسيمه إلى ثلاثة فصول، ومن باب المقتضى المنهجي افتتحت بحثي بفصل نظري كان الهدف منه التعرف على البدايات الأولى للطقوس المرافقة للموت، وذلك من خلال الحديث عن الموت والجناز في التصور الديني والأنثروبولوجي؛ حيث تناولت في النقطة الأولى ظاهرة الموت في الحضارات القديمة، تحديدا حضارة بلاد الرافدين، مصر القديمة، وحضارة المغرب القديم. المبحث الثاني كان تحت عنوان الموت والطقوس الجنازية في الخطاب الديني، الذي تنفرع عنه ثلاثة عناوين هي: الديانة اليهودية، الديانة المسيحية، ثم الديانة الإسلامية.

الفصل الثاني اخترت له عنوان: "الموت والفضاء الجنازي في الثقافة الأمازيغية"، حيث عملت من خلاله على دراسة تصور الأمازيغ عن موضوع الموت. هذا التصور تفرع إلى ثلاثة عناوين وهي: العنوان الأول "الموت من خلال الميثولوجيا الأمازيغية"، العنوان الثاني "الموت في الأمثال الشعبية الأمازيغية"، العنوان الثالث "الموت والطقوس السحرية". المبحث الثاني خصصته لدراسة الفضاء الجنازي بقبائل آيت باعمران من خلال جرد أنواع المقابر المتواجدة بنفوذ القبائل، وكيفية إحداثها وتنظيمها، كما قمت في المبحث الثاني بجرد الأضرحة المتواجدة بالقبائل، ودراسة وظائفها الاجتماعية والاقتصادية والاستشفائية.

أما فيما يتعلق بالفصل الثالث فقد اخترت له عنوان: "الطقوس الجنازية بقبائل آيت باعمران"، ويتكون هذا الفصل من ثلاث مباحث، المبحث الأول تحت عنوان: "تطهير الميت وتجهيزه" وينفرع عنه مشهد الاحتضار، ثم التلقين، الغسل، والتكفين. المبحث الثاني: "الدفن والموكب الجنازي"، تحدثنا فيه عن: نُبْرِيحُ (النداء)، حفر القبر، موكب الجنازة، صلاة الجنازة، وأخيرا مراسيم الدفن. المبحث الثالث كان تحت عنوان: "الحداد والمآتم"، وينفرع عنه أربعة فروع وهي: إعلان الحداد، سُلُوكُتْ (عشاء الميت)، إِفْقِيرُنْ دُ لُقْدِي (الأمداح النبوية)، ثم لُحَقْ نْ رُبِّي (العدة). ختمت أطروحتي بخاتمة عامة، تتضمن أهم النتائج والخلاصات التي توصلت إليها، مرفقة ببعض التوصيات.

مقدمة عامة

تحظى الطقوس الجنائزية بعناية بالغة الأهمية، مما جعلها مجالا خصبا أمام الباحثين والمتخصصين في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، والمقصود بها الطقوس المواكبة لدفن الميت ووضعه تحت التراب، لكن الأمر في الحقيقة أعمق من مجرد حفرة في الأرض. فالدفن ممارسة بشرية ذات تاريخ طويل تنوعت أساليبها بتنوع الثقافات والأديان. ففي البداية كان الناس يدفنون موتاهم في مدافن بدائية داخل الكهوف والبيوت، وفي زمن لاحق صاروا يدفنونهم في مقابر صغيرة بجوار المساجد أو المعابد لاعتقادهم أن طبيعة الأرض وقديسيها تلعب دورا كبيرا في تحديد مصير الميت في العالم الآخر.

وكانت القبور الأولى لدى قبائل آيت باعمران غاية في البساطة، مجرد حفرة ترابية فوقها كومة من الحجارة، لكن بمرور الزمن تطورت تلك الحفر فسويت جوانبها وبنيت فوقها القباب، وأصبح لبعضها شواهد من الرخام مكتوب عليه اسم الميت وعمره وتاريخ وفاته.

وإذا كانت مختلف الأديان والثقافات لعبت دورا كبيرا في اختلاف طريقة الدفن وطقوسه، فإنها تتفق على وجوب دفن الميت بصورة لائقة وعلى ضرورة احترام جثته، وقد يعود هذا الحرص إلى معتقدات قديمة آمنت بأن الموتى الذين لا يحظون بمراسيم دفن محترمة لن تعرف أرواحهم أبدا الطمأنينة والسلام، بل يمكن أن تتحول إلى أشباح ومخلوقات شريرة تزعج الأحياء، ولهذا تعتمد بعض الشعوب إلى التنكيل بجثث أعدائهم جواسيس أو خونة كعقاب لهم على ذلك.

ومثلما تطورت أساليب الدفن من مجرد حفرة بسيطة إلى أضرحة مهيبة، فقد تطورت وتنوعت أيضا الطقوس المرافقة للدفن. فعلى سبيل المثال هناك من يدفن الميت مباشرة بعد موته لا يؤخره إلا لظروف قاهرة، وهناك من يعمد إلى تأخير عملية الدفن إلى غاية وصول أحد أبناء الفقيد لاسيما إن كان هو الابن الوحيد له، وهناك أيضا من يترك عملية الدفن إلى ما بعد إحدى الصلوات المفروضة لكي يضمن عددا كثيرا من المصلين على الميت.

لا يقتصر تنوع الطقوس على المدة فقط، بل يمتد إلى كل ما يتعلق بالجنائز من غسل وتكفين وكذا طريقة الدفن؛ حيث يشمل التنوع وضعية الميت داخل القبر، فرغم أن الرقود هو الأكثر شيوعا، إلا أن هناك

استثناءات طبعاً، كما يشمل التنوع الشواهد التي توضع على القبر إذ تختلف باختلاف المكانة الاجتماعية والظروف وكذا الجنس، حيث يمكن التمييز بين قبر المرأة وقبر الرجل.

وقد عرفت طقوس التآبين والمآتم تحولات كبيرة، من إقامة ما يسمى بـ"مُلُوكُت" أو عشاء الميت (بمناطق أخرى) بطريقة بسيطة إلى استدعاء ممون الحفلات وتكليفه بمهمة تنظيم هذه المناسبة، من خلال نصب قاعة متنقلة ومجهزة بالطاولات والكراسي، إضافة إلى تحضير وتقديم الطعام للمدعوين إلى المآتم.

تتخذ الدراسة موضوعاً لها الطقوس الجنائزية في المجال الجغرافي لقبائل آيت باعمران الموجودة في الجنوب الغربي للمملكة المغربية، والتي تتميز بطابعها المحافظ على شكل الطقوس بصفة عامة والطقوس الجنائزية بصفة خاصة، وفيما يتعلق بالإطار الزمني للبحث فقد امتد بين سنتي 2017 و 2022.

وتقع قبائل آيت باعمران في الجنوب المغربي، وهي مطلة على المحيط الأطلسي في نهاية جنوب غرب الأطلس الصغير. تحد المنطقة بـ"أسيف نسالكماض" الذي يفصل بينها وبين قبيلة "آيت الساحل" في الشمال، ومن الشرق قبيلة الأخصاص، ومن الجنوب قبائل تكنة الصحراوية. يرى المحمدي أن موطن آيت باعمران يتسع بتوسع نفوذ القبائل الباعمرانية داخل القبائل المجاورة، ويتقلص نفوذ إحدى القبائل الباعمرانية على إثر تحول يلحق بانتظام وحداتها؛ لذا فتحدد موطن آيت باعمران استدعى تعزيز ظواهر تعيين القواد التي اكتفى أغلبها بذكر اسم الوحدة التي ينتمي إليها القائد، دون التعرض لباقي الوحدات المكونة للقبيلة/القيادة بالأوفاق العرفية التي تعدد وحدات كل قبيلة. فموطن آيت باعمران في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان يتشكل من القيادات التالية: آيت إخلف، آيت النص، آيت إعزا، آيت عبد الله، آيت الخمس، وضبوا¹.

يقع إذن موطن آيت باعمران عموماً في جنوب الأطلس الصغير الغربي، ممتداً بين خطي العرض: 9° و 50° و 10° و 30°، وبين خطي الطول: 29° و 29° و 35°، وعلى مساحة تقارب 1500 كلم². يمثل الجزء الغربي من هذا الموطن جزءاً من الساحل الأطلنטיكي يمتد على مسافة 65 كلم، ويتميز بوجود أجراف يتراوح علوها بين 40 و 50م ممتدة بشكل خطي، وبالرغم من امتداد هذه الواجهة الأطلنטיكية فإن امتداد الأجراف الصخرية ووجود ظاهرة الأنواء البحرية كانا يقللان من استفادة الباعمرانيين من المحيط².

¹ المحمدي، علي، السلطة والمجتمع في المغرب، نموذج آيت باعمران، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014، ص. 26.

² المحمدي، المرجع نفسه، ص. 27.

يحد آيت باعمران من الجهة الشرقية مناطق مرتفعة، ومن الناحية الشمالية مناطق واطئة، أما الجهة الجنوبية فتمثل بداية المناطق الصحراوية، ومن ثم فأيت باعمران تعتبر منطقة انتقال من نمط حياة يغلب عليه التنقل المستمر إلى نمط عيش يسود به الاستقرار، ولهذه الخاصية انعكاس على مستوى اللغة؛ فالعربية تهيم بالقسم الجنوبي المفتوح على الصحراء، بينما تسود تاشلحيت في بقية آيت باعمران¹.

أما إشكالية التسمية فيعتبر علي صدقي أزاكو كلمة "آيت" من الكلمات الأمازيغية المستعملة بكثرة في تحديد أسماء الناس أفراداً وجماعات، على أساس فكرة العلاقة أو الانتماء. وهي جمع مذكر، مفردا "أ" أو "ك"، وتعني الانتساب أو الانتماء إلى الشخص أو مجموعة من الأشخاص كيفما كان حجمها، أو إلى مكان معين أو شيء محدود، أو مؤسسة ما... ومؤنتها هو "ألت" في المفرد و"إسنت" في الجمع. إن كلمة "آيت" التي نصادفها كثيرا في المجالات المجتمعية كأسماء المجموعات البشرية بمختلف أحجامها لا تعطي بصفة عامة تحديدا دقيقا لطبيعة الرابطة بين طرفي العلاقة، إنها حقا تتضمن دائما معنى يدل على وجود علاقة ورابطة وانتماء... ولكن الدم المشترك ليس بالضرورة هو الصلة الوحيدة. وهكذا فكل كلمة "آيت" يمكن أن تعني:

أناس مكان ما، مثل آيت أودرار، آيت أوزاغار، وآيت واسيف، وآيت مراكش... أي الذين يسكنون الجبل والسهل والوادي ومراكش، أو أناس شيء ما، مثل: آيت وامان، آيت واكو، آيت إمرور، آيت سْمُك... أي أهل الماء، أهل الدخان... أو أناس مؤسسة ما، مثل: آيت الزاويت، آيت رُما، آيت رُبعين... أو أناس شخص ما، مثل آيت سيدي حماد أموسى، آيت سيدي أحمد بن ناصر، آيت سيدي رحال... وقد تحل هنا كلمة "تاروا" (أبناء) محل كلمة "آيت"، إذ يقال كذلك: تارُوا نْ سيدي حماد أموسى...²

ظل اسم آيت باعمران متداولاً منذ القديم كرمز لمجموعة بشرية مستقرة في رقعة ترابية في جنوب بلاد سوس. ويرى المحمدي أن دلالة الاسم تتسم بالازدواجية؛ فقد كان يستعمل للإشارة إلى رقعة ترابية واقعة جنوب غرب الأطلس الصغير باعتبارها موطن مجموعة بشرية يعرف المنتمون إليها بالباعمرانيين.³ ذكر ابن خلدون الذي أرخ لظهور عرب معقل بجنوب المغرب في بداية القرن السابع الهجري، [مدرجا له ضمن مشاريع تمحورت حول حرمة بني يدر، لعمران من جملة أسماء البطون المعقلية،] يحمل على التساؤل عما إذا كانت بداية القرن السابع الهجري تاريخ ظهور اسم باعمران؛ على اعتبار حصيلة

¹ المحمدي، المرجع السابق، ص. 27.

² أزاكو، علي صدقي، معلمة المغرب، الجزء 3، سلا، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، 1991، ص. 919 - 920.

³ المحمدي المرجع نفسه، ص. 11.

التحالف الذي تم بين عرب معقل _لدخولهم جنوب المغرب_ وبين قبائل سوس التي كانت منضوية تحت اسم كزولة أو زناكة أو لمطة، لاسيما أن نسق التحالف الذي كان متبعا عند المجموعات الرحلية المعقلية يتميز بسيادة اسم الوحدة الأكثر هيمنة داخل الحلف على باقي وحداته، وعند تفككه تطفو على سطح الأحداث أسماء وحدات -كانت مغمورة داخل الحلف المتداعي- بفعل توليها زعامة أحلاف جديدة. أما الإضافة البسيطة التي دخلت على التسمية (با) فيمكن اعتبارها من قبيل التحولات التي تعتري الأسماء، شأنها في ذلك شأن أسماء الوحدات القبلية التي كانت وما تزال تميز مواطن مجاورة لموطن آيت باعمران مثل الأخصاص وتكنة الواردة عند ابن خلدون باسم لَحْص وتُكْن¹.

تتكون اتحادية آيت باعمران حسب فانسان مونتاي Vincent Monteil من سبع قبائل وهي: آيت إخلف بها 700 كانون، اللقب: إديعبان (أصحاب العباءات) « Les Gens aux Toges », لأنهم يلبسون البرنس، بل "الحايك" البسيط أو العباءة تضم فخذتان هما: إديلا ويوسف، وإدبراهيم ويوسف. آيت النص: 500 كانون ويطلق عليهم صبويا لقب: أكناري (الصبار) أي أنه من السهل نهبهم، تضم ثلاثة فخذات وهم: آيت لولو، آيت وملان، إكرامن. آيت عبالا: 400 كانون، محاربون شداد، تضم أربعة فخذات وهي: إدحمو، إد عيسى، إموكاين، وآيت باها ومومن. آيت يعزى: 300 كانون، مشهورون بميلهم للنهب والعيث، بها فخذتان وهما: إد بلعيد، وآيت ودار. آيت الخمس: 1200 كانون، لقبهم إكوزولن، بها أربعة فخذات أصلية وهي: آيت إيسيمور، آيت اعلي، آيت يوب؛ وثلاثة فخذات أجنبية: إداو سگوم، السماهرة، آيت يعلاتن. إمستيتن: 500 كانون، اسم بربري: إمستيتن (م.إمستي)، عربي: مستي (النسب مستاوي)الأصل: انفصلو عن آيت إخلف سنة 1907، بها أربعة فخذات: إد شعيب، آيت دريس، إبيگاتن، إماغرن. صبويا: 800 كانون، اسم بربري: اصبويا (مفرد أصبيو)، عربي: صبويا _مفرد صبيو_) صبويا بعادتهم ولغتهم هم أقرب إلى تكنة منه إلى باقي آيت باعمران، هم أشباه بدو ويتكلمون لهجة عربية صحراوية قريبة من لهجة البيطان Maures [الحسانية] يعرفون أيضا "تاشلحيت"، إلا أنهم يفضلون التحدث بالعربية. تضم أربعة فخذات وهي: إد علي وعمر، إد عبالا وبرهيم، إد ياگو، وإزناگن².

¹ المعدي، المرجع نفسه، ص. 13.

² مونتاي، فانسان، تقييدات حول إفني وآيت باعمران، ترجمة: هيبتن الحيرش، مراكش، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، الطبعة الأولى، 2014، ص. 43 - 51.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في تقديرنا في مايلي:

- انعدام الدراسات التي تناولت موضوع الموت والطقوس الجنائزية عند الأمازيغ سواء بقبائل آيت باعمران أو باقي مناطق المغرب، لاسيما الجانب المتعلق بجمع وتدوين هذه الطقوس، وكذا تحليل رمزياتها والوقوف على التحولات التي طرأت عليها.
- محاولة تحقيق إضافة علمية جديدة تتضاف إلى حصيلة المعارف العلمية في ميادين العلوم الاجتماعية خصوصا ما يتعلق بالطقوس الجنائزية، وهو مصدر معرفي في مجال البحوث والدراسات العلمية والأكاديمية.
- الرغبة في إثارة اهتمام الباحثين والأنثروبولوجيين للبحث في موضوع الموت وطقوس العبور إلى العالم الآخر لدى آيت باعمران، وكذا باقي القبائل الأمازيغية للوقوف على الجوانب التي لم نتناولها في هذا البحث.

أهداف البحث

- إن الهدف الأساسي من وراء إجراء هذا البحث هو تقديم إضافات جديدة للمعرفة العلمية، وتوجيهها لخدمة المجتمع. بناء على ذلك فإن بحثنا هذا يوجه أهداف من بينها:
- جمع وتدوين ثم تفسير الطقوس المرتبطة بظاهرة العبور إلى العالم الآخر "الموت" من خلال السياق الثقافي الذي تدور في فلكه.
 - تحليل الطقوس الجنائزية بقبائل آيت باعمران باعتبارها موروثة ثقافيا لا بد من حفظه والاهتمام به.
 - دراسة التغيرات التي طرأت على هذه الطقوس وما بقي عصيا على التغير، فضلا عن معرفة أهم الوظائف التي يؤديها كل طقس من الطقوس المتبعة في حالة حدوث الموت.
 - عرض أهم النتائج المتوصل إليها من خلال البحث الميداني، وتقديم توصيات ومقترحات في شأنها.

صعوبات البحث

من المعروف أن لكل عمل كيفما كان نوعه صعوبات وتحديات تواجهه، والبحث الذي نقدمه واجهتنا فيه مجموعة من الصعوبات كان من بينها:

- صعوبات على المستوى المعرفي والمنهجي: وتتمثل في ندرة المراجع التي تناولت موضوع الموت والطقوس الجنائزية، باستثناء بعض الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع في شقه الوصفي فقط، دون الغوص في خباياه لكشف بعض دلالات ومعاني هذه الطقوس، أو اعتماد طقوس معينة دون غيرها.

- صعوبات تتعلق بالميدان: بما أن الموضوع يتطلب دراسة ميدانية فاحصة، وعقد مقابلات متنوعة مع مختلف سكان قبائل آيت باعمران فقد كان لزاما علينا الانتقال إلى المجال المدروس، وهذا كان أمرا شاقا نظرا لبعد المسافة التي تفصلني عن المجال المدروس والمقدرة بحوالي 800 كلمتر. هذا دون أن ننسى موضوع البحث الذي يعتبره أغلبية المستجوبين موضوعا مقلقا يخاف الناس من الخوض فيه؛ فمناقشة مثل هذه المواضيع يكاد ينعدم في مجتمعنا المغربي بصفة عامة. كما أن أغلبية النساء المستجوبات يرفضن مدنا بمعطيات ومعلومات حول الطقوس السحرية التي تستعمل فيها بقايا الجثث، بل ينكرن معرفتهن بهذه الطقوس وذلك مخافة اتهامهن بممارسة السحر والشعوذة.

الإشكالية

يعتبر حدث الموت الطريق المؤدية إلى العالم الآخر أي القبر والمقابر، ذلك ما جعل عددا كبيرا من الباحثين الأنثروبولوجيين يعتبرونه واقعة عبور حقيقية؛ ينتقل فيها جسد وروح الإنسان من عالم الأحياء إلى عالم الأموات. يقول فان غانپ VAN GENNEP: "أثناء الحداد يشكل الأموات والأحياء مجتمعا خاصا، يقع بين عالم الأحياء من جهة وعالم الأموات من جهة أخرى، بحيث يخرج منه الأحياء بسرعة أكبر أو أقل وذلك حسب درجة قربهم من الميت، كما أن شروط الحداد تعتمد على درجة القرابة حسب كل مجتمع"¹، ويؤثر حدث الموت بشكل مباشر في توازن المجموعة البشرية وبنيتها العددية، مما يؤدي في بعض الحالات إلى حدوث أزمات أو اضطرابات لاسيما إذا شمل الموت عددا كبيرا من

¹ ibid, p. 211.

المجموعة كما في الكوارث والحروب أو الحوادث، وأيضا إن تعلق الأمر بشخصية مهمة كالقائد داخل المجتمع أو الأب داخل الأسرة، من أجل ذلك ظهرت الطقوس المرافقة للموت وأخذت على عاتقها مهمة السيطرة على هذا الحدث العظيم، من خلال الإحاطة بالمحتضر قبل وفاته مروراً بلحظة الوفاة، وما بعدها، بمعنى أدق إدماج الميت في عالم الأموات، وإدماج حدث الموت ضمن مجتمع الأحياء.

ذلك ما عبر عليه كذلك روبيرت هورتز ROBERT HERTZ إذ يرى بأن الموت ليس فقط نهاية للوجود الجسدي للميت لأن ذلك يحدث بسرعة وبشكل فجائي، بل يعني الموت نهاية الكائن الاجتماعي؛ حيث تنتهي كل الروابط التي تربط الميت مع عائلته، ومجتمعه إلا أن هذا لا يتم في لحظة واحدة، لذلك تتخذ الطقوس الجنائزية أياها وشهوراً وتنقسم إلى عدة مراحل، لأن إنهاء الوجود الاجتماعي للإنسان لا يتم في لحظة واحدة بل يحتاج متسع من الوقت، حتى يتم فك كل العلاقات التي نسجها الإنسان أثناء حياته¹.

انطلاقاً من ذلك يتبين لنا بأن الموت البيولوجي يتم في لحظة واحدة، وهو خارج إرادة الإنسان بينما الموت الاجتماعي يتم عبر مجموعة من المراحل ويتخذ زمن أطول، وهو حدث يتشارك فيه الأحياء حسب درجة قربهم من الميت؛ حيث يعملون عبر مجموعة من الطقوس على محو الميت من مجتمعهم (مجتمع الأحياء) وإدماجه في عالمه الجديد (عالم الأموات)، وبذلك تكون وظيفة الطقوس الجنائزية هو تسير حالة الموت من أجل ضمان السير العادي للحياة.

إسهاماً منا في التنبيه إلى أهمية دراسة ظاهرة الموت في الثقافة الأمازيغية، ارتأينا أن نجعل من موضوع الطقوس الجنائزية لدى قبائل آيت باعمران ظاهرة مميزة، ومجالاً لطرح مجموعة من التساؤلات والاستفسارات، حيث قمت بدراسة وتحليل هذه الظاهرة الاجتماعية بالمنطقة المدروسة منذ القديم إلى عصرنا الحديث، وما طبعها من تغيرات واختلافات.

وتتمحور المشكلة الأساسية في بحثنا هذا حول الجنازة وطقوس عبور الميت إلى العالم الآخر بقبائل آيت باعمران ودلالاتها المتعددة، والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة ويعد السؤال المحوري الذي حاولت الإجابة عنه هو: هل تعبر الطقوس الجنائزية بالمجال المدروس عن الحزن والقلق؟ أم تعبر عن التشبث بالحياة وعدم قبول فكرة الموت؟

¹ Hertz, Robert, (1928), Sociologie religieuse et folklore, Edition électronique réalisée par Gemma Paquet, collection développée en collaboration avec la Bibliothèque Pau-Emile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi, Site Web: <http://bibliotheque.ugac.quebec.ca/index.htm> p:15.

ويتفرع عن هذا السؤال عدة أسئلة أهمها:

- ماهي وظائف الطقوس التي يمارسها الأمازيغ لحظة الموت؟
- ماهي دلالات ورمزية هذه الطقوس؟
- هل أثرت التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي عرفها المجتمع المغربي في الطقوس الجنائزية الخاصة بالمنطقة المدروسة؟

الفرضيات

تتمثل فرضيات هذه الدراسة في ما يلي:

- يمكن القول بأن أغلب الطقوس الجنائزية لدى أمازيغ آيت باعمران تعبر عن التشبث بالحياة، وعدم قبول فكرة الموت لكون هذه الطقوس هي طقوس موجهة للأحياء وليس للأموات، وذلك من خلال محاولة إنهاء الوجود الاجتماعي للميت ومحوه من الذاكرة الجماعية.
- يتجلى دور الطقوس الجنائزية بهذه المنطقة في تسيير حدث الموت، ومعالجة حالة الهلع التي تخلفها، إضافة إلى إعادة النظام للحياة الاجتماعية بعد حدوث الموت.
- تتمثل رمزية الطقوس المؤداة في الحرص على أن يحظى الموتى بطقوس دفن محترمة، لكون ذلك له علاقة بمصير الميت في العالم الآخر.
- أثرت التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الطقوس الجنائزية الخاصة بالمنطقة المدروسة، من خلال ظهور أنماط جديدة من السلوك الاجتماعي والتقاليد المرتبطة بالعبور إلى العالم الآخر.

منهجية البحث

اعتمدنا في دراستنا للطقوس والتقاليد المرتبطة بظاهرة الموت على بعض مناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تعتمد تركيباً يقوم على:

- المنهج الوصفي التحليلي، وذلك في محاولة لوصف عادات الموت المتبعة في كل مرحلة من مراحلها، وتحليل دلالتها الاجتماعية والنفسية والدور الذي تؤديه، فكما يقول يونس الوكيل: "يصبح الباحث في مرحلة البحث الميداني إثنوغرافيا في المقام الأول، فهو يجمع المعطيات عبر

فهمها واستيعابها، ثم تقديمها للقارئ، وهذا ما يقتضي بالضرورة أن الباحث يكون في وضعية إثنوغرافية تتعلق على سبيل المثال بالمكانة الاجتماعية التي يحتلها في مجتمع الدراسة (أجنبي أم محلي)، واللغة التي يتكلمها، والمدة الزمنية التي يقضيها في الميدان، والمساحة الجغرافية التي يعمل على دراستها، وطبيعة العلاقة التي تربطه بالمبحوثين¹. فضلا عن الاعتماد على أساليب وأدوات علمية كالملاحظة، حيث شاركت في مناسبات جنائزية، كما اعتمدت على روايات المخبرين، إذ كان من الصعب الإحاطة بالموضوع وجرى جميع طقوسه، خاصة تلك التي تمارس في الخفاء دون الرجوع إلى هؤلاء، من أجل ذلك كلفت امرأتان لوصف وجرى الطقوس الخاصة بالنساء، ورجلان لوصف وجرى الطقوس الخاصة بالرجال، فقد بذلت جهدي في إقناعهم بقبولي لإجراء البحث وفق ما تتطلبه أخلاقيات البحث، ذلك ما سمح لي بالإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، والسؤال بأريحية عن جميع التفاصيل الصغيرة.

- المنهج المقارن، وذلك بالاعتماد على المقارنة الزمنية للتعرف على التغيرات التي طرأت على عادات الموت وتقاليد في المنطقة المدروسة، من خلال الاعتماد على المقابلة المفتوحة لتأكيد ودعم النتائج التي خلصت إليها في المرحلة الأولى، وكذا التعرف على مدى تباث عادات الموت وتقاليد أو تغيرها في مجتمع البحث، وكانت أغلب هذه المقابلات مع المسنين وذلك لما لهم من معارف وتجارب كبيرة في الحياة. اعتمدت كذلك المقارنة المكانية؛ حيث قارنت بين عادات وتقاليد القبيلة والمدينة للوقوف على مدى الثبات والمتغير الذي طرأ على الظاهرة موضوع الدراسة.

إذن كما أشرت سابقا ونظرا لشساعة ميدان البحث، اعتمدت كإجراء منهجي على تقنيتين أساسيتين، ويتلق الأمر ب:

- **الملاحظة:** حيث كنت أحضر الجنائز داخل المنطقة المدروسة، وألاحظ كل ما يتم فيها من طقوس، بدءا بلحظة الاحتضار حيث يزور الناس المحتضر ويطلبون منه الصفح عن أخطاء الماضي، مروراً بمرحلة التغسيل والتكفين؛ حيث تمكنت من المشاركة في هذه الطقوس مستغلا القرابة التي تجمعني ببعض المتوفين. أما طقوس الدفن والصلاة على الميت فكان يحضرها عامة الناس، الشيء الذي مكّني من حضور عشرين عملية دفن بما فيهم خمسة جنائز للنساء، كما كنت ألاحظ طقوس ما بعد الدفن في حقل الدراسة، والمكونة من "سُلُوكُتْ" (عشاء الميت)،

¹ الوكيل، يونس، أنثروبولوجيا الشفاء الرقية الشرعية وصراع أنماط التدفين، الدار البيضاء، المركز الثقافي للكتاب، الطبعة الأولى، 2021، ص. 32 - 33.

و"إِقْيَرُ" (المنشدون الدينيون). عموما تتطلب مني الأمر حضور أزيد من عشرين جنازة، دون ذكر تلك التي حضرها المخبرون.

- **المقابلة:** استعملت تقنية المقابلة من أجل تفسير وتدقيق المعلومات والملاحظات التي كنت قد جمعتها مسبقا، واعتمدت من أجل ذلك على المقابلات الفردية وأيضا الجماعية، فأنجزت منها في سنة 2018 عشر مقابلات موزعة على مرحلتين؛ الأولى: خمس مقابلات في أواخر شهر يناير، كانت من أجل جرد الطقوس الجنائزية، ثم خمس مقابلات في بداية شهر أبريل مع فقهاء ومغسلي الأموات وحفاري القبور، من أجل استكمال جرد الطقوس الممارسة وطرح أسئلة حولها. كما زرت في يونيو من نفس السنة الجماعات المحلية التابعة لإقليم سيدي إفني لأخذ معطيات أولية حول المقابر المنتمية لقبائل آيت باعمران. وفي سنة 2019 عقدت عشر مقابلات موزعة على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى: يومي 22 و 23 يناير، المرحلة الثانية: يومي 27 و 28 يوليو، المرحلة الثالثة يومي 24 و 25 غشت، وكان موضوع هذه المقابلات أولا: جمع الأمثال الشعبية وكذلك الأساطير التي لها علاقة بالموت، ثانيا: عقدت مقابلات مع بعض النساء وفقهين كانت لهما دراية كبيرة بأمور السحر والشعوذة، مما مكنتني من جمع معلومات مهمة تتعلق باستعمال بقايا الأموات في الطقوس السحرية. سنة 2020 خصصتها لزيارة بعض الإدارات العمومية، فما بين 5 و 10 غشت قمت بزيارة الجماعات المحلية التي تدخل قبائل آيت باعمران ضمن نفوذها؛ كالجماعة الحضرية لسيدي إفني، وجماعة تكرفا، وجماعة إمي نفاست، وجماعة الاثنين أملو، وأيضا جماعة تيوغزة. يوم 26 أكتوبر من نفس السنة قمت بزيارة المندوبية الجهوية للأوقاف والشؤون الإسلامية بمدينة كلميم، وفي يوم 27 أكتوبر زرت المندوبية الإقليمية للأوقاف والشؤون الإسلامية بمدينة سيدي إفني، وكان الغرض من هذه الزيارات أخذ معلومات حول المقابر والزوايا المنتشرة داخل المجال المدروس، هذا إلى جانب زيارة الأضرحة وعقد مقابلات مع القائمين عليها.

عمدت إلى محاورة المستجوبين وفقا لدليل مقابلة معد مسبقا ويتكون من المحاور التالية:

- معلومات شخصية.
- أسئلة حول الاستعداد للموت.
- لحظة خروج الروح.

- تجهيز الميت.
- أثناء موكب الجنازة.
- لحظة الدفن.
- الحداد وطقوس تقديم الطعام.
- الطقوس السحرية المتعلقة بالموت.
- الأولياء وطقوس دفنهم بالمنطقة.

تحديد المفاهيم والمصطلحات

الموت

يعرف ابن منظور الموت لغة بقوله: يقول الأزهري عن الليث: الموتُ خَلْقٌ من خلقِ الله تعالى. غيره: الموتُ والموتانُ ضدُّ الحياة. والمُواتُ، بالضَّمِّ: الموتُ. ورجلٌ مَيِّتٌ ومَيِّتٌ؛ وقيل: المَيِّتُ الذي مات، والمَيِّتُ والمائتُ: الذي لم يَمُتْ بعدُ. وحكى الجوهريُّ هن الفرَّاء: يُقالُ لمنْ لَمْ يَمُتْ إِنَّهُ مائتٌ عن قليل، ومَيِّتٌ، وَلَا يَقُولُونَ لِمَنْ مَاتَ: هذا مائتٌ. قيلَ: وهذا خَطَأٌ، وإِنَّمَا مَيِّتٌ يَصْلُحُ لما قد مات، ولما سَيَمُوتُ؛ قالَ اللهُ تعالى: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ".¹

والتعريف الطبي للموت هو حدوث مجموعة من العلامات الدالة على الوفاة، كتوقف التنفس وضربات القلب، وتغيرات في العين، وعدم الاستجابة للمنبهات الكهربائية، والتيبس الرُّمِّي Rigor Mortis، والاصفرار Pallor، وارتشاح في الأجزاء السفلية Hypostasis، وارتخاء المحابس العضلية Sphincters، كما أن الصعوبات التي كانت موجودة في الأيام الماضية في الإعلان عن الموت لا تزال قائمة، وإن كانت اليوم أيسر في الغالب بواسطة ازدياد المعرفة والتحسين في التقنيات.²

من المنظور الفلسفي نجد بأن سقراط على سبيل المثال لم يكن يخاف الموت بل واجهها بشجاعة حينما صدر عليه الحكم بالموت، يقول في محاوره أقریطون: "إن الإنسان إذا ما وصل إلى مثل سني فإن عليه ألا يجزع من اقتراب الموت"³، وكان موقف سقراط واضحاً بأن الإنسان مخلوق متناه وعابر، لكن عظمته تتمثل في تقبله لوضعه الإنساني بحس بالمسؤولية وبقوة عارمة للشخصية في مواجهة الموت،

¹ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد الثاني، بيروت، دار صادر، الطبعة السادسة، 1997، ص. 90 - 91.
² توينبي، أرنولد، وآخرون، الإنسان وهموم الموت، ترجمة: عزت شعلان، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2011، ص. 37.
³ شورون، جاك، الموت في الفكر الغربي، ترجمة: كامل يوسف حسين، في سلسلة عالم المعرفة، العدد 76، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984، ص. 50.

فبعد أن أصدر القضاة حكمهم عليه بالموت، أشار موضحاً لهم أنه كان بوسعه تجنب الموت باستخدام فطنته، لكنه اختار ألا يفعل ذلك: "لكنني أشير إليها السادة إلى أن الصعوبة ليست جمة في الهرب من الموت، لكن الصعوبة الحقيقية هي في تجنب ارتكاب الخطأ"¹.

من جانبه يعتبر أفلاطون الموت انعتاق النفس من الجسم؛ حيث ينظر إلى النفس على أنها ذات أصل سماوي وأنها تقطن الجسم كما لو كانت سجيناً، وبوسعها الهرب عند الموت واستعادة ألوهيتها، ويقدم أفلاطون في محاوره "فيدون" مجموعة من الحجج تأكيداً لخلود النفس، جاء فيها:

- أن النفس توجد قبل الميلاد، وهذا الوجود السابق للنفس يقوم على أساس الاعتقاد بأن المعرفة هي التذكر (المعرفة الحقيقية المقصودة هنا ليست تجريبية وإنما هي قبلية (Apriori) غير أن ذلك يؤدي فحسب إلى الاعتراف بوجود النفس قبل الميلاد، فهل توجد بعد الموت؟
- هناك "صور" أو "مثل" خالدة وثابتة وحيث إن النفس كفيلة بإدراكها فإنه من المتعين أن تكون هي ذاتها خالدة وإلهية (فلا شيء فان يعرف ما هو خالد).
- النفس تتحكم في الجسد وتسيطر عليه، ومن هنا فهي تشبه الآلهة الخالدة.
- النفس بسيطة، فهي ليست مركبة وبالتالي لا يمكن أن تتحل (فما هو بسيط لا يمكن أن يتغير، أو يبدأ أو ينتهي، إن جوهر الأشياء بسيط، لا يتجزأ، لا ينقسم، إنه خالد).
- النفس التي جوهرها الحياة وبالتالي فهي نقيض الموت ذاته، لا يمكن النظر إليها باعتبارها محتضرة أكثر من النظر إلى النار باعتبارها تتحول إلى البرودة².

وجاء في موسوعة علم الإنسان أن لدى كل جماعة إنسانية تنظيم اجتماعي لخبرة الموت، مثلما الأمر بالنسبة للميلاد ومختلف أزمات الحياة: وذلك باعتباره أزمة شخصية وأسرية من ناحية، وباعتباره أزمة للبناء الاجتماعي واستبدال الدور من ناحية أخرى. وتتم مواجهة الأزمة العاجلة من خلال الشعائر الجنائزية والممارسات الخاصة بكل مجتمع... وقد ينظر إلى الموت نفسه في بعض المجتمعات باعتباره من شعائر الانتقال (المرور)، بمقتضاه يصبح الميت سلفاً، يظل محتفظاً بشخصية اجتماعية، بينما تعمل مجتمعات أخرى على إزالة الموتى تماماً من مجال الحياة الاجتماعية للأحياء. وتعتقد كثير من المجتمعات أن الموتى يستمرون في التأثير في عالم الأحياء أو يظهرون لهم كأنما توجد فترة انتقال لا ينفصلون خلالها عن الأحياء انفصالاً تاماً، وتمثل المعتقدات المرتبطة بالموتى عموماً خليطاً من

¹ شورون، المرجع السابق، ص. 48.

² المرجع نفسه، ص. 54.

التصورات المناقضة لعالم الأحياء وكذلك إسقاطات عليه: فمن ناحية، يتم على سبيل المثال فصل الموتى عن الأحياء من خلال بعض السمات التي تتناقض سمات الأحياء، ولكنهم من ناحية أخرى يشاركون أو يعكسون بعض ملامح التنظيم الاجتماعي والثقافي لعالم الأحياء.¹

طقس/ طقوس

يعرف الجوهري الطُقُس في صحاحه على أنه حالة الجو من ضغط وحرارة ورطوبة ورياح وتساقط، ودرجة سطوع الشمس في يوم أو أيام قليلة²، وفي "المعجم الوسيط" جاء بمعنى النظام أو الترتيب³، الشيء نفسه أشار إليه الفيروز أبادي في معجمه "القاموس المحيط"⁴. وأشار البستاني إلى أن الطقس عند النصارى يطلق على شعائر الديانة واحتفالاتها، وهو معرب لكلمة "تكسيس" باليونانية، ومعناها نظام وترتيب، والجمع طقوس، والطقيساء، والطقيسة مكان صغير خارد دار الحريم، يستقبل فيه الأضياف⁵. يتبين من خلال هذه التعاريف بأن مصطلح "طقس" في القديم لم يكن يحمل نفس الدلالة التي يحملها اليوم، يقول الحسن حما: "إن المعاجم العربية لم تقدم تعريفاً لكلمة (طقس)، فلم يتعرض لها ابن منظور في لسان العرب ولم يعرفها ابن فارس في مقاييس اللغة ولا الزبيدي في تاج العروس، وتكفي هذه النماذج للدلالة على أن لفظ (طقس) لم يكن يحمل في الثقافة العربية القديمة ما يحمله اليوم من دلالات دينية خاصة"⁶.

وتقابل كلمة طقس في اللغتين الفرنسية والانجليزية عبارة «Rite» وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية «Ritus» وتعني عادات مجتمع معين وتقاليده كما تدل على كل الإحتفالات المرتبطة بمعتقدات متصلة بالماورائي أكثر من دلالاتها على مجرد عادات اجتماعية، وهي أنماط من العمل المتكرر في نوع من الثبات⁷. تشير لفظة "طقس" من خلال ما سبق إلى الكيفية التي يتم بها أداء الأنشطة المقدسة وتنظيمها في إطار احتفالي، يقول منصف المحواشي: "يعني الطقس مجموعة من القواعد التي تنتظم بها ممارسات

¹ شارلوت، سيمور سميث، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، مراجعة وإشراف: محمد الجوهري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، 2009، ص. 505.

² الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، تحقيق نديم مرعشلي، بيروت، دار النفاش، الطبعة الأولى، د.س، ص. 675، مادة طقس.

³ أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، د.س، ص. 587.

⁴ الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الجزء الثالث، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، لبنان، د.س، ص. 256.

⁵ البستاني، بطرس المعلم، قاموس محيط المحيط، لبنان، مطبعة نيويورك، الطبعة الثانية، 1987، ص. 258.

⁶ حما، الحسن، طقوس القران في الأديان الوضعية والسمائية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2014، ص. 36. نقلا عن عبد الرحيم

بوهاها، طقوس العبور في الإسلام دراسة في المصادر الفقهية، ص. 21.

⁷ Jean Cazeneuve, Sociologie du rite, p.13، نقلا عن طقس القران في الأديان الوضعية والسمائية، المرجع نفسه، ص. 36.

الجماعة إما أداء شعائرها التي تعدّها مقدسة أو من خلال تنظيم أنشطتها الاجتماعية والرمزية وضبطها وفق "شعائر" منتظمة في الزمان والمكان"¹.

تعرف موسوعة علم الإنسان الطقس Rite/Rituel على أنه حفل مراسمي، فهو أداء أسلوبية يتخذ شكلا محددا، وغالبا ما يكون عاما، ويتضمن دائما أكثر من مشارك أو مراقب، وهو ما يميز تراثا ثقافيا معيناً. ولذلك فإن دراسة الحفل المراسمي هي دراسة لأشكال الأداء الأسلوبية هذه وسياقها الثقافي والاجتماعي والطقسي. أما دراسة الطقس ذاتها فهي أكثر اتساعا من دراسة الحفل المراسمي الذي قد يصاحبه، وهي تتضمن دراسة الجوانب الرمزية والدينية - السحرية للطقس. وهناك الكثير من الحفلات المراسمية التي لا تتضمن عنصرا طقسيا، بمعنى أنه ليست لها سوى أهمية دينية طفيفة وليس لها أية دلالات رمزية (كمنح درجة أكاديمية أو دبلوم في مجتمعنا الحديث)، حيث تعد حفلا مراسميا دون شك، ولكن لا جدوى من دراسته كطقس. وبنفس الطريقة هناك الكثير من الطقوس التي لا تشمل على حفلات مراسمية، بمعنى أنها تكون غير رسمية، أو خاصة، أو "ليس لها طابع مراسمي"، ولكنها تصنف على أنها طقوس بسبب أهميتها الرمزية².

يرى مرسيا إلياد Mercia Eliade أن لكل طقس مثال إلهي أو نموذج أصلي Archétype، يقول: "يجب علينا أن نفعل ما فعله الآلهة في البدء" (ساتاباتا براهمانا)، "كما فعل الآلهة، كذلك يفعل الناس" (تتريا براهمانا). توجز لنا هذه الحكمة الهندية مجمل النظرية المستترة في طقوس جميع البلدان.. وإننا لنجد هذه النظرية عند الأقوام التي نسميها "بدائية" كما نجدها في الثقافات المتطورة. الأهالي الأصليون في جنوب شرقي استراليا، مثلا، يمارسون طقس الختان بسكين حجري لأن أسلافهم المييطيقيين هكذا علموهم؛ زواج الأمازولو يفعلون نفس الشيء لأن "الأنكولنكولو" (البطل الممدّن) استنّ ذلك في العصر الذهبي: "على الرجال أن يختنوا لئلا يشبهوا الصبيان"³.

من جهته يعتبر فراس السواح بأن الطقس ليس فقط نظاما من الإيماءات التي تترجم إلى الخارج ما نشعر به من إيمان داخلي، بل هو أيضا مجموعة الأسباب والوسائل التي تعيد خلق الإيمان بشكل دوري. ذلك أن الطقس والمعتقد يتبادلان الإعتماد على بعضهما بعضا، فرغم أن الطقس يأتي كنتاج

¹ المحواشي، منصف، الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، في مجلة إنسانيات، العدد 49، 2010، ص. 3.

² شارلوت، سيمور سميث، المرجع السابق، ص. 273 - 274.

³ إلياد، مرسيا، أسطورة العود الأبدي، ترجمة عن الفرنسية: نهاد خياطة، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1987، ص. 46.

لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه، بما له من طابع جمعي يعمل على تغيير الحالة الذهنية والنفسية للأفراد، وهذا الطابع هو الذي يجدد حماس الأفراد ويعطيهم الإحساس بوحدة إيمانهم ومعتقدهم. فالطقس، رغم قيامه على مجموعة من الإجراءات المرتبة والمنسقة مسبقاً، والتي تم القيام بها مراراً وتكراراً، إلا أنه يبدو جديداً كلما أكدت الجماعة على الأداء المشترك له. لهذه الأسباب يظهر الطقس للمراقب باعتباره أكثر عناصر الظاهرة الدينية بروزاً، ويقدم نفسه كأول معيار نفرق بواسطته الظاهرة الدينية عن غيرها من الظواهر¹.

طقوس العبور

احتلت دراسة الشعائر الجنائزية دائماً أهمية كبرى في الأنثروبولوجيا، بل إن بعض علماء الآثار اعتبروا شواهد الشعائر الجنائزية هي أقدم دليل على وجود الثقافات الإنسانية. وهكذا نجد نظريات الشعائر الجنائزية، خاصة تلك المرتبطة بأفكار الخصوبة وخلود الروح تنصدر أعمال بعض علماء الأنثروبولوجيا الأوائل مثل باخوفن وتايلور وفريزر وهوكارت. ولعل المحاولة الأولى لربط نمط الشعائر الجنائزية بنمط التنظيم الاجتماعي ترجع إلى مؤلف عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي هيرتز الذي نشره في مجلد واحد مع دراسة باللغة الإنجليزية تحت عنوان "الموت واليد اليمنى" (1960) Death and the Right Hand. وقد أبدى هيرتز اهتماماً خاصاً بالموضوع الذي ركز عليه فيما بعد بعض الكتاب الآخرين مثل فان كانب Van Gennep (1909) وراي كليف براون (1952): حول كيفية تعايش المجتمع مع المشكلة التي تسببها وفاة أحد أعضائه...ومما لفت نظر هيرتز ما لاحظته من تقسيم للجنائز إلى قسمين يفصل بينهما في بعض الأحيان عدد من السنوات، الأمر الذي يتيح للأفراد فرصة الحداد على مشكلة فقد عضو من المجتمع، ثم العمل فيما بعد على استعادة النظام لهذا المجتمع، حيث يتم في الغالب اعتبار الميت واحداً من الأسلاف الخالدين. وبذلك استطاع أن يوضح أوجه الشبه المذهلة بين الشعائر الجنائزية وشعائر التكريس².

وهناك كلمة لا بد أن يقال عن الحزن على الوفاة والذي يظهر في البكاء. مع أن هذا الحزن كثيراً ما يكون صادقا، إلا أننا نلاحظ دائماً أنه يتم بشكل منسق ومنظم، ومن الشائع أن تضطلع نساء المجتمع

¹ السواح، فراس، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دمشق، منشورات دار علاء الدين، الطبعة الرابعة، 2002، ص. 55.

² شارلوت، المرجع السابق، ص. 349 - 350.

المحلي بمهمة إظهار الحزن على الموتى، ولهذه المظاهر أهمية بالغة، لأن الحداد كثيرا ما يعكس الإحساس بالذنب بشكل مباشر أو غير مباشر¹.

من جانبه يعتقد إلياد أن لشعائر الانتقال Rites du Passage دورا كبيرا في حياة الإنسان المتدين، يقول: "ثمة طقس الانتقال إلى الولادة، وإلى الزواج، وإلى الموت، وفي مكننتنا إن الأمر في جميع هذه الأحوال هو أمر اطلاع، لأن تغيرا جذريا في النظام الأنتولوجي وفي الوضع الاجتماعي يطرأ في كل مكان. الطفل عندما يولد لا يملك سوى وجود فيزيائي: الأسرة لما تعترف به، والمجتمع لم يلقه. وإنما الشعائر التي نشاهدها بعد الولادة فوراً هي التي تضيف على الطفل الوليد وضع الكائن "الحي" بالمعنى الصحيح وبهذه الشعائر وحدها يستطيع الاندماج في مجتمع الأحياء.

والزواج، كذلك، فرصة للانتقال من جماعة اجتماعية - دينية إلى أخرى. الشاب المتزوج يترك جماعة العزاب ليشارك بعدئذ في جماعة أرباب الأسر. كل زواج يتضمن اشتداداً وخطراً، يطلق أزمة. ولذا، فإنه يجري في شعائر انتقال.

أما في موضوع الموت، فإن الشعائر أعظم تعقداً ولا سيما وأن الموت ليس مجرد "ظاهرة طبيعية" (الحياة، أو الروح التي تغادر الجسد)، بل إنه يتناول تغير نظام هو بآن واحد أنتولوجي واجتماعي: على الميت أن يجابه بعض المحن التي يتعلق بها مصيره بعد الموت؛ بيد أن من الضروري كذلك أن تعترف به جماعة الأموات وتقبله لديها. والدفن الشعائري وحده هو الذي يؤيد الموت لدى بعض الشعوب: إن من لا يدفن بحسب العرف ليس ميتاً. وفي مكان آخر، لا يعتبر موت امرئ موتاً قيمياً إلا بعد إنجاز الاحتفالات الجنائزية، أو عندما تذهب روح المتوفى شعائرياً إلى مسكن جديد، في الدار الآخرة، وتقبله هناك جماعة الأموات².

¹ شارلوت، سيمور سميث، المرجع السابق، ص. 350.

² إلياد، مرسيا، المقدس والعادي، ترجمة: عادل العوا، القاهرة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص. 211 - 212.

الفصل الأول

الموت والطقوس الجنائزية في

الخطاب الديني

والأنثروبولوجي

الفصل الأول: الموت في الخطاب الديني والأنثروبولوجي

1. الموت في الحضارات القديمة

منذ القدم، واجهت الإنسان إشكالية الموت، حين لاحظ ظاهرة التوقف عن الحياة (جلجامش وأنكيدو). ولهذا، لم توجد حضارة ولا شعب من الشعوب لم يفكروا في الموت وما بعده، وإن اختلفت كل حضارة عن الأخرى في هذا التفكير وتفاصيله، وانبرت كل واحدة تقدم تصورا له مختلفا عن الأخرى. لقد بقي الموت بالنسبة للإنسان القديم عالما غامضا، مجهولا، وغريبا، أثار عنده تساؤلات عديدة، خاصة مع تطور قدرات التفكير لديه. لهذا استمر الموت يشكل قاسما مشتركا بين الحضارات القديمة، بل حتى بين المجتمعات الحديثة؛ لقد ظل ظاهرة تلازم العقل الإنساني في كل نشاطاته، وشعورا وجدانيا يرافق الإنسان طيلة حياته فهو بمثابة حلقة من سلسلة الوجود الإنساني كونه عامل الوصول بين الحياة الأولى والحياة بعد الموت¹.

بناء على ذلك سنعمد إلى دراسة الطقوس الجنائزية لدى شعوب الحضارات القديمة، ونظرتها إلى الموت وما بعده لما لها من ارتباط بعملية التأثير والتأثير على الطقوس الجنائزية لدى الأمازيغ. وسأركز على ثلاث حضارات قديمة وهي: حضارة بلاد وادي الرافدين، حضارة مصر القديمة، وحضارة المغرب القديم (شمال إفريقيا). ولهذا الاختيار مبررات كثيرة منها:

أولاً: هذه الحضارات من أكبر الحضارات في العالم القديم، حيث اكتشفت لها آثار وكتابات قديمة، زيادة على كونها أكثر الحضارات تأثيرا في الحضارات الأخرى في مختلف المجالات، خاصة المجال الاقتصادي والسياسي والديني.

ثانياً: انتشارها الواسع في العالم القديم، نظرا لتمرکزها في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ثالثاً: قدم هذه الحضارات، فحضارة بلاد الرافدين تعود إلى حوالي 3500 سنة قبل الميلاد، والحضارة المصرية تعود إلى حوالي 3200 سنة قبل الميلاد، بينما حضارة المغرب القديم (الفترة الفينيقية) تعود إلى حوالي 1200 سنة قبل الميلاد.

¹ روضان، حمديّة كاظم، جدلية الموت والحياة في فنون الحضارات القديمة، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، العدد 18، 2016، ص.455.

رابعاً: تعتبر هذه الحضارات من أكثر الحضارات في العالم التي دونت طقوسها وتقاليدها، حيث نجد الكتابة المسمارية عند سكان بلاد وادي الرافدين، والكتابة الهيروغليفية عند المصريين القدماء، بالإضافة إلى النقوش الصخرية التي تم اكتشافها في شمال إفريقيا. فما هي إذن نظرة هذه الشعوب إلى الموت وما بعده؟ كيف كانت تمارس طقوسها الجنائزية؟ وكيف كانت مقابرها وما يحيط بها من نظام؟

1. الموت في بلاد الرافدين

تقع بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين أو العراق حالياً في الجزء الجنوبي الغربي من القارة الآسيوية، وترتبط بصورة غير مباشرة القارات الثلاث: آسيا، إفريقيا، وأوروبا. لهذا الموضع أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة، لاسيما في العصور القديمة، واستمر كذلك إلى العصور الحديثة تقريبا، حيث كانت ملتقى طرق القوافل التجارية بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الأقصى والهند بالطرق البرية ثم عن طريق الخليج العربي إلى القارة الهندية. وكان لهذا الموقع الجغرافي أثر مهم في تاريخ هذه المنطقة سواء من ناحية الطقس والمناخ، مما يؤثر على الزراعة والحياة الاقتصادية، أو من ناحية اتصال سكانه بالأقوام المجاورة¹.

أيقن سكان بلاد وادي الرافدين القديمة باستحالة الخلود، وآمنوا بالموت كحقيقة مصيرية لكل البشر، لذلك اهتموا بمسألة الموت والعالم الآخر؛ ويتجلى هذا الانشغال بشكل كبير في نتاجهم الفكري والأدبي كملحمة كلكامش² وألواح سومر³ التي من خلالها عبر الإنسان العراقي القديم عن نظريته للموت والعالم الآخر. لقد خلفت هذه النصوص تراثا عقائديا مفصلا عن الموت والروح وفكرة خلود الآلهة، بالإضافة إلى وصف العالم السفلي، ومصير الموتى بعد الموت.

وكان الاعتقاد السائد لدى سكان وادي الرافدين بأن الموت أمر حتمي ومن نصيب الإنسان، غير أنه لا يعني النهاية المطلقة، بل إن الموت في تصورهم انقسام الكائن الحي وانفصال الروح عن الجسد، وانتقال الروح إلى طور جديد من الوجود بعد وضع الجسد في القبر وذهاب الروح إلى عالم آخر⁴.

¹ باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء 1، بيروت، دار الوراق للنشر المحدودة، الطبعة 1، 2009، ص. 33.
² هي أقدم نوع من أدب الملاحم البطولي في تاريخ جميع الحضارات، حيث دونت قبل 4000 سنة قبل الميلاد. (أنظر طه باقر، ملحمة كلكامش أوديسة العراق).

³ هي ألواح قديمة مكتوبة باللغة السومرية، مختصة بأدبيات قوم سومر، وهم الذين يعتبرون أول من سكن بلاد الرافدين من الأقوام الماضية. (أنظر صمويل كريم، من ألواح سومر).

⁴ لفظة حسين، إيمان، الطقوس الجنائزية في بلاد وادي الرافدين، في مجلة القادسية، المجلد 8، العدد 4، 2009، ص. 216.

1.1. حتمية الموت

تعتبر فكرة الحياة الأخرى بعد الموت عبورا إلى مرحلة أخرى من الوجود، وبالتالي استمرارا للحياة الدنيوية بشكل ما، وبهذا فهي لا تمثل فكرة الحياة الأخرى نكرانا تاما لحقيقة الموت، ولا يكون المقصود منها أكثر من تلطيف تلك الحقيقة والتخفيف من أثرها على الإنسان لمنحه قدرا من الطمأنينة لمواجهة الموت. بينما المغزى الأساسي لفكرة الخلود هو نكران الموت كحقيقة باعتبارها أبعد من أن يؤثر في كيان الفرد. والحقيقة فإن الفكرتين لا تلتقيان إلا في كونهما جزءا من محاولة الإنسان الواعية والغريزية لرفض التسليم بحكم الفناء المطلق عليه¹.

تعرض بعض الأساطير السومرية حدث موت الآلهة، كالأسطورة المعروفة باسم (أنليل وننليل) التي تذكر ولادة إله القمر سين ابن الإله (أنليل)، الذي أرغم على النزول إلى العالم الأسفل مطرودا من قبل مجمع الآلهة، بالرغم من أنه كان رئيس ذلك المجمع وذلك بسبب اغتصابه للإلهة (ننليل)؛ إذ غضبت الآلهة لهذا الفعل الشنيع وقررت نفيه إلى العالم الأسفل لفترة محدودة، وقد لحقت به الإلهة (ننليل) إلى هناك وهي حامل بابنهما إله القمر (سين) (ننا) الذي ولد في العالم الأسفل مع ثلاثة إخوة له هم من آلهة العالم الأسفل².

وأمام الاستحالة في الحصول على الخلود لم يكن أمام العراقيين القدماء سوى التسليم بحتمية الموت، فصار من المعتاد أن يخلد أي فرد منهم بعد دخوله سن الشيخوخة إلى السكينة بين عائلته ويبدأ في تحديد ما سيورثه لابنه الأكبر، ويقسم أملاكه على أفراد أسرته وأقربائه، ثم يمكث بانتظار الموت بسكينة وهدوء.

ويعتقد العراقيون القدماء بأنه في لحظة الموت ينفصل ظل أو طيف عن جسد المتوفى على شكل طير مخيف سمي الروح، أشير إلي ذلك في ملحمة "كلكامش" ضمن حديث (انكيديو) إليه حين قص عليه رؤياه عن الموت أثناء مرضه، ومما قص عليه:

كانت السماء ترعد فاستجابت لها الأرض؛

وكننت واقفا وحدي فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه؛

¹ حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص. 43.

² المرجع نفسه، ص. 73.

كان وجهه مثل وجه طير الصاعقة (زو) ومخالبه كأظفار النسر؛
لقد عراني من لباسي وامسك بي بمخالبه وأخذ بخناقني حتى خملت أنفاسي؛
لقد بدل هيئتي فصارت يداي مثل جناحي طائر مكسوتين بالريش؛
نظر إلي وقادني إلى دار الظلمة إلى مسكن (أركالا)؛
إلى الدار التي لا يرجع منها من دخلها؛
إلى الطريق الذي لا رجعة لساكنه؛
إلى الدار التي حرم ساكنوها من النور؛
حيث التراب طعامهم والطين قوتهم؛
وهم مكسوون كالطير بأكسية من أجنحة الريش؛
ويعيشون في ظلام لا يرون نورا¹.

وأثناء ايداع الجسم في القبر تذهب الروح إلى العالم الآخر، عالم الأرواح أو عالم ما بعد الموت، إلا أن الأرواح التي لم تدفن أجسادها، أو التي لم تحظ بالشعائر الجنائزية تكون قلقة غير مستقرة في ذلك العالم وتعود بطريقة ما إلى عالم الأحياء لإحداث الأذى بسكانه، حيث تصبح شبعا أو روحا خبيثا. أما أرواح الذين تلقوا دفنا لائقا فإنها تستقر في العالم الأسفل (عالم الأرواح) معتمدة على ما يقدمه لها الأحياء من طعام وشراب ضمن الشعائر الجنائزية. لهذا فإن عدم دفن ميت، أو دفنه دون شعائر جنائزية، بل وحتى إهمال دفنه يقود حسب الاعتقاد القديم إلى عدم استقرار روحه فتتهم حول مكانه على الأرض وتخرج بهيئة شبح مخيف يفرع الأحياء ويلحق الضرر والأذى². هذا إلى جانب أن سكينه الروح واستقرارها في العالم الأسفل هو رهين ببقاء الجسد مستقرا في موضعه وعدم تحريك عظامه من مكانها أو ازاحة التراب عنها، ولذلك فإن الملك الأشوري (أشور بانيبال) نبش أضرحة الملوك العيلامين الموتى، وأخرج بقايا عظامهم ونقلها معه إلى آشور من أجل الانتقام منهم. كما جاء في أحد نصوصه: "...لقد نبشت قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة آشور وعشتار الهتي الحامية والذين أقلقوا أسلافي من الملوك، لقد نبشتها وعرضت هياكلهم للشمس وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور، إنني فرضت الإزعاج على أرواحهم وقطعت عنهم قرابين الطعام وسكب الماء"³. هكذا إذن يلجأ الملوك إلى نبش قبور أعدائهم انتقاما منهم وإمعانا في تعذيبهم وجعل أرواحهم غير مستقرة.

¹ باقر، طه، ملحمة كلكامش اوديسة العراق الخالدة، دار الوراق للنشر، 2006، ص. 70.

² لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 216.

³ حنون، المرجع السابق، ص. 116.

2.1. الأثاث الجنائزي

اهتم العراقيون القدماء منذ أقدم العصور بتزويد موتاهم بكل ما يلزمهم من أثاث جنائزي، والذي يشمل في بداية الأمر أواني تحتوي الطعام والشراب، ثم تطور ذلك لدى طبقة الملوك ليصل إلى دفن العربات المجرورة بالأحصنة وكذا العبيد في قبورهم. بل إن حالة الموتى في العالم الأسفل من حيث راحتهم وطعامهم وشرابهم تختلف من شخص لآخر نتيجة لأمرين، أولهما: مكانة الميت بين الناس حين كان حياً، وثانيهما: الشعائر الجنائزية التي يقيمها الأحياء من أجل روحه. وبناء على ذلك كان الملوك والحكام يتمتعون بامتيازات خاصة ويحتلون مراكز مهمة في العالم الأسفل بعد موتهم، مثل (كلكامش) الذي أصبح مرشداً فيه بعد موته وكانت تقدم له الهدايا والقربان من قبل الموتى بعد نزولهم إلى العالم الأسفل، كذلك (أور - نمو)¹ الذي خصص له موضع معين في العالم الأسفل استقر فيه بعد موته².

في رحلتها إلى العالم الآخر تعبر روح المتوفى، بعد أن تنزل في القبر، نهر العالم الأسفل المسمى بالبابلية (خبر) بمساعدة ملاح العالم الأسفل المعروف باسم (خمت - نبال) الذي يعني حرفياً: خذ على عجل أو احمل بسرعة، وتصل الروح بعد اجتيازها (خبر) إلى البوابة الأولى الخارجية للعالم الأسفل، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في إحدى النصوص الأشورية التي تقول: "دعهم يعبرون نهر العالم الأسفل ولا يعودون، دعهم يدخلون عبر البوابة الخارجية للعالم الأسفل ولا يرون أكثر من ذلك"³.

ويعتقد أن جزءاً من رحلة الأرواح من القبر إلى العالم السفلي، سواء قبل الوصول إلى نهر (خبر) أم بعد عبوره كان يتم عبر طريق البر وتستخدم فيه العربات التي تجرها الحيوانات، وهذا ما يشير إليه وضع العربات مع حيواناتها وسياسها في القبور الملكية في (أور)، وكذلك الحال في مقبرة (كيش)⁴.

كان من بين اهتمامات العراقيين القدماء حصول أرواح موتاهم على الطعام والشراب، وذلك ضمن الشعائر الجنائزية التي تقام بعد الوفاة؛ إذ إن إشباع جوع الأرواح في العالم الأسفل وإرواء ظمئها هو أحد الأهداف المهمة وراء القيام بالشعائر الجنائزية التي تقدم فيها قربان الطعام وتسكب السوائل؛ حيث كانت

¹ هو أحد الملوك السوماريين، ومؤسس سلالة أور الثالثة.

² حنون، المرجع السابق، ص. 121.

³ حنون، المرجع نفسه، ص. 113-114.

⁴ المرجع نفسه، ص. 114.

أرواح الموتى وفق العقائد العراقية القديمة بحاجة إلى سد احتياجاتها من الطعام والشراب كما هو الحال بالنسبة للآلهة الذين تقدم لهم الوجبات المنتظمة على هيئة قرابين أمام تماثيلهم¹.

وتقام الطقوس الجنائزية من جهة أخرى لإرضاء الآلهة؛ حيث كانت تلك الشعائر تتضمن تقديم الهدايا والقرابين إليها، وهذا ما يضمن حسن معاملتها لروح الميت؛ حيث يأخذ الهدايا معه إلى العالم الأسفل ليقدمها إلى الآلهة الموجودة هناك، كما فعل "كلكامش" بعد نزوله إلى العالم السفلي عندما اصطحب معه الهدايا كالأسلحة والدروع والحلي، وقدمها إلى آلهة العالم السفلي وبعض الموتى المهمين من الكهنة الكبار، وأيضاً الملك السومري (أور - نمو) بعد موته ونزوله إلى العالم السفلي، حيث قدم الهدايا إلى عدد من آلهة ذلك العالم، كما أنه ذبح الثيران والأغنام للموتى الكبار، وقدم لهم الأسلحة والحقائب والملابس والحلي، حيث دفنت كل تلك الحاجيات في قبره².

وكان انقطاع القرابين والسوائل عن الأرواح حسب الاعتقاد القديم يؤدي إلى جعلهم أمام أمرين، إما أن تبقى معتمدة على الطين والماء العكر غارقة في بؤس العالم الأسفل، أو أنها تخرج إلى عالم الأحياء، غاضبة منزعة تأكل من فضلات الشوارع وتتربص بالأحياء لتشعرهم بوجوب ذكرها وإيفائها حقها، وذلك بالحاق الأذى بهم أو الانتقام منهم لتسببهم في حرمانها الراحة في العالم الأسفل. وقد وردت العديد من الإشارات في التعاويذ إلى هذه الأرواح التي تهاجم البشر بهيئة أشباح، فنجد إحداها تقول مخاطبة الشبح:

"سواء كنت شبح شخص غير مدفون، أم كنت شبح الذي لم يلق عناية لائقة، أم شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية، أو الذي لم يسكب له الماء، أو كنت الشبح الذي لم يذكر اسمه"³.

وتشير كذلك إحدى التعاويذ الآشورية إلى عودة أرواح الموتى إلى عالم الأحياء للحصول على الطعام والشراب، إذ تقول: "إن الأشباح الشريرة، تخرج من القبور من أجل الحصول على الطعام والماء"⁴.

هكذا إذن كان العراقيون القدماء يسكبون الزيوت والعمود على الموتى أثناء دفنهم، وكذلك إقامة ولائم خاصة بآلهة الموت، تقام في أوقات معينة لنيل بركتها ورضاها عن الأحياء وتجنب غضبها.

¹ حنون، المرجع، نفسه ص. 123.

² لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 218.

³ حنون، المرجع السابق، ص. 123-124.

⁴ المرجع نفسه، ص. 124.

وكانت تخرج أرواح الموتى من العالم السفلي إلى عالم الأحياء لتأكل مما يلقيه الناس من بقايا الطعام في الشوارع، وتتربص للأحياء لتشعرهم بوجوب ذكرها والإيفاء بحقها، وإلا فإنها ستلحق الأذى بهم لتسببهم في حرمانها من الطعام والراحة في العالم السفلي، وهذا ما هو واضح في إحدى التعاويذ التي ذكر فيها:

لقد خرجت الآلهة القابضة على البشر من القبور

وهبت رياح الشر العاصفة هي الأخرى من القبور

تطلب أداء الفرائض وتقديم قربان الخمر

لقد خرجت من القبور¹.

3.1. مواضيع الدفن

كان لطقوس الدفن أهمية كبيرة لدى العراقيين القدماء، حيث يعتبر الطريقة الوحيدة لدخول الميت عالمه الجديد، وضمان نزول روحه إلى عالم الأرواح. كان الدفن يهدف أيضا إلى الحفاظ على جثة الميت داخل القبر من أجل استقرار روحها في العالم الأبدى وعدم رجوعها إلى عالم الأحياء. ويمكن التمييز بين ثلاثة مواضع للدفن في بلاد وادي الرافدين القديمة نوردتها على النحو التالي:²

- **تحت أرضيات المساكن:** يمثل الدفن تحت أرضيات المساكن من أقدم ما اتبع في دفن الأموات في تاريخ وادي الرافدين، حيث اكتشفت التنقيبات في كهف "شانيدار" في شمال العراق عن تسعة هياكل عظمية لسبعة من البالغين ولطفلين من نوع الإنسان المسمى بالـ"نياندرتال"، ويعود هذا النوع إلى العصر الحجري القديم الأوسط. كذلك في مدينة (كيش)، حيث كانت الجثث تدفن تحت أرضيات غرف المنازل منذ عصر فجر السلالات، سواء كانت غرف الأحياء أو غرف شيدت خصيصا للدفن، وكان موضع القبر في الغرفة يحتل الزاوية، حيث تكون جدران في ضلعين من أضلاع القبر، يقابلهما جدران بينيان بطبقة واحدة من الطابوق. واستمر هذا التقليد في الدفن حتى بدايات الألف الثالث قبل الميلاد، إذ كشفت التنقيبات الأثرية في موقع مدينة نمر (نيبور القديمة) عن ممارسة دفن الأموات تحت أرضيات المساكن ابتداء من عصر فجر السلالات الأول. أما في منطقة ديالي فقد كشفت التنقيبات التي أجريت في خفاجو (موقع توتب القديمة) عن كون القبور العائدة إلى عصر فجر

¹ لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 218.

² حنون، المرجع السابق، ص. 224-231.

السلالات هي عبارة عن حفرة بسيطة تحت أراضي البيوت التي استمر السكن فيها بعد عملية الدفن. وفي موقع تل السب (موقع مدينة ميتورناه القديمة في حوض حمير في منطقة ديالي أيضا) أثبتت التنقيبات أن الدفن تحت أراضي البيوت كان شائعا في ذلك العصر لعامة الناس وعلى اختلاف مكانتهم الاجتماعية¹.

وكان السب وراء دفن الموتى في مساكن عوائلهم هو الاستمرار في اعتبار المتوفى واحدا من عائلته، إذ لا ينبغي أن يبتعد عنه حتى بعد وفاته. أما مسألة دفن الأموات في بيوت الأحياء لا يعدو أن يكون مسألة تحركها العاطفة، وليس عملا منجزا بوحى من عقيدة معينة يمكن استنتاجها.

• **الدفن في القصور الملكية:** يعتبر هذا النوع من الدفن خاصا وامتيازاً فقط بالموتى من الملوك والأتباع المقربين تكريما لهم على مجهوداتهم في خدمة الملوك. وحول دفن المقربين من الملك في المقابر الملكية ذكر حنون نصاً للملك الأشوري (أشور بانيبال) الذي يتحدث فيه عن دفن أحد القواد العسكريين في المملكة بطريقة توحى بأن ذلك القائد دفن بالقصر الملكي بأمر من الملك تكريما له، حيث يرد في النص على لسان الملك (أشور - بانيبال) ما يلي:

"اليوم لقي القائد (نبو - شار - أوصر) مصيره بجلال وأبهة في قصري، إنه سيدفن في الموضع الذي أحبه، يجب ألا يحرك من موضعه، وأن لا يسمح لأحد أن يعيث به، لقد كان رجلا طيبا وشجاعا. وإذا أفلقه أي شخص وهو مضطجع في قبره فإن سيده الملك سيغضب ويعامله بعنف ولا يرحمه."

• **الدفن في المقابر الخاصة:** هناك نوعان من المقابر الخاصة: الأولى، الموجودة داخل المدن، والتي تكون قبورها منفردة؛ حيث تم دفن الأموات فيها بصورة متفرقة، ويعود أقدم مثال لهذا النوع من الدفن إلى دور (حلف) من العصر الحجري المعدني؛ حيث كان دفن الموتى يتم بين البيوت. كما أن هناك احتمال باتباع هذه الطريقة نفسها في (نفر - العراق) وذلك في الطبقات العائدة للعهد البابلي القديم كما هو الحال في (أور)؛ حيث بدأ الدفن لأول مرة في طبقات الأنقاض في الوقت الذي بلغ فيه ارتفاعها في المنطقة الكائنة في الجهة الجنوبية الشرقية من سور المعابد حوالي المترين، ومنذ ذلك الحين وإلى مدة 450 سنة استعملت هذه المنطقة للدفن دون انقطاع.

¹ لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 223-224.

الثانية: المقابر الموجودة خارج المدن والتي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الوسيط حيث كان سكان قرية "زواي جمى" يدفنون موتاهم في كهف شانيدار القريب منهم.

إن أهم التطورات التي عرفت طقوس الدفن خلال فترة الألف الثالثة قبل الميلاد تتمثل في استخدام أساليب عديدة في عملية الدفن، ابتداء من الدفن تحت أراضيات دور السكن، مروراً بالدفن بين البيوت، وصولاً إلى تخصيص مساحة للدفن بهيئة مقبرة خارج المدن، تضم قبوراً مبنية من اللبن ومفروشة بحصير من القصب، إضافة إلى استخدام الجرار الفخارية في هذه المقبرة لدفن البالغين والأطفال على حد سواء¹.

4.1. أنواع القبور

بفضل التنقيبات في البقايا الأثرية أمكن استخلاص أن العراقيين القدماء عرفوا عدة أنواع من القبور، وذلك لأسباب منها العامل الطبيعي، أو مكانة الميت الاجتماعية. ويمكن التمييز بين عدة أنواع من القبور في بلاد وادي الرافدين القديمة، وهي على الشكل التالي²:

- **قبور العامة:** وهي التي يدفن فيها عامة الناس من غير الحكام والملوك، ومنها كذلك أشكال مختلفة من القبور البسيطة، والقبور المشيدة باللبن أو الأجر، والأقبية.
- **التوابيت:** كانت من أقدم طرق حفظ الجثة في العراق القديمة؛ حيث يتم لف الجثث بحصران من القصب، أو تدفن في قبر مبطن به، واستعمل كذلك الحصران في صنع التوابيت بتثبيتها على دعائم خشبية. ومن الطرق الأخرى لحفظ الجثة حين وضعها في القبر تلك التي ظهرت في "أور"؛ حيث كان الميت يوضع على أرضية من الأجر مرتفعة قليلاً ويغطى بحصير من القصب وفوقه يوضع غطاء مناسب من قطعة واحدة من الفخار أو قطعتين، وتكون كافية لتغطية الجثة وما يوضع قربها من أنية وجرار".

إن أهم ما يميز قبور جمدة - نصر (جنوب بلاد الرافدين) هو ظهور القبور المفروشة بالحصير (مصنوعة من القصب)، وهذه دلالة على الاعتقاد بأهمية المحافظة على الجثة من

¹ لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 226.

² حنون، المرجع السابق، 236-238.

التلف، كما ظهر خلال هذه الفترة القبور المعقودة بالأجر حيث توضع الجثة في القبور بالوضع الجنيني أو وضع القرفصاء وتلف بقطعة من قماش الكتان¹.

- **السلال:** استعملت في دفن الأطفال؛ حيث عثر في "خفاجة" على هيكل طفل مدفون في سلة تحت أرضية إحدى البيوت، والظاهر أن السلال المصنوعة من القصب هي التي أوحث لسكان العراق القديم بصنع التوابيت الفخارية التي كانت في بداية استعمالها تحاكي من حيث شكلها واستدارتها البيضوية شكل السلال، ومن ثم تطورت إلى أشكال مختلفة.
- **الفخار:** حيث استعمل لحفظ جثث الموتى، وترجع هذه الطريقة إلى أزمان قديمة من تاريخ وادي الرافدين؛ إذ استعملت الجرار الفخارية في بادئ الأمر لدفن الأطفال بصورة منفردة، ويكون شكلها كروي ولها فوهات واسعة يوضع فيها الطفل المتوفى بهيئة تشبه إلى حد كبير وضعية الجنين في الرحم، ثم استعملت فيما بعد لدفن الكبار، وكانت هذه الجرار توضع إما تحت أرضيات الدور أو بالقرب من المعابد. واستمرت طقوس الدفن هذه طيلة فترة العصر الأكدي الذي شهد ولادة أولى الإمبراطوريات في العراق القديم².

5.1. وضعيات واتجاهات الدفن

تعددت وضعيات الدفن عند سكان بلاد وادي الرافدين القديمة دون الالتزام بوضعية معينة؛ فبعضهم كان يمدد بطوله كاملاً على الظهر، والبعض الآخر يمدد على أحد جانبيه مع رفع الركبتين ليلتصق الفخذان بالبطن. في تل الصوان (من دور حسونة) كانت الوضعية الغالبة التي تدفن عليها الجثة هي القرفصاء، وكان اتجاه الرأس عموماً إما إلى الجنوب أو إلى الغرب، فالاتجاه السائد للهياكل الموجودة في قبور "تل قاليج أغا" هو الشمال الشرقي، مع وجود بعض الهياكل موجهة نحو الشرق³.

أما وضع الجثث في قبور العهد البابلي الحديث في "كيش" فهو مختلف باختلاف طريقة الدفن، فحين تكون الجثة مدفونة في تابوت أو تغطى به، فإنها تكون ممددة على ظهرها، وفيما إذا كان التابوت قصيراً عليها ترفع الركبتان إلى أعلى، أما إذا لم توضع الجثة في تابوت فإن الوضع الغالب لها يكون بتمديدتها

¹ لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 225.

² المرجع نفسه.

³ حنون المرجع السابق، ص. 242-243.

بكامل طولها، وفي "أشور" اختلفت أوضاع الجثث من التمدد بشكل كامل إلى وضعية القرفصاء وتقاطع الأيدي على الصدور أو تقاطع الساقين، كما أن اتجاه الهياكل لم يكن ثابتاً¹. وهكذا فإن العدد الأكبر من الجثث في العراق القديمة كان موجهاً على امتداد الخط من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وبعضها ممدد باتجاه من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب، وكانت الوضعية الغالبة للجثث تمديدها على الجانب الأيسر، في حين مدد بعضها على الجانب الأيمن². ورغم تعدد طرق الدفن في بلاد الرافدين القديمة، واتخاذها لاتجاهات مختلفة يبقى الغرض منها إظهار الأموات بمظهر الأحياء عند دفنهم، من خلال محاكاة وضعية النائم، أو بوضع الأقدام في أيدي الموتى ورفعها أمام وجوههم³.

6.1. الحداد

يساهم وصف أيام الحداد ودراسة آثاره الاجتماعية عند العراقيين القدماء في فهم كيف كان هؤلاء يعبرون عن حزنهم ومشاعرهم أثناء فقدان أحد أفراد عائلاتهم أو أحد معارفهم، لذلك نجد أن التعبير عن الحزن في بلاد وادي الرافدين كان عاملاً مؤثراً في كلا الطرفين: الأحياء الذين فقدوا أحد أقاربهم أو أصدقائهم من جهة، والمتوفى من جهة أخرى. فبالنسبة للأحياء من عائلة المتوفى كان الحداد عاملاً مساعداً على تخفيف الحزن والقلق والإحساس بالتوتر الذي يغمرهم، وبالنسبة للمتوفى كان الحداد والحزن بعد وفاته يعتبر ضماناً بعدم انقطاع ذكر الشخص بين الأحياء بعد موته، وبالتالي يصبح أمراً يوحى بالطمأنينة للفرد إزاء الموت⁴. كذلك يتبين أن الحداد يساعد في تخفيف أثر الموت في نفس الإنسان، وذلك من خلال ما ورد في ملحمة "كلكامش" على لسان الإله "شمس" وهو يهدي من ورع "انكيدوا" حين مرض وواجه الموت:

"وسيجعل (كلكامش) أهل أوروك يرثونك ويكونك

ويحمل الموسرين على أن يقربوا إليك

أما هو نفسه فبعد أن يودعك القبر سيطلق شعره

وسيرتدي جلد الأسد ويهيم على وجهه في القفار والبراري"⁵.

¹ حنون المرجع السابق، ص. 242-243.

² المرجع نفسه.

³ لفظة حسين، المرجع السابق، ص. 228.

⁴ حنون، المرجع نفسه، 290.

⁵ باقر، المرجع السابق، ص. 69.

ويتكلف بمراسيم الحداد عدد من الكهنة المختصين من خلال تلاوة المراثي، وذلك بطلب من أسرة المتوفى، وينقسم هؤلاء الكهنة إلى ثلاثة أصناف وهي:

صنف "كالاماخ" في السومرية، و"كالمخو" في الأكادية وتعني حرفيا الكاهن العظيم. نجد كذلك صنف "كالو" بالسومرية، و"كالو" بالأكادية، وأخيرا صنف "تلا- تور"¹.

أما طريقة الإعلان عن الحداد فكانت تتم بترك الشعر، أو بنتقه تعبيراً عن الحزن والنواح بأصوات عالية واللطم على الوجه، وإلقاء اليدين على الأرض وتمزيق الثياب، حيث وردت الإشارة إلى ذلك في حوليات الملك (سرجون) في معرض وصف حزن العراقي عند وفاة أحد معارفه بأنه كان يلقي بنفسه على الأرض ويمزق ثوبه، ويجرح نفسه بسكين وهو مستغرق في العويل². وكذلك من الطرق الأخرى للإعلان عن الحداد أن يرتدوا ثياباً خاصة به، وينشروا الطين على رؤوسهم، ويبقوا طيلة أيام الحداد مطأطئي الرؤوس³. كما تشير بعض النصوص القديمة إلى الحزن الناتج عن الموت، ففي ملحمة "كلكامش" عبر هذا الأخير عن حزنه إثر فقدانه لصديقه "إنكيدو" بما يلي:

" فحس قلبه ولكنه لم ينبض

عند ذاك برق صديقه كما تبرقع العروس

وأخذ يزار حوله كالأسد وكاللبؤة التي اختطف منها أشبالها

وصار يمشي جيئة وذهاباً أمام الفراش وهو يطيل النظر إليه

وينتف شعره المصفور ويرميه على الأرض

خلع ثيابه الجميلة ومزقها ورماها كأنها أشياء نجسة⁴.

¹ حنون المرجع السابق، ص. 291-292.

² المرجع نفسه، ص. 299-300.

³ المرجع نفسه.

⁴ باقر، المرجع السابق، ص. 73.

2. الموت في مصر القديمة

تقع مصر في الجزء الشمالي الشرقي للقارة الإفريقية عند ملتقى ثلاث قارات هي أوروبا وآسيا وأفريقيا يحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الشرق البحر الأحمر، وترتبط من جهتها الشمالية الشرقية بفلسطين من خلال صحراء سيناء، لذلك تعتبر الجسر الذي يربط قارتي آسيا وأفريقيا، وهي وادٍ طويل يمتد على امتداد نهر النيل، إذ ينشطر عند مدينة منفس القديمة - قرب العاصمة القاهرة - إلى فروع عدة مشكلاً بذلك دلتا نهر النيل¹. وتعتبر هذه الدلتا مع وادي النيل من أخصب بقاع الأرض، لهذا كانت مهداً لحضارة تعد من أقدم وأرقى الحضارات.

اعتقد المصريون القدماء أن الجسد والروح لهما أهمية كبيرة، سواء في الحياة أو ما بعد الموت، ذلك ما جعلهم يبدعون طقوساً جنائزية تستجيب لهذا الاعتقاد مثل تحنيط جثث الموتى، ووضع المرفقات الجنائزية في القبر، وذلك من أجل مساعدة المتوفى في العثور على طريقه في عالم ما بعد الموت، فلقد شاع في الحضارة الفرعونية الإيمان بحقيقة الخلود، ووجود حياة أخرى ينتقل إليها الموتى بعد مغادرة عالمنا هذا. من هنا جاءت فكرة ضرورة الحفاظ على الجسد بتحنيطه لكي تعود الروح إليه بعد رحلة الموت، ونشأت طقوس دفن الموتى في مقابر تحتوي كل مستلزمات الحياة حتى أبسطها، وبلغ الأمر حد دفن العبيد والخدم مع الميت، وتزويده بمستلزمات رحلته ودخوله إلى العالم الآخر عالم الخلود². هكذا كانت المقابر مليئة بالأغذية والأدوات والحلي والمجوهرات، وكل ضروريات الحياة لضمان عودة الروح إلى الجسم، ومن أجل أن يعيش الميت في راحة وهناء في عالمه الجديد.

1.2. الروح

يرجع إيمان الإنسان المصري القديم بحياة أخرى بعد الموت إلى طبيعة عقليته؛ إذ أنه كان يتأمل في الظواهر الطبيعية التي من حوله، مثل شروق وغروب الشمس كأنها تولد وتموت، كذلك فيضان نهر النيل الذي يأتي مرة في السنة ثم ينخفض منسوبه كأنه شارف على الموت. هذا إلى جانب تلك الأدلة الأثرية الموجودة في مقابر هذه العصور التي تشمل الطعام والأدوات الأخرى التي لا يفسر وجودها إلا

¹ حسون يونس، وسناء، أهم الخصائص الجغرافية لمصر القديمة، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 17، العدد 9، 2010، ص. 478.

² روضان، المرجع السابق، ص. 453.

في ضوء افتراض أن هناك تصورا بأن الحياة تمتد بعد الموت تحت ظروف شبيهة للغاية بتلك التي انصرفت على الأرض¹.

تشير النصوص الجنائزية المصرية القديمة إلى أن الإنسان المصري القديم يفرق بين أربعة أنماط للروح، ويعامل كل منها بأسلوب روحاني مختلف، فالفرد لم يكن "كا" واحدة، أي روحا أولية، وإنما يملك أرواحا أخرى، "الكا" التي تولد في نفس الوقت مع لحظة مولد جسد الإنسان، وتتحد معه حتى لحظة الموت، وبعدها تعيش مع المومياء تتغذى على القرابين اليومية التي يقدمها الكهنة والأقرباء الصالحون، ويكون مقرها تمثال المتوفى. الروح الثانية هي "أبا" التي خرجت من الجسد عند الوفاة، لتتجول في الخارج، وتختار الشكل الذي تفضله. الروح الثالثة والفعالة هي "أخ" ومهمتها هي القيام بالرحلة إلى العالم الآخر والتمتع بملذات النعيم. وأما الروح الرابعة فهي "سخم" وهي تؤأم "كا"².

من جهة أخرى صورت الروح الثانية للميت "أبا" على أنها طائر صغير له وجه يشبه وجه المتوفى، وربما كان يعتقد أن الطيور التي تظهر على الأشجار التي غرسها كان من بينها طائر "أبا"، كما يمكن أن تأخذ هذه الأخيرة أشكالا أخرى مثل زهرة اللوتس أو الثعبان المندفع من الحفرة، أو التمساح الزاحف من الماء إلى الأرض³.

أما "كا" (النفس) فهي الروح التي تبقى بجوار الجسد في القبر وحوله، حيث تقدم لها القرابين بعد الموت، وهي بمثابة الملاك الحارس للإنسان، أو التي كان الإنسان يستقبلها عند مولده بأمر من الإله (رع)، ويعتقد المصريون أن هذه "الكا" لا أحد يستطيع رؤيتها، ولكنها تشبه صاحبها تماما، ويبدو أنها سبب حياة الشخص، فعندما تغادر جسده وتستقر في القبر أو حوله، فإن الشخص يغدو جثة ميتة، وتسمى أيضا (القرين الروحي)⁴.

2.2. التحنيط

بما أن الإنسان المصري القديم آمن بالحياة بعد الموت، فقد كان من بين شروط الانتقال إلى العالم السفلي أو عالم أوزيريس إله الموت هو ضرورة الاحتفاظ بجسد الميت كما هو، وتبقى الطريقة المثلى لحفظه هو تحنيطه، ويقوم بهذه العملية الكهنة أو الأطباء، وذلك في أماكن خاصة وفقا لطقوس

¹ تشرني، ياروسلاف، الديانة المصرية القديمة، (ترجمة أحمد قدرى)، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1996، ص. 106.

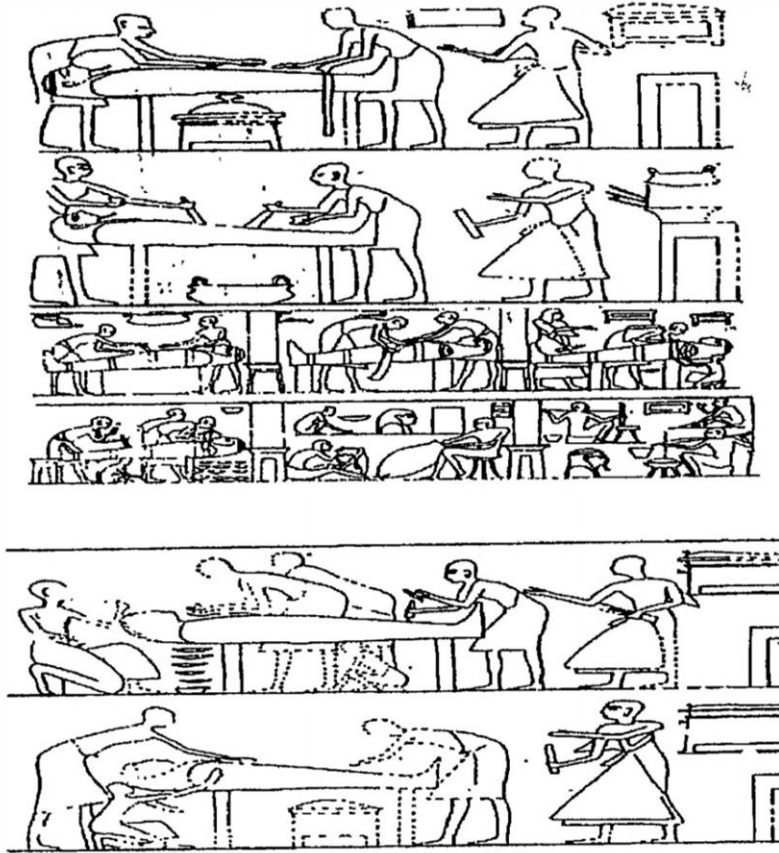
² فياض، محمد، المرأة المصرية القديمة، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1995، ص. 34.

³ الماجدي، خزل، الدين المصري، عمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1999، ص. 184.

⁴ الماجدي، المرجع نفسه، ص. 186.

معينة. إذ في البداية كان التحنيط محصورا على الفراعنة وموظفي الدولة الكبار، وبعد ذلك انتشر بين عامة الناس. فعندما يموت الإنسان يحمله أهله وأقرباؤه إلى المحنطين الذين يعرضون ثلاثة نماذج مصنوعة من الخشب تمثل الأنواع الثلاثة من التحنيط، وأعلى هذه الطرق هي تلك التي تتبع طريقة تحنيط جثة أوزيريس، والطريقة الثانية أقل تكلفة، أما الطريقة الثالثة فهي أقل ما يمكن عمله ولا تكلف إلا القليل من المال. بعد الاتفاق يتسلم المحنطون الجثة وبدؤا عملهم بإخراج المخ من الجمجمة بآلة معدنية لها طرف ملتو، ثم يقومون بغسلها من الداخل بنبذ البلح وسوائل ذات رائحة عطرة، ثم يملأونها بمسحوق

المر وبمواد أخرى ذات عطر طيب، وإذا ما انتهوا من أحشاء وعناصر رخوة يقومون بوضع الجثة بأكملها في ملح النطرون لمدة سبعين يوما، وإذا ما انتهت هذه المدة غسلوا الجثة غسلا جيدا، ثم لفوها في قماش كتاني بعد أن يغمسوه في سائل لاصق¹.



الصورة رقم (01): طقوس التحنيط.
خزل الماجدي، الدين المصري القديم، 1999، ص: 240.

يبدأ التحنيط بشكل عام عقب الوفاة مباشرة، لكن في بعض الحالات كان يؤجل لحين تبدأ الجثة في التآكل، فالمحنطون

يستدعون لمنزل الميت، ويضعون الجسد على منضدة ويأخذونه إلى معملهم الذي كان عبارة عن خيمة تسمى (مكان التطهير) أو (منزل الطيب)، وكانت هذه الإجراءات يقلد فيه أسلوب المعالجة التي كان يظن أن الإله "أوزيريس" أول من تلقاها، فالشخص المتوفى على ذلك يصبح "أوزيريس" من خلال تحنيط

¹ الماجدي، المرجع نفسه، ص. 239-240.

جسده، كما أن المحنطين كانوا يشخصون الآلهة التي شاركت في تحنيط "أوزيريس"، وكان المحنط الأكبر الإله "أنوبيس"، بينما مساعدوه كانوا يوحدون مع "أبناء حورس" ومع الإله "خنت ختاي khentekhtay"، أما "كاهن الخدمة Sen-priest" و"الكاهن المرتل Lector priest" فكانوا يعيدون التعليمات للمحنطين ويرددون الرقى المناسبة¹.

خلافًا لذلك، يرى يان أسمان بأن المرحلة الأولى الجراحية - التشريحية لعملية السبعين يوما لم تسلم تماما من التدخل الوحشي، والجسم لم يقطع، ولكنه عومل بطريقة -حتى ولو كانت من أجل حفظه- تبعد تماما عن "الحفظ" بالمفهوم الطبي؛ فالمخ يسحب من خلال الأنف، والأحشاء تستخرج من فتحة جانبية، فقط القلب يغطى ويعاد إلى موضعه، أما باقي الأجزاء اللينة والسوائل فتوضع في محلول النطرون وتخرج من فتحة الاست بضعها².

يرافق هذه الطقوس ترتيب مجموعة من التعاويذ، في كل مرحلة من مراحل التحنيط، ولكي لا يتحلل جسد الميت، تقول التعويذة:

"السلام عليكم يا أبي أوزيريس! لقد جئت بك حتى تعتني أنت بجسدي هنا. أنا كامل كأبي
خبري أي شخص يشبه الذي لا يفنى، تعال أنت! إن نفسي أقوى من نفسك، (يا) سيد
الأنفاس، وأعظم من رفاقه، وأنا أكثر دواما منك."
"لقد جعلت مني صاحب قبر، سمحت لي بالوصول إلى بلد الأبدية مثل ما فعلت لأبيك آتوم
لكي لا يفني جسده، وهذا هو حال الذي لا يفني أبدا"³.

يستعمل ماء النيل في غسل جسد المتوفى، ثم تنتزع الأجزاء الرخوة والتي هي أكثر الأعضاء قابلية للتآكل، ويغمر الجسد في ملح النطرون ثم ينقع ويغطى بالزيوت والدهون والعمور وتوضع عليه مختلف أنواع التمام⁴. لتمتد بذلك مرحلة التجفيف والتلميح إلى أربعين يوما، في الأخير يعاد بناء الجثمان المكون من الجلد والعظام في شعيرة المومياء، وذلك بدهنه بالمرهم وزيوت التحنيط التي تجعل الجلد يبدو ناعما، ويكتم الأمر بحشوه بالراتنج والصمغ العربي والحطب والتبن ومكونات أخرى، ووضع عيني صناعتين،

¹ تشرني، المرجع السابق، ص. 143.

² أسمان، يان، الموت والعالم الآخر في مصر القديمة، (ترجمة محمود محمد قاسم) الجزء الأول، المركز القومي للترجمة، 2017، ص. 89.

³ بارجييه، بول، كتاب الموتى للمصريين القدماء، (ترجمة زكية طبوزادة)، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2004، ص. 189.

⁴ تشرني، المرجع نفسه، ص. 144.

وتزيين الميت، ووضع باروكة له، ثم يلف الجثمان بلفائف من الكتان الفاخر مكتوب على أجزاء منها عبارات سحرية، كما توضع فيها أحجبة¹، ليوضع أخيرا في التابوت.

أما الأحشاء الداخلية فيتم حفظها في أوانٍ كانوبية، وهي أوانٍ مصنوعة من الحجر والخشب والفاخر توضع فيها أحشاء المتوفى، وكان كل منها على شكل من أشكال أبناء حورس الأربعة: أمست برأس إنسان، حابي برأس قرد، فبحسنوف برأس صقر. وكان الإله (أنوبيس) إله المحنطين، والإله (أبووات) الذي برأس ابن أوى من الوجوه المألوفة في الطقوس والعقائد الجنائزية إضافة للآلهة (أوزيريس، حتحور، مرت، وسجرت)².

هكذا حاول المصريون القدماء من خلال طقوس التحنيط إيقاف فناء الجسد، وذلك لاعتقادهم بأن الروح سترجع إليه في العالم الآخر لتمارس نفس الوظائف التي كانت تمارسها فوق الأرض.



الصورة رقم (02): الجرار الكانوبية.

Florence Maruejol, in MEDIA DOSSIERS DU LOUVRE, P 4

¹ أسمان، المرجع السابق، ص. 90.

² الماجدي، المرجع السابق، ص. 239-240.

3.2. الموكب الجنائزي

بعد التحنيط توضع الجثة في التابوت أو النعش، الذي يكون في العادة مزينا بصور الآلهة التي ستعيّنه على الاستيقاظ بعد الموت، واختلفت أنواعها حسب مكانة الميت ومستواه الاقتصادي، حيث كانت تتخذ في الغالب شكل أوزيريس. ولوضع المومياء في التابوت تقول إحدى التعويذات:

"يا إيزيس، يا نفتيس، يا جحوتي الذي هدأ من النزاع، نادوا على أمسيت، حابي، دوامتف وقبحسنوف! إنه حورس الذي ذهب إلى أبيك الأوزيريس فلان. تقدموا نحوه، ولا تتبعدوا عنه أبدا"¹.

كانت طقوس الدفن تجري وسط نوع من الرقص الديني الجنائزي وقرع الدفوف، حيث كان الكهنة يحملون التابوت وصندوق الأحشاء وقد تكدست الزهور حول التابوت الذي يعبرون به النيل، والنسوة من أقارب الميت يندبن ويولولن، بينما يحمل تابوت آخر تماثيل الميت، وتحمل بقية القوارب المتاع الجنائزي وأهل المتوفى. يقف في مقدمة القارب واحد منهم ويصيح بماسك الدفة بأن يتجه صوب الغرب إلى بلد الأبرار، ويضم القارب الثالث أقارب المتوفى من الذكور، أما القارب الرابع ففيه أصدقاؤه وزملاؤه يحملون عصيهم في أيديهم، وقد أتوا ليقدموا التكريم الأخير للراحل، وليضعوا في مقبرته هداياهم التي يحملها خدمهم أمامهم من باقات الزهور وقرايين الطعام وغيرها².

أثناء الوصول إلى الشاطئ الغربي من النيل حيث سيتم تشيع الجنازة، يسير الرجال في المقدمة وتتبعهم النساء، وفي هذه اللحظات كان الكهنة يقومون بحرق البخور أمام المومياء، وبترتيل التراتيل الحزينة على المتوفى، وغالبا ما كانت تتقدم طائفة من الراقصين الذين يحملون اسم (موو)، حيث يقومون برقصة دينية للمتوفى بملابس خاصة مع ندابتين تمثلان إيزيس ونفتيس تمثلا بمأساة أوزيريس³.

يتكلف بجر القارب الذي ينقل المومياء في التابوت رجال وثيران على زحافات، بينما يسكب اللبن أمام الموكب، ويتبع ذلك الأقارب من الذكور ثم الأصدقاء، ويرافق التابوت سيدتان تتقمصان (تجسدان) الإلهتين "إيزيس ونفتيس" تسميان الحدأتين، تتحني إحداها على رأس الميت والثانية على قدميه، ومن الممكن أنهما ليستا أرملة المتوفى أو إحدى قريباته، بل كانتا مجرد تمثالين يوضعان في القارب، وهناك زلافة أخرى تحمل صندوقاً يحتوي على الأواني الكانوبية التي بها أحشاء الميت تتبع التابوت، وجماعة من

¹ بارجييه، المرجع السابق، ص. 215.

² الماجدي، المرجع السابق، ص. 241.

³ المرجع نفسه، ص. 242.

نساء أخريات منهن نائحات محترفات، يمشين سويا في ملابس ذات لون أزرق داكن وهو لون الحداد، ويصرخن بصوت عال ويذرفن الدموع ويمزقن جلابيهن، ويضربن على أجسامهن ويذررن التراب على رؤوسهن وملابسهن، ويمشي أيضا في الموكب كهنة يحرقون البخور ويرتلون الصيغ الجنائزية. وفي النهاية نرى صفا طويلا من الخدم يحملون التجهيزات الجنائزية مثل الأثاث والأواني، وصناديق بها الملابس والمجوهرات لتوضع جميعها في الضريح¹.



الصورة رقم (03): الموكب الجنائزي

ياروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، 1996، ص: 146

4.2. فتح الفم والعينين والأذنين

عند وصول الموكب إلى المقبرة، يقوم الكاهن بآخر طقس على المومياء وهو طقس فتح الفم، حيث يعتقد أن الغرض من هذه الشعيرة هو أن يحصل الميت على كل مستلزماته، والتي منها الأكل والشرب والكلام. يقام هذا الطقس قرب القبر أو في (البيت الذهبي) الذي هو مصنع النحاتين، وكان الإله (خنوم) هو الذي يقوم بها ولذلك لقب ب (سيد البيت الذهبي) أو الإله بتاح الخالق. أما كاهن هذا الطقس فاسمه (سم) الذي كان يرتدي جلد الفهد المميز له، وكان يقوم أولا بتطهير تمثال الميت ويضعه على قاعدة من الرمل موجهها وجهه نحو الجنوب، ثم يقوم بطقوس فتح الفم والعينين والأذنين، وذلك بلمس وجه الميت بآلات مختلفة يردد فيها: **أنا أفتح فمك لكي تتكلم وأفتح عينيك لكي ترى رع وأذنيك لكي تسمع**

¹ تشرني، المرجع السابق، ص. 145-146.

تبجيلك، ثم تمشي على رجليك لكي تدفع عنك الأعداء". ويتبع ذلك بعض الطقوس لكي يستعيد الميت قدرته على تسلّم الطعام الذي يقدم له يوميا في العالم الآخر، ثم يقوم الكاهن بتبخير التمثال ثانية¹.

يقف الموسيقيون والراقصون في استقبال الموكب عند المقبرة، وعند وصوله يؤدي طقس فتح الفم على المومياء التي تقف منتصبة أمام المقبرة، ثم تنزل بعد ذلك إلى غرفة الدفن، وبعد العودة من الجنازة كانت تقام لكل المشيعين مأدبة².

ولدفن المومياء في الأرض وردت إحدى التعاويذ التي كانت تكتب على الباردى لتدفن معها، وتقول هذه التعويذة:

"السلام عليكم ياأيها الكائن في صحراء الغرب المقدسة ! الأوزيريس فلان يعرفك ويعرف اسمك ! أنقذه من هذه الديدان الموجودة في "روستاو" (الجبانة) والتي تخرج من جسد البشر وترتوي من دمائهم !

ولأن الأوزيريس فلان يعرفك ويعرف اسمك [نعرتي. الذي يحيا من التهام رفيقه، هو اسم احدهم، إنه هذا الذي يخفي وجهه بين طياته، هو اسم الآخر، وهذا الذي يحيا على الديدان، هو اسم ثالث وملتهم العظام هو اسم الرابع، حاحوتي المجود في الدماء هو اسم الخامس، الذي يمسك بكل ما هو أحمر اللون هو اسم السادس؟ المومياوات هو اسم السابع؟ مبتلع الدماء الذي يحيا على كل ما يكرهه الموتى هو اسم الثامن]. ليكون (هذا) أول مرسوم لأوزيريس، سيد الكون، الذي يخفي جسده ليعطي النفس لهذا الخائف الموجود في الغرب، (وذلك لأنه) هو الذي يتخذ القرارات بشأن هذا الموجود هناك، الذي وضع عرشه في الظلمات، والذي أعطى السلطة في "روستاو" (الجبانة)، سيد الظلام، الذي ينزل كمبتلع للديدان في الغرب الإله الكبير في بوزيريس الذي يرتعد أمامه الموتى"³.

بعد طقس فتح الفم والعينين والأذنين، يذبح ثور أو بقرة وهو الكفارة أو ذبيحة النعش، حيث يوزع لحم الذبيحة على المشيعين، وهذا جزء من (قرايين الملك) التي كان يقدمها الملك سابقا إلى الميت، ثم أصبح يتولاها أقرباء المتوفى، وخاصة ابنه الأكبر ويضاف لها الخبز والجمعة⁴.

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 242.

² تشرني، المرجع السابق، ص. 146.

³ بارجييه، المرجع السابق، ص. 35.

⁴ الماجدي، المرجع السابق، ص. 243.

5.2. الأثاث الجنائزي

بدأ وضع المتاع الجنائزي مع الميت منذ العصور الحجرية، واستمرت حتى عصر الأسرات. ومن الملاحظ أن الإنسان المصري القديم كان يعتقد أنه لابد للميت أن يصحب معه كل ما يمتلكه لأنه سوف يحتاج إليه في الحياة الأخرى، ويختلف هذا الأثاث من طبقة إلى أخرى؛ حيث إن الملوك والملكات تكون كل مقتنياتهم ثمينة، تليهم طبقة الكهنة، ثم العامة. كذلك نسجل اختلافاً في نوع الأثاث الجنائزي بين الملوك والملكات؛ حيث يدفن مع هذه الأخيرة مختلف أنواع الزينة، ويتكون أثاث الملكة (حطب حرس) أم الملك خوفو من تابوت مرمرى وصندوق أحشاء مرمرى، وسرير وعريش ومحفة وأوان من الذهب والنحاس والمرمر، وحلي من الفضة. وفي الدولة الحديثة ازداد الأثاث الجنائزي بذخاً وأبهة، ولعل مقبرة الملك توت عنخ آمون أفضل مثال لذلك. ورغم أوعية الطعام والشراب، لم تكن هذه المؤن كافية، فمنذ زمن الدولة القديمة كانت جدران المقبرة أو على الأقل التابوت، تغطي برسم لكل أنواع الأشياء التي يمكن أن تتحول بالسحر إلى منتجات حقيقية تخدم الاحتياجات المادية للمتوفى؛ حيث كان من معتقدات ما بعد الموت أن الميت يحتاج بالإضافة، إلى الطعام، المجوهرات والملابس والأسلحة¹.

وتشير العقائد الجنائزية المصرية المبكرة كذلك إلى ضرورة تقديم الطعام والشراب إلى الميت، ولهذا كانت تدفن معه جرار مليئة بالطعام والشراب، ثم أصبح لزاماً على الابن الأكبر أو الكاهن المنتدب لهذه المهمة تقديم الطعام والشراب اليومي للمتوفى، ثم اقتصر الأمر على تقديمه في الأعياد، وكانت شعائر (فتح الفم) الجنائزية للمتوفى تشير إلى استرداد قدرته على الأكل والتمتع بالقرابين التي تقدم له².

ورد في كتاب الموتى للمصريين القدماء تعويذة كانت تدون من أجل أن يتمكن الميت من الارتواء في مملكة الأموات تقول التعويذة:

"لقد فتحت فوهة الإبريق السماوي الكبير من أجل أوزيريس، لقد فتحت لي القبة السماوية

السائلة، ماء حبي، من أجل سيد الأفق، باسمي هذا اسم بدس اجعلني احصل على الماء،

كما تتحكم أعضائي في ست"³.

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 204.

² المرجع نفسه، ص. 230.

³ بارجييه، المرجع السابق، ص. 83.

"أنا الذي أعبر السماء، أنا الأسد رع، أنا الثور لقد التهمت الفخيد، لقد انتهيت من كارع (الجموسة) لقد طفت في جولة حول جزر حقول سوشيه. لقد أعطيت أبدية بدون حدود. أنا بدون شك الذي حصل على الأبدية كميراث بدون حدود، الذي أعطي بالدوام"¹.

ولتقديم القرابين الغذائية في مملكة الأموات، نقول تعويذة أخرى:

"يا أيها العظيم، (يا) سيد الأغدية، (يا أيها العظيم، يا من يرأس المقر الأعلى ! أنت يا من تعطي الخبز البتاح الكبير الكائن في المكان الكبير، أعطني الخبز وأعطني الجعة، وليكن غذائي فحذا وخبزت -ساشرت- يا من تعبر حقل السوشيه، احضر لي هذا الخبز (على) مياهك السماوية، كما فعلت لأبيك العظيم! فليكن عبوري كعبور الزورق الإلهي"².

رغم أن تقاليد تقديم القرابين إلى المتوفى ظلت قائمة، إلا أن العلم الكهنوتي اخترع طريقة سحرية لطعام أبدي عن طريق رسم مائدة قرابين باذخة في أغلب الأحيان؛ حيث ينحت في الحجر أمام الباب الوهمي أو اللوح الذي يدل على مكان القرбан بعض مناظر الطعام من خبز ولحم وطير وفاكهة وزهر من فوق رسم الحصيرة الأصلية، مع أدعية تقليدية بوافر الطعام من قبل الملك والآلهة لروح المتوفى، وربما زودت أحيانا بمواضع منقورة للزيوت، وقناة يجري فيها ما يصب عليها من القرбан السائل، حيث يستقبل في وعاء ملحق بها أو يوضع تحتها، وكانت هذه الموائد تقدم أحيانا هدية من الأحياء إلى أحبائهم المتوفين³.

6.2. المحاكمة

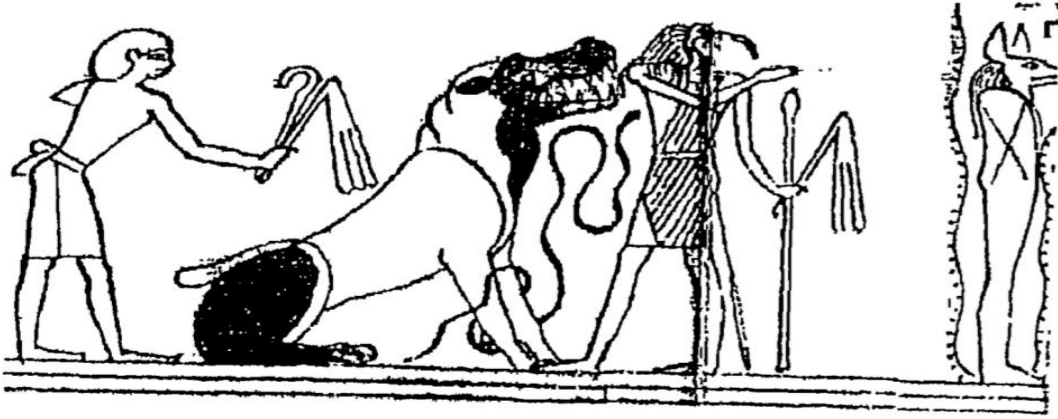
كانت المحاكمة أكثر ما أثر في نفسية الإنسان المصري القديم، ذلك ما جعل الكهنة يبتكرون تعاويذ سحرية وتمائم لإنقاذ موتاهم وتبرأتهم من الذنوب أثناء المحاكمة. وكانت تجري مراسم هذه المحاكمة في قاعة "هاعت" إلهة الحق والعد؛ حيث الإلهة صاحبة الميزان. يوضع قلب المتوفى في إحدى الكفتين، وفي الكفة المقابلة الريشة التي اتخذتها (الآلهة) شعارا مقدسا لها، ويتولى الإله أنوبيس (وله رأس كلب) ضبط الميزان، في حين يقوم الإله توت (وله رأس أبو منجل) بتسجيل النتيجة عنده على ورقة البردى. هذا في وجود اثنين وأربعين محلفا، يمثل كل واحد منهم إحدى الخطايا التي تحرمه من متع الآخرة، يقومون

¹ بارجييه، المرجع السابق، ص. 83-84.

² المرجع نفسه، 122.

³ الماجدي، المرجع السابق، ص. 230-231.

بمراقبة المحاكمة. وهكذا إذا توازنت الريشة مع القلب تماما اعتبر ذلك بمثابة انتصار ونجاح، وعندئذ يتقدم الإله حورس إلى الأمام ليقود الإنسان إلى حضرة أوزيريس-الأمير الأكبر للغرب- والذي يكون عندئذ قابعا في صبر داخل محرابه، أما إذا مال الميزان وكان القلب أثقل من الريشة فمعنى ذلك وقوع الكارثة؛ حيث يظهر على المسرح منظر الملتهم، وهو وحش فظيع له رأس تمساح ومقدمة أسد وخلفية فرس النهر، وهو الذي سيتولى قرقشة عظام المخطئ، والتهام لحمه وشرب دمه¹.



الصورة رقم (04): الحيوان عمم
خزل الماجدي، الدين المصري، 1996، ص: 215

تتكون المحكمة من بهو كبير زين سقفه بلهب النيران وعلامات الحق. تبدأ المحاكمة بوزن قلب الميت؛ حيث يوضع في الكفة اليسرى من ميزان العدالة وريشة ماعت في الكفة اليمنى، ويقوم أنوبيس الذي له رأس ابن آوى بعملية الوزن ويسجل تحوت النتيجة. وفي حالة كون القلب أثقل من الريشة فهذا يعني وجود خطايا كثيرة، ويخبر الإله تحوت النتيجة للقضاة الاثنين والأربعين، ثم يقوم الميت بمخاطبتهم واحدا واحدا، وعليه أن يعترف لهم، وكان هؤلاء القضاة على ما يبدو يشربون دم المخطئين أمام وثنفري². ونعرض هنا جزءا من النص الذي يخاطب به الميت هؤلاء القضاة بأسمائهم، ويسمى ب (الاعتراف السلبي) الذي يتضمن بشكل ثابت ما يلي:

"هلا... يا من خطواتك واسعة، يا من أتيت من إنو، إنني لم أرتكب اثما؛

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 34-35.

² الماجدي، المرجع نفسه، ص. 213.

هلا ... يا من يحيطك اللهيب، يا من أتيت من خرعها ... إني لم أسرق بالإكراه؛
هلا ... يا صلب الأنف، يا من أتيت من خمن ... إني لم أسطو...؛
هلا ... يا ملتهم الظلال، يا من أتيت من كرنيت.. إني لم أقتل ولم أرتكب أذى؛
هلا ... (نيمو) يا من أتيت من رستاو ... إني لم أختلس القربين؛
هلا ... الإله الأسد المزدوج، يا من أتيت من السماء ... إني لم أقتطع التقدّمات؛
هلا ... يا من لك عيان من نار، يا من أتيت من ساوت ... إني لأم أسلب إليها...¹

7.2. المقابر

تحظى المقابر المصرية بعناية واهتمام كبيرين، لذلك لم تعتبر مكانا ينفي إليه الميت بعد موته، وإنما كانت مقرا للانتقال إلى حياة أخرى، ولهذا أطلق عليها اسم "بيت الأبدية"، إذ لم تكن المقبرة المصرية أبدا -كما هو الحال عند حضارات أخرى- مكانا مقبضا أو كريها، فالمقبرة القديمة في شمال أوربا تبعث في النفس اليأس والكآبة، وهي مشاعر تتناقض تماما مع ما توحى به مقابر وادي النيل، فمقابر وادي الملوك² ووادي الملكات³ -على سبيل المثال- تبعث في النفس عند زيارتها مشاعر التفاؤل والمرح وحب الحياة⁴.

يوسد جسد الميت في الجزء السفلي للمقبرة في كل العصور تقريبا، أما الجزء العلوي فقد حدث لتصميمه الكثير من التغيرات بعد أن كان أصله مجرد كوم منخفض من رمل متراكم أو حجارة تكوم على الأرض فوق المكان الذي دفن فيه الجسد. وهذا الكوم خدم غرضين: الأول، منع أبناء آوى والضباع والحيوانات المفترسة الأخرى من إخراج الجسد من تحت الأرض، والثاني تحديد موضع المقبرة بعلامة واضحة لأقرباء الميت يأتون من حين لآخر حاملين إمدادات طازجة. وفي مراحل سحيقة من بداية العصر التاريخي تطور هذا الكوم إلى تكوين مستطيل من طوب اللبن المحروق في الشمس يشبه شكل المنزل للأفراد العاديين، أو قصرا ملكيا بالنسبة للمقابر الملكية، وكانت تزين الجدران الخارجية بدخلات

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 214.

² وادي الملوك: هو وادي في مصر القديمة استخدم على مدار 500 سنة خلال الفترة ما بين القرنين السادس عشر والحادي عشر قبل الميلاد، لتشييد مقابر الفراعنة والنبلاء، يقع هذا الوادي على الضفة الغربية لنهر النيل في مواجهة مدينة طيبة الأقصر، المعروفة بالجنائز القديمة، وينقسم الوادي إلى قسمين: الوادي الشرقي الذي يحتوي على معظم المقابر الملكية، والوادي الغربي الذي اكتشف فيه حجر للدفن استخدمت في دفن ملوك وأمراء الدولة المصرية، إذ تميزت مقابرهم باحتوائها على رسوم ونقوش توضح عقائدهم الدينية.

³ وادي الملكات: هو مكان دفن الملكات في مصر القديمة، عرف قديما باسم (نا- ست نيفرو) ومعناه مكان أبناء الفرعون، وفيه تم دفن الملكات والعديد من الأميرات وأفراد طبقة النبلاء وقد كان الكهنة يحافظون على هذه القبور بإقامة الطقوس الجنائزية، ويقع وادي الملكات بالقرب من وادي الملوك في محافظة الأقصر.

⁴ فياض، المرجع السابق، ص. 33.

عمودية ضيقة بالتبادل مع خرجات من نفس الطراز، وفي العصور الحديثة استخدمت كلمة "مصطبة" للدلالة على المقابر من هذا الطراز¹.

ويتكون القبر عند المصريين القدماء من جزأين: أحدهما تحت الأرض توضع فيه الجثة عادة، سواء كان حفرة صغيرة أو عدة حجرات محفورة في الصخر أو مشيدة من الحجر، والجزء الثاني فوق الأرض ليدل على مكان دفن الجثة سواء أكان بسيطا جدا مثل جزء من جريدة نخل أو كومة من تراب أو قطعة من حجر، أو كان بناء بسيطا أو مكونا من حجرات عدة أو من هرم ألحقوا به بعض المعابد². ويمكن تقسيم أنواع القبور في مصر القديمة إلى خمسة أنواع³ وهي:

- **الحفرة البسيطة:** وهي أقدم طراز عرفته مصر، وهو النمط المميز لعصر ما قبل الأسرات، وقد استمر لما بعد هذا العصر عند الناس الفقراء لبساطته. وفي نهاية تلك الفترة ظهرت المقابر ذات الأبنية السفلية المتعددة الغرف والتي تكون مبنية من الخشب والطوب، ثم بدءا من عصر (دن) أضاف لها المصريون سلما ينزل إلى داخل الحفرة.
- **المصطبة:** في أيام الأسرة الأولى تطور نظام المقابر ليصبح الجزء العلوي لمقابر الملوك عبارة عن مصطبة ضخمة تعلو حجرات كثيرة، وفي وسطها غرفة يدفن فيها الميت، وتحيط بها حجرات أخرى يضعون فيها الأواني والأدوات. في مرحلة الأسرة الثالثة تطورت المصطبات في الإقليم المحيط بالعاصمة "ممفيس" تطورا سريعا سمح لها بتطبيق فكرة البئر الرأسية النازلة إلى غرفة الدفن بدلا من السلم، ومع ما لحق القسم السفلي من المقبرة من تطور أخذ المصريون في تعديل القسم العلوي؛ حيث تعقد تصميم كوة تقديم القرابين لتتحول إلى مقصورة حقيقية مسقفة عادة ما تبني على شكل الصليب.
- **المقاصير المنحوتة في الصخر:** تحتوي على الباب الوهمي حيث يمكن للكهنة أن يرتل تعويذة القرابين أمامها، وكان التخطيط العام لهذه المقاصير يتميز بوجود واجهة فخمة غالبا ما تتقدمها صفة معمدة، وبها صالة واسعة ذات أعمدة منقورة في الصخر وفي نهايتها مقصورة تحتوي على تمثال.

¹ تشرني، المرجع السابق، ص. 146.

² الماجدي، المرجع السابق، ص. 195.

³ سبنسر، أ.ج.، الموتى وعالمهم في مصر القديمة، (ترجمة: أحمد صليحة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص. 260 - 295.

وكانت إضافة فناء في الخارج أمراً مألوفاً يؤدي إليه طريق، مع بناء من الأعمدة يمتد إلى نهاية الفناء، أو يتم تشييد نصبين من الطابوق ازاء المنحدر الصخري عند مدخل المقبرة.

- **المقبرة الهرمية:** تعتبر الأهرامات مقابر للفرعون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة، ويمثل هرم الملك "زوسر" المدرج في سقارة، الذي ابتكره المعماري "إيمتحب" عن طريق بناء مصطبة أقدم هذه الأهرام، حيث زاد عليها مصاطب أقل حجماً حتى تكون هرمًا مدرجاً من ست طبقات، وهناك من الباحثين من يرى أن هذا الطراز من البناء متأثر بالزقورات السومرية التي كانت معابد للآلهة، ولكن رأياً ثالثاً يقول بأن أصل الشكل الهرمي المدرج هو الكوم المدرج الذي كان المصريون يقيمونه من الطابوق.

وقد استحدث البناء من الحجر في وقت الملك "زوسر" من الأسرة الثالثة، حيث يمكن له أن يخلد إلى الأبد، وكانت لهذا الملك مقبرة حجرية ضخمة بني فوقها خمس مصاطب أخرى تتناقص تدريجياً في الحجم ليأخذ الشكل العام للبناء ما يشبه هرمًا (مدرجاً) ذا درجات، وباعتلاء الأسرة الرابعة للعرش أصبح القبر على شكل الهرم الكامل أو الهرم الحقيقي¹.

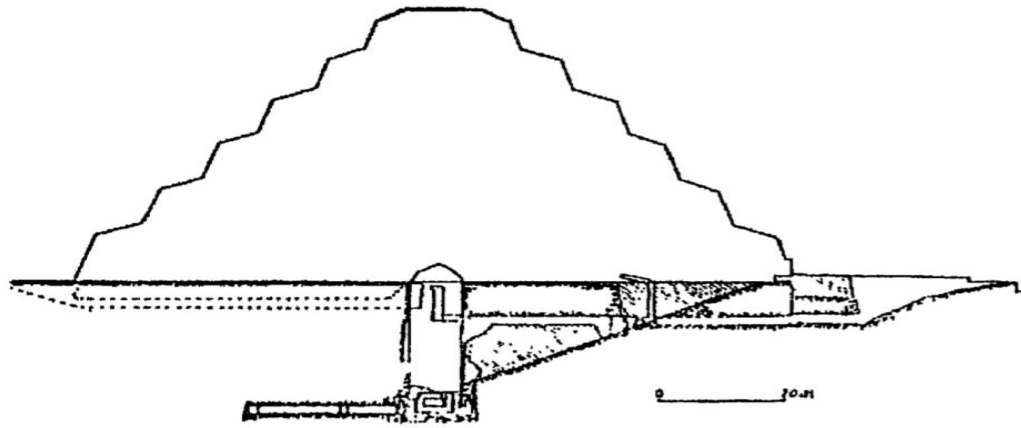
يشكل هرم "ميدوم" الذي بني في نهاية الأسرة الثالثة أو بداية الرابعة مرحلة الانتقال من الهرم المدرج إلى الهرم الصحيح، ويتكون هذا الهرم من سبع درجات زيدت إلى ثمان، ثم ملئت المسافات بينها بالأحجار ليصبح أول هرم ذا جوانب مستقيمة، ويمثل ذلك الهرم أقدم نموذج للمجموعة الهرمية النمطية في الدولة القديمة بما فيها من معبد جنزي في الجانب الشرقي من الهرم، وطريق صاعد مؤد إليه، ومعبد في الوادي، ويهبط ممر المدخل في هرم "ميدوم" من فتحة من الناحية الشمالية حتى ينتهي إلى بئر رأسية تؤدي إلى غرفة الدفن.

وتقع في جميع جوانب الهرم مصاطب أعضاء الأسرة الملكية، ورجال البلاط والموظفين على مسافة مناسبة من صفوف متراصة ومتماثلة تتخللها طرقات منتظمة، وتمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وكل هذه المصاطب كانت تبنى من الحجر، وذات جوانب مائلة قليلاً دون أي زخارف خارجية، وتسور مدينة الموتى كلها بحائط يقع الهرم في مركزه، وهي نسخة ثانية من بلاط الملك الحي².

¹ تشرني، المرجع السابق، ص. 147-148.

² تشرني، المرجع السابق، ص. 148.

- **المقاصير الجنائزية المبنية:** هو طراز متأخر من تاريخ تطور المقبرة المصرية، إذ ترجع أقدم أمثله إلى الدولة الحديثة؛ حيث تحتوي المقبرة على مقصورة لتقديم القرابين؛ وهو امتداد لتطور المصطبة الجنائزية؛ حيث استبدلت بكتلتها الصماء غرف لتقديم القرابين؛ وقد رتبت تلك الغرف ترتيباً محورياً، وأهم المقاصير مقبرة (حور محب) في سقارة التي استخدمت فيها الأقبية وسقوفها الخشبية وحيطانها المكسوة بالأحجار المزخرفة، وأعمدتها المبنية بالحجر الجيري الأبيض حول أقبيتها. وتقع المقبرة في جزء من جبانة سقارة الذي يضم الكثير من المقابر من النوع نفسه ضمن مقبرة ضخمة من الدولة الحديثة، ويمكن النزول إلى الجزء الأسفل من المقصورة الجنائزية، عبر آبار محفورة في أقبيتها تؤدي إلى غرف الدفن المنقورة في الصخر.



الصورة رقم (05): قطعة من هرم زوسر المدرج
خزعل الماجدي، الدين المصري، 1999، ص 200

3. الموت في المغرب القديم

تقع بلاد المغرب القديم أو بلدان شمال إفريقيا في الشمال الغربي لإفريقيا، إذ تمتد شمالا من مضيق جبل طارق إلى أقصى الشمال الشرقي لتونس، كما تمتد جنوبا من الأطلس الصغير إلى خليج قابس. أطلق العرب على شمال إفريقيا اسم جزيرة المغرب، حيث يحده البحر في غربه وشماله وشرقه، كما تحده الصحراء في جنوبه، مما جعله يبدو كجزيرة معزولة، وهذه العزلة وحدها هي التي كونت وحدة البلاد وإن كانت متكونة من عدة مناطق¹.

تمثل بقايا المدافن مصدرا أساسيا لدراسة الطقوس الجنائزية التي كانت تمارس بالمغرب القديم، ونقصد هنا بالطقوس الجنائزية كل ما يدخل ضمن دائرة التعامل مع الأموات من حيث تجهيز الميت، طرق الدفن ووضعيته، والأثاث الجنائزي. ويظهر من دراسة بقايا المدافن أن إنسان المغرب القديم قد مارس عدة أنواع من الدفن؛ منها ما هو محلي ومنها ما هو وافد من خلال اتصاله مع مناطق أخرى.

تتوزع الجثوات بانتظام في سائر مناطق شمال إفريقيا، وهي في ما يبدو ذات أصول محلية، وبعضها ذو تنسيق خاص يضيف عليها أحيانا طابعا معماريا، كذلك هو الشأن في "البازينات" ذات الأدرج، أو البازينات الأسطوانية المخروطة. وأما "الدلمنات" و"النواويس" فلا نجدها في غير مناطق محدودة في شرق الجزائر وفي تونس، وهي ذات أصول خارجية متوسطة².

1.3. أنواع المدافن

عرف إنسان ما قبل التاريخ طقوسا جنائزية مختلفة تدل على إيمانه بحياة أخرى بعد الموت كتتنوع المدافن ووضعيته الدفن، بالإضافة إلى وضع المرفقات الجنائزية من أسلحة وحلي وفخار في القبر لاعتقادهم أن الميت سيحتاجها في رحلته نحو العالم الآخر. ونعرض هنا لنماذج المدافن التي كانت منتشرة في ذلك الوقت ببلاد المغرب القديم على الشكل التالي:

- **الحوانيت:** مفردها حانوت وهو لفظ عربي معناه الدكان، فالأفارقة كانوا يستعملون الكهوف الطبيعية لدفن موتاهم في عصور ما قبل التاريخ، ثم انتقلوا إلى حفر قبور مربعة في الصخور،

¹ أكصيل، اصطيفان، تاريخ شمال إفريقيا القديم، (ترجمة: محمد التازي سعود)، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 2007، ص. 15.

² كامب، غابرييل، البربر ذاكرة وهوية، (ترجمة: عبد الرحيم حزل)، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2014، ص. 111.

مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن، وتسمى الحوانيت، محدودة المساحة عادة، وفيها يضعون موتاهم.¹ يتم الدخول إلى هذه الحوانيت من فتحة رباعية الشكل، جعلت عمودية ولا يسبقها ممر قصير جدا مفتوح على السماء إلا في حالة نادرة، يكون فيها المدخل قد أنجز في جدار صخري مائل، وهذه الفتحة صغيرة في العادة هي أشبه بالنافذة منها بالباب، والجانب الأسفل يكون على مستوى أعلى من أرضية الحجرة، ولبلوغها لابد أحيانا من استعمال السلم.² وتتفرع الحوانيت إلى ثلاث فروع وهي:³

✓ البسيطة: وتعتبر أكثر الأنواع انتشارا، تمتاز بحجم صغير يتراوح بين (1.5 إلى 2 متر) طولا و (0.46 إلى 1.80 متر) عرضا وسقف أفقي لتشكل بذلك شكلا مكعبا، ونظرا لضيقها أكد الباحثون أن الجثث كانت توضع في داخلها بشكل منحني.

✓ الحوانيت المحفورة في الصخور: حفرت في صخور معزولة، تعلوها قبة جنازية تضم القبر، وتمتاز بسقف منحني الشكل ذي بوابات عمودية.

✓ حوانيت متعددة الغرف: هذا النوع يمتاز بوجود أكثر من غرفة جنازية عكس النوعين السابقين، كما تحتوي أغلبها على غرف حجرية تحت الأرض، وفي حالات أخرى تحتوي على مدخل منحني، وبسبب ضيق مقاييس الغرف الجنازية فإن الجثث قد تكون توضع في شكل الجلوس.

تمتد الحوانيت من الساحل الشرقي للقطر التونسي إلى المغرب، وتكون بجوار البحر كما قد تكون أيضا بالداخل، وتتواجد بكثرة بشمال القطر التونسي، وكذلك بشرق القطر الجزائري، بحيث أنها في بعض الجهات تعد بالعشرات، بل بالمئات.⁴ ويرجع أصل الحوانيت إلى إيطاليا إذ أن تلك التي في الجزائر وتونس تتميز بأحجامها الضيقة، وأشكالها المكعبة وغياب المداخل المستطيلة فيها (أو يقوم مقامها ممرات قصيرة) تشبه كثيرا قبور السيكل من العصر البرونزي المتأخر Bronze Terminal، والمقبرة الكبيرة بنتالिका Pantalica، والمقبرة الكبيرة كاسيبيلي Cassible. ولذلك فهذه الحوانيت تفصح عن العلاقات التي كانت لبلاد البربر بصقلية إلى وقت قريب من ظهور الفينيقيين.⁵

¹ جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، (تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة)، مؤسسة تاولت الثقافية، 2001، ص. 66-67.

² أكصيل، المرجع السابق، ص. 150.

³ عطية، كيجل البشير، عادات الدفن وتقديم القرابين عند الإنسان المغربي القديم، المقال رقم 04، مقال منشور بالموقع الإلكتروني التالي:

http://www.archaeologic.net/files/files_i50_dafen2.pdf

⁴ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 151.

⁵ كامب، المرجع السابق، ص. 116.



الصورة رقم (06): حوانيت محفورة في حجر صواني (سجنان تونس) غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، 2014، ص: 112

- **الكرملك:** هو مدفن له شكل مستدير يحيط به سور، ويبلغ قطر الدائرة خمسة أمتار، قد يكون الشكل بيضويا وقلما يكون رباعيا، أما السور فيتكون من مواد خشنة، أو تناولها النحت للتزيين قليلا، وأحيانا تكون الأحجار المغروسة في الأرض منتصبة متماسكة، أو قد تتباعد عن بعضها البعض قليلا، ويحدث أن إحدى الأحجار قد تقوت الأخريات، فتكون علامة لمعرفة القبر، وأحيانا أخرى توضع الأحجار منبسطة كأحجار حافة البئر¹.
- عُرف كذلك هذا النوع من المدافن باسم الدوائر الحجرية؛ حيث أن لها شكل دائري، وتتشكل من حجارة صغيرة قليلة التزيين تحيط بالجنوة التي تضم غرفة جنازية على شكل حفرة عميقة نوعا ما في مركز الدائرة الحجرية، وقد رجح أن تكون هذه الدوائر الحجرية قد استعملت لأغراض غير الدفن؛ كعرض الجثة قبل دفنها أو كمذبح لحرق الجثث². ويعتقد أن بقايا هذه الدوائر التي تم العثور عليها فيها ما هو مخصص لحظائر الماشية، وسياجات لأكداس العلف، ومخازن للتبن، وأساس للمنازل، وحياطات للخيام، أو كانت على الخصوص أسوارا تحيط بأماكن مقدسة في

¹ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 159.

² عطية، المرجع السابق، ص. 9.

العراء، ولكن عندما تكون في حالة جيدة فإن الكرملك الجنائزية تتميز من بين هذه المباني المختلفة بانعدام وجود ممر يفضي إلى الداخل بحيث أنها تكون دوائر تامة¹.

- **الثلاث الجنائزية:** هي عبارة عن تصميم دائري، وقد تكون بيضوية في الغالب، وأحيانا مربعة، ونادرا ما تكون سداسية التصميم، ولها شكل مخروط أو هرم، والأغلب هو المخروط والهرم الناقص؛ أي بقيمة منبسطة. أما العلو فمتغير جدا، ولربما أنه ينخفض مع الزمن، والمقابر المستديرة لها قطر يتراوح بين خمسة وستة أمتار. وتتواجد الثلاث الجنائزية في موسم القطر الجزائري وشرقه، إذ يطلق عليها الأهالي هناك اسم بزينا Bazina، وهي لفظة بربرية معناها الأكمة Butte، أما بالجنوب وبالصحراء فيستعملون اللفظ العربي "الرجم" "Redjem" أي كدس الحجارة، كما يستخدمون لفظا آخر هو "الكركور" "Kerkour" الذي له نفس المدلول².
- كان سكان المغرب القديم يودعون موتاهم الخيام في الهواء الطلق في عصور ما قبل التاريخ، وأصبحوا يدفنونهم بعيدا عن الأماكن المسكونة تحت رجام مخروطية الشكل من الحجارة كلها، أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب وتسمى بازينة³.

والنوع نفسه أشير إليه تحت اسم التيموليس أو الجنوة، وهي عبارة عن ركام حجري مخروطي يوضع فوق جثة الميت من أجل حفظها وحمايتها قاعدته تتراوح بين (5 - 20 متر)، وهي ذات أشكال بيضاوية أو مربعة وأحيانا تأخذ شكلا مدرجا. ويمكن أن نميز بين نوعين من الجنوات في بلاد المغرب القديم هما:⁴

- ✓ الجنوة البسيطة: تعتبر الأكثر انتشارا في بلاد المغرب، وتوجه للدفن الفردي والجماعي، مشكلة عموما من الحجارة الممزوجة بالتربة، يتراوح قطرها بين (10 و 22 متر)، أما الارتفاع فيتراوح بين (2 و 4.5 متر).

- ✓ البازينا: جنوة بسيطة شهدت تطور مس تهيئة القبر ببناء الصندوق الجنائزي الذي أصبحت توضع فيه الجثاوي، كما تطور مظهرها الخارجي كثير بعدما أصبح البناؤون يهتمون برصف الحجارة وتنظيمها بإحكام عكس ما كان يعمل به سابقا، فصارت الجنوات تتميز بكساء خارجي ذي أشكال هندسية متنوعة، وتنتشر هذه البازينات على نطاق واسع في شمال إفريقيا، وتتركز في الشرق الجزائري بصورة كبيرة.

¹ أكصيل، المرجع السابق، ص. 159.

² أكصيل، المرجع نفسه، ص. 162.

³ جوليان، المرجع السابق، ص. 67.

⁴ عطية، المرجع السابق، ص. 7-8.

تلتحق بالبازيئات أبنية مخصصة للعبادة المقابرية، وأكثر هذه الأبنية بساطة هي "هياكل" دائرية بارتفاع ما بين 0.8 و 1 متر، قد جعلت قبالة البازينة من جهة الشرق بأعداد متغيرة¹.



الصورة رقم (07): جثوة ذات مصلى (تافيالنت، المغرب)
غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، 2014، ص: 119

إن التلات الجنائزية المنتشرة بشمال افريقيا ليست جميعها آثار جنائزية، فالبعض منها يظهر وكأنه كان أنصاب حدود، كما أن بعض البزينات كانت علامات ترشد المسافرين إلى الطريق التي ينهجونها في الجهات الصحراوية، وبعض منها تكون على مهل بمختلف الجهات التي كانت فيها المعتقدات الخرافية تلزم كل إنسان يمر بها أن يرمي حجرته. هكذا يشترك الجميع في تضخيم التلة، ولربما أن البعض منها كان أحجارا مبعثرة في الحقول، وأن الفلاحين تخلصوا منها بأن جعلوها أكدا².

عموما، فإن هذا النوع من المدافن استعملها الأفارقة كضمانة لحماية القبر، إذ أن التلات الجنائزية المبنية بالحجر - سواء أكان ذلك بقطع صخرية أم بحجر كبير أو صغير - قد قاومت الزمن

¹ كامب، المرجع السابق، ص. 277.

² أكصيل، المرجع السابق، ص. 161-162.

طبعاً أكثر من أكداًس التراب، فمزيتها أنها أحسنت حماية ضيوفها، كما أنها جعلتهم في سجن أكثر أماناً¹.

• **الدلمين:** وهو لفظ من البروطونية السفلى Bas-Breten، استخدمت فيها الحجارة الضخمة جداً، وخصوصاً منها الحجارة المائدية العليا الموضوعة على الحملتين لتغطي الفراغ بينهما، ونجد أن الخانة المكونة للدلمين هي عبارة عن صندوق متين، ودائماً ما تكون هذه الخانات رباعية الشكل، وقد يكون منها ما هو شبيه المنحرف، أو بيضوي الشكل. هذا الأخير متطاول لا مربع، والأبعاد الاعتيادية هي 1.20 إلى 1.50 متر طولاً، على 80 سنتيمتر إلى متر واحد عرضاً، على 80 سنتيمتر إلى 1.20 في الارتفاع².

إن الدلمين هو بناء صخري مكون من أربعة جدران تعلوها صفيحة صخرية كغطاء أفقي للغرفة الجنائزية، وهي مختلفة الأشكال والأحجام، كما أن أغلب دولمينات شمال إفريقيا مستطيلة الشكل³.

تعتبر كل الدولمينات مغطاة بمائدة، وحينما لا توجد المائدة اليوم فإنها إما تكسرت، أو أخذها الذين يبحثون عن مواد للبناء. وتكون المائدة موضوعة أفقياً على البلاطات الحجرية أو على الحيطان التي تحملها، أو تكون إلى حد ما مائلة وذلك حينما تتكئ من الخلف على الصخرة لا على حاجز مصطنع⁴.

جرت نقاشات كثيرة عن أصل الدلمين، فهناك من يرى أنه تقليد للمغارة، بينما يذهب آخرون إلى اعتقاد أنه تقليد للمنزل. ويمكن القول إن أصل هذا النوع من المدافن كان من الجزر الإيطالية وشبه الجزيرة الإيبيرية؛ حيث عبر من الجزر الإيطالية وجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية إلى إفريقيا نوعان من المدافن المميزة هما: الحوانيت والدلمينات، وبعض الأشكال الخزفية والفخاريات المزوقة التي ما زالت تصنع إلى اليوم بأيدي العديد من السكان القرويين⁵. وخلافاً لذلك يمكن اعتبار أن حب دفن الموتى في صندوق قوي جداً قد يكون فيه تفسير كاف في اختيار المواد البنائية والطريقة التي استعملت بها⁶.

¹ أكصيل، المرجع السابق، ص. 161.

² المرجع نفسه، ص. 166.

³ عطية، المرجع السابق، ص. 8.

⁴ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 169.

⁵ كامب، المرجع السابق، ص. 116.

⁶ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 173.

وعكس التلات الجنائزية المنتشرة عند الأمازيغ فالدمينات لم تعرف انتشارا واسعا، إذ لا يعثر في كل مكان ببلاد "البربر" على الدلمينات، فأكثرها يوجد بجوار الساحل من الشمال الغربي للمغرب، وبغرب الجزائر ووسطها، وتكثر في ولاية قسنطينة وبالقطر التونسي. وينعدم وجودها بالبراري Steppes الجزائرية كما لا توجد بالصحراء، حيث كان من السهل إقامتها لأن هذه المنطقة تعطي عن سعة صخورا تتجزأ إلى بلاطات كبيرة، وبهذا فليس وجود المواد البنائية المناسبة هو الذي دعا الأهالي إلى إقامة الأنصاب الحجرية الضخمة (الميجالية Mégalithiques)¹.

• شوشة: هو لفظ عربي جمعه شوشات، ومعناه طربوش أو طاقية، ويطلق على مدافن لها شكل برج Tour، أي أسطوانات يبلغ قطر دائرتها على العموم خمسة أمتار، وعلوها يبلغ مترين ونصف المتر، جدرانها سميكة باستثناء الوسط الذي توجد به الخانة الجنائزية في القسم الأعلى من النصب. فهي إذن عبارة عن مدافن دائرية عالية تصل حتى (3 أمتار) مع قطر بين (3 إلى 5 أمتار) مبنية بحجارة مرصوفة بإحكام، وفي عمقها نجد الغرفة الجنائزية التي تتضمن جثة منطوية جردت من اللحم، وأرفقت بفخاريات مملوءة بالغذاء، إضافة إلى الأسلحة والحلي وغيرها من المرفقات الجنائزية².

وتنتشر الشوشات في مقاطعة قسنطينة وعلى الخصوص بشمال الحضنة بالأوراس، وكذلك في الصحراء عند "البربر" الرجل نجد هذه الشوشات، والبروج ذات المداميك التي أقيمت بإتقان أكثر مما في التلات الحجرية الموجودة بكثرة في هذه المنطقة، فربما أنها مدافن خصصت للأعيان، جعلت عن قصد في المواقع المرتفعة والعارية كالهضاب والذرى المشرفة على الشعاب³.

يمكن اعتبار هذه البنايات الجنائزية الضخمة ملجأ آمناً لهؤلاء الموتى؛ إذ كانوا بها مصونين عن التغيرات السيئة لأحوال الطقس، وعن الحيوانات المفترسة التي كانت آنذاك كثيرة بإفريقيا، وكذلك عن الناس الذين يضمرون الشر. ومن ناحية أخرى تعتبر هذه القبور سجوناً حقيقية، إذ لا توجد بها أي فتحة للخارج، جرمها وجدرانها قوية إلى حد يمنع نازليها من الإفلات منها، ومن الاختلاط بالأحياء وإزعاجهم بمختلف الطرق، ومن مطالبتهم بالخيرات التي يملكونها بأنفسهم⁴.

¹ أكصيل، المرجع السابق، ص. 174.

² عطية، المرجع السابق، ص. 9.

³ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 176.

⁴ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 207.

2.3. الأثاث الجنائزي

يعد الأثاث الجنائزي من أهم الشواهد الأثرية التي تستعمل في دراسة الطقوس والمعتقدات الدينية وتأريخها، كما بينت أيضا علاقة الإنسان الميت بالبيئة التي عاش فيها؛ حيث كان يوجد مع الجثة المدفونة أثاث متركب خاصة من آنية خزفية، وأدوات عادية لتسيير حياتها المادية، وتمائم ذات مفعول سحري. ولا شك أن القرطاجيين كانوا يؤمنون مثل بقية الفينيقيين بمقام مشترك للآموات ربما يشبه في كآبته "الشول" العبري، غير أن علم الآثار لا يسمح بتدقيق ما يعتقد القوم في مصير الموتى¹. هكذا يمكننا اعتبار الأثاث الجنائزي الشاهد على قدم ما يمكن أن نسميه بالحضارة القروية البربرية التي كان لها وجود منذ ذلك العهد²، من خلال ذلك يمكن أن نسجل عدة أنواع من الأثاث أهمها:

- **الفخار:** إذ يشكل النصب الأكبر من المرفقات الجنائزية، ويمكن تصنيفه إلى صنفين وذلك حسب أدواره من ناحية، ومن ناحية أخرى على أساس شكله وحجمه؛ فالأول ممثلة في الأقداح، الجفان، والكؤوس، وهي آنية المائدة الأساسية المعدة للأطعمة السائلة التي يتم شربها مباشرة بأخذ القدر أو الكأس بملء اليد، أما المجموعة الثانية تستعمل للأطعمة الجافة وتتكون من شكلين من الأطباق (طبسي)؛ أحدهما أعمق بشكل مخروطي يتميز على "المشرب" باتساع حافته، أما الآخر فهو ذو قاعدة مستوية وحافة أقل اتساعا وكثير الشبه بأطباقنا القديمة العميقة التي ليس لها حافة، ودورها تقديم القرابين الغذائية³.
- **الحلي:** يتألف معظم الأثاث الموضوع في المقابر زيادة على الفخار من حلي ومجوهرات، بالإضافة إلى بعض الأسلحة القليلة التواجد. فبالنسبة للمجوهرات نجد الحلي غير المألوفة، والمشتملة على الأساور والخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو من البرونز، كما نجد كذلك بعض الأسلحة القليلة من الحديد أو البرونز، والمقتصر وجودها على المدافن التي في وهران وفي شرق المغرب⁴. ومن جهة أخرى يمكن القول إن العديد من المدافن لا يصحب فيها الموتى أي أثاث، وفي البعض الآخر يكون موجودا لكنه فقير جدا، إذ يشمل على بعض أدوات الزينة كالفلائد والخواتم وحلقات السيقان، وأيضا أدوات فخارية كالقصر وأقداح وقدر وصحون⁵.

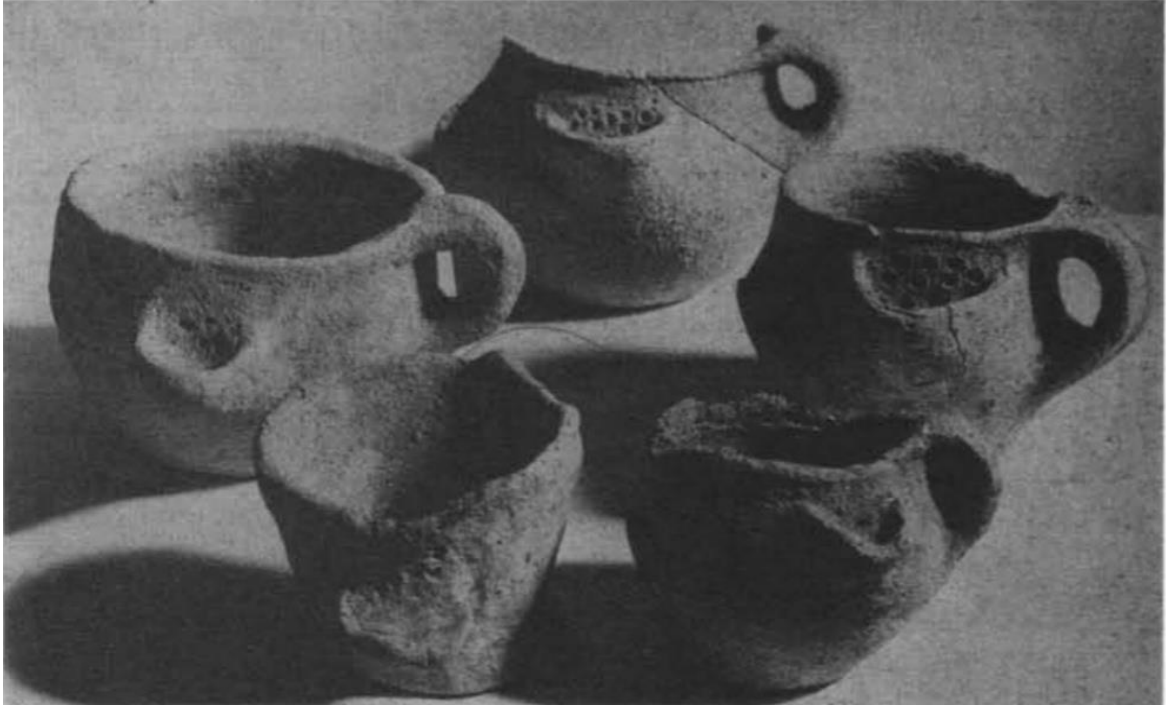
¹ جوليان، المرجع السابق، ص. 101.

² كامب، المرجع السابق، ص. 112.

³ كامب، في أصول بلاد البربر أو بداية التاريخ، (تعريب: العربي عقون) الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، 2009، ص 126-127.

⁴ كامب، المرجع السابق، ص. 112.

⁵ أكصيل، المرجع السابق، ص. 190.



الصورة رقم (08): فخريات من مقبرة قسطل
غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، 2014، ص: 330

ويبدو أن الأواني الطينية المستخرجة من المقابر كانت تحتوي أطعمة جارية أو جافة؛ حيث يعتقد أن الميت كان في حاجة إليها، وفي ما بعد أصبحت تترك هذه الأواني وهي فارغة ليس لها إلا معنى رمزي. وحول نوع الأطعمة المستخرجة في بعض المدافن والتي كانت تقدم للموتى توجد عظام طيور صغيرة حتى اليوم في قعر بعض القدور والصحاف، كما توجد في جهات أخرى عظام للكباش والثور والخنزير والطيور، وقطع من بيض النعام، كما يعثر في القبر أحيانا على رماد وقطع من الفحم¹.

من ناحية أخرى يمكن القول إن هذه الأنصاب المقبرية لم تشمل جميعها على فخاريات، وأن التي تحتوي على فخاريات لم تكن موزعة بصورة اعتباطية؛ حيث تنتشر فقط في خليج الحمامات في تونس، وجنوب نمشة على الحدود الجزائرية التونسية، ومدينة الجزائر، وفي اتجاه الغرب تتكون مجموعة أقل اتساعا، تمتد من مرتفعات الشلف إلى منطقة وهران، كذلك أنصاب في منطقة تحدها تازة، وطنجة ووادي سبو. إن هذه المقابر تكون نطاقاً معلوماً للجغرافيين وعلماء الزراعة، ذلك هو النطاق الذي تكونه الزراعة

¹ أكصيل، المرجع السابق، ص. 190.

البورية للحبوب. ويدل تواجد هذه الأنصاب المقبرية داخل هذه المنطقة، على أن السكان الذين قاموا بصنع هذه الآنية ووضعها في القبور كانوا من السكان المقيمين¹.

في حين ترجع المقابر التي تحتوي القطع الفخارية لدى الجرمنتيون وهم سكان جنوب ليبيا القدماء إلى زمن الرومان، وغالبا ما تكون هذه القطع عبارة عن فخار خزفي جميل وزجاج من نوع جيد _ فهي على العموم أكثر تماسكا_ وتقع أحيانا على أسفل الجرف وأحيانا في مركز الوادي، وفي هذه القبور توجد الشواهد وموائد القرابين المشهورة والمميزة التي كانت توضع عموما على الجانب الشرقي من القبر².

3.3. وضعيات الدفن

يعتبر تنوع وضعيات الدفن لدى سكان المغرب القديم دليلا على أن هذه المنطقة عرفت طقوسا جنائزية منذ عصر ما قبل التاريخ، كما يبين ذلك مدى اهتمام سكان هذه المنطقة بوضعية دفن موتاهم، وإن تعددت هذه الوضعيات التي نعرضها على الشكل التالي:

- **الوضعية المنطوية:** هي وضعية معروفة لدى جميع الحضارات، ولا يقتصر وجودها على شمال إفريقيا فقط، وتتمثل في وضع الميت على جانبه الأيمن أو الأيسر وأطرافه السفلى مثنية باتجاه البطن، والأطراف العليا ملتصقة بالصدر، وتشير أوضاع العظام وحالاتها إلى أن الأجسام كانت على الوضع المثني، وهي عادة قديمة جدا لوحظ وجودها منذ العصر الحجري القديم بالماوي تحت الصخور «Abris sous roches»، كما توجد في العديد من المدافن التي هي أحدث عهدا كالتلات والدلمينات وفي الكرملك والشوشات. وتتواجد الأموات المثنية أبدانهم في النواويس «Hypogées» التي هي من شكل فينقي بالساحل الشرقي للقطر التونسي، وهي مدافن عزاها أثاثها للقرنين الثالث والثاني ق.م، حيث عثر عليها بطبرسق في كهف يؤرخ تقريبا بأواسط القرن الميلادي الأول، ويعثر عليها في قبور بها نقود قرطاجية ونوميديّة وخزف بونيقي وروماني. كما أن الوضع المثني معتاد في تلات الصحراء، والإسلام هو الذي جعل الطوارق يتخلون عنه³.
- **الوضعية الجنينية:** يطلق عليها أيضا وضعية القرفصاء، وتكون عن طريق ربط الجثة، حيث تجعل الركبتين واليدين يصلان الوجه وذلك ما أشارت إليه التقارير التنقيبية لموقع ضريح (تين هنان Tin Hinan) على سبيل المثال لا الحصر، حيث عثر على هيكل عظمي رأسه موجه

¹ كامب، المرجع السابق، 113-114.

² وانيلز، تشارلز، الجرمنتيون سكان جنوب ليبيا القدماء، (تعريب: أحمد البازوري)، طرابلس، دار الفرجاني، 1991، ص. 54.

³ أكصيل، المرجع السابق، ص. 182.

نحو الشرق، ورجليه منطويتان ومربوطتان، بالإضافة إلى لف جثة الموتى داخل جلد حيواني في أحيان أخرى¹. وأثناء رحلته إلى إفريقية لاحظ الرحالة التيجاني أن أهل قرية قريبة من غمراسن يعرفون بالمقدمين كانوا لا يدفنون موتاهم إلا "على هيئة الجالس في كهوف متسعة يحفرونها لهم". ويتأكد الدفن عندهم على هذه الصفة إذ أن من توفي وترك ولدا فإنهم يقولون: "عز الولد لا ينقطع ما دام أبوه جالسا"².

• **الوضعية الممددة:** في هذه الوضعية يدفن الميت ممدا سواء على جانبه الأيمن أو على ظهره، ويعتقد أن سكان المغرب القديم اقتبسوا هذه العادة من الإغريق، ويدعم ذلك إشارة هيردوت إلى ممارسة هذا النوع من الدفن عند الليبيين في القرن الخامس قبل الميلاد؛ حيث كان الرجل يدفنون أمواتهم كالإغريق، باستثناء "النامونيين" الذين يدفنونهم جالسين، ولذلك فهم يحرصون على أن يكون الشخص جالسا عندما يسلم روحه ومنعه من الموت ممددا على ظهره³. وخلافا لذلك فإن الاكتشافات الأثرية لمدافن تافوغالت ومنطقة طنجة بينت أن أغلب المجموعات البشرية الأمازيغية هم أيضا دفنوا موتاهم على طريقة النامونيين⁴.

لقد أعطى الباحثون تفسيرات مختلفة لهذه الوضعيات خاصة المنطوية؛ فبعضهم يرى أنها استخدمت قصد الاقتصاد في مساحة بناء القبور والاكتفاء بحفرة ضيقة، وركام صغير، إذ نجد أن مقاييس الحوانيت ضيقة خاصة الأكثر قدما، بل هي أصغر من أن تكون قد اتسعت لرجل متمددا، وحيث أنه لا يعقل أن تكون هذه الحجرات جميعا خصصت للأطفال فلا بد من التسليم بأن الموتى قد وقع طيهم وفقا لعادة كثيرة الوجود بإفريقيا منذ العصور البعيدة⁵. والبعض الآخر يعتقد أن الخوف من رجوع الميت لإفساد حياة الأحياء هو السبب الرئيسي في اختيار المغاربة القدماء لهذه الوضعية، ويعلمون رأيهم بالقيد الذي يخضع له الميت حتى لا يقوى على الحركة والقيام، حيث يعتقد أن طي الأجسام وخلط العظام ربما يترجم فزعهم من رجوع الموتى⁶، كذلك تفسر طريقة الدفن النامونية بأنها اتبعت خوفا من عودة الميت من العالم الآخر، وليس أي ميت بل الميت الذي قد يضر بالمجموعة، لأن النامونيين عُرِفوا بأنهم كانوا

¹ بن عبد المؤمن، محمد، عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة وهران، الموسم الجامعي: 2011-2012، ص 93.

² السحيري، صوفية بن حنيرة، الجسد والمجتمع دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، تونس، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، 2008، ص. 334.

³ أعشي، مصطفى، أحاديث هيردوت عن الليبيين (الأمازيغ)، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2009، ص. 75.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ أكصيل، المرجع السابق، ص. 150-151.

⁶ جوليان، المرجع السابق، ص. 67.

يلجؤون إلى قبور أجدادهم الطيبين ويقسمون بهم، بل ويطلبون رأيهم في العديد من القضايا، وهي نفس العملية التي تقوم بها النساء لدى التوارك بحثا عن أخبار أزواجهن الغائبين.¹ أما الوضعية الجنينية فتترجم رغبة الأحياء في التعبير على أن الميت هو عبارة عن جنين في بطن أمه؛ أي أنها ترمز إلى عودة الإنسان إلى أصله ومنشئه، وأنه سيحيى حياة أخرى. وفي هذا السياق نجد أن "الجارامنتيون"، يعتقدون أن الدفن في هذه الوضعية كان من ورائها انتظار الميت لميلاد جديد وحياة أخرى، واستمرت هذه الطريقة في الدفن حتى العصور الوسطى، واكتشفت في العديد من مناطق بلاد المغرب القديم، كالجثة التي اكتشفت داخل كهف وادي القيثارة غرب وهران في وضعية دفن منكشمة.²

هكذا اختلفت الآراء في طقس ثني الموتى؛ فالبعض يفسره بوجود اهتمام بتصغير حجم القبور، والبعض الآخر يرى فيه وضعا للنوم، أو وضع استراحة، استراحة للجلوس على الطريقة الشرقية، وهناك من يعتقد أن الميت يكون قد وري في بطن أمه الأرض، بإعطائه وضع الجنين في بطن الأم مع الأمل الجازم بأنه يبقى منتظرا على نفس الحال وقت ولادته من جديد.³

4.3. إحراق الموتى

يبدو أن طقس إحراق الموتى كان طقسا استثنائيا بمنطقة شمال افريقيا، إذ أنه لم يعرف انتشارا واسعا، حيث يعتبر هذا الطقس أصلي بمنطقة وهران الجزائرية التي كانت المهدي للقوة الماسيسلية Masaesle، وهو شيء يكاد يكون مجهولا في المناطق الأخرى من المغرب الكبير، وكذلك الشأن في عملية وضع الأسلحة داخل القبور.⁴

وجد هذا الطقس كذلك بضريح الخروب Khroube الراجع لأواسط القرن الثاني ق.م في إحدى التلات التي بنيت حول المدغاسن Medracen، الضريح الملكي الذي يبدو أنه يؤرخ على أبعد حد بالقرن الثالث، وكذلك في بعض القبور الأخرى والدلمينات والتلات.⁵ هكذا تم اعتماد شعائر دفن مميزة كتعزية الجثة من اللحم وترميد الميت L'incinération، واستعمال المغرة الحمراء (L'ocre-rouge) وهي تراب صلصالي يستخدم في التخصيب يدهن بها الإنسان موتاه ويلون بها جسمه أيضا.⁶

¹ أعشي، المرجع السابق، ص. 75.

² بن عبد المؤمن، المرجع السابق، ص. 94.

³ أكصيل، المرجع السابق، ص. 207.

⁴ كامب، المرجع السابق، ص. 122-123.

⁵ أكصيل، المرجع نفسه، ص. 184.

⁶ عطية، المرجع السابق، ص. 4.

وحول أصل الطقوس يعتقد أن بعض الأهالي قد اقتبسوه عن الفينيقيين الذين هم أنفسهم اقتبسوه من الإغريق حوالي القرن الثالث ق. م. إذ أنه في بعض المدافن الموجودة في الأراضي المتاخمة للجزائر والمغرب قد وقع ما يحتمل إحراق الموتى في نفس الموقع الذي بنيت فيه من بعد البازينا Bazina على البقايا¹، كذلك نجد أن سكان شمال إفريقيا قلدوا القرطاجيين واليونان فحرقوا في بعض الحالات الاستثنائية بعض موتاهم ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد.² هكذا ورغم أن الدفن هو الطريقة المعمول بها لمدة طويلة، فإن عادة إحراق الموتى لم تكن مجهولة لدى القرطاجيين، حيث انتشرت تحت تأثير اليونان في القرن الرابع، ثم فرضت نفسها في آخر الأمر³. أما لدى الجرمنتيون فلم يعثر إلا على حالتين من حالات إحراق الموتى، وذلك غرب ما يسمى ضريح جرمة، حيث وجد رماد رجل وامرأة موضوع في أمفورتين⁴ قرب أسفل الضريح⁵.

هكذا نرى أن الطقوس الجنائزية قد تعددت في بلاد المغرب القديم، وذلك راجع بالأساس إلى طبيعة المنطقة ومناخها، حيث مارس الإنسان القديم الدفن في أماكن مختلفة، كالحوانيت، والدلمنات، والشوشات والبازينا. وبوضعية متنوعة تمثلت في الوضعية المنطوية التي يكون فيها الميت منطويا في قبره، والوضعية الجنينية حيث يكون فيها الميت على هيئة جنين في بطن أمه، ثم الوضعية الممددة ويكون فيها الميت ممددا داخل القبر، دون أن ننسى إيمان الإنسان في بلاد المغرب القديم بوجود حياة أخرى بعد الموت، ذلك ما جعل أهله يضعون معه في القبر بعض الأثاث الجنائزي، الممثل أساسا في الحلي والفخار، اعتقادا منهم أن الميت سيحتاج ذلك في حياته الأخرى.

¹ أكصيل، المرجع السابق، ص. 188.

² جوليان، المرجع السابق، ص. 67.

³ المرجع نفسه، ص. 101.

⁴ الأمفورة: هي قارورة يونانية ضيقة العنق مستطيلة الشكل.

⁵ وانيلز، المرجع السابق، ص. 54-56.

II. الموت والطقوس الجنائزية في الخطاب الديني

يوجه الخطاب الديني منذ القديم مجمل أمور حياة الإنسان الاجتماعية وينظمها، ومن هذه الأمور التي تهمنا كموضوع للبحث: الموت والطقوس الجنائزية، حيث توليها الديانات السماوية الثلاث (الديانة اليهودية، المسيحية، والديانة الإسلامية) أهمية كبيرة، فلا يعتبر وضع الميت في الأكفان ودفنها في المقابر مجرد واجب عائلي، بل هو فرض ديني بالغ الأهمية، إذ تتفق هذه الديانات بصفة عامة على أن الموت أمر لا مفر منه لجميع البشر، كما تتفق على وجود حياة أخرى بعد الموت، هناك من يسميها يوم الحساب، أو يوم القيامة، أو يوم الدينونة، أو يوم الرب، ويشمل الاتفاق كذلك البعث، الحساب، والعقاب، الجنة والنار، وما إلى ذلك من الأمور الأخروية.

وتتميز الطقوس الجنائزية في الديانة اليهودية بالبساطة، وسبب ذلك اعتقاد اليهود بأن الموت ما هو إلا عقاب على المعاصي والذنوب التي يرتكبها الإنسان، ذلك ما جاء في الكتاب المقدس (العهد القديم): "... فجتكم أنتم تسقط في هذا القفر وبنوكم رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جنتكم في القفر، كعدد الأيام التي تجسستم فيها أربعين يوماً للسنة، يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي أن الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتففة علي، في هذا القفر يفنون وفيه يموتون"¹.

أما المسيحية فتعتقد أن سبب الموت هو الخطيئة الأولى التي ارتكبها آدم عليه السلام، واستدلوا على ذلك بمجموعة من النصوص منها: "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت"² ورغم ذلك نلاحظ تشبث المسيحيين بالحياة الدنيا، ويتجلى ذلك من خلال مظاهر التزيين في الطقوس الجنائزية باستعمال الزهور والشموع واللباس الأنيق.

وبخصوص الديانة الإسلامية فتميز بالبساطة في طقوسها الجنائزية، شأنها في ذلك شأن الديانة اليهودية، ويتبين ذلك جلياً من خلال مشهد الدفن، إذ لا يجوز في الإسلام تزيين القبر أو البناء عليه حيث روى مسلم من حديث جابر قال: "نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه"³.

¹ سفر العدد 14: 29-34.

² تكملة (2: 17).

³ ابن قدامة المقدسي، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، الجزء الثالث، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو، الرياض، دار عالم الكتب، 1997، ص. 439.

1. الجنائز اليهودية

تصب الديانة اليهودية جل اهتمامها على تكريم الموتى بشكل كبير؛ إذ تقام الصلوات على المتوفي طيلة أيام السنة، ويقابل كلمة "موت" في العبرية كلمة "مافت" التي تعني إله الموت في العبادة الكنعانية القديمة الذي كان دائما يصارع "بعل" إله المطر والخصب، ويعود "بعل" في شهر المطر، ويموت في نهايته، أما "مافت" فيعود إلى الحياة حينما يتوقف المطر، ويموت حينما يهطل مرة أخرى، وهذه رؤية تجسيمية للإله وجدت طريقها إلى العهد القديم، إذ ينظر إلى الموت باعتباره قوة مستقلة عن الإله وله رسله¹.

وسبب الموت في الديانة اليهودية كان نتيجة الخطيئة، وعقابا من الله على الذنوب التي يرتكبها الإنسان، حيث يعتبر موت المرء الطاعن السن وفي عمر جليل نعمة، أما أن يموت شابا أو في زهرة العمر فتلك مصيبة ولعنة من اللعنات². كذلك يعتبر الموت عقابا على معصية آدم (الأولى) التي طرد بسببها من الجنة، فلم يعد بمقدوره أن يأكل من شجرة الحياة الأزلية³. من جانب آخر فالموت نعمة عندما يتعلق الأمر بمؤمن تقي زاهد في ملذات الحياة، واللامبالي بتفاهتها؛ حيث يعتبرها لحظة من التعظيم والإجلال، فهي بالنسبة إليه باب يطل على العالم الجديد: الحياة الأخروية؛ إنه طريق نحو نعيم الآخرة الذي يهفو إليه كل مؤمن تقي⁴.

يسبق حدوث الوفاة في المعتقد اليهودي سقوط ورقة من شجرة الحياة المنتصبية تحت عرش الإله بين يدي عزرائيل قبل أربعين يوما من الأجل المحتوم، معلنة عن نهاية كائن بشري وعندما يتعلق الأمر بموت أحد الأتقياء، فإن عزرائيل يتقدم أمامه مصحوبا بمجموعة من ملائكة الرحمان يحملون أطيب عطور الجنة، ويسعون أن تنسل الروح من الجسد كما تقطر القطرة من دلو ماء⁵.

لدراسة كل ذلك سنعمل في هذا المبحث على جرد الطقوس والعادات الجنائزية التي تمارس في الديانة اليهودية من خلال الطقوس التالية: الاحتضار، التطهير، التكفين، الدفن والموارة، ثم أخيرا الحداد. فكيف إذن يتعامل اليهود مع موتاهم من خلال هذه الطقوس؟ وماهي دلالتها الرمزية في الديانة اليهودية؟

¹ أفقيهي، مريم، الفضاء الجنائزي اليهودي بمدينة الدار البيضاء، منشورات الزمان، 2015، ص. 24.

² الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987، ص. 96.

³ أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 30.

⁴ الزعفراني، المرجع نفسه، ص. 95.

⁵ الزعفراني، المرجع نفسه، ص. 100.

1.1. الاحتضار גסיסה

الاحتضار هو آخر موقف يعيشه الإنسان في لحظات حياته، لأنه يفصل بين عالمين، عالم الحياة وعالم الموت؛ لذلك يولي اليهود اهتماما كبيرا بالشخص المحتضر، حيث تنص التقاليد اليهودية على ضرورة عيادة المرضى، والعناية بهم قصد التخفيف عنهم والدعاء لهم بالشفاء. فعندما يبدأ الاحتضار لا يجب ترك المحتضر وحده أبدا، إذ يبقى معه شخص يسمى بالشومير (المرافق) يرافقه ابتداء من الوقت الذي يحتضر فيه مروراً بلحظة وفاته إلى أن يوارى في اللحد، وفي ذلك اعتقاد بأن هذا المرافق يبعد عنه الأرواح الشريرة التي تطوف حوله؛ وذلك بتلاوته لبعض الأدعية والابتهالات الصوفية¹. وتعتبر بذلك زيارة الأقرباء والجيران والمعارف من الأعمال المبررة التي يقدم عليها الجميع لمساعدة المحتضر على الصلاة، والعودة إلى الله بالتضرع وإسداء النصيحة والموعظة، وبذلك يلتحق الحاضرون بشكل متراس حول المحتضر منعاً لاقتراب أي روح غريبة منه، كما توقد شمعة عند رأسه وتفتح نوافذ الحجرة؛ حيث يعتقد اليهود المغاربة أن موكب ملاك الموت يدخل منها، وأيضا منها تخرج روح الهالك مع آخر نفس².

وما دام المحتضر على قيد الحياة فلا يجب الشروع في أي تحضيرات توقعا لحدوث الوفاة في أية لحظة، حيث لا يجوز اعتباره ميتا، بل هو حي في كل الأحوال، فلا ينبغي أن تشد فكاه، ولا أن تغلق منافذه، ولا أن تسحب المخدة من تحت رأسه أو يبسط على الأرض ليوضع على بطنه وعاء مملوء بالماء، أو حبة من الملح، أو تغلق عيناه، كما لا ينبغي كذلك أن تستدعي النائحات المحترفات (قبل أن تخرج روحه)، ومن تصرف بشكل آخر يعتبر قاتلا³. لذلك يترك المحتضر كما هو لا يغلق له فم ولا عين ولا أي شيء آخر يدل على استعجال موته، وأثناء ذلك تكون أسرته مدعوة للإحاطة به، إذ لا يستقيم تركه وحيدا في مثل هذه اللحظات، حيث يكون مدعوا للاعتراف والنطق بالشهادة: "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد"⁴، وتوضع الكتب الدينية بين يدي المحتضر وكل ما يمكن أن يقوم به من أشكال الخضوع للإرادة الإلهية، ومن الأدعية التي يرددها: أعترف أمامك يا الله، انت ربي وإله آبائي، إن شفائي

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 45.

² المرجع نفسه، ص. 148-149.

³ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 101.

⁴ التثنية 6: 4-6.

ومماتي هما بين يديك، إن تشفيني فأنت على ذلك قدير، وإن تتوفاني فاجعل مماتي كفارة لما ارتكبته في حقك من ذنوب، وما انتهكته من حرملك، واجعل لي مقعداً من جنات عدن واذكرني في زمرة الصديقين¹.

مع اقتراب ساعة خروج الروح يعترف المحتضر بآثامه شفاهياً (تمتمة على الشفاه)، أو في قلبه دون حضور النساء والأطفال الذين يعكرون بصياحهم ونحيبهم جلالاً وقدسيتها هذه اللحظة، بعدها يودعه الحاضرون ويتسامحون معه ليبوح بآخر رغباته، ثم يردد: "الكل من تراب والكل إلى تراب"². يحضر بعد ذلك طست لتغسل فيه يده وينطق بالدعاء المتداول، ثم يغطون رأسه بخمار الصلاة (طاليت) وينطق بالشهادة: "إله الخالد حق وتوراته حق وموسى نبيه حق، وأقوال الحكماء حق، تبارك عزة الله وملكوته أبد الأبدية". وتأتي شعيرة خاصة تتضمن تلاوة فقرات من العهد القديم ومن المزامير وشعر حزقيال³.

يتبع لحظات خروج الروح إخوان الرحمة، وهم عناصر جمعية خيرية (الحبرا)، حيث لا يفارق اهتمامهم حركات العيون والأجفان أو رعشات الشفتين، ليقروا بذلك تلاوة الدعاء الأخير الذي يوحد الله: "اسمع يا إسرائيل، الله الدائم ولا رب سواه"⁴، وما أن تلاحظ الجماعة الدينية أن حياة المريض على وشك الانطفاء، حتى يشرعوا في ترتيل بعض الأدعية من نص شماع إسرائيل، وفي حالة الموت تقرأ أدعية أخرى⁵.

أثناء حدوث الوفاة يغلق الولد البكر عيني أبيه المتوفي كما فعل يوسف بأبيه، حيث جاء في الكتاب المقدس (العهد القديم): "ويضع يوسف يده على عينيك"⁶ ويرمز إغلاق العينين إلى إغماضهما عن الحياة وانفتاحهما على عالم البقاء الذي يشع نور هدايته⁷، ذلك ما جاء أيضاً كتأويل لهذا الفعل في كتاب الزوهار⁸: "غلق العينين للانحجاب من هذا العالم ولروية العالم الآخر، والتتور بنوره الساطع ولو في آخر لحظة من هذه الحياة"⁹.

¹ الغرايب، محمد، طقوس الموت عند يهود المغرب، في كتاب الوفيات والموت مقاربات تاريخية وأنتروبولوجية، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2017، ص. 146.

² المرجع نفسه، ص. 148.

³ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 101.

⁴ الغرايب، المرجع السابق، ص. 149.

⁵ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 48.

⁶ التكوين 4:46.

⁷ الغرايب، المرجع نفسه.

⁸ الزوهار: كلمة عبرية تعني "الإشراق" أو "الضياء". وكتاب الزوهار أهم كتب التراث القبالي، وهو تعليق صوفي مكتوب بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم، يقال إن موسى دي ليونهو مؤلفه الحقيقي أو مؤلف أهم أجزائه، وأنه كتبه بين عامي 1280 و1285، مع بدايات أزمة يهود إسبانيا وبعد مرور مائة عام على ظهوره، أصبح الزوهار بالنسبة إلى المتصوفة في منزلة التلمود بالنسبة إلى الحاميين. وقد شاع الزوهار بعد ذلك بين اليهود، حتى احتل مكانة التلمود. (في أفقيهي، 2015: 49)

⁹ أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 49.

بعد ذلك يحضر قليل من التراب الذي كان قد جلبه أحدهم من فلسطين، ليذره على العينين، أما تراب المغرب، فيستعمله اليهود في غلق فم المرأة المتوفاة التي لم تترك عقبا بعدها؛ حيث يعتقد أن المرأة التي فقدت كل أبنائها تدعو على أبنائها غيرها بالموت¹، وبعد التأكد من الوفاة تنطلق أصوات النساء بالعويل والنحيب ولطم الخدود، إذ يصل الحزن ببعضهن مبلغا كبيرا حتى أنهن يتركن ندوبا عميقة على وجوههن.

2.1. التطهير טְהוּרָה

يسبق طقس تغسيل الميت عند اليهود مجموعة من الإجراءات من بينها تجريده من ملابسه، وتلاوة كلمات التوبة والمغفرة من خلال ترتيل المزامير والتوسلات، ويرافق هذه الأدعية تمزيق توب يسمى "القرعة"، ويرمز تمزيق هذا الثوب إلى انقطاع كل علاقة للميت بعالم الأحياء ودخوله نهائيا دار البقاء، كما تلجأ أسرة المتوفى إلى التخلص من الماء المتواجد في البيت وكذا بيت جيرانه، وتعتبر عملية إراقة المياه عند عتبة الباب نوعا من إخبار الجيران ب وفاة أحدهم، لأن التلفظ بكلمة "فلان مات" تكون ذات مدلول منذر، وربما ذات طابع شؤم على من تلقى الخبر، فملاك الموت لا يزال يطوف في سماء المكان². إنها طريقة لنشر خبر الوفاة عند الجيران دون اللجوء إلى خطاب أو كلمات يكون مضمونها منذرا بالتهديد أو أخطار محدقة. أما بعض الأخبار الفقهاء فيفسرون هذا الطقس بأن ملاك الموت الذي انتهى لتوه من مهمته في أحد البيوت يغسل سيفه في أواني هذا البيت وأواني مياه الجيران، ولكون الموت عمل مسموم فإن بعضا من قطرات هذا السم تنتقل من السيف إلى الماء، ولهذا يفترض اتخاذ أقصى درجات الحذر من لمس هذه المياه وتجنب استعمالها³.

يستعمل الماء في طقوس التنظيف وتبرئة الذات من الذنوب إعدادا لمواراتها في متواها الأخير، فالديانة اليهودية كباقي الديانات السماوية تقدس الماء بشكل كبير، ويظهر ذلك جليا في مختلف الطقوس اليهودية، وكذلك في بعض الآيات من الكتاب المقدس (العهد القديم) مثل: "روح الله يرف وجه المياه"⁴، وتسمى عملية التغسيل ب "تاهاراه" (טְהוּרָה) أي الطهارة، ويعتبر هذا الطقس واحد من طقوس الانفصال الخاصة بالموت، إذ يمثل انفصال الميت عن جماعة الأحياء واندماجه مع الأموات⁵.

¹ الغرايب، المرجع السابق، ص. 149.

² الغرايب، المرجع نفسه، ص. 150.

³ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 103.

⁴ التكوين 2:1.

⁵ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 54.

يمدد الميت على لوح ويغسل وفقا لما ورد في التوراة، ويكون ذلك بالماء الدافئ والصابون وماء الورد، وماء الزهر، ويحك ظهره وبطنه وجوانبه بأغصان الرند والزعتر. يوضع ماء الغسل في سبع أوان، ويحتاط مغسلو الميت جيدا ألا تنقل هذه الأواني من يد إلى يد، إذ يجب وضعها على الأرض بعد استعمالها من قبل أحدهم، حيث يعتقد اليهود أن أخذ الأواني من يد المغسل دون وضعها في الأرض هو نوع من نقل الموت من الجثة إلى الأحياء، لذلك يشترط في من استعمل الإناء أن يضعه أرضا، ووضعه هنا بمثابة دفن لروح الميت العالقة في الإناء،¹ كما يتم تقليد أضافر الميت ورميها في المجاري، إذ يجب الاحتياط والحذر من الدوس عليها أو تخطيها.

لا يجوز في التقاليد اليهودية تعطير وتحنيط الجثة لكون ذلك يعرقل عملية التحلل الطبيعي، لذلك يستعمل في التغليف الماء وبعض المواد المنظفة، ويتكلف بطقوس تطهير الميت أفراد الحبرة المقدسة، يطلق عليهم اسم "الروحسيم"، والروحسيم لفظ عبري يقصد به الغسالون، ويشكلون الفئة الأكثر أهمية داخل الحبرة، وتتكون هذه الهيئة من:²

- رئيس الهيئة: وهو صاحب القرار والمراقب العام الذي يسهر على ترتيب ونظافة المكان المخصص للطهارة، وإيقاد الشموع وإرشاد باقي أعضاء الحبرة.
- القارئ ومحضر الكفن: يقوم بقراءة النصوص المرافقة لطقس التطهير، كما يقوم بخياطة الكفن بمساعدة آخر.
- مجهز النعش: يقوم بإحضار النعش إلى غرفة التغليف، ووضعه في المكان المناسب، كما يفتحه ويرش القليل من تراب أرض إسرائيل إن وجد.
- مجهز أسطل الماء: يتكلف بملء الأوعية بالماء الطاهر، ووضعه عند رأس الميت ليستعملها الغسالون عند الحاجة.

قبل أن يبدأ المغسلون بتنظيف وتطهير جسد المتوفي يقرؤون ما يلي:

"مصر العصف والحفان، أفعالت أفعال الرحمة والحقيقة، لقد وصيتنا أن نعمل بحب وعصف واستقامة نحو الموتى، والمشاركة في عصفهم بشكل لائق. امفنا الشجاعة والقوة لإنجاز هذه المهمة على أحسن وجه: هذه المهمة المقدسة لتنظيف وغسل الجسم وتكفينه وكفنه. اهد أيدينا وقلوبنا ونصن نقوم بهذا العمل، ومكنا من تحقيق هذه الوصية بحب وإخلاص. ساعدنا على أن نرى وجهه في وجه المتوفى، كما

¹ الغرايب، المرجع السابق، ص. 150.

² أفقيهي، المرجع السابق، ص. 54-55.

نرى وجهه في وجوه أولئك الذين يتقاسمون معنا هذه المهمة. مصر الحياة
والموت كن معنا الآن، ودايما. آمين"¹

يحضر الروحسليم أنفسهم جيدا قبل أن يبدؤوا في عملية التطهير، وذلك من خلال ارتداء ملابس
نظيفة ومتواضعة، وأن يكونوا على طهارة، بالإضافة إلى غسل اليدين جيدا ووضع قفازات ووزرات وأقنعة
في بعض الحالات، وقبل أن يكشف المغسلون عن جسد المتوفي يشرعون بشكل جماعي في قراءة ما
يسمى بـ "شامول"، وهو دعاء يتضمن في بدايته طلب المغفرة من الميت إن تعرض لأي إساءة من
طرف المطهرين، وهناك شامول خاص بالرجال وآخر خاص بالنساء². بعد هذه القراءة يشرع المغسلون
في تمزيق ما بقي من ثياب على جسد المتوفي؛ حيث لا تزال الكثير من العائلات اليهودية تحتفظ بعادة
"القرية" (التمزيق) وهي رمز الانقطاع، وترمز للفراق الأخير الذي أعلن عنه إخوان الحبر والمحسنون³.

يرافق طقوس التطهير قراءة مجموعة من النصوص الدينية التي ترجمتها لنا إلى العربية مريم أفقيهي،
ومما جاءت به⁴:

رأسه ذهب إبريز قصصه مسترسله حالكه كالغراب، عياله كالحمام على
مجارى المياه مغسولتان باللبن جالستان في وقنيهما. خداه كخميلة الذهب
وأتللم رباحين عكية، شفتاه سوسن تقصيران مرا مايعا، يداه حلقتان من
ذهب مرصعتان بالزبرجد، بهنقه عاج أبيض مغلق بالياقوت الأزرق، ساقاه
عمودا رخام مؤسسان على قاعدتين من إبريز، لهلعتة كلبان. فتى
كالأرز، حلقة حلولة وكله مشتبهات، هذا حبيبى وهذا خليلي يا بنات
أورشليم⁵.

"وأرش عليكم ماء هاهرا فتصهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم
أههركم"⁶

"أيها الرب رجاء إسرائيل"⁷

"ينبوع جنات بير مياله حية وسيول من لبنان"⁸

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 56-57.

² أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 62.

³ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 103.

⁴ أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 66-67.

⁵ نشيد الأنشيد 11: 5-16

⁶ حزقيال 36: 25

⁷ أرميا 17: 13

⁸ نشيد الأنشيد 4: 15

"إِذَا غَسَلَ الْعَبْدُ عَيْنَيْهِ بِمَاءِ أُورُشَلِيمَ مِنْ وَسْطِهَا بِرُوحِ الْقُدُسِ
وَبِرُوحِ الْأُحْرَاقِ"¹

"وَأَرِشَ عَلَيْكُمْ مَاءً مُسَافِرًا فَمَنْ هَرُونَ مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَصْنَامِكُمْ
أَهْهَرَكُمْ"²

بعد ذلك يردد الروحسليم عبارة "هو طاهر" أو "هي طاهرة" معلنا بذلك انتهاء طقوس التطهير.

3.1. التكفين תכפין

الكفن هو ثوب الميت الأخير الذي يدفن فيه، ويعرف في اليهودية باسم "تاخرخيت"، ويعود استعماله إلى الحاخام سيمون عامليل الثاني؛ حيث طلب أن يكفن في ثوب بسيط دون تكلفة أو مغالاة³، وترافق طقوس التكفين ترديد مجموعة من الأدعية، الغرض منها الدعاء للميت بالمغفرة والرضوان، ومن هذه النصوص:

"فرحاً أفرح بالرب، تبتهج نفسي بإلهي لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص، كما في رداء البر
مثل عريس يتزين بعمامة، ومثل عروس تتزين بحليها."⁴

"فقلت ليضعوا على رأسي عمامة ماهرة، فوضعوا على رأسي العمامة الماهرة
وألبسوه ثياباً وملاط الرب واقف"⁵

"لأنه كما أن الأرض تخرج نباتها وكما أن الجنة تنبت مزروعاتها هكذا السيد
الرب يثبت براً وتسبيحاً أمام كل الأمم"⁶.

"ويقود الرب على السوام ويشبع في الجيوب ففسد وتفسد عظام فتصير كجثة
ربا وكنبت مياها لا تنفصع مياها"⁷.

وتتكون قطع كفن الرجل عند اليهود مما يلي:⁸

- قوباع: هو عبارة عن غطاء على شكل كيس يوضع فوق الرأس، بعد سد العينين والأذنين والأنف والفم بالقطن، يعرف في العربية بالعراقية.
- مخناسيم: سروال بحزام مخيط من جهة القدمين.

¹ أشعيا 4:4

² حزقيال 36:25

³ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 73.

⁴ أشعيا 61:10

⁵ زكريا 3:5

⁶ أشعيا 61:11

⁷ أشعيا 58:11

⁸ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 75.

- ثلاثة أقمص: واحد بأكمام وليس به فتحات، مخيط من جهة اليدين.

الثاني: بأكمام ومفتوح من الوسط.

الثالث: بدون أكمام.

- رزة أو صانيف: يوضع على الرأس.
- طاليت أو صصيت: عبارة عن شال للصلاة قطعت أهدابه قصدا فأصبح غير صالح للصلاة.
- وجه الكفن أو السلها: وهو ما يوضع فيه الميت بعد تكفينه بالقطع السابقة، ثم يخاط من فوقه.

بالنسبة لكفن المرأة نجد:¹

- وشاح للرأس بشكل مثلث.
- نقاب مستطيل بشكل عمودي.
- نقاب مستطيل بشكل أفقي.
- قوباع.
- قميص بأكمام طويلة، مخيط عند اليدين.
- قميص من دون أكمام.
- سروال بحزام مخيط عند القدمين.
- خرقة توضع سوء المرأة.
- وجه الكفن.

بعد التكفين يوضع الميت في نعش ويغطى بإزار أسود أو لباس من البسته، ثم يرفع على الأكتاف مع حرص الحاملين أن يكون رأسه في المقدمة عند خروجه من الدار، ويتقدم النعش المشيعون وعلى كل من رآه أن يتبعه، ويعلن عن مرور الموكب بالبوق فتغلق أماكن البيع والشراء، وينضاف أصحابها إلى المشيعين الذين يرددون مقاطع من المزامير.

تمنع النساء من حضور موكب الجنازة عند اليهود، لكون وجودهن -حسب اعتقادهم- يثير ملاك الموت ويثير عواطفه. وحسب نصوص الزوهار يمكن أن يكون حضور النساء في الموكب سببا في حدوث مصائب للعالم والناس؛ إذ أن ملاك الموت يحب مصاحبة النساء، وقد يشاهد وهو يغني ويرقص

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 75.

وسطهن، وهو بذلك يمكن أن يغري الرجال بالنظر إلى جهتهن، وعندها يغتتم الملاك الفرصة ويصعد إلى السماء، ويعرض أمام العرش شكواه ضد من استسلم للإغراء¹.

4.1. الدفن والموارة קבורה

تسبق مرحلة ما قبل الدفن طقوس تهدف إلى تجنب الميت عذاب النار، ويشترط في من يقوم بها الطهارة والاعتسال الجيد. وتبدأ العملية بتوحيد اسم الله، وتتلّى برجم الميت؛ بحيث يقوم أحد أفراد الحبرا بقذف قلب الميت بسبع جمرات واحدة بعد الأخرى وهو يردد العبارة التالية: "هذا جزاء من عصي ربه"، يرد عليه الآخرون: "يا ويلنا يوم الحساب، يا ويلنا يوم العقاب"، ثم يحرق أنف الميت حرقاً خفيفاً بسائل الشمعة المشتعلة (سرفة)، وتربط بعدها رجلا الميت بحبل ويخض بقوة، ويسحب على الأرض ويخنق بالحبل نفسه. وتكون هذه العمليات مصحوبة بابتهالات ودعوات، وبعدها يبتعد أفراد الحبرا عن الميت بأربعة أذرع ليعودوا إليه بعد هنيهة مرددين: "أنت أخونا، أنت أخونا، أنت أخونا، ومنذ أن قبلت قضاء الله وقدره غفر لك وعفا عنك ورفع عنك لعنته"².

وتعد عملية التظاهر، الممثلة في إنزال العقوبات الأربع الرئيسية على جثة الأتقياء، طقساً من طقوس الاستغفار والتكفير، وهي تهدف إلى إبعاد عذاب جهنم عنهم، ويقوم بها إخوان بوقار وإجلال، ويهيئون أنفسهم لها بالاعتسال، وتكون مصحوبة بطقس خاص، وهو بدوره يسبق بتأمل صوفي يكرس كل فعل من أفعال الحياة. ويلزم أن يؤدي هذا الطقس بأفضل الطرق بقصد توحيد الله بالحضرة (شيخنا) رهبة ورغبة، وبنية توحيد اسم الله توحيداً كاملاً. ويجري التظاهر بهذه العملية كالاتي: أولاً بالرجم (سقلة)، فالإحراق و"سرفة" الذبح، "هرق"، ثم الخنق "حنق". ويقذف أحد الإخوان من أفراد الحبرا سبع حبرات واحدة بعد الأخرى على قلب المتوفى، وهو يردد العبارة التالية ثلاث مرات: "هكذا يفعل بالإنسان الذي تمرد على خالقه، ويجب الآخرون مهممين: الويل لنا يوم الحساب، الويل لنا يوم العقاب"³.

تقرأ مجموعة من النصوص الدينية بحضور النعش قبل حمله إلى التراب، وتختلف هذه النصوص باختلاف جنس الميت، لكنها تتفق في جزء منها، كما تختلف في نفس الجنس فيما إذا كانت المرأة

¹ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 108.

² الغرايب، المرجع السابق، ص. 150.

³ الزعفراني، المرجع نفسه، ص. 105.

متزوجة أم عزبة¹، كما ورد في الكتاب المقدس (العهد القديم) نصوص أخرى تؤكد أهمية الدفن خصوصا في مقبرة الأسرة، ومن هذه النصوص:

"بل أضجع مع آباي، فتحملني من مصر وتدفني في مقبرتهم." فقال أنا أفعل حسب قولك.²

"وأوصاهم وقال لهم أن أنضم إلى قومي، ادفنوني عند آباي في المغارة التي حقل عفرون الحثي"³

ينبغي الدفن لدى اليهود في نفس يوم الوفاة، إلا إذا كان هذا اليوم يوم سبت، وفي هذه الحالة يؤجل إلى اليوم التالي⁴، وبعد قراءة الصلوات والأدعية تقام طقوس الطواف הקפות "هاقافوت"، وهي سبع دورات حول النعش على شكل دائرة ضيقة تتكون من عشرة أفراد وهم ينشدون دعاء خاصا لإبعاد الأرواح الشريرة⁵، وتبدأ هذه الطقوس بعد وصول الموكب إلى المقبرة؛ حيث يوضع النعش في بيت "هامدراش" (بيت الدرس)، ليلقي أحد الأحبار موعظة جنازية يتم على إثرها طواف عشرة رجال حول النعش سبع مرات مرددين شعيرة الصلاح لإبعاد الأرواح الشريرة⁶.

بعدها يتكلف الحمالون أو ما يصطلح عليه بـ "الكتافون" بحمل الميت إلى متواه الأخير، ويأتي أفراد عائلة الميت المقربون للإمساك بأهداب الغطاء الأسود الثمانية، كل واحد منهم يمسك بإحدى تلك الأهداب مع ترديد لهم لبعض الأدعية⁷.

وفي ما يخص القبر فتبلغ أبعاده في اليهودية خمسون سنتمترا في العرض، وبين 1.90 و متران طولاً، وستون سنتمترا في العلو. يوضع الميت أسفل الحفرة ثم فوقه بحوالي عشرون سنتمترا أربعة ألواح اسمنتية تمسكها جوانب القبر، بعدها يتم رمي التراب فوق هذه الألواح بعلو أربعين سنتمترا تقريبا حتى يصل إلى مستوى سطح الأرض. أما قبلة القبر فتكون نحو الشرق "مزراح"؛ بحيث يكون الميت في مرقده ينظر نحو القدس أو أرض الميعاد حسب اعتقاد اليهود⁸. وقبل الدفن يتنافس اليهود على من سينزل الميت إلى قبره، وينظم مزاد علني، وإذا كان المتوفي من أهل الصلاح يوضع المال المحصل عليه في

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 80.

² تكوين 47:30.

³ تكوين 49:29.

⁴ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 104.

⁵ أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 81.

⁶ الغرايب، المرجع السابق، ص. 151.

⁷ أفقيهي المرجع نفسه.

⁸ أفقيهي المرجع نفسه، ص. 81.

صندوق الفقراء، أو يحول إلى مؤسسة إسانية. يوضع الميت في قبره ممددا على ظهره، ورأسه إلى الأعلى كأنه ينظر إلى السماء، لا يظهر في جسمه شيء البتة، مكفن بالأبيض من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه، لا يحول بينه وبين التراب شيء¹.

يرد التراب على الجثة الممددة في القبر وقد عزلت بالألواح، حيث يقذف كل واحد من الحاضرين بحفنة من التراب يكون مختلطا برمل جيء به من الأرض المقدسة. والفكرة من هذه الممارسة تعود إلى اعتقاد اليهود بأن هذه الحفنة من الرمال هي نبراس الجثة في رحيلها إلى الأرض المقدسة، لإيمانهم أن كل الأجساد مهما كان مكان دفنها سيكون مبعثها في فلسطين².

تحظى كذلك المقابر عند اليهود بأهمية بالغة؛ إذ تعتبر أرضا مقدسة تقام فيها مجموعة من الطقوس الدينية، وتسمى بيت "هاحايم"؛ أي بيت الأحياء، كما يطلق عليها أيضا اسم "بيت هاعلميم"؛ وتعني بيت العالمين، و"بيت علام"؛ أي دار الخلود.³ ويظهر من خلال هذه المسميات للمقبرة اعتقاد اليهود في البعث وفي حياة أخرى، رغم تخوفهم من الموت وتشبثهم الشديد بالحياة. إلى جانب ذلك يطلق على المقبرة عادة "الميعارة"؛ وهذه الكلمة يهودية عربية تعني المغارة، وهي تذكر بأماكن وإجراءات الدفن العتيقة التي كان الموتى يدفنون بمقتضاها في الأرض المقدسة وفي المغرب. وتخصص فيها بعض الأماكن للربانيين والوجهاء وعائلاتهم، كما تخصص مساحة مربعة للمنبوذين والمنتحرين والعاهرات، وفي هذه الحالة يلوح الحفار بمعوله فوق رأسه ويرمي به صدفه وحيث يسقط يدفن⁴.

تنتهي مرحلة الدفن بطقوس قراءة القاديش (קדיש)؛ وهو نوع من أشهر التسابيح الدينية اليهودية، إذ بعد دفن الميت وذر التراب فوق قبره، يرجع الحاضرون إلى المكان الذي وضع فيه النعش بعد اخراجه من غرفة التغليف بالمقبرة لتلاوة القاديش. ويقوم بقراءته حزان المقبرة بحضور أسرة المتوفي وعائلته وأصدقائه، ينتظمون في صفوف مما يسمح بمرور أسرة الميت بين الصفوف وتلقي التعازي من الحاضرين⁵.

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 82.

² المرجع نفسه، ص. 152.

³ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 85.

⁴ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 104-105.

⁵ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 89.

قبل الخروج، يتوجه الحاضرون نحو مدخل المقبرة لغسل أيديهم، كما يغسل البعض وجهه مردداً: "ويمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه".¹؛ وتفسر هذه العادة في التخلص من الأرواح النجسة التي تحاول التشبث بأيدي المؤمنين.² في سياق آخر ينزع كل واحد من الحاضرين ذرات من العشب ويرميها خلف رأسه لإظهار علائم الألم والحزن، وللتعبير في نفس الوقت عن الأمل في البعث ومجيء عهد المخلص.³

5.1. الحداد ٤٤٦

هناك عدة طرق يعبر بها الناس عن حزنهم إثر فقدانهم لأحد أفراد العائلة أو أحد الأصدقاء؛ حيث نجد من يميلون إلى الاعتزال والخلوة داخل حلقة ضيقة تضم فقط أفراد العائلة وبعض الأصدقاء المقربين، وهناك من يميل إلى تجنب المظاهر العلنية للتعبير عن حزنه، ويفضل في المقابل الانطواء على الذات دون رفيق يتقاسم معه ثقل الفاجعة. وفي اليهودية يعبر الأحياء عن حزنهم بالبكاء التلقائي أو بالبكاء الطقوسي، وهو بكاء منظم ومقصود. والحداد هو مشاركة الأحياء الميت في موته بتأديتهم لمجموعة من الطقوس وانعزالهم عن مجموعة الأحياء.⁴

عند العودة إلى البيت يتناول الأهل والمعزون طعام العزاء الذي يتكون أساساً من لونين على طرف نقيض: البيض والزيتون الأسود، كما لا يجوز أخذ أحدهم لطعامه بيده وأكله، بل يجب أن يتناول من يد غيره.⁵ ومن مظاهر الحداد عند اليهود نجد الامتناع عن التطيب والتزين وارتداء المصبوغ من الملابس، ويعتبر هذا الامتناع بمثابة امتناع رمزي عن الحياة. وتعتبر فترة الحداد فترة مهمة لارتباطها بالنجاسة؛ أي أن نجاسة الميت تلحق أهله فلا بد من عزل هؤلاء عن المجموعة حتى لا تتسع رقعة النجاسة، وتنقل عدوى الموت إلى بقية الأحياء.⁶

تنقسم فترة الحداد عند اليهود إلى ثلاث مراحل أساسية: تدوم المرحلة الأولى سبعة أيام، والثانية ثلاثين يوماً فرضاً، والثالثة سبعة أو تسعة أو أحد عشر شهراً، حسب العادة الجاري بها العمل لدى العائلة، أو حسب الانتماء الاجتماعي أو مكانة الفقيد؛ حيث يقام الاحتفال التذكاري الأول في ليلة اليوم

¹ أشعيا 8:25

² الغرايب، المرجع السابق، ص. 152.

³ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 110.

⁴ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 91.

⁵ الغرايب، المرجع السابق، ص. 152.

⁶ أفقيهي، المرجع نفسه، ص. 91.

السابع وهو ما يسمى بالعبرية "بيديقات هاشافوع" الذكرى السبعية، ويطلق عليها في اللهجة اليهودية المغربية "مسمارا"، وتعود إلى أصل عبري "سمر" (حرس سهر) وهي أكثر تداولاً، "والمسمارا" عبارة عن سهرة لقراءة (التوراة والمشيانه والزهار وغيرها)، تليها وجبة طعام خفيفة تقدم لأفراد الحبرا وللرئيسين وكل الحاضرين الذين يحملون معهم الكعك للذين لم يتمكنوا من الحضور¹.

وتتميز كل مراحل الحداد بمجموعة من المحرمات والشعائر، وتختتم كل واحدة منها بحفل يتضمن طقساً خاصاً بالمناسبة، تلقى فيه الخطب والمواعظ والأدعية والمراثي، بالإضافة إلى إقامة وجبة خاصة وتقديم هبات وصدقات. وهذه المراحل هي كالتالي:²

- المرحلة الأولى: تعرف بـ "شفعا"، وهي كلمة عبرية تعني سبعة، وهي فترة الحداد الأكبر؛ فبعد الدفن يجتمع المقربون من الميت في منزل يعرف بـ "بيت شفعا"، يقضون فيه أيام الحداد الأولى والتي تعرف بأيام الحداد الأكبر، وهي فترة من الانعزال تتميز بعدد كبير من المحرمات والمحظورات كعدم ممارسة المهن، الامتناع عن الاغتسال وحلق الشعر وتقليم الأظافر، الامتناع عن التطيب والزين، عدم ارتداء ملابس جديدة، الامتناع عن أكل اللحم وشرب الخمر، والامتناع عن العلاقات الجنسية.
- مرحلة الشلوشيم: تعني بالعربية "ثلاثين"، تنتهي في ثلاثين يوماً بعد الدفن، يكون البيت في هذه الفترة غير مليء بالزوار الذين يأتون بالطعام، فالكل يعود إلى وضعه، ويستأنف الحياة الطبيعية في الغالب، لكنهم لا يستطيعون قص الشعر واللحية وتقليم الأظافر بعد، ولا الخروج للمتعة والحفلات أو الزواج. تعتبر هذه الفترة انتقالية بين الحزن العميق وبين الفترة التي تعود فيها الحياة إلى مجراها الطبيعي.
- مرحلة حداد السنة: وهذه المرحلة خاصة بمن مات له أب أو أم، خلال هذه الفترة يتخلى بعض الحادين عن الحلاقة وقص الشعر، ويستمر امتناعهم عن حضور الحفلات والمناسبات، مخصصين هذه السنة للحزن على فقيدهم.

خلال فترة الحداد كلها وحتى نهاية سنة على الوفاة تتم قراءة القاديش يومياً، مع ضرورة اكتمال المنيان الممثل في عشر أفراد بالغين، ولصعوبة اكتمال هذا النصاب الشرعي، فإن القاديش يقرأ في الأيام

¹ الزعفراني، المرجع السابق، ص. 111-112.

² أفقيهي، المرجع السابق، ص. 92.

السبعة الأولى في بيت الوفاة، وفي بقية أيام الحداد في البيعة لضمان اكتمال النصاب الشرعي.¹ وينتهي الاحتفال بالتوجه إلى المقبرة لزيارة قبر الفقيـد وتوزيع الصدقات، بعد أن تقدم في الليلة السابقة وجبة الذكرى التي يجتمع حولها أعضاء الحبراء والفقهاء من أهل البلد والفقراء.

وتحضى صلاة القاديش بأهمية كبيرة خاصة في رحلة الروح بعد الموت، وارتقائها إلى جنة عدن، وسكونها تحت أهداب العرش السماوي، إذ يقابل كلمة قاديش في الأرامية الكلمة العبرية قادوش (القديس)، وهي تشير إلى ركن أساسي في الطقوس اليهودية، طقوس الحمدلة والشكر لله، وتستلزم قراءتها حضور "المنيان" وهو الممثل في عشرة من المؤمنين البالغين الذين يرددون أمين.²

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 97.
² الزعفراني، المرجع السابق، ص. 113.

2. الجنازات المسيحية

يؤمن المسيحيون على غرار باقي المتدينين بحياة أخرى بعد الموت، فالموت بالنسبة لهم ما هو إلا جسر يعبرون به من الحياة المادية إلى الحياة الروحية، فهم بذلك يهزمون الموت بقيامتهم مرة ثانية لحياة أبدية مع المسيح. يقول حبيب جرجس: "كان الموت في الأصل عقابا على الخطيئة، ولكن مخلصنا كسر شوكتة وأباد سلطته وحوله إلى وساطة للانتقال إلى حياة جديدة سعيدة. فالموت ليس سوى رقاد هادئ، ونوم تعقبه اليقظة في دار الخلود، ولذلك قال السيد عن موت لعازر، إنه قد نام وأنا ذاهب لأوقظه".¹ وقال الرسول بولس: "لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم، لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله معه".²

يعتقد المسيحيون بأن أرواح المؤمنين تكون في حالة سعادة في الفردوس مع المسيح في انتظار القيامة للمجد والحياة، أما أرواح الأشرار فتكون معذبة في مكان ما بانتظار قيامة الدينونة والهلاك، ويستدلون على هذا بنصوص وأقوال المسيح وبولس وبطرس³، فقد جاء في إنجيل لوقا على لسان المسيح للص التائب: "الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس". كما جاء في أحد رسائل بولس: "لي اشتاء أن أنطلق وأكون مع المسيح". وجاء أيضا على لسان المسيح: "ومات الغني أيضا ودفن ورفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب". كما جاء في رسالة بطرس الثانية: "يعلم الرب أن ينقذ الأتقياء من التجربة ويحفظ الأثمة إلى يوم الدين معاقبين، ولا سيما الذين يذهبون وراء الجسد في شهوة النجاسة". وتبين هذه النصوص أن روح المؤمنين الصالحين في سعادة في قبرها، بينما تبقى الروح الشريرة في عذاب دائم إلى يوم القيامة.

يقول جرجس في السياق نفسه: "فالذين ينقلون وهم مؤمنون بالمسيح لا يدعون موتى بل انهم رقدوا واستراحوا في الرب على رجاء القيامة، فهم رقاد لا أموات. وقد وصلوا الميناء الأمين حيث نالوا عربون السعادة إلى أن يحصلوا على كمال الأمجاد في السماء في القيامة المجيدة، بعد النوم الصحو وبعد الرقاد اليقظة، فما الموت إلا راحة من عناء أتعاب وغموم هذه الدنيا. وكما أن النائم بعد نهار صرف في التعب والعمل يشعر بالراحة في نومه إلى أن يستيقظ مجدد القوى في النهار التالي. هكذا الموت فإنه راحة ونوم

¹ يو، 11:11.

² جرجس، حبيب، عزاء المؤمنين، القاهرة، مكتبة المحبة، 1979، ص. 36.

³ الخطيب، محمد أحمد، يوم القيامة في المسيحية، ص. 380 - 381. كتاب منشور بالموقع الإلكتروني <https://www.noor-book.com> بتاريخ 05 يناير 2005.

هنئ للمؤمنين، لا تتخلله أحلام مزعجة إلى أن يقوم في الحياة الجديدة في صباح القيامة المجيدة بحياة مجيدة"¹. فالموت إذن من منظور الديانة المسيحية ما هو إلا رقاد مؤقت تعقبه حياة جديدة وميلاد جديد سرمدى.

1.2. تجهيز الميت

تكاد جميع الديانات تؤمن بقداسة جسد الميت، حيث يحظى هذا الأخير بأهمية كبيرة في طقوس الجنازة، ويبدأ هذا الاهتمام الواضح من تجهيز الجثة وصولاً إلى دفنها أو حرقها. تقول حنان جناحي: "إذا مات مسيحي يُحضّر الميت للدفن أقرباؤه في منزله، فيغلقون عينيه وفمه، ويستدعون أحد أحبّتهم للتحقق من الوفاة، بعدها تغسل الجثة، وتدهن بالزيت، ويلبس ما يليق بمكانته الاجتماعية. وغالباً ما يتم تحضير الجثة والقبر من قبل أشخاص مختصين ملحقين بالكنيسة، ثم يسجى الميت بالمنزل داخل تابوت غالباً ليوم واحد، وتضاء المصابيح حوله، وبعض المسيحيين يزينون الميت بإكليل من الزهور."² الشيء نفسه أشار إليه Caleb Sprague Henry، بقوله: "يتضمن تحضير الميت للجنازة إغلاق العينين والفم، بعدها يوضع الجسد ويغسل بالماء، وترتب أطرافه بشكل صحيح بعد أن يلبس ويزين بعباءات نظيفة للجنازة، ليوضع في التابوت، ويراقب إلى وقت الجنازة. ويرتبط غلاء التابوت أو رخصه أو تزيينه، بشروط وظروف الميت وعلاقاته. وكان الميت يبقى من يومين إلى سبعة أيام أحياناً في المنزل وأحياناً في الكنيسة بحضور المراقبين وكان من الشائع جداً إنشاد المزامير أثناء الليل"³.

من جانبه يؤكد ملطي بأن الجثمان يُغسل في الكنيسة، ويُرشم بالزيت ويلف بكتان أبيض، ليأتي الكاهن ويشترك الكل معاً الصلاة في البيت، ولا زال هذا الطقس قائماً في أغلب الأحيان دون الرشم بالزيت. إن ربطنا هذا الطقس بما كان يتم في أيام السبوت في الكنيسة القبطية حيث كانت العائلات تقوم بتنظيف المنزل كله، ويستحم أفراد العائلة ليستعد الكل للتمتع بشركة القداس الإلهي خلال نقاوة القلب ونظافة الجسد أيضاً، نقول بأن هذا الرائد قد استراح كما في سبت، منطلقاً نحو المسيح ليراه وجهاً لوجه في الفردوس ينعم بالليتورجية السمائية والتسابيح الملائكية"⁴.

¹ جرجس، المرجع السابق، ص. 36.

² جناحي، حنان، طقوس الدفن والمدافن في الأديان (دراسة تحليلية مقارنة)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1- كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، 2015، ص. 53.

³ Caleb Sprague Henry, A compendium of Christian antiquités, being a brief view of the orders, rites, laws and cutoms of the ancient church in the early ages, Burlington, Powel printed, P 288.

⁴ ملطي، تادرس يعقوب، طقس الجناز والحياة المقامة في الكنيسة القبطية، كتاب منشور بمكتبة "مشروع الكنوز القبطية" على الموقع الإلكتروني: <https://coptic-treasures.com/book/> بتاريخ 10 ديسمبر 2019، ص. 4.

ويركز المسيحيون على وضع الميت في التابوت وهو مكشوف الوجه، ليراه كل الأهل والأقارب والأصدقاء ولتوديعه الوداع الأخير، ولذلك يشترط أن يكون في أبهى حلة، لهذا فهم يأخذون وقتهم أثناء تجهيز ميتهم، فلا يسارعون في دفنه كما هو معمول به في اليهودية والإسلام. تقول Eva Ahrén: "يجب غسل الجسد وترتيب الشعر بشكل جميل إن كانت امرأة، أو حلقه إن كان رجلاً، وإلباسه ثياباً جميلة، ووضعه بين ملاءات أو شراشيف نظيفة، مع إغلاق عينيه وفمه، وتغطية وجهه بمنديل، وتطوى يديه فوق بطنه، الذي يزين بمسبحة وإكليل من الزهور"¹.

2.2. الصلاة

تحتل الصلاة على الراقدين مساحة كبيرة من الطقوس الجنائزية المسيحية، وهي نابعة من إيمانهم الراسخ وعقيدتهم الثابتة بخلود النفس يوم الدينونة والحياة الأبدية، بما فيها السعادة الدائمة للأبرار والعذاب للأشرار، وتساعد الكنيسة على التأقلم مع الحزن الناتج عن الموت بتشجيع الناس على إقامة الصلوات التذكارية، أي في التذكار الثالث والتاسع والأربعين يوماً للوفاة والذكرى السنوية. يقول الشماس إلياس بركات: "تساعدنا هذه الصلوات على أن نعبر عن حزننا ونبدده. الموت يغيب عنا أحبائنا عن نظرنا، لكنه بالتأكيد لا يمكنه أن ينتزعهم من فكرنا وقلوبنا. نستمر بمحبتنا لهم والتفكير بهم كما نؤمن بأنهم يستمرون بمحبتهم لنا والتفكير بنا"².

ويُقرأ في صلاة جنّاز العلمانيين بعد الدخول بالنعش إلى الكنيسة المزمور 90، ثم المزمور 118 119، بعدها ترتل تبريكات (أفلوجيتاريا) الأموات حيث تقول إحداها: "يا جميع الذين سلكتهم في هذه الحياة الضيقة المحزنة، وحملتكم الصليب كالنير وتبعتموني بإيمان، هلمّ تمتعوا بما أعددت لكم من الجوائز والأكاليل السماوية." وفي أخرى: أرح يا الله عبدك (أمتك) ورتبه في الفردوس حيث مصاف القديسين مع الصديقين مثل الكواكب يتألّؤون، فهناك أرح يا رب عبد الراقد معرضاً عن جميع زلّاته. "ومن تم: أرح يا مخلصنا عبد هذا مع الصديقين وأسكنه في مساكنك كما هو مكتوب..."³

يرتل من بعد الطلبة: "مع القديسين أرح أيها المسيح نفس عبدك (أمتك) حيث لا وجع ولا حزن ولا أنين بل حياة لا تقنى." ويرتل عند القبلة الأخيرة: "إن حياتنا بالحقيقة هي مثل الزهر والبخار والندى

¹ Eva Ahrén, death, modernity and the body (sweden 1870-1940), 1 Edition, university of rochester press_ boy dell & brewer limited, P 79.

² بركات، إلياس، الموت رؤية أرثوذكسية أخاف الموت بعد؟ تعاونية النور الأرثوذكسية للنشر والتوزيع، بيروت، 2013، ص. 113.

³ بركات، المرجع نفسه، ص. 115.

السحري، فتعالوا إلى القبور لنشاهد عيانا أين هو جمال الجسم وأين هي الفتوة، وأين تلك الأعين وصورة الجسد. الكل ضمير كالعشب، الكل اضمحل، فهل نسجد ونركع للرب بالدموع." ويقال بعد ذلك: "...فلنهرب بعيدا عن كل خطيئة في العالم لنرث السماويات." وأيضا: "هلم يا إخوة ننظر في القبر الرماد والغبار اللذين جبلنا منهما. ولكن ترى إلى أين نحن الآن ذاهبون وإلى أي شيء نحن سائرون؟ بل من منا هو الفقير ومن هو الغني؟ وأي هو السيد أو الحر؟ أليس الجميع رمادا؟"¹

يصلي الكهنة على الراقد قبل صلاة الجناز في الكنيسة، صلاة التريسايون أي (التسبيح المثلث تقديسه)، ومن بعدها يرتل بحرارة إلى الرب ليرتب نفس الراحل مع المخلصين ومع أرواح أبرار مكملين كما يشير الرسول بولوس: "نسترحم الرب الذي "نزل إلى الجحيم" وخلص المقيد في "الريح أيضا نفس عبده" الذي انتقل إلى الكنيسة المنتصرة. ولأن للعداء النقية والدة الإله المنعم عليها الدالة العظمى لدى ابنها، نسأل شفاعتها أيضا من أجل خلاص نفس الأخ الراقد"².

في الأخير يصلي الكاهن إلى "إله الأرواح وكل ذي جسد"، إله الملائكة وأرواح البشر، الإله الذي وطئ الموت وأبطل إبليس ومنحنا القيامة والحياة لكي يسامح ضعيفات الراقد وخطاياها بما أن الله وحده منزه عن الخطيئة. نسأل أيضا أن يغفر "الإله الصالح والمحِب للبشر" كل خطيئة مقترفة منه بقول، أو فعل، أو بفكر، وأن يسكنه في فردوسه حيث يشرق النور وحيث الفرح والسلام³.

3.2. موكب الجناز

يتم نقل الميت من منزله إلى الكنيسة في موكب جنائزي، حيث يقوم حاملو النعش بحمل التابوت كعلامة على احترام المتوفى وتوقيره، ويعتنى بالموكب لأهميتها الخاصة في الحفل التأبيني، فيرافق المسيحيون الميت في يومه الأخير مع إنشاد المزامير والموسيقى، بعدها ينظم القداس الجنائزي وهو القداس المركزي في الاحتفالات لأجل الميت، حيث تؤكد الجماعة المسيحية بالإشارة والرمز والكلمة بأنه من خلال المعمودية قد شاركت في موت وقيامة المسيح. يصف القمص تادرس يعقوب ملطي الموكب الجنائزي المسيحي بقوله: "كان الموكب مفرحا، فالأقرباء يرتدون البياض، والكهنة مع الشماسة والشعب يرمون مزامير الغلبة والنصرة وينطقون بالتهليلات السماوية، والبخور يرتفع من المجامر، والشموع تتير،

¹ بركات، المرجع السابق، ص. 115 - 116.

² المرجع نفسه، ص. 118.

³ المرجع نفسه، ص. 118 - 119.

والبعض يلوح بسعف النخيل ! إنه موكب لإنسان قد انطلق من العالم - وادي الدموع- ليلتقي بمخلصه ويحيا مع السمائيين"¹.

ويترأس القسيس القداس الجنائزي الذي ينظم في المساء ويسبق يوم الدفن أو الإحالة؛ حيث يستقبل هو ومساعدوه جثمان الميت عند مدخل الكنيسة، ويرش بالماء المقدس، ثم يسجى ووجهه نحو الهيكل. أما رجال الإكليروس فيوجهون وجوههم نحو الشعب، ويجوز أن يوضع على النعش كتاب الإنجيل المقدس أو الصليب، ولا يوضع صليب آخر قرب النعش، كما تضاء الشموع من حوله أو الشمعة الفصحية عند الرأس².

يشير ملطي إلى أن موكب الجنازة عند الرومان كان يسير ليلاً، لأنه كان يحمل تشاؤماً، أما في الكنيسة الأولى فكان يسير في النهار، لاعتقادهم أنهم لم يعودوا بعد أبناء ظلمة بل أبناء النور، وكان أقرباء الراقيدين يرتدون ثياباً بيضاء (لا زال هذا التقليد يمارس في بعض البلاد الأوروبية). وهو علامة على إيمانهم بالحياة الأبدية المبهجة المقدسة في الرب، بينما صار الأقباط يرتدون في الجنازات ثياباً سوداء أو قاتمة، خاصة بالنسبة للسيدات³.

ينظم الموكب الجنائزي لنقل الميت إلى المقبرة، حيث يرافق ذلك موسيقى مختارة للجنازة فهي وسيلة تكاملية في طقوس الجنازة، إذ تسمح للمجتمع بالتعبير عن إيمانه الراسخ وأحاسيسه الني قد تعجز الكلمات عن إيصالها، فالموسيقى لديها القدرة على ترفيه وتسليه الحزاني، وتقوية وحدة الجماعة بالإيمان والحب. ويتم اختيار نصوص الأغاني معبرة عن سر الفصح وعن معاناة الرب وموته وانتصاره على الموت، كما يجب أن تكون مرتبطة بالقراءات في الكتاب المقدس، وتقوم بعزفها فرقة الأبرشية، وقبل انتهاء الموكب الثاني تنشد الجماعة المزامير التي تمدح الرب الرحيم والخلص وإيداع المتوفى في رعاية الملائكة والقديسين⁴.

4.2. الجنازة

يسبق دفن الميت عند المسيحيين طقس الإحالة، ويتم ذلك قرب القبر المفتوح أو مكان الدفن، وإن لم يكن ذلك ممكناً يتم في مصلى المقبرة. ويساعد هذا الطقس الحزاني في هذا الوقت الصعب، حيث

¹ ملطي، المرجع السابق، ص. 5.

² جناحي، المرجع السابق، ص. 114.

³ ملطي، المرجع نفسه، ص. 4 - 5.

⁴ جناحي، المرجع نفسه، ص. 114 - 115.

يحتوي على قصيدة دينية قصيرة وصلاة الإحالة والشفاعات والصلاة الربانية. وأثناء تلاوة صلاة الإحالة أو في ختام هذا الطقس يتم إنزال الميت إلى القبر، أو إدخاله إلى المحرقة.¹ ويعتبر الدفن الممارسة العادية لدى المسيحيين، لكن الكنيسة أقرت أيضا الحرق وأجازته، رغم أنها بذلك تخالف طريقة دفن المسيح تقول جناحي، نقلا عن Joseph Bingham: "هناك اختلاف آخر بين الكفرة والمسيحيين في طريقة الدفن، فالكفرة في أغلبهم يحرقون أجساد الموتى في أكوام الحطب وبعدها يجمعون الرماد والعظام، ويضعونها في جرة. لكن المسيحيين يمتقنون هذه الطريقة من الدفن، ولا يستعملونها أبدا لكن يضعون الجسد تحت التراب، أو إذا سمحت الفرصة لطريقة أخرى من الدفن يحنطون الجسد ليضعوه داخل سراديب الموتى (Catacomb)²".

إن تشييع الجنازة إلى القبر من أكبر المشاهد المحزنة التي يتوجع لها القلب، إنه منظر يرينا مصير الإنسان، ويذكرنا بزوال الحياة وبطلان العالم، وينصب أمام عيوننا تمثال الموت المريع وسطوته وبأسه، حيث نرى من كان يتكلم معنا بالأمس جثة صفراء خرساء هامة أعدت طعاما للدود والحشرات. هناك ترى المشيعين وقد خيم الحزن والأسى عليهم، يسرون بالجنازة مطرقين بوجوه حزينة، وقلوب منكسرة، وعيون تذرف الدمع، والسكوت مستول على الألسنة والشفاه، لا سيما إذا كان الفقيد شابا عاجلته المنية في ريعان صباه وعنفوان شبابه، وهدت به أركان رجاء عائلته، فهنا يكمن المصاب الأليم والخطب الجسيم.³

يقول متاؤس: "حينما ندفن حبيبا غاليا في القبر نجتهد جدا أن نجعل جسده مستريحا وفي وضع لائق، فيجب بالأحرى جدا أن نهتم براحة أرواحهم ونياحها في العالم الآخر وذلك بتقديم الصلوات والقرايين عنها وإلا يعتبر تقصيرا منا في حق أحبائنا الذين لهم علينا أفضال كثيرة"⁴.

بعد إتمام الدفن يقف الكاهن أمام القبر ويصلي هذه الصلاة: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر عن عبدك (فلان) الذي خرج من الجسد لكي ترسل أمامه ملاك الرحمة، ملاك العدل، ملاك السلامة لكي يقدموه إليك بغير خوف جميع غلطات لسانه وكل زلاته

¹ جناحي، المرجع نفسه، ص. 115.

² جناحي، المرجع السابق، ص. 115.

³ جرجس، المرجع السابق، ص. 71.

⁴ متاؤس، روحانية صلوات التجنيز في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، الطبعة الأولى، جمهورية مصر العربية، دار الجيل للطباعة، 1993، ص.

تركها ... الخ¹ وتصلي الكنيسة على روح ابنها لكي يحفظها الله من الشيطان الذي يريد هلاكها. يقول القديس موسى الأسود: "إذا خرجت الروح (البارة) من جسدها ترافقها الملائكة، وحينئذ يلتقي بها الشيطان في الجو ويحاولون منعها من المسير ملتَمسين شيئاً لهم فيها، والملائكة وقتئذ ليس من شأنهم أن يحاربوا عنها، لكن أعمالها التي عملتها هي التي تحفظها وتستتر عليها منهم (أعمالهم تتبعهم) وتدافع عنهم"².

من المثالي بعد الدفن أو الحرق العودة للاجتماع في منزل أقرباء المتوفى للأكل والشرب، والتذكر ومواساة بعضهم البعض والصلاة (وهذا الاجتماع بعد الدفن يشبه في صفته الشكلية خدمة السهر أو الصحوة لكنه أقل صرامة). ثم يتناولون الوجبة الجنائزية التي تقدم غالباً مجهزة من طرف أفراد الأبرشية، والعديد من العائلات تفضل إقامتها في منزلها، وهي عادة رومانية قديمة اتبعتها المسيحية منذ بداياتها ولا تزال مستمرة إلى اليوم لكن باختلافات هامة. وتتكون غالباً من البسكويت واللحم والفاصولياء، والوجبة التقليدية هي الكعك والكزكيز، لكن الآن أصبحت مركبة من طبق رئيسي تحضره العائلة، والأصدقاء يحضرون الأطباق الجانبية، والتحلية كل حسب طاقته، ومع مرور الوقت أصبحت العائلة تدفع الفاتورة فقط³.

يقول ملطي في هذا الصدد: "لا زالت هذه العادة قائمة في كثير من مدن صعيد مصر، وهو تقديم وجبات إلى أهل الراقد ليشترك الأقرباء والأحباء معا في وجبات "أغابي" خاصة في الثالث والأربعين... الخ. ولعل غاية هذه الوجبات الأولى هي علامة الشركة بين المؤمنين، والحب المتبادل، أيضاً لإلزام أهل الراقد أن يأكلوا طعامهم، لأن البعض كان يمتنع أحياناً بسبب الحزن"⁴.

5.2. الحزن والحداد

تبدأ فترة الحداد لدى أسرة المتوفى في نفس الوقت الذي تشيع فيه الجنازة، حيث تختلف مدتها والطقوس المصاحبة لها حسب التقاليد الدينية المتبعة، وأيضاً حسب نوع الموت، ودرجات القرابة مع المتوفى؛ إذ أن طقوس الجنازة بما فيه طقوس الحداد مخصصة لفئتين معا الأحياء والأموات. ويبدو أن الحزن والبكاء في الجنازة شيء مسموح به، بل هو من الطبيعة البشرية. يقول جرجس: "...فالحزن والبكاء بحسب ما تقتضيه الطبيعة جائز وغير ممنوع، ولكن البكاء بإفراط وترك النفس للحزن بلا عزاء

¹ متاؤس، المرجع نفسه، ص. 45.

² متاؤس، المرجع نفسه، ص. 46.

³ جناحي، المرجع السابق، ص. 115 - 116.

⁴ ملطي، المرجع نفسه، ص. 6.

أمر غير جائز عقلا ودينا. ويحدرنا الرسول عنه بقوله: ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم. لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذا الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضا معه.¹ وبهذه الآية ينبه الرسول أتباعه بأن لا يجهلوا أن الذين انتقلوا إنما هم رقاد في المسيح، وكما قام المسيح سيقومون هم أيضا.

تساعد الطقوس الجنائزية المسيحية عائلة وأصدقاء المتوفى في مواجهة الصدمة والحزن والعثور على الأمل والقوة من خلال الإيمان بالمسيح، ومن هذه الطقوس: الصلاة بعد الموت، التجمع في حضرة الجسد، وأيضا نقل الجسد إلى الكنيسة أو إلى المقبرة. ومن الصلوات المخصصة عند موت أحد أفراد العائلة. يقول جرجس: "يا أبانا السماوي يا من بيدك روح كل حي، وبأمرك الحياة والموت، لقد شئت ارادتك أن تأخذ من أفراد هذه العائلة عضوا محبوبا، وليس لنا إلا أن نخر ساجدين خاضعين لكل ما ترسمه أحكامك، ومن يستطيع أن يتذمر على أعمال عنايتك التي لا تدرك إنما نطلب تعزيات نعمتك حتى نبارك اسمك في حال الشدة كما في حال الرخاء، ونشكرك لأنك في أوقات أحزاننا ومع كثرة خطايانا نقدر أن ننظر إليك كأب حنون ونتكل على رحمتك ونثق بمحبة ابنك الحبيب، وتعزيات روحك القدوس عالمين أننا في دار غربة نترجى الحياة العتيدة الأبدية حيث لا حزن ولا دموع ولا خطية².

ويقال عند موت شاب: "أيها المخلص الحبيب يا من عرفت آلامنا واختبرت أحزاننا، أنت وحدك القادر أن تعين ضعفاتنا وترثي لأوجاعنا، اذكر يا رب أنك بكيت أمام قبر لعازر وقلت لمريم ومراثا أنك القيامة والحياة، وأن من آمن بك ولو مات فسيحيا. فأنجز الآن وعدك وعز عبيدك أفراد هذه العائلة، لا تتركهم حزانى بل ارسل لهم الروح المعزى ليلهمهم الصبر والسلوان في مصابهم، ليلقوا عليك كل رجائهم واتكالهم، لا تسكت عن صراخهم بل امسح دموعهم بيدك الكريمتين، ذكرنا بزوال الدنيا وقصير أيام حياتنا على الأرض كي نشعر بضعفنا ونضع رجاءنا كله فيه. ونرفع كل أفكارنا إليك وتنتظر بعين الإيمان إلى ما وراء هذه الحياة حيث يجتمع جميع الأحباء بلا فراق ولا دموع، يلتقون أمام حضرتك في ملكوتك ويتحدون معك بلا انفصال إلى الأبد، أرنا بطلان هذا العالم وكيف أن أجسادنا كالعشب ييبس سريعا، وكل مجد الإنسان كزهر العشب يجف ويسقط، أيقظ أرواحنا حتى لا نسكر بخمر وهموم العالم لئلا يفاجئنا ذلك اليوم بغتة. نبه نفوسنا حتى لا نكون متباطئين بل متمثلين بالدين، بالإيمان والأناة، يرثون المواعيد. تحنن على عبيدك وباركهم وأنر بوجهك عليهم، وأفض مراحمك على عبدك الذي نقلته إليك،

¹ جرجس، المرجع السابق، ص. 91.

² جرجس، المرجع نفسه، ص. 121.

واعطه أن يجد رحمة أمامك وينال الراحة الموعود بها للمؤمنين الذين تمنحهم نصيبا في ملكوتك، لك
المجد مع أبينا الصالح وروحك القدوس من الآن وإلى الأبد أمين¹.

هكذا تعتبر فترة الحداد ككل فرصة لتذكر باللحظات التي قضاها الأحياء مع المتوفى، وتذكر
بالقيم المشتركة بينهم، وأنهم مازالوا على اتصال به من خلال الطقوس والصلوات والترانيم التي تقام له،
كما تتيح فترة الحداد وطقوس الجنازة بصفة عامة المجال للتعبير عن آلام الخسارة والفقدان، وتقييدها
وكذلك تجاوزها من خلال الإيماءات الرمزية والصلاة والزهد.

¹ جرجس، المرجع السابق، ص. 122 - 123.

3. الجنائز الإسلامية

تعتقد الديانة الإسلامية كباقي الديانات السماوية أن السبب الذي من أجله خلق الله الموت هو البعث، أي انتهاء الحياة الدنيوية وبداية الحياة الأخروية. وهنا يمكن اعتبار الموت الممر أو الباب الذي يفصل بين هادين العالمين، ويتبن ذلك من خلال الآيات القرآنية التالية: "كل نفس ذائقة الموت ثم إليها ترجعون، والعين أمّوا وعملوا الصالحات لغيرهم من الجنة عُرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين"¹. كذلك نجد: "كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"². أيضا يقول الله تعالى: "إنّ ميت وإنهم ميتون، ثم إنّكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"³.

في ما يتعلق بالدفن نجد أن القرآن تحدث عن قصة قتل قابيل لأخيه هابيل، واحتار في كيفية التخلص من جثته، لتتدخل بذلك العناية الربانية وتريه السبيل الأمثل، حيث جاء في سورة المائدة "فصوّت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه فأصبح من النادمين"⁴، وجاء في معنى هاتين الآيتين بأن الله أرسل غرابين يقتتلان على مرأى من قابيل، وقد انتهى ذلك القتال بموت أحدهما، فعمد الغراب القاتل إلى نبش الأرض بمخالبه حتى تكونت حفرة عميقة دفع إليها جسد الغراب القتيل، ثم حثا التراب فوقه مواريا إياه الثرى، فألهم بصنيعه هذا قابيل ليدفن شقيقه بطريقة مماثلة.

أما كتب الفقهاء وعلماء الدين، فقد ركزت على الأحكام المتعلقة بالجنائز، كالتلقين، التغسيل والتطهير، الصلاة على الميت، الدفن، والتعزية. فما هي إذن هذه الطقوس؟ وكيف نظمها الإسلام؟

1.3. التلقين

التلقين لغة: اللام والقاف والنون كلمة صحيحة تدل على أخذ علم وفهمه، ولقن الشيء لقنًا: أخذه وفهمه، ولقننه تلقينا: فهمته. وغلّام لقن: سريع الفهم واللقانة.⁵ لقنّه الكلام: ألقاه إليه ليعيده، وهو

¹ سورة العنكبوت، الآيتين 57، 58.

² سورة آل عمران، الآية 185.

³ سورة الزمر، الآيتين 30، 31.

⁴ سورة المائدة، الآيتين 30، 31.

⁵ ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الخامس، دار الفكر، 1979، ص. 260.

المحتضر، نطق أمامه بالشهادتين لينطق بهما. وفي الحديث "لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله" والمراد بالموتى فيه المحتضرون والميت: ذكره عقب دفنه ما يجيب به الملكين حين يسألانه¹.

التلقين اصطلاحاً: هو أن يقول الملقن مخاطباً الميت: يا فلان ابن فلانة، إن كان يعرفه، وإلا نسبه إلى حواء عليها السلام، ثم يقول بعد ذلك: اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأنت رضىت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً. وهذا التلقين مستحب عند الشافعية والحنابلة، بينما الحنفية قالوا: إن التلقين بعد الفراغ من الدفن لا ينهى عنه ولا يؤمر به، أما المالكية فيرون أن التلقين بعد الدفن مكروه، وإنما التلقين يندب حال الاحتضار فقط². لهذا فإن ما يسن عند الاحتضار أولاً تلقين المحتضر: "لا إله إلا الله" لما رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله"، وروى أبو داود وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"³.

يكون التلقين في الحاضر العقل القادر على الكلام، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه، والعاجز عن الكلام يردد الشهادة في نفسه، ويرى العلماء أنه لا ينبغي أن يلح عليه في ذلك ولا يقول له: "قل لا إله إلا الله" خشية أن يضجر، فيتكلم بكلام غير لائق، ولكن يقولها بحيث يسمعه معرضاً له، ليفطن له فيقولها، وإذا أتى بالشهادة مرة لا يعاود التلقين ما لم يتكلم بعدها بكلام آخر فيعيد التعريض له به ليكون آخر كلامه. واتفق جمهور العلماء على أن المحتضر يقتصر في تلقينه على لفظ "لا إله إلا الله" لظاهر الحديث، وترى الجماعة أنه يلحق بالشهادتين لأن المقصود تذكّر التوحيد وهو يتوقف عليهما⁴.

وينبغي أن يوجه المحتضر، - الذي ظهرت عليه علامات الموت - إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن، وإذا لم يكن ممكناً فمستلقياً على ظهره ورجلاه إلى القبلة، وإن اشتدت به سكرات الموت

¹ أنيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004، ص. 835.

² الجزيري، عبد الرحمن، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، الجزء الأول، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2003، ص. 455.

³ العمراني الخالدي، عبد السلام، الكنز الثمين في كشف أسرار الدين، بيروت دار الكتب العلمية، 2001، ص. 185.

⁴ السيد سابق، فقه السنة، القاهرة، دار الفتح للإعلام العربي، الطبعة الأولى، 2004، ص. 332.

قرئت عليه سورة "يس" رجاء أن يخفف الله تعالى عنه ببركتها لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما من ميت يموت فتقرأ عنده "يس" إلا هون الله عليه"¹.

وإذا فاضت روح المسلم وجب تغميض عينيه وستره بغطاء، وأن لا يقال عنده إلا خيراً: "اللهم اغفر له، اللهم ارحمه"؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون". كما يستحب أن تعلن وفاة المسلم في أقربائه وأصدقائه والصالحين من أهل بلده ليحضرُوا جنازته، فقد نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي للناس لما مات في الصحيح، والنعي المنهي عنه هو ما كان في الشوارع، وعلى أبواب المساجد بصوت مرتفع وصياح، فمثل ذلك منهي عنه شرعاً. كما يحرم النوح والصرخ على الميت، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الميت ليعذب ببكاء الحي"².

2.3. تغسيل الميت

قال اللحياني: ميتٌ غَسِيلٌ في أمواتٍ غُسِّلَى غُسْلَاءً، وميتَةٌ غَسِيلٌ وَغَسِيلَةٌ، وقال الجوهري: "والمَغْسِلُ والمَغْسَلُ، بكسر السين وفتحها، مغْسِلُ الموتى"، وجاء في الْمُحْكَمُ: مغْسِلُ الموتى ومَغْسَلُهُمْ موضعُ غَسْلِهِمْ، والجمع المغاسِلُ، وقد اغتسلَ بالماء³. والمَغْتَسَلُ أيضاً الذي يغتسلُ فيه، والمَغْسِلُ بفتح السين وكسرهما مغْسِلُ الموتى وجمعه المَغاسِلُ⁴.

وقبل غسل الميت يُشدُّ لحِيَّه بعصابة عريضة تربط من فوق رأسه، وتلين مفاصله برفق، ورفعُه عن الأرض، وستره بثوب صونا له عن الأعين بعد نزع ثيابه التي قبض فيها، ويجب الانتظار بتجهيزه حتى يتحقق موته، وبعد التحقق من الموت ينبغي الإسراع بتجهيزه ودفنه، ويستحب إعلام الناس بموته، ولو بالنداء في الأسواق ليشهدوا جنازته من غير إفراط في المدح بأن يقول مثلاً: "مات الفقير إلى الله تعالى فلان ابن فلان"، فاسعوا في جنازته⁵.

¹ الجزائري، أبو بكر جابر، منهاج المسلم كتاب عقائد وآداب وأخلاق ومعاملات، القاهرة، دار السلام، 2004، ص. 208-209.

² المرجع نفسه، ص. 209.

³ ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد الحادي عشر، بيروت، دار صادر، 1990، ص. 494.

⁴ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1986، ص. 198.

⁵ الجزيري، المرجع السابق، ص. 456-457.

بالنسبة لحكم تغسيل الميت اتفق جمهور العلماء على أن غسل الميت المسلم فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن جميع المكلفين، لأمر رسول الله به، ولمحافظة المسلمين عليه¹. فإذا مات المسلم صغيراً كان أو كبيراً وجب تغسيله، سواء كان جسده كاملاً أو كان بعضه فقط، والذي لا يغسل من موتى المسلمين هو شهيد المعركة الذي سقط قتيلًا بأيدي الكفار في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تغسلوهم فإن كل جرح، أو كل دم يفوح مسكا يوم القيامة"².

والواجب في غسل الميت أن يعمم بالماء مرة واحدة ولو كان جنباً أو حائضاً، والمستحب في ذلك أن يوضع فوق مكان مرتفع ومجرد من الثياب، ويوضع عليه ساتر يستر عورته ما لم يكن صبيًا. وينبغي أن يكون الغاسل ثقة أميناً صالحاً لينشر ما يراه من خير، ويستر ما يظهر له من شر. فعن ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليغسل موتاكم المأمونون" وتجب النية عليه لأنه المخاطب بالغسل. ثم يبدأ فيعصر بطن الميت عصراً خفيفاً رقيقاً لإخراج ما عسى أن يكون به، ويزيل ما على بدنه من نجاسة، على أن يلف على يديه خرقة يمسح بها عورته، فإن لمس العورة حرام، ثم يوضئه وضوء الصلاة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ابدأ بميامنها ومواضع الوضوء منها" ولتجديد سمة المؤمن في ظهور أثر الغرة والتحجيل، ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون فإن رأى الزيادة على الثلاث، بعدم حصول الانتقاء بها أو بشيء آخر، غسله خمساً أو سبعاً. ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أغسلنها وتراً: ثلاثاً، أو خمساً أو سبعاً، أو أكثر من ذلك إن رأيتهن". قال ابن المنذر إنما فوض الأمر إليهن بالشرط المذكور وهو الإيثار، فإذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها أي فسخه وغسله وأعيد تطهيره وأرسل خلقها. "ففي حديث أم عطية أنهن جعلن رأس ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة قرون، قلت نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون أي ضفائر، قالت: نعم. وعند مسلم: فظفرنا شعرها ثلاثة قرون، قرنيها وناصيتها. وفي صحيح ابن حبان: الأمر بتطهيرها من قوله صلى الله عليه وسلم: "واجعلن لها ثلاثة قرون". حسب الطيب، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا أجمرت الميت فأوتروا"؛ واتفق جمهور العلماء على كراهية تقليص أظافر الميت، وأخذ شيء من شعر شاربه أو إبطه، أو عانته³.

اتفق الفقهاء على جواز غسل المرأة زوجها لقول عائشة: "لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، ما غسل النبي صلى الله عليه وسلم إلا نسأه، واختلفوا في جواز غسل الزوج امرأته فأجازه الجمهور، لما

¹ السيد سابق، المرجع السابق، ص. 339.

² الجزائري، المرجع السابق، ص. 210-211.

³ العمراني، المرجع السابق، ص. 189.

روي من غسل علي فاطمة رضي الله عنها، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: "لو مت قبلي لغسلتك وكفنتك"¹.

وفي حالة عدم وجود ماء لغسل الميت، أو مات رجل بين النساء أو امرأة بين الرجال يمم وكفن، وصلي عليه ودفن، ويقوم التيمم مقام الغسل عند العجز، كالجنب إذا عجز عن الغسل تيمم وصلي، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا ماتت المرأة مع رجال ليس معهم امرأة غيرها، والرجل مع النساء ليس معهن رجل غيره، فإنهم ييممان ويدفنان." وهما بمنزلة من لم يجد الماء².

3.3. التكفين

جاء في التعريف اللغوي للكفن ما يلي: ك ف ن - (الكَفَنُ) معروف وكَفَنَ الميت تكفيناً أي لفه بالكفن³. الكَفَنُ: للميت وجمعه (أَكْفَانٌ) مثل سبب وأسباب و(كَفَّنْتُهُ) في برد ونحوه (تكفيناً) و(كَفَّنْتُهُ) (كَفَّنَا) من باب ضرب لغة و(كَفَّنْتُ) الصُّوف (كفناً) من باب قَتَلَ غزَلْتُه⁴.

يجب أن يكفن المسلم، إذا غسِلَ، بما يستتر سائر جسده، فقد كَفَّنَ مصعب بن عمير من شهداء أحد رضي الله عنه في بردة قصيرة، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغطوا رأسه وجسده، وأن يغطوا رجليه بالإذخر - نبات - فدل هذا على فرضية تغطية سائر الجسد⁵.

ويستحب أن يكون الكفن أبيض نظيفاً، جديداً كان أو قديماً، لقوله صلى الله عليه وسلم: "البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم." كما يستحب أن يجمر الكفن بالعود لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أجمرت الميت فأجمروه ثلاثاً." وأن يكون ثلاث لفائف للرجل، وخمسا للمرأة، فقد كَفَّنَ الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاث ثياب بيض سحولية جدد، ليس فيها قميص ولا عمامة، إلا المحرم فإنه يكفن في إحرامه: ردائه وإزاره فقط ولا يطيب ولا يغطي رأسه إبقاءً على إحرامه، لقوله صلى الله عليه وسلم في الذي وقع من على راحلته يوم عرفات فمات: "غسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه، ولا تحنطوه، ولا تخمروا⁶ رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً⁷".

¹ السيد سابق، المرجع السابق، ص. 342-343.

² الجزائري، المرجع السابق، ص. 211.

³ الرازي، المرجع السابق، ص. 240.

⁴ الفيومي المقرئ، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1977، ص. 537.

⁵ الجزائري، المرجع السابق، ص. 212.

⁶ لا تخمروا: أي لا تغطوا.

⁷ الجزائري، المرجع نفسه، ص. 212.

ويحرم أن يكفن المسلم في ثوب حرير، إذ أن الحرير محرم لبسه على الرجال، لذلك يحرم تكفينهم فيه. الشيء نفسه للمسلمة، فإنه وإن كان لبس الحرير حلالاً لها، فإنه يكره لها أن تكفن فيه، لأنه إسراف ومغالاة نهى عنهما الشرع، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تغالوا في الكفن فإنه يسلبُ سريعاً." وقال أبو بكر رضي الله عنه: "إن الحيَّ أولى بالجديد من الميت، إنما هو للمهلة - القيح أو الصديد يسيل من الميت"¹.

وجاء في حكم الكفن: تكفين الميت بما يستره ولو كان ثوباً واحداً فرض كفاية، وروى البخاري عن خباب رضي الله عنه قال: "هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قُتِلَ يوم أُحد، فلم نجد ما نكفنه إلا بردة، إذا غطينا بها رأسه، خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه، خرج رأسه، فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه وأن نجعل على رجليه من الإذخر"².

كما أنه إذا مات الميت وترك مالا فتكفينه من ماله، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته، فإن لم يكن له من ينفق عليه فكفنه من بيت مال المسلمين، وإلا فعلى المسلمين أنفسهم، والمرأة مثل الرجل في ذلك. قال ابن حزم: "وكفن المرأة وحفر قبرها من رأس مالها، ولا يلزم ذلك زوجها، لأن أموال المسلمين محظورة إلا بنص قرآن أو سنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام." وإنما أوجب الله تعالى على الزوج النفقة، والكسوة، والإسكان ولا يسمى في اللغة التي خاطبنا الله تعالى بها الكفن كسوة، ولا القبر إسكاناً"³.

4.3. الصلاة على الميت

الصلاة على الميت فرض كفاية باتفاق أئمة الفقه لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، ولمحافظة المسلمين عليها. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتي بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل: هل ترك لدينه فضلاً؟ فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى، وإلا قال للمسلمين: "صلوا على صاحبكم."، وعن الجماعة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ الجزائري، المرجع السابق، ص. 212.

² السيد سابق، المرجع السابق، ص. 343.

³ السيد سابق، المرجع نفسه، ص. 345.

قال: "من تبع الجنازة وصلى عليها فله قيراط ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان، أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد"¹.

ويشترط في الصلاة على الجنازة ما يشترط في الصلاة من طهارة الحدث والخبث، وستر العورة، واستقبال القبلة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سماها صلاة فقال: "صلُّوا على صاحبكم"، فتعطى إذا حكم الصلاة في شروطها.²

أما فروض صلاة الجنازة هي: القيام للقادر عليها، والنية لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" وقراءة الفاتحة، أو الحمد والثناء على الله، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، والتكبيرات الأربع، والدعاء، والسلام.³

إن لصلاة الجنازة أركان تترتب عنها حقيقتها، ولو ترك منها ركن لبطلت، ووقعت غير معتد بها شرعا نذكرها في ما يلي:⁴

✓ النية، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"، وتقدم حقيقة النية أن محلها القلب، وأن التلفظ بها غير مشروع.

✓ القيام للقادر عليه: وهو ركن عند جمهور العلماء، فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكبا أو قاعدا من غير عذر، فحسب ابن قدامة المقدسي: "لا يجوز أن يصلي على الجنازة وهو راكب، لأنه يفوت القيام بالواجب". ويستحب أن يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام، كما يفعل في الصلاة، وقيل: لا، والأول أولى.⁵

✓ التكبيرات الأربع: لما رواه البخاري، ومسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي فكبر أربعاً. قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات، وهو قول سفيان ومالك، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق.

✓ رفع اليدين عند التكبير: والسنة عدم رفع اليدين في صلاة الجنازة إلا في أول تكبيرة فقط، لأنه لم يؤت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رفع في شيء من تكبيرات الجنازة إلا في أول تكبيرة

¹ العمراني، المرجع السابق، ص. 191.

² الجزائري، المرجع السابق، ص. 213.

³ الجزائري، المرجع نفسه، ص. 213.

⁴ السيد السابق، المرجع السابق، ص. 346-348.

⁵ ابن قدامة، المرجع السابق، ص. 420.

فقط. قال الشوكاني: "والحاصل، أنه لم يثبت في غير التكبيرة الأولى شيء يصلح للاحتجاج به عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعال الصحابة وأقوالهم لا حجة فيها، فينبغي أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الإحرام، لأنه لم يشرع في غيرها، إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن، كما في سائر الصلوات، ولا انتقال في صلاة الجنازة".

✓ قراءة الفاتحة سرا، والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم لما رواه الشافعي في مسنده عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويخلص الدعاء في الجنازة في التكبيرات، ولا يقرأ في شيء منهن، ثم يسلم سرا في نفسه.

✓ الدعاء: وهو ركن باتفاق الفقهاء لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا صليتم على الميت، فأخلصوا له الدعاء"، ويتحقق بأي دعاء، والمستحب فيه أن يدعو بأي دعاء من الأدعية المأثورة، وألفاظ الدعاء هي: الحمد لله الذي أمات وأحيا، الحمد لله الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، ومن أحسن الدعاء أن تقول: اللهم إنه عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن سيدنا محمدًا عبدك ورسولك وأنت أعلم به. اللهم إن كان محسنا فزد في إحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته، اللهم لا تحرمنّا أجره ولا تفتنّا بعده.

✓ السلام: وهو متفق على فرضيته بين الفقهاء ما عدا أبا حنيفة القائل بأن التسليمتين يمينا وشمالا واجبتان، وليستا ركنين. واستدلوا على الفرضية بأن صلاة الجنازة، وتحليل الصلاة التسليم، وقال ابن مسعود: التسليم على الجنازة مثل التسليم في الصلاة، وأقله: السلام عليكم أو سلام عليكم، وذهب الإمام أحمد إلى أن التسليمة الواحدة هي السنة، يسلمها عن يمينه، ولا بأس إن سلم تلقاء وجهه استدلالا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبفعل الأصحاب الذين كانوا يسلمون تسليمة واحدة، ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم، واستحب الشافعي تسليمتين، يبدأ بالأولى ملتفتا إلى يمينه، ويختم بالأخرى ملتفتا إلى يساره.

وللصلاة على الميت، توضع الجنازة أو الجناز قبله، ويقف الإمام والناس وراءه ثلاثة صفوف فأكثر، تبعا لقوله صلى الله عليه وسلم: "من صلى عليه ثلاثة صفوف فقد أوجب". فيرفع يديه ناويا الصلاة على الميت أو الأموات، إن تعددوا قائلا: الله أكبر، ثم يقرأ الفاتحة أو يحمد الله عز وجل، ويشي عليه ثم يكبر رافعا يديه إن شاء، أو يتركهما على صدره، اليمنى فوق اليسرى، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة الإبراهيمية، ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر وإن شاء دعا وسلم بعد التكبيرة الرابعة مباشرة تسليمه واحدة. لما روي أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنازة في التكبيرات، ولا يقرأ في شيء منهن ثم يسلم سرا في نفسه¹.

5.3. دفن الميت

د ف ن - (دفنت) لشيء من باب ضرب فهو (مدفون) و(دفين) و(أدفن) الشيء على أفعل و(أندفن) بمعنى لا يعلم به. و(التدفن) التكاثر يقال: لو تكاشفتم ما تدافنتم. أي لو انكشف عيب بعضكم البعض².

دفنه يدفنه: ستره، وواراه، كادفنه، على أفنعه، فاندفن وتدفن. والدفن بالكسر: ع. والدفن كالمدفون ج: أدفن ودفن³.

دفنت: الشيء (دفنا) من باب ضرب أخفيته تحت أطباق التراب فهو (دفين) و (مدفون) (فاندفن) هو، و(دفنت) الحديث كتمته وسترته⁴.

ورد في حكم دفن الميت أنه فرض كفاية إن أمكن، فإن لم يمكن كحدوث الموت في سفينة بعيدة عن الشاطئ ويتعسر أن ترسو على مكان يمكن دفنه به قبل تغير رائحته، فإنه يربط بمثقل، ويلقى في الماء. وعند إمكان دفنه يجب أن يحفر له حفرة في الأرض، وأقلها عمقا ما يمنع ظهور الرائحة ونبش السباع، وما زاد على ذلك ففيه خلاف، أما أقلها طولاً وعرضا فهو ما يسع الميت ومن يتولى دفنه، ولا يجوز وضع الميت على وجه الأرض والبناء عليه من غير حفرة، إلا إذا لم يمكن الحفر، ثم إذا كانت الأرض صلبة فيسن فيها اللحد، وهو أن يحفر أسفل القبر من جهة القبلة حفرة تسع الميت، والمالكية

¹ الجزائري، المرجع السابق، ص. 213.

² الرازي، المرجع السابق، ص. 87.

³ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 2005، ص. 1196.

⁴ الفيومي المقرئ، المرجع السابق، ص. 197.

يقولون عن اللحد في الأرض الصلبة مستحبة لا سنة، وإن كانت رخوة فيباح فيها الشق، وهو أن يحفر في وسط أسفل القبر حفرة كالنهر، ثم يبني جانبه باللبن - الطوب - ويسقف بعد وضع الميت، وهذا حيث تعذر اللحد، ويجب وضع الميت في قبره على جنبه الأيمن، وأن يقول واضعه: بسم الله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول القائم بوضعه: اللهم تقبله بأحسن قبول، وإذا ترك شيئاً من هذه الأشياء كأن وضع الميت غير موجه للقبلة، أو جعل رأسه موضع رجله، أو وضع على ظهره أو على شقه الأيسر، فإن أهيل عليه التراب لم ينبش القبر بقصد تدارك ذلك، أما قبل إهالة التراب عليه فينبغي تدارك ما فات من ذلك، ولو برفع اللبن بعد وضعه. ويستحب أن يسند رأس الميت ورجلاه بشيء من التراب أو اللبن في قبره، ويكره أن يوضع الميت في صندوق إلا لحاجة، كنداوة الأرض ورخاوتها، كما يكره وضع وسادة أو فراش أو نحو ذلك معه في قبره. ثم بعد دفن الميت في اللحد أو الشق وسد قبره باللبن ونحوه يستحب أن يحثو كل واحد ممن شهد دفنه ثلاث حثيات من التراب بيديه جميعاً، ويكون من قبل رأس الميت، ويقول في الأولى: (منها خلقناكم)، وفي الثانية: (وفيها نعيدكم)، وفي الثالثة: (ومنها نخرجكم تارة أخرى)¹.

ويستحب لمن حضر الدفن أن يستغفر للميت، وأن يسأل له التثبيت في المسألة لقوله، صلى الله عليه وسلم: "استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل"، وكان بعض السلف يقول: "اللهم هذا عبدك نزل بك، وأنت خير منزل به، فاغفر له ووسع مدخله"². وينبغي أن يسوى القبر بالأرض لأمره صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور بالأرض، غير أن تسنيم القبر جائز وهو رفع القبر قدر شبر مستمماً، ولا بأس بوضع العلامة على القبر ليعرف بها، لأنه صلى الله عليه وسلم علم قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه بصخرة، وقال: "أعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي"³. إلا أنه يحرم تجصيص القبر أو البناء عليه، لما روي مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يجصص القبر أو يبني عليه. كما يكره للمسلم أن يجلس على قبر أخيه المسلم أو يطأه برجله، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها"، وقوله أيضاً: "لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير من أن يجلس على قبر"⁴. حرم أيضاً نبش القبور ونقل رفاة أهلها، أو إخراج أصحابها منها إلا لضرورة أكيدة، كأن يدفن بلا غسل مثلاً، كما يكره نقل الميت الذي لم يدفن بعد من بلد إلى بلد إلا إذا

¹ الجزيري، المرجع السابق، ص. 485.

² الجزائري، المرجع السابق، ص. 216.

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه.

كان المنقول إليه أحد الحرمين الشريفين، مكة، أو المدينة، أو بيت المقدس كذلك، لقوله صلى الله عليه وسلم: "ادفنوا القتلى في مصارعهم"¹.

يستحب أن يلحق الميت المكلف بعد الدفن لما رواه سعيد بن منصور عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب وحكيم بن عمير قالوا: إذا سوي على الميت قبره وانصرف الناس عنه، كانوا يستحبون أن يقال للميت عند قبره: "يا فلان قل لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله (ثلاث مرات)، يا فلان قل ربي الله، وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ثم ينصرف، وقد روى هذا الأثر الحافظ في التلخيص وسكت عنه"².

وروى الطبراني من حديث أبي أمامة قال: "إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول: يا فلان بن فلانة فإنه يسمعه ولا يجيب، ثم يقول يا فلان بن فلانة، فإنه يستوي قاعدا، ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله، ولكن لا تشعرون، فليقل: اذكر ما خرجت به من الدنيا شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمد رسول الله، وأنت رضىت بالإسلام ديناً، وبالله رباً، وسيدنا محمد نبياً وبالقرآن إماماً. فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا ما يقعدنا عند من لقن حجته"³.

6.3. التعزية

التعزية هي التصبير، وحمل أهل الميت على العزاء والصبر بذكر ما يهون عليهم المصاب، ويخفف عنهم شدة الحزن، وتؤدي التعزية بأي لفظ كان، ومما يروى عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك قوله لابنته وقد أرسلت إليه أن ابنا لها قد مات، فأرسل إليها من يقرئها السلام ويقول لها: "إن الله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب"⁴.

وكتب بعض السلف يعزي أحداً بوفاة ولده فقال: من فلان إلى فلان، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، فإن أنفسنا وأموالنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، متّعك الله به في غبطة وسور، وقبضه منك

¹ الجزائري، المرجع نفسه ص. 217.

² العمراني، المرجع السابق، ص. 193.

³ العمراني، المرجع نفسه، ص. 193.

⁴ الجزائري، المرجع نفسه، ص. 217.

بأجر كبير. الصلاة والرحمة والهدى إن احتسبته فاصبر، ولا يحبط جزعك أجرك فتتدم. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً، ولا يدفع حزناً، وما هو نازل فكأن قَدْ، والسلام.¹ ويكفي في التعزية قول: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاك وغفر لميتك، ويقول المعزّي: آمين، أجرك الله، ولا أراك مكروهاً.

في ما يتعلق بحكم التعزية فهي مستحبة، لما رواه ابن ماجة والبيهقي بسند حسن، عن عمرو بن حزم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة، إلا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة". وينبغي أن تكون التعزية لجميع أهل البيت وأقاربه، الكبار، والصغار، والرجال، والنساء، سواء أكان ذلك قبل الدفن أم بعده إلى ثلاثة أيام، إلا إذا كان المعزّي أو المعزّى غائباً، فلا بأس بالتعزية بعد الثلاث. والسنة أن يعزّي أهل الميت وأقاربه، ثم ينصرف كل في حوائجه، دون أن يجلس أحد، سواء أكان معزّي أو معزّياً. قال الشافعي في "الأم": أكره المأتم، وهي الجماعة، وإن لم يكن لهم بكاء، فإن ذلك يجدد الحزن، ويكلف المؤنة مع ما مضى فيه من الأثر. قال النووي: نص الشافعي وأصحابه، رحمهم الله على كراهية الجلوس للتعزية؛ ويعني بالجلوس: أن يجتمع أهل الميت في بيت ليقصدهم من أراد التعزية، بل ينبغي أن ينصرفوا في حوائجهم، ولا فرق بين الرجال والنساء فكراهة الجلوس لها.²

وتنص التعاليم الإسلامية على اجتناب ما يفعله بعض الناس اليوم من اجتماع للتعزية، وإقامة السراقات، وفرش البسط، وصرف الأموال الطائلة من أجل المباهاة والمفاخرة، ويعتبر ذلك من الأمور المحدثّة والبدع المنكرة التي يحرم فعلها، لا سيما وأنه يقع فيها كثير مما يخالف هدي الكتاب، ويناقض تعاليم السنة، ويسير وفق عادات الجاهلية، كالتغني بالقرآن، وعدم التزام أدب التلاوة، وترك الإنصات، والتشاغل عنه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه عند كثير من ذوي الأهواء، فلم يكتفوا بالأيام الأولى، بل جعلوا يوم الأربعاء يوم تجدد لهذه المنكرات، وإعادة لهذه البدع، وجعلوا ذكرى أولى بمناسبة مرور عام على الوفاة، وذكرى ثانية، وهكذا مما لا يتفق مع عقل ولا نقل.³

¹ الجزائري، المرجع السابق، ص. 217-218.

² السيد سابق، المرجع السابق، ص. 372.

³ السيد سابق، المرجع نفسه، ص. 373.

خاتمة الفصل الأول

نستخلص مما سبق أن موضوع الموت والعالم الآخر كان حاضرا بقوة منذ أقدم العصور. ولقد كشفت الشواهد سواء الأثرية أو المكتوبة (ملحمة كلكامش، ألواح سومر، البرادى المصرية)، إضافة إلى الأثاث الجنائزي المستخرج بمدافن الحضارات القديمة عن اهتمام الإنسان القديم بموضوع الموت، وكذلك إيمانه المطلق بحياة أخرى بعدها، وذلك باتباع مجموعة من الإجراءات التي ستجعل الميت ينعم بحياة هنيئة في العالم الأخروي.

وتلتقي الحضارات القديمة الثلاث في معتقدات وممارسات طقوسية نذكرها كما يلي:

أولاً: في ضرورة إقامة الطقوس الجنائزية إرضاء للآلهة ولتحسين مصير الميت، رغم بعض الاختلافات في الكيفية؛ فنجد مثلاً بلاد وادي الرافدين يتم فيها الدفن مباشرة بعد وفاة الميت وتجهيزه، عكس الحضارة المصرية التي تأخذ وقتاً طويلاً، وذلك بسبب طريقة تجهيز الميت التي تتميز بالتعقيد وكثرة التفاصيل والتركيز على المظاهر.

ثانياً: ضرورة وضع المرفقات الجنائزية في قبر الميت لتلبي احتياجاته في الحياة الأخرى، وتختلف هذه المرفقات حسب مكانة الميت الاجتماعية، وأيضاً حسب الحضارة التي ينتمي إليها. ففي بلاد الرافدين شملت هذه المرفقات، إضافة إلى الحلي والمجوهرات، الإنسان (العبيد)؛ حيث كشفت تنقيبات مقابر ملوك "أور" أن عدداً من أفراد حاشية الملك المتوفى كانوا يقتلون ويدفنون مع سيدهم في نفس اليوم لخدمته في الحياة الأخرى. وفي مصر القديمة يرفق مع الميت أثاث فاخر ومجوهرات وتماثيل من الذهب والأحجار الكريمة، أو أدوات بسيطة كالأواني الفخارية وبعض الحلي في مقابر المغرب القديم.

ثالثاً: إن من بين الطقوس الجنائزية في الحضارات القديمة ما يهتم بالحياة والاحتفال أكثر من الموت؛ حيث تدل طقوس الموكب الجنائزي لمصر أنها لم تكن حزينة أبداً، بل كانت طقوساً احتفالية تذكر بالرحلة إلى العالم الآخر، حيث كانت تقام وسط نوع من الرقص الديني الجنائزي، وقرع للدفوف. أما في شمال إفريقيا فقد عمد سكان هذه المنطقة على تجهيز مقابرهم على أرضيات ومواقع ذات مناظر جميلة، غالباً ما تكون مطلة على البحر، وذلك لكي يمكنوا موتاهم من الاستمتاع بهذه المناظر والتتزه مثلهم مثل الأحياء. يتجلى هذا في مقابر المغرب القديم التي تعود إلى العهد الفينيقي، والتي احتلت مواقع استراتيجية

بمناظرها الطبيعية، مثل مقابر الأندلسيات بالغرب الجزائري، منطقة لكسوس بالمغرب الأقصى، وهنشير العليا جنوب المهدية بتونس.

أما الاختلاف فيشمل تصور مدى العلاقة بين الجسد والروح بعد الموت، فقد اعتقد العراقيون القدماء أن خلود الروح في عالم الأموات لم يكن يعتمد على الجسد، وإنما الغرض من عملية الدفن هو ضمان نزول الروح إلى العالم السفلي، وعدم بقائها تائهة في عالم الأحياء، في حين اعتقد المصريون قديما بأن وجود الروح وخلودها في عالم ما بعد الموت يتوقف على مدى سلامة جسد المتوفى وبقائه محتفظا بشكله بقدر الإمكان. هذا ما دفعهم إلى بذل العناية الشديدة بأجساد الموتى وإتقان تحنيطها للمحافظة عليها وضمان خلود الروح. أما حضارة المغرب القديم فتعتقد بأن دفن الموتى في اتجاه الشرق، وأيضا اتخاذ الوضعية الجنينية في الدفن كفيل في إعطاء موتاهم حياة جديدة، باعتبار الأرض هي الإلهة الأم المنتجة للحياة بامتياز.

وعلى مستوى الديانات السماوية الثلاث فتلتقي طقوسها الجنائزية، في ما يلي:

أولا حتمية الموت: اتفقت الديانات السماوية في كون الموت أمر حتمي لا مفر منه، ولا يعلم أجله إلا الله ففي اليهودية ورد في الكتاب المقدس (العهد القديم): "ليس للإنسان سلطان على الروح ليمسك الروح، ولا سلطان على يوم الموت، ولا تخليق في الحرب، ولا ينجي الشر أصحابه"، أما في المسيحية جاء في رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين: "وكما وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك ¹الحيوة". وفي الإسلام هناك آيات قرآنية تقول: "أينما تكفونوا يركمكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" ²، وأيضا "إن الله له ملئ السموات والأرض يحيي ويميت" ⁴.

ثانيا تجهيز الميت: تلتقي اليهودية والإسلام في ضرورة الإسراع في تجهيز الميت بتغسيله وتكفينه، وأيضا أن الرجل لا يغسله إلا رجل، والمرأة لا تغسلها إلا امرأة، رغم أن الإسلام يجيز تغسيل الرجل لزوجته أو العكس. وتتم طقوس التغسيل في مكان مستور لا يدخل إليه سوى المغسلون، مع الحرص على ستر عورة الميت. يشمل الاتفاق كذلك الكفن بأن يكون من قماش الكتان أو القطن الأبيض اللون، مع اختلاف الديانتين في عدد القطع المكونة له، حيث نجد ثمان أو تسع قطع في اليهودية، بينما في الإسلام تتراوح

¹ سفر الجامعة، (جا 8:8).

² عب 9:27.

³ سورة النساء، الآية: 78.

⁴ سورة التوبة، الآية: 116.

عدد قطع بين ثلاث للرجل وخمسة للمرأة. وتتميز كذلك طقوس تجهيز الميت في اليهودية والإسلام بالاعتدال دون بذخ ولا مغالات، عكس المسيحية التي مالت في تجهيزها لأمواتها لمظاهر البذخ، وتتفق هذه الأخيرة مع الديانتين السابقتين في وجوب تغسيل الميت، وضرورة إغلاق العينين والفم أثناء حدوث الوفاة.

ثالثا الدفن: حيث تتفق الديانات الثلاث في دفن الميت في التراب إكراما له، والسبب في ذلك عقائدي مفاده أن الإنسان خلق من تراب فيجب أن يعود إليه، رغم أن المسيحية أجازت كذلك حرق الجثث.

رابعا الجنازة: تتم الجنازة في الديانات الثلاث بشكل طقوسي، حيث أن اليهودية تشترك مع المسيحية في قراءة الكتاب المقدس (العهد القديم) والمزامير، ومدح الميت، أما الإسلام فيقرأون القرآن. وأوصت كذلك هذه الديانات بالتعاون والتعاطف مع أهل الميت في ظروفهم الصعبة، من خلال تقديم الطعام لهم لكونهم منشغلين بحزنهم، وقد لا يصنعون لأنفسهم طعاما. كما يشمل الاتفاق تعزية أهل الميت والتخفيف عنهم.

في ما يخص المقارنة بين طقوس الحضارات القديمة والشعائر التي جاءت بها الديانات السماوية، سجلت كذلك تشابها كبيرا في عدد من الطقوس.

خروج الروح: ذكر في ملحمة كلكامش أثناء حديث "إنكي دو" مع هذا الأخير حين قص عليه رؤياه عن الموت أثناء مرضه:

كنت واقفا وحدي فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه؛

كان وجهه مثل وجه طير الصاعقة "زو" ومخالبه كأظفار النسر؛

لقد عراني من لباسي وأمسك بي بمخالبه وأخذ بخناقني حتى خملت أنفاسي¹.

الشيء نفسه نجده في الديانات السماوية، حيث أن أمر فصل الروح عن الجسد أسند إلى إحدى الكائنات السماوية لتقبضها وتسافر معها إلى عالم الأرواح. يوصف هذا الكائن في المعتقد اليهودي على أنه ملاك يقيم في السماء وله أجنحة يسمى عزرائيل، يقف عند رأس المحتضر بسيفه المرفوع، لاعتقادهم أن الروح تخرج من الفم أو تبقى في الحلق. وأثناء حدوث الوفاة تقوم عائلة المتوفى بالتخلص من كل المياه الموجودة في المنزل، حيث يعتقدون بأن عزرائيل يستعملها في غسل سيفه وبالتالي تسميمها.

في الديانة الإسلامية أسندت مهمة قبض الأرواح لنفس الملك: "ملك الموت"، حيث تقول الآية: "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إليه ترجعون"¹

¹ باقر، طه، ملحمة كلكامش، المرجع السابق، ص.70.

تطهير الميت: رأينا في ما سبق بأن في الديانة المصرية القديمة يعمد المصريون إلى غسل جسد الميت بماء النيل، لاعتقادهم بقدسيته وتبركا به. هذا الطقس نجد مقابلا له في المعتقد الديني، خاصة الإسلامي، حيث يعمد المغسلون بعد الفراغ من تكفين الميت إلى رشه بالقليل من ماء زمزم تبركا به ولقدسيته. أما اليهود فأتثناء حدوث الوفاة، يذراً القليل من تراب فلسطين الذي كان قد أتى به أحدهم على العينين، كذلك أثناء الدفن يقوم الحزان بمزج حفنة من تراب قد جيء بها من فلسطين، حيث يعتقد هؤلاء أن هذه الحفنة من الرمل هي نبرس الجثة في رحيلها إلى الأرض المقدسة، أرض الميعاد كما يعتقدون.

اتجاه الدفن: مارست الحضارات القديمة الدفن في اتجاه الشرق منذ أقدم العصور، حيث كشفت البقايا الأثرية التي تعود إلى ذلك العصر عن قبور متجهة نحو الشرق، وذلك لأنهم رأوا الشمس تشرق كل يوم من هناك، وبالتالي اعتقدوا بأن أمواتهم سيبعثون من الشرق. في الديانة اليهودية كذلك يكون القبر متجهاً نحو الشرق "مزارح"، بحيث يكون الميت في مرقده ينظر نحو القدس أو أرض الميعاد حسب اعتقادهم. الشيء نفسه عند المسلمين إذ يدفنون موتاهم في اتجاه الشرق لاعتقادهم بأن البعث سيكون من الكعبة أو بيت الله.

ما بعد الموت: تؤمن جميع الديانات السماوية بيوم الحساب، ففي اليهودية ذكر يوم الحساب في عدة آيات من العهد القديم منها: "قُلْتُ قَرِيبٌ يَوْمُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ الْأُمَّةِ. كَمَا فَعَلْتَ يُفَعْلُ بِكَ. كَمَا لَمْ يَرْتُدَّ عَلَى رَأْسِكَ".² أما في الديانة المسيحية فنقرأ في الكتاب المقدس (العهد الجديد): "وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَلَّغْتُمْ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْصُونَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الْكَيْنِ". وفي الإسلام تقول الآية: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا أُنْمِرَتْ مَا هِيَ إِلَّا نَارٌ حَامِيَةٌ.⁴ في يوم الحساب توزن حسنات المؤمن وسيئاته، فإن ثقلت حسناته فهو من أهل الجنة، وإن خفت فهو من أهل النار. يوم الحساب المذكور في الديانات السماوية يقابله ما يسمى بـ "المحاكمة" لدى المصريون القدماء، حيث يؤمنون بأن الإنسان تنتظره المحاكمة في السماء، وتكون من خلال وضع قلب الميت في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى الريشة المقدسة، فإذا توازنت الكفتين فذلك انتصار ونجاح، أما إذا مال الميزان وكان القلب أثقل من الريشة، ظهر وحش فضيع يلتهم الميت ويشرب دمه حسب اعتقادهم.

¹ سورة السجدة، الآية: 11.

² سفر عوبديا 1: 15.

³ متى 12: 36.

⁴ سورة القارعة، الآية: 6- 11.

الفصل الثاني

الموت والفضاء الجنائزي في

الثقافة الأمازيغية

الفصل الثاني: الموت والفضاء الجنائزي في الثقافة الأمازيغية

1. الموت في الثقافة الأمازيغية

لقد بدأ اهتمام الإنسان بموضوع الموت منذ فجر البشرية، إذ شغل هذا الموضوع مجالا كبيرا من فكره واهتماماته؛ ويتضح ذلك بشكل جلي من خلال الإرث الهائل الذي خلفته الحضارات القديمة (مصر القديمة، حضارة بلاد الرافدين، وحضارة المغرب القديم) وهذا ما نجده في مختلف الكتابات، والأثار المخلفة على جدران الكهوف في المراحل المبكرة من حياة الإنسان البدائي، إلى جانب الشواهد الجنائزية التي ما زالت صامدة إلى يومنا هذا.

وما يتير الانتباه هو تلك الوقائع والأقوال المأثورة والغريبة، التي تتردد عن الموت وتظهره في شكل هاجس وجودي ضاغط بالنسبة للإنسان عبر مختلف الثقافات الإنسانية. فمنذ بدء الخليقة كان الإنسان لا يني يوظف طاقته وخياله وأساطيره وأوهامه، وهو يبتدع إجابات عن مسألة الموت وأسراره، ولم يكن يجد من بينها جوابا شافيا لما يبحث عنه، بقدر ما يقوي منازع فضوله وخوفه من المجهول¹.

ولقد حظي موضوع الموت باهتمام الثقافة الأمازيغية منذ القدم، حيث تفاعل معه الإنسان الأمازيغي بإنتاجه لطقوس وممارسات تترجم موقفه منه. بل وذهبت الأساطير، والأديان، والمعتقدات الشعبية، إلى إثارة هذا الموضوع فكريا وفلسفيا، من خلال محاولاتها الإجابة على أسئلته الغامضة التي حيرت الإنسان بصفة عامة. ما الموت؟ كيف يموت الإنسان؟ وإلى أين يذهب بعد الموت؟ وهل هناك عالم آخر بعد الموت؟

نفتح المجال إذن في هذا الباب لموضوع الموت لنناقش إشكالاته المتنوعة في الثقافة الإنسانية بصفة عامة، والثقافة الأمازيغية بصفة خاصة. فما هي الفكرة التي كونها الأمازيغ عن الموت؟ وماهي طبيعة العلاقة الموجودة بين الأموات والأحياء؟

¹ الوراري، عبد اللطيف، الأنثروبولوجيا التاريخية للموت: كيف يعيش الإنسان العربي والمسلم حالات الفقد؟ مقال منشور في المجلة الإلكترونية ذوات، عن مؤسسو مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، العدد 43، 2018، ص. 12.

1. الموت في الميثولوجيا

ابتكر العقل البشري في المجتمعات القديمة قصصا عن الآلهة تعرف بالأساطير، استخدموها لتفسير الأحداث والظواهر المحيطة بهم، كنزول الأمطار، وقوع الفيضانات، شروق الشمس وغروبها، وكذلك الولادة والموت، وذلك لافتقادهم للمعرفة العلمية الكافية. ومن هذه الأساطير: أساطير الخلق، أساطير الانبعاث، وأساطير الكائنات فوق الطبيعة، لكل منها قوى معينة وقصصا حول أفعالها.

أنشاء دراستنا لأي ظاهرة من ظواهر الثقافة الإنسانية، لا يمكننا الخوض في نقاش هذه الظاهرة دون البدء بتعريفها وتوضيح حدودها. والأسطورة هي حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة. أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة. إنها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء، ووطدت نظام كل شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر.¹ يبدو من خلال الاطلاع على مختلف المراجع التي اهتمت بالأسطورة أن تعريفها صعب للغاية، نظرا لوجود تعاريف كثيرة لها، وذلك راجع إلى تعدد نماذج الأسطورة، ووظائفها. ذلك ما جعل مرسيا إلياد يقول: "الأسطورة واقعة ثقافية بالغة التعقيد، يمكننا أن نباشرها ونفسرها من منظورات متعددة يكمل بعضها بعضا"²، والتعريف الذي يقدمه إلياد هو أن "الأسطورة تروي تاريخا مقدسا، تروي حدثا جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي، وهو زمن البدايات"³. ويفسر هذا التعريف أن الأسطورة تحكي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، أو كيف تم إنتاج شيء. فهي إذن سرد لحكاية خلق، بمعنى كيف بدأ وجوده.

وعلى العموم فالأسطورة حكاية مقدسة، تتميز شخصياتها بأنها كائنات عليا تعرفهم بما قد صنعوه في الأزمنة القوية، ذات التأثير الفعال، وهي أزمنة البدايات.⁴ هكذا تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسيا.⁵

وعلى الرغم من افتقار الأسطورة إلى الدليل المادي أو العلمي أو التاريخي على حدوث ما يرد فيها من أمور، وما تتضمنه من شروح وتبريرات، فإنها تحمل في إشارتها الرمزية ومكوناتها الغامضة خيطا من

¹ السواح، فراس، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دمشق، دار علاء الدين، الطبعة الثانية، 2001، ص. 16.

² إلياد، مرسيا، مظاهر الأسطورة، ترجمة: نهاد خباطة، دمشق، دار كنعان للنشر، الطبعة الأولى، 1991، ص 9.

³ إلياد، المرجع نفسه، ص. 10.

⁴ إلياد، المرجع نفسه، ص. 10.

⁵ السواح، المرجع نفسه، ص. 12.

نور يضيء للإنسان سبل الوصول إلى فهم بعض جوانب الماضي الغارق في القدم، أو إدراك المغزى أو الحكمة أو الحقيقة التي تنطوي عليها أسطورة ما، إلا أن هذا الفهم محكوم في الغالب بطبيعة الحال بثقافة المتأمل وخلفيته الإيديولوجية ومستواه الحضاري¹. ذلك ما ذهب إليه أيضا إيلاد حيث يعتبر الأسطورة تاريخا مقدسا وبالتالي تاريخا حقيقيا، لأنها ترجع دائما إلى حقائق، فالأسطورة الكوسموغونية (التي تتحدث عن نشأة الكون) أسطورة حقيقية، يبرهن عليها وجود العالم، وأسطورة أصل الموت هي أيضا أسطورة حقيقية، إذ إن موت الإنسان برهان عليها².

حدد فراس السواح مجموعة من المعايير التي يجب توفرها في النص الأسطوري، من أجل تمييز الأسطورة عن غيرها من النصوص الأدبية. نعرض هذه المعايير فيما يلي³:

- من حيث الشكل: الأسطورة قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها، وغالبا ما تكون صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيبها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهيا، كما يزودها بسلطان على العواطف والقلوب لا يتمتع بها النص النثري.
- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال ما دام محافظا على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة. غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود والتحجر، لأن الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة.
- لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جماعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها.
- تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا لا رئيسا.
- تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول، والموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسر الوجود، وما إلى ذلك من وسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد.
- تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة بالنسبة للمؤمن بمضامين الروايات التاريخية.

¹ العامل، عادل، الأسطورة والنظريات الميثولوجية في الغرب، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ص. 5.

² إيلاد، المرجع السابق، ص. 10.

³ السواح، المرجع السابق، ص. 12-14.

• ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين، وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه، وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة.

• تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، حيث إن السطوة التي تتمتع بها الأسطورة في الماضي لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث. فنحن اليوم نؤمن بوجود الجراثيم، وبقدرتها على تسبب المرض، وبأنها مؤلفة من جزئيات وذرات ذات تركيب معين، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجرات، وذلك لأن العلم قد قال لنا ذلك. وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة مثلما نؤمن اليوم، بدون نقاش بما ينقله لنا العلم والعلماء، وكان الكفر بمضامينها كفرا بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته، وفقدانا للتوجه السليم في الحياة.

فالأسطورة إذن قوة إيجابية تزود الناس بشروح وتواريخ ونماذج أدوار، وأمور كثيرة تمكنهم من توجيه أفعالهم وفهم المحيط الذي يعيشون فيه. ويمكن القول إن الأسطورة بوجه عام قصة تجري أحداثها في ماضي متخيل لا زمن له، وتروي أصول البشر والحيوانات وما هو خارق للطبيعة.

1.1. ميثولوجيا بابلية

كلكامش

تروي الأسطورة بأن جلجامش شعر بحزن كاد يقتله، ليس فقط بموت رفيقه "إنكدو"، بل لكونه لم ير أحدا يموت من قبل، مما جعله متيقنا أنه سيرقد يوما ما بدوره ولن ينهض من رقاذه قط. ولقد ملأته هذه الفكرة بالرعب، ورغب في التخلص من هذا الحكم، ليصبح من الخالدين، ذلك ما جعله يبحث عن نبتة الحياة. وتفاصيل هذه الأسطورة كالآتي:

سمع جلجامش بأن جده أوم نابيشتي لم يمت، وأنه منح الخلود بعد الكارثة التي سموها الطوفان، وذلك لاستقامته وتقواه. إذن سيقصد هذا الجد ليطلب منه "سر الحياة الأبدية"، فنراه يخرج من مدينة أوروك وحده هذه المرة. مشى في السهل، وفي نهاية المطاف وبعد أن تعرض لشتى الأخطار التي زرعت في طريقه، وصل إلى حديقة فيحاء لإلهة تحمل اسما مزدوجا "سيدور-سابيتو" التي أصغت لقصته بكل

تمعن. وقالت له: "إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها قط، فالآلهة خلقوا البشر ليموتوا لا ليخلدوا، أما الحياة فقد أمسكوها بين أيديهم، فعليك إن أردت أن تستفيد مما منحوك إياه أن تتعم في نهارك وليلك.

لم يرضخ جلامش، بل ألح طويلا وجادل. ولما تعبت سابيتو من نقاشه أرشدته إلى الغابة حيث يوجد بحار يجيد قطع الأشجار وصناعة السفن ليساعده في مشروعه. ذلك ما فعله جلامش حيث قطعاً مئة وعشرين شجرة وبنيأ مركبا لينتقلا معا إلى "قم الأنهار"، حيث يسكن الجد الخالد منذ عهد الطوفان. وبعد أن بذل جلامش جهدا جهيدا وصل إلى حضرة جده، حيث استقبله برحابة صدر. ولكن عندما اطلع على الغاية التي يسعى إليها أعلمه بدون مواربة أنه يجب أن يقلع على عزمه، إذ لا أمل يرجى. ولكي ينهي نصيحته في الإقناع أمره أن يجلس، وعليه أن يأخذ حذره من أن يغفو، ولكنه ما إن جلس حتى استسلم لنوم عميق، ولما استيقظ وعاد إلى نفسه سمع جده يقول بنبرة متهمكة ومؤثرة: "أرأيت أنك لست إلا انسانا".

في المقابل أراد الجد أن يقدم له على الأقل تعويضا عما عاناه، فأخبره أنه توجد نبتة تعيد الشيخ إلى صباه، ولكنها لا توجد إلا في أعماق البحر. ما إن سمع جلامش هذه الكلمات حتى أسرع في ربط حجرين ثقيلين إلى رجليه وغاص في الأعماق، ولما رأى النبتة العجيبة انتزع منها غصنا، ثم فك الحجرين وصعد إلى سطح الماء. وبعد حصوله على نبتة الحياة ما عليه إلا أن يعود أدراجه إلى "أوروك"، لكن ما حدث لم يكن متوقعا، وهو لم يغادر بعد بلاد "قم الأنهار". نزل إلى عين باردة ليروي غليله، وبينما هو يشرب شمت حية رائحة النبتة حيث تركها جلامش جانبا، فانسابت بين الصخور واستولت على الغصن وعادت إلى مخبئها. ومنذ ذلك العهد تستطيع الحية بفضل سرقتها أن تتجدد فهي تغير جلدها كل سنة، وبذلك تؤمن لنفسها شبابا جديدا، أما الإنسان (جلامش) فقد حرم من طلسمه، ولذا سيبقى خاضعا للقحول والهرم وأخيرا الموت¹.

أسطورة أدبا

تقدم أسطورة "أدبا" دليلا آخر على استحالة الخلود للإنسان، حيث تصف الأسطورة أحداث وقعت لـ "أدبا" صياد السمك في مدينة "أريدو"، والذي حباه الآله (ايا) (انكي) بالسلطة وسعة المعرفة، إلا أنه لم يوهب الخلود الذي تميزت به الآلهة لوحدها. وتذكر الأسطورة أن (أدبا) حصل على الفرصة لنيل

¹ فيروللو، شارل، أساطير بابل وكنعان، تعريب: ماجد خيربك، دمشق، مطبعة الكاتب العربي، 1990، ص. 49-54.

الخلود، حيث كان يقوم بعمله على أكمل وجه، لكنه ذات يوم لما كان مبحرا، ضربت الرياح الجنوبية قاربه فقلبته ورمته في المياه، فلعن "أدبا" الرياح في فورة غضبه وكسر جناحيها، فعلم "أنو" الإله الأكبر بفعلته وأمر بإحضاره.

صادق "ايا" - وهو أحد الآلهة الرئيسية في حضارات ما بين النهرين - "أدبا" وأعدده للقاء المرتقب، حيث أمده ببعض النصائح من ضمنها:

عندما يقدمون لك خبز الموت سوف لا تأكله،

عندما يقدمون لك ماء الموت سوف لا تشربه.

في تلك التوجيهات يصف "ايا" الأضاحي بأنها "خبز الموت" و"ماء الموت"، لكن عندما يظهر "أدبا" أمام حاشية "أنو"، يصف الإله تلك الأضاحي بـ "خبز الحياة" و"ماء الحياة". إطاعة لأوامر "ايا" رفض "أدبا" حسن ضيافة "أنو" لأنه كان يتوقع منه أن يقدم له طعام الموت وماءها، وأدى امتناعه عن الأكل والشرب إلى سخرية "أنو" منه، ومن ثم حرمانه من الحياة الخالدة وإعادته إلى الأرض، ليموت عليها مثل البشر¹.

2.1. ميثولوجيا مصرية

إيزيس وأوزيريس

كان الإله أوزيريس يحكم أرض مصر، وبجانبه أخته الرببة إيزيس بصفتها زوجته وملكة مصر ذات الإرادة الصلبة، وكان أوزير ملكا عادلا محبا للخير، علم المصريين كيف يزرعون المحاصيل ويسقونها بالمياه التي كانت تتوفر بغزارة عندما يفيض نهر النيل. كان للملك أوزيريس أخ يحسده ويضمر له الغيرة والحقد حيث أراد أن يستولي على العرش، مما جعله يقيم حفلة كبيرة في قصره، ودعا لها أوزيريس. وأثناء الحفل أمر الخدم ان يحضروا صندوقا مزيئا بأجمل الزينة كان قد صنع بهيئة التابوت، وانبهر كل من في الحفل بمن فيهم أوزير بالصناعة الفاخرة للتابوت. وبعدما جرع جميع الحاضرين قدرا هائلا من الخمر، نصب ست فخه، حيث أخبر الحاضرين أن من يتفق حجمه مع هيكل التابوت فسيهديه له، ولكنه لم يناسب احدا من الحاضرين، ولما دخل إليه أوزير، وبالطبع لم يعرف بأن التابوت كان قد صمم ليوافق حجمه تماما، ابتسم الإله ست ابتسامة شريرة وقال: التابوت لك الآن يا أخي وإلى الأبد، ثم دفع غطاء التابوت فجأة وبقوة مبقيا أوزير بداخله، وصب عليه الرصاص المنصهر محكما إغلاقه، قاتلا

¹ حنون، 1986، المرجع السابق، ص. 90.

وحملها إلى بيته حيث وضعها في ركن منه. وقال لزوجته: لا تفتحي هذه الزوادة، ولا تستطلي ما بداخلها. لكن فضول المرأة وتهورها دفعها إلى الرغبة في استطلاع ما تضمنته الزوادة، ولذلك انتظرت خروج زوجها مرة أخرى إلى الصيد، ففتحت الزوادة، فانفكت الأنثى المتوحشة - الموت - من عقالها فقتلت المرأة، وخرجت منطلقة لقتل كل من تصادفه. ومنذئذ صار الناس يموتون¹.

يروى في إجماض² (سوس) أن الموت أم لها ابن عاق هو النوم $\Sigma E O$. في بداية الخلق أمرته بقبض أرواح الناس، لكنه أخذها وأعادها إليهم، فتبرأت منه أمه ونبذته. ومنذئذ صار النوم يأخذ الناس مثل الموت غير أنه يعيدهم³.

نلاحظ أن في هذين الميثنيين الأخيرين يشخص الموت في صفة أنثى، ففي الأسطورة الأولى هي أنثى متوحشة تسببت المرأة في تحريرها من ربة الاعتقال، الأسطورة الثانية تقدم الموت ذاته على أنها أم ولها بدورها أبناء، هذا إلى جانب أن كلمة الموت في الأمازيغية يقابلها "تَامْتَانْت" ($+o\text{L}+o\text{L}+$)، وهو لفظ مؤنث، كما أن اللفظ العربي الدخيل المستعمل بكثرة (لُموث) يؤنث كذلك.

من جهة أخرى منحت الميثولوجيا الأمازيغية اختصاص الإمساك بالموت للمجتمع الذكوري، ويتبين ذلك من خلال أسطورتين: الأولى في درايد بأشتوكن⁴، وتحكي أن لموت $\text{L}\Sigma\text{o}+$ كانت تأتي لقبض أرواح الناس، شاحصة للأنظار كالإنسان مصحوبة بصخب وجلبة كبيرين $+o\text{Z}\text{Z}\text{o}+$ مثيرين للرعب، فاتفق الناس على إلقاء القبض عليها؛ حيث دبروا لها مكيدة مكنتهم من تقييدها، لكنها كسرت القيود، واختفت بعد أن قتلت (أخذت) كبير القوم $\text{o}\text{L}\text{Y}\text{o}O$ ؛ إذ هربت إلى غار بعيد عال، فلم يعد الناس يموتون حتى ضجت الدنيا بمن فيها من البشر، فبعثوا في طلبها رسولا تمكن من العثور على مأواها بعد أن كادت تلتهمه. أقنعها بالعودة لأن الناس في حاجة إليها، لكنها حين عادت أخذت طفلا من ذويه فأقسم أهله على الانتقام له منها، ففرت مرة أخرى، لكن أهل القبيلة أعادوها من جديد بعد مفاوضات أفضت إلى اتفاق اشترطت فيه عليهم أن "تأخذ" من تشاء من البشر صغارا كانوا أو كبارا، ذكورا أو إناثا. لكنها بمجرد أن "أخذت" شيخ القبيلة الجديد، تأججت لديهم رغبة الثأر، فتحدثهم واختفت عن الأنظار. منذئذ لم تعد تحدث صخباً أو ترى حين تأتي لأخذ روح من تشاء⁵.

¹ أوسوس، المرجع السابق، ص. 103.

² إحدى القبائل الأمازيغية المتواجدة بغرب الأطلس الصغير، تنتمي إداريا إلى إقليم سيدي إفني، جهة كلميم وادنون.

³ أوسوس، المرجع نفسه، ص. 103.

⁴ هو دوار ينتمي إلى جماعة سيدي ببيي، إقليم شتوكة آيت باها، جهة سوس ماسة.

⁵ أوسوس، المرجع نفسه، ص. 110.

الأسطورة الثانية من ورزازات¹ تحكي كيف أمسك الناس بالموت. وجاء في مضامينها: عندما ظهر البشر على الأرض كانت "لموت" عدو الناس الوحيد فتشاوروا على أن يمسكوا بها، ويقفلوا عليها في غار بجبل، فكلف بذلك رجل قوي تمكن منها، ومضت الأيام حتى حدث زلزال قوي أدى إلى تخلص الموت من أسرها وخروجها من معتقلها، لتعود إلى سابق عهدها في قتل البشر².

ومن بين الأساطير التي تتناول موضوع الموت في قبائل آيت باعمران، تحكي السيدة مينة:

oO ++xi+ +xvzxozi: xvz+oxi xo. | +cyoxi y +oxco+ oO
 xzo ooxi+, xmo. +ox x xxc. xc+ +x. x xxi x+
 +ox +oxxo xxi | +xix co. xxi x xxi xxi. xxi xxi y xxi xxi
 oox cco++xi+, xxi. oO xc+ x +cyoxi o:
 - oox xo x oox ioy.

xi. |++ +x'ox+o xxi xc y || +oxxo y +ox. ||o, xxi. oO:
 - xmo |x x xo xox +io+.

y xxi o | xxi. oO x+ +cyoxi oxi x xc+:

- oox x oox +io+ |x x?
- +oo xxi || xc+: xmo xo x xox+ xxi y, xox xxi x oox.

+cyoxi xxi |++ +xc co xxi ||o o xxi. o +xix xxi
 +xoxo xc+, xxi. oO +cyoxi xxi:

- xxi xxi o. ++ox, xxi xxi o. ++ox.
- xxi. oO xc+: xmo y oox ioy.

oxxi y xxi o +xc, +ox +cyoxi xxi xc ||o, xxi y +xc.
 +oxxo x oox xc+, oox oox +oxox oxi xxi ++ +y.
 +oxxi+. xxi xxi ||o y +xix xxi. xxi+ x +xc+, oO
 xxi. cco xxi xxi, xxi+ oO +cyoxi :

- +xox xxi +cyoxi xxi. oO x xox ox y xxi+ oO xxi xxi
 xxi xxi, +x xxi xxi+ xxi, xxi xxi +cyoxi ||x.

y xxi o | xxi. oO xc xxi xc+ xxi xxi³.

¹ هي مدينة مغربية، بجهة درعة تافيلالت، وتبعد عن مدينة مراكش حوالي 200 كلم.

² أوسوس، المرجع السابق، ص. 111.

³ مقابلة شفوية رقم 01 بتاريخ 27 يوليوز 2019، السيدة مينة، 65 سنة، من قبيلة آيت الخمس.

أَر تَيْنِيْنْتْ تَقْعِرِيْن: كَانْتَسِيْن كَرَا نْتَمْعَرِيْن غِيَاْتْ تَسْمَرْتْ أَر كِيْس رَكْنْتْ، إَوَا تَاشَكْدُ إِلْمَا لُمُوْتْ تَكَادُ زُوْنْدُ
يَاْتْ كِيْسِنْتْ، تَاكِ سَنَكُوْس طَرْفْ نَتَالِي مُو رَا طَامَرْ رُوْحْ نَسْ. أَيْلِيْغْ كُوْلُو رَادْ مُوْتِيْنْتْ، نَتَا أَسْ لُمُوْتْ
إِنْتَمْعَارْتْ أَنْ:

- هَاتِي رَادْ دَارْمْ نَسْغْ.

إَوَا نَتَاتْ تَكْصُوْطْصْ أَدَلِي مَلِيْعُنْ سَنَكُوْسْ غَتَامَانْسْ نَتَا أَسْ:

- أُوْهَاوْ نَكِي أُوْرْ أَدْرِي تَنَسْتْ.

غْ أَكُوْدْ أَنْ نَنْ أَسْ يَاْتْ تَمْعَارْتْ أَصْنِيْنْ إِلْمُوْتْ:

- رُوَاْخْ أَدْرِي تَنَسْتْ نَكِيْنْ.

- نَرَارْ فَلَاسَنْتْ لُمُوْتْ: أُوْهَاوْ أُوْرْ أَدْرُونْتْ دُوْعْ، دَارْ خَتَادْ أَدْ رِيْغْ.

تَامْعَارْتْ لِي نَتَاتْ تَعْمَرْ إِرْكُنْ نَسْ سْ زَرْبْ أَر تَرْيَكِيْزْ تَشْكُوْتْ لُمُوْتْ، نَلْهُو يَاسْ تَمْعَارْتْ لِي:

- فَيِيْنْ أَتَا تَاسِيْغْ، فَيِيْنْ أَتَا تَاسِيْغْ.

- نَنْ أَسْ لُمُوْتْ: دَارْمْ أَعْ رَادْ نَسْغْ.

أَلِيْغْ كَشْمَنْتْ سَتَكْمِي، تَسْكُرْ تَمْعَارْتْ لِي إِمْنَسِي نَسْ، لِيْغْ تَمْنَسَا ، تَسْكُوْسُدْ سَرْسْ لُمُوْتْ أَرْدْ سَرْسْ
تَسْقُرُوِي أَلَنْ أَلِيْغْتْ نَتْعَا تَبْلَكْ نِيْتْ. يَاشَكْدُ أُوْرَكَارْ نَسْ غْ تَمَزَكِيْدَا يَافْنِيْدْ تَمُوْتْ أَرْ إِسْقَسَا مَاسَرْسْ إِكَا
لَحَالْ، نَانْتْ أَسْ تَمْعَارِيْن:

- تُوْشَكَدْ يَاْتْ تَمْعَارْتْ نَتَا أَسْ أَدَارْمْ رُوْحْغْ، نَلْهُو يَاسْ كُوْلُو يِلَآهْ دَارْنُغْ تَاكِ أَدْرَنْغْ تَدُو، تَدُو دَارْ

تَمْعَارْتْ نَكْ. غَاكْدَانْ أَدْ شَنْ مِيْدُنْ إِرْدْ لُمُوْتْ أَيَانْ دَارْسْ إِدَانْ.

كانت النسوة في قديم الزمان يجتمعن فوق إحدى التلال المطلة على القرية، يكسرن حبات الأركان،
ثم جاءت الموت في صورة امرأة، وهمت بالجلوس قرب المرأة التي ستقبض روحها. حينما أردن المغادرة،
قالت الموت لتلك المرأة:

- سأقضي الليلة معك.

لكن المرأة خافت وقالت لها:

- أبدا، لن أستقبلك في بيتي.

هنا تدخلت إحدى النسوة وقالت مخاطبة الموت:

- هيا لتقضي ليلتك معي في منزلي؟

- أجابته الموت: لا لن أحل ضيفة على أحد باستثناء هذه المرأة، فعندها سأقضي ليلتي.
في تلك اللحظة أسرع المرأة المسكينة بجمع كل أغراضها وغادرت المكان، لكن الموت تبعها، فخاطبتها
المرأة قائلة:

- ابتعدي عني، ابتعدي عني.
- ردت عليها الموت قائلة: عندك سأقضي ليلتي.

عند دخولهن للمنزل قامت المرأة بتحضير وجبة العشاء، وعند فراغها من إعداده، جلست الموت أمامها
محدقة فيها حتى ماتت. بعد ذلك جاء زوجها من المسجد، ووجدتها قد فارقت الحياة. سأل النسوة اللاتي
قضت معهن يومها فحكينا له ما يلي:

"جاءت امرأة وطلبت من زوجتك أن تستقبلها في منزلها لقضاء ليلتها عندها، وعندما رفضت زوجتك طلب
تلك المرأة الغريبة (الموت)، عرضنا عليها أن تقضي ليلتها عندها ورفضت، بل ألحت على مرافقة
زوجتك." هنا عرف الناس أن تلك المرأة الغريبة ماهي إلا الموت جاءت في صورة امرأة.

تقول الأسطورة الثانية:

٥٠ ++٤١٤١ ٤٤٨٨١ ٥ ١١٥٤: ٥ ٥٥٥ ١١٤ ٥ ٥٠٨ ٥٥٥ +٥٤٥. ١٤٥+
٥٨ ٥ ٥٠ ٥٤٤ ٥٥٥ ١١٥, ٥ ٥٥٥ +٥٨٥٤٤٥, +٥٥٥ ١١ ٥٥٥ ١١١١.
٥٤٤٤, ١١ ٥٥:

- ٥٨ ٥ ٥٥٥ ٥٠٨ ١١٤ ٨ ٥٥٤ ٤٥٨٥٤٤٥ ٤٥٥٥٥ ٥٥٥ ٥
٥٥٥, ٤٥٥٤ ٥٤٥٤, ٤٥٤ ١١ ٤٥ ٥٥٨ ٤٥٥٤, ٥٤٥ ١١
٤٥ ٥٥٨ ٤٥٤٤.
- ٤١٥ ٥ ٥٥ ٥٤٤ ٥ ٨ ٥٤ ٥٤٤. ٤٥٤, +٥٤٤ ٨ ٥ ٨٥١٥,
٤٤٤ ٥ ٥٥٥ ٥٨ ٥٤٤ ١٥٥+ ١١٥.
- +٥٤٤ ٥٥٨ ١١١ ٥٤٤٤, ٥٤٤ ٨ ٥ ٥٤٤ ١١ ٤١٥ ٥ ١١٥:
٤٤٤ ٨ +٤٤٤ ٥ ٤٥٤ ١٤٥?
- ٤١٥ ٥٥: +٤٤٤ ٥ +٤٥ ٥٨ ٥٤ ٥٤٤ ٥٥٤.
- ٤١٥ ٥ ١١٥: ٥٤٤ ٥٤٤ +٤٤٤ ٤٤٤ ١٥٤, ٥٥٨ ٤٤٤ ٤٤٤
٤٤٤٤ ١٥٤٥ ١ ١٤٤. ٥ ٥٤٨ ١١ +٥٤٤٤٤٤ ٥٥٤,
٨ ٤ ٥٥٥ ٥٨ ٥٥٤ ٥ +٥٤٤ ٥ ٤٤٨٨١, ٥ ++٥٥ ٥٥٨
٥٤٤٤, ٥ ٥ ++٤٤. ٥٤٤ ٤٤ ++٤٤ ٤٤٤٤ ٥ ٥ ٥٤
٥٤٤ ٥٥٤.¹

¹ مقابلة شفوية رقم 02 بتاريخ 27 يوليو 2019، السيدة مينة، 65 سنة، من قبيلة آيت الخمس.

[illegible]

إِكَاتَيْنِ غَمَادٍ إِرْرَيْنِ لَيْغٍ أَتَّتَيْنِ مَيْدُنَ لُمُوتٍ، يَاتَ تَقْقِيرَتِ إِمْرِیضَ أَسْ إِیوِیْسَ، وَإِوَا إِنَّا أَسْ: نَكِّي أَيْنَا رَادْ
مُنْعُ، تَنَّا أَسْ أُوهُوَيِ أُوَيِ، إِغْدَ نُوشْكَ لُمُوتَ رَادْ أَسْ إِیْنِیغِ أَيْ تَاوِي تَاچِیكْ كِي، كِي نَكِیْتُ سُولَ شَبَابِ
رَاسُولِ تَشْكَرْتِ رَاسُولِ تَنَّتِیْتُ... نَكِّي أَيْمُقُورُنْ أَيْ تَاوِي لُمُوتِ. یَاچُتْ أُوعِیَالِ لِي أَلِیْیَغِ نَدَا سَ إِخْشُوضُنْ
یَاْمَزْ یَاتَ تَقُولُوسْتِ یَدْفَتْ كُولُو، إِكْسَاسِ إِفْرَاوُنْ أُوْرَاسِ إِغْرِیْسِ یَاچُتْ أَرْ تَرِیكِیْزِ إِسْكُونْ فَلَاسْ تِیكِیْنَتِ
بُورِیْ إِكُونْ. نُوشْكَادْ أُوكَا نَاسِ غَ إِخْشُوضُنْ أَرْ تَعُولِ تُلُوحْ إِخْشُوضُنْ تَرُرِیْ دَارِ إِوِیْسَ، تَسَافَسَاتِ:

- تَالِ أَوْكَانُ تِيكِينَتِ نَقْعَدُ سَرَسَ نَقُولُوسَتْ لِيْ أُوْرُ كَيْسَ رِيْشَ وَالُوْ، سَ تُوَكَّتْ نَ تُوَدَا تَنَّا أَسَ: بَلْمَاضُونُ
الْمُوْتِ، بَلْمَاضُونُ الْمُوْتِ.

- سَأْمُوتْ يَا أُمِّي.

- ¹ مقابلة شفوية رقم 03 بتاريخ 27 يوليو 2019، السيدة فاطمة، 67 سنة، من قبيلة امستين.

تحت القدر، ورجع لفرشه. عند عودة أمه من الغابة، رمت بالحطب ودخلت مسرعة لتتفقد حال ابنها، وقالت له:

- كيف حالك يا ابني؟
- رد عليها: لقد سبق وقلت لك يا أمي أنني سأموت.
- قالت له: أبدا يا بني، إذا جاءت الموت سأخبرها أن تقبض روحي أنا بدلا عنك، لقد سبق وأخبرتكَ بذلك.
- رد عليها الابن: لقد أخبرتك يا أمي بأنني سوف أموت، فلتلقي نظرة تحت ذلك القدر.

ما إن رفعت الأم القدر حتى خرجت الدجاجة مسرعة تجري في جميع أنحاء البيت، ومن هول الصدمة والخوف قالت لها الأم: اذهبي للمريض أيتها الموت، اذهبي للمريض أيتها الموت.

هكذا بينت الأساطير الأمازيغية أن سبب ظهور الموت هو أنثى مدفوعة بعاطفة الأمومة، وتحكيم رأيها الفردي ضدا على مصلحة الجماعة، وذلك بسبب سوء استعمالها للكلام ورغبتها في موت ابن ضررتها وبقاء ابنها حيا، وأيضا فضولها وتهورها؛ حيث أرادت رؤية ما بداخل الزوادة التي سجن فيها الصياد الموت بعد أن قبض عليها؛ حيث فتحتها لتخرج الموت منها وتقتلها، ثم انطلقت لقتل كل ما في طريقها.

في المقابل منحت هذه الأساطير اختصاص الإمساك بالموت وسجنها للمجتمع الذكوري، ويتجلى ذلك من خلال أسطورة الصياد الذي استطاع أن يتحایل على الموت وأن يسجنها في زوادته، دون أن ننسى الميث الذي ذكر فيه اتحاد الرجال واتفاقهم على القبض على الموت؛ إذ دبروا لها مكيدة مكنتهم من أسرها وتقيدها.

2. الموت في الأمثال الشعبية الأمازيغية

تحتل الأمثال الشعبية مكانة كبيرة في الحديث اليومي عند الأمازيغ؛ إذ غالبا ما تستعمل لإعطاء النصيحة، أو من أجل تدعيم الحوارات والنقاشات بالحجة والتأكيد على صحة القول. ذلك أن الأمثال هي بمثابة رصيد المجتمع من القيم والأخلاق، وهي ملك لجميع الشعوب والحضارات، مادامت معانيها تتشابه وتتماثل مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة. وهذا ما جعل الإنسان الأمازيغي على غرار باقي الثقافات يأخذ على عاتقه مهمة الحفاظ على هذا الموروث الثقافي، من خلال تداوله ونقله إلى الناشئة.

يقول إبراهيم نبيلة: "إننا نعيش جزءا من مصائرنا في عالم الأمثال، ولعل هذا يفسر استعمالنا الدائم لها، على عكس الأنواع الشعبية الأخرى كالأسطورة والحكاية الشعبية والألغاز وغير ذلك. فالأمثال بالنسبة إلينا عالم هادئ نركن إليه حينما نود أن نتجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا. ونحن نذكرها بحرفيتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية، بل إننا نشعر بارتياح لسماعها وإن لم نعش التجربة التي يلخصها المثل"¹.

وتستعمل الأمثال لتعديل سلوك الأفراد، فالناس تختلف نفسياتهم؛ هذا عصبي المزاج، وذاك سلس الانقياد، وآخر أناني الطبع لا يهمه إلا مصلحته. لذلك يستطيع كل منا بهذه الحكمة والأمثال والمعاني الشعبية أن يؤثر بها على الغير؛ وذلك لإصلاح سلوكه، أو لتليين طبيعته، أو تنبيهه إلى أخطار الحياة التي تجابهنا أينما حللنا وارتحلنا، وفي كل وقت وحين².

ويأتي اختيارنا لدراسة الأمثال المتعلقة بالموت، لكون هذه الأخيرة تعكس موقف الإنسان العادي من الموت، عكس الصورة النخبوية والمثالية التي ترسمها نصوص المعاجم والشعر والفقه والتصوف³، حيث يكون الحديث عن الموت في الأمثال الأمازيغية إما بطريقة مباشرة، أو بتوظيفها في سياقات اجتماعية متنوعة. فكيف إذن تعالج هذه الأمثال موضوع الموت في المجتمع الأمازيغي؟ وكيف تصور طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان الأمازيغي بالموت؟ وكيف وظف الأمازيغ تيمة الموت في أمثالهم؟

¹ نبيلة، إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، القاهرة، دار نهضة مصر، بدون طبعة، ص. 147.

² دارون، إدريس، الأمثال الشعبية المغربية، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، الطبعة الأولى، 2000، ص. 5.

³ ربحي، رضوان، تمثيلات الموت في تاريخ المغرب من خلال أمثال شعبية وأقوال مأثورة، في مجلة الثقافة الشعبية، العدد 36، المنامة، 2017، ص. 101.

1.2. تعريف المثل

جاء في لسان العرب: المثل كلمة تسوية. يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال شبيهه وشبهه بمعنى. قال بن برى: الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين... والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله، وفي الصحاح: ما يضرب به من الأمثال. قال الجوهري: ومثل الشيء أيضاً صفته¹.

المثل، بالكسر والتحريك: الشبه، ج: أمثال، وقولهم: "مُسْتَرَاد لِمِثْلِهِ"، أي: يطلب ويُشخ عليه. والمثل، محرّكة: الحجة والحديث، وقد مثل به تمثيلاً ومثلاً ومثلاً، وبه، والصيغة، ومنه: «مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي»². في المعجم الوسيط، «تَمَثَّلَ» الشيء: تصوّر مثاله. ويقال: تمثّل الشيء له. وفي التنزيل العزيز: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا»³. و- بين يديه: مثل. و- بالشيء: ضربه مثلاً. ويقال هذا البيت مثل نتمثله ونتمثّل به. والمثل: جملة من القول مقتطعة من الكلام، أو مرسلّة بذاتها، تنقل ممن وردت فيه إلى مشابيه بدوت تغيير، مثل: الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبَنَ، و"الرائد لا يكذب أهله"³.

يعرف المثل اصطلاحاً على أنه جملة مفيدة موجزة متوارثة شفاهة من جيل إلى جيل؛ وهو جملة محكمة البناء بليغة العبارة، شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات. وإذ يلخص المثل قصة عناء سابق وخبرة غابرة اختبرتها الجماعة، فقد حظي عند الناس بثقة تامة، فصدقوه لأنه يهتدي في حل مشكلة قائمة بخبرة مكتسبة قديمة انتهت إلى عبر لا تنسى. وقد قيلت هذه العبرة في جملة موجزة قد تغني عن رواية قصة ما جرى⁴.

قال أبو عبيد: الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه. وقد ضربها النبي(ص)، وتمثّل بها هو ومن بعده من السلف⁵.

وحسب السيوطي يقول الفارابي في ديوان الأدب: المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، حتى تداولوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب

¹ ابن منظور، المرجع السابق، ص. 610-616.

² الفيروز أبادي، المرجع السابق، ص. 1056.

³ أنيس إبراهيم، وآخرون، المرجع السابق، ص. 854.

⁴ سليم، صيفور، الأمثال الشعبية كخلفية للعنف في المجتمع الجزائري دراسة تحليلية، جامعة الجزائر 2، 2011، ص. 85.

⁵ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك. محمد أبو الفضل إبراهيم. وعلي محمد البجاوي، بيروت، المكتبة العصرية، الجزء الأول، 1986، ص. 486.

- 128

- ٢٥٨ ٢٥٥ ٤٤١٥٤, ٢٥٥ ٥٤١٥٨.

- يُوف كَارِ إِمْنَسِي، كَارِ أَوَال.

- وجبة عشاء رديئة أفضل من كلام ساقط.

3.2. وظائف الأمثال

تتعدد الوظائف التي تؤديها الأمثال الشعبية، ونحددها كما يلي:

الوظيفة التربوية والأخلاقية: تتمثل هذه الوظيفة في ترسيخ مبادئ وقيم أخلاقية، عن طريق توضيح بعض القضايا التي تعكس المستوى الإيجابي أو السلبي لسلوك معين؛ فالمثل الشعبي يهدف إلى توجيه وضبط سلوك الفرد وفقا للقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، حيث يدعو المثل الشعبي إلى التشبث بالقيم الأخلاقية الإيجابية كالحب والمودة والاحترام، والابتعاد عن القيم السلبية كالطمع والحسد والحقد والعداوة. وينص على ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون من السلوك والمبادئ، دون إلزام إلا بسلطان العادات والتقاليد السائدة في المجتمع¹.

وتقوم الأمثال الشعبية بدور كبير في تربية الفرد بوصفها وسيلة من الوسائل التعليمية والتربوية، حيث تساهم في تنمية قدرات الفرد، وتفجر طاقاته ومواهبه، فهي وسيلة من وسائل التذكر، ومصدر من مصادر المعرفة المهمة في استخدام العقل، كما أنها وسيلة تربوية تحمل الوعظ والتوجيه والإرشاد المباشر وغير المباشر لسلوكيات الفرد².

الوظيفة التعليمية: حيث يظهر المثل الشعبي كمحفز في تشجيع الأشخاص على التعلم والأخذ، فالمثل وسيلة تسهل التعليم نظرا لسهولة ألفاظه ولطابعها الموسيقي الموزون. ومن المهام التعليمية التي تقوم بها الأمثال نذكر³:

- إذكاء خيال الطفل، وإغناء حصيلته اللغوية، مما يضيف إلى قاموسه اللغوي مفردات غنية بالمعاني والمواقف.

- تزويده بالمعلومات العلمية وتعريفه بعاداته وتقاليده.

¹ ذيب كفاي، منذر، النظام القيمي في المثل الشعبي السعودي، في مجلة الأثر، العدد 30، 218، ص. 143-144.
² كشيك، منى، المضامين التربوية للأمثال السائدة في البيئة الدمشقية، في مجلة جامعة دمشق، المجلد 30، العدد الثاني، 2014، ص. 218.
³ كشيك، المرجع نفسه، ص. 216.

- ولو مكثنا في الدنيا كثيرا، لا بد أن يصير كل واحد منا ضيفا لدى من نزلوا المقابر"

يقال المثل لمن يهتم فقط بأموره الدنيوية، كجمع وتكديس الأموال، أو السعي وراء الملذات والشهوات، وينسى في المقابل، أو يرفض فكرة الموت. يقابل هذا المثل في اللغة العامية المثل القائل: "لموتْ عَليْنا فُرْضْ"، ويقال لمن يكثر الحزن والأسى على شخص مات وانتهى أجله، وذلك للتخفيف عنه من الحزن والكآبة. فالموت شراب لا بد أن يتناوله كل مخلوق، طال آجله أو قصر ¹.

- $\Sigma Y \otimes H^0(Y, \mathcal{L}) \cong \bigoplus_{i=1}^n H^0(Y, \mathcal{L}^{\otimes i})$ if $\mathcal{L}$ is very ample.

٢٠ - "إِغْ سَلَاغٌ إَوْصُمُضْلُ تَانَا يَادُ إِلَّانْ غُتْمَكِيلَتْ أَدْ تُحْشَاغْ".

- إذا سمعت اسم القبر، أمقت حتى العسل الموضوع في الإناء.

يحكى أن رجلا وجد النحل اتخذ قبرا خليته وملاء عسلا، واستقصر فقيه القرية عن هذا العسل حلال أم حرام؟ أجابه الفقيه بما معناه: شخصا إذا ذكر القبر أمامي تشمئز نفسي من شدة كرهها للعسل الموضوع في صحن بديع فوق أعلى مائدة، وتأبى أن تتناول منه لقمة لما يوحي به القبر من أهوال يصعب على المرء أن يتخللها حيا³.

يبين المثل مدى خوف الإنسان من فكرة الموت، وبالتحديد عذاب القبر، حيث جاء في المثل عبارة **موتك** (القبر)، ويفسر هذا الخوف المبالغ فيه ما يروجه الشيوخ حول عذاب القبر؛ حيث يعتقد الناس أن من لم يستطع الجواب على أسئلة الملكين "منكر ونكير" في القبر، يضرب بمطرقة من حديد حتى يصير تراباً، وبضيق عليه قبره، ويسلط عليه شعبان أقرع يأكل لحمه من رأسه إلى رجليه.

- ተፅዕኖ ሲሆን የጋር በመታየት ይቻላል።

- "أَتَسْأَلُو أُمَّيْ حَرَادَ سَمُونَعِ إِنْزَقَالَ نِيدَا لُمَوَالِ إِبْنُو سَيِّدِ إِيَّيْ أَوْسَيْنِ سِ إِصْمُضَالَ".

- آه يا أماه ما إن أنهيت الحصاد، وحملت المحصول إلى مكانه حتى حملوني إلى القبر.

يعبر المثل عن ذلك الشخص الذي يجري وراء العمل وجني الأموال، متتاسيا العمل للأخرة وجمع الحسنات وفعل الخير. يقابل هذا المثل في الدارجة المغربية المثل القائل: "بْنِي وَعَلَى سَيْرِ وَخُلِّي" وهو

¹ دارون، ادريس، الأمثال الشعبية المغربية، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، الطبعة الأولى، 2000، ص. 271.

² مستاوي، المرجع السابق، ص. 140.

³ مستاوی، المرجع نفسه، 140.

⁴ مستاوی، المرجع نفسه ، ص. 139.

مثل يضرب لمن يهتم بكثرة البنیان، والتفنن في ذلك، دون أن يفكر بأنه سيرحل من هاته الدنيا إلى عالم الآخرة الذي ينبغي أن يعمل له أيضا¹.

• ٥٠ ٨ ٤٨٨٤٥ ٧ +٤٨٨٥٥ ٥٥٨٥ +٤٤٤٥٤².

- "أَوْزَكَ إِكَيْسَ غُ تِيْلَاسُ أَبْلَا تِيَّاضُ".

- لن ينقذك من الظلام إلا ظلام آخر.

يقال المثل للتذكير بأنه لن ينقذك من ظلمات القبر إلا الركوع والسجود ليلا والناس نيام، حيث ورد في المثل كلمة ٥٥٨٥٤ (الظلام) للدلالة على القبر المظلم، الذي لا يمكن تجنبه إلا بالسير إلى المسجد في الظلام لأداء الصلوات، وقيام الليل. ويأتي هذا المثل للتأكيد على أن النجاح في امتحان "تكير ومنكير"، وتجنب عذاب القبر رهين بمدى التزام الإنسان بالعبادات المفروضة، خاصة الصلاة التي تعتبر عماد الدين.

• ٥٥ ١٥٨٥ ٤ ٤٥٥٨ ١٤٤, ١٥٥٨ ١٥٧ ٤٤٤³.

- "أَرْ نَلَا إِمَا رَادْ نَشْ نَشْ مَرَادْ أَعْ إِشْ".

- نبكي على الشيء الذي سنأكله، وننسى الذي سيأكلنا.

يقال المثل للحث على عدم نسيان القبر الذي سيكون مصير كل مخلوق، ويعبر المثل عن ذلك الشخص الذي يتحسر ويشتكى لعدم نجاحه في تحقيق أهدافه، ولعدم تحقيقه للربح الذي كان يتوقعه، وبالمقابل ينسى تحسره على عدم اهتمامه بأموره الدينية التي ستضمن له الفوز بالجنة.

• +٨١ +٤٤+⁴.

- "تَكُنْ تَمَتْ".

- نامت وماتت.

أصل المثل حكاية شعبية. خلاصة مضمونها أن اثنين جمعت بينهما مائدة الأكل، سأل أحدهما الآخر عن سبب وفاة والدته، فأجابه بتفصيل عن مراحل حياتها ومرضها وعلاجها، إلى أن توفيت. ما إن فرغ

¹ دوران، إدريس، المرجع السابق، ص. 23.

² مستاوي، المرجع، السابق، ص. 137.

³ مستاوي، المرجع نفسه، ص. 141.

⁴ مستاوي، المرجع نفسه، ص. 11.

استدعاه، واستفسره فيما يكتبه للناس، فوجد تلك العبارة التي سارت مثلاً شعبياً يضرب لكل من يؤمن بالشعوذة والتداوي بها من سذج الناس وبلهائهم¹.

- 𐤀𐤏𐤍𐤏 𐤏𐤏𐤍 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏.

- "وَأَنَا تَرَا دُونِيْتُ أُرْتُ تِيرِي لِحُرْتُ"

- من تريده الدنيا تريده الآخرة أيضاً.

يقال المثل عندما يموت شخص معروف بإيجابياته وتواضعه وحبه للجميع.

- 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏 𐤏𐤏𐤍𐤏𐤏𐤏𐤏.

- "أَلْمُوتُ مَرُّ دَا تَعْلَامْتُ أَدْ نُمْدِكِيَزْ أَدْ أَمْ سَنْتَعُغْ وَيِنَّا أَوْرْ إِكِينْ وَيِنْ دُونِيْتُ"

- آيتها الموت لو شاورتني في الأمر لأخبرتك بمن لا يستحقون أن يكونوا في هذه الحياة.

في أغلب الظن أن هذا المثل مستوحى من قصيدة شعرية أمازيغية ومعناه أن الموت غير عادلة، لأنها تأخذ فقط من يستحقون العيش، وتترك من لا يستحقون. من جهة أخرى يتناول المثل موضوع الصراع الأزلي بين الخير والشر، وكثرة القلوب المفعمة بالحق والشر.

5.2. الموت في سياقات اجتماعية

يوضف موضوع الموت عند الأمازيغ كما هو الحال عند باقي شعوب العالم، في سياقات اجتماعية متنوعة؛ إذ لا يقتصر حضوره في الأمثال التي تحيل عليه مباشرة، وذلك للتعبير عن ظواهر مختلفة تعكس جوانب كثيرة من حياة الإنسان الأمازيغي، كالتعاون، الصدق، البطالة والكسل. يقول ربحي: "إن الصورة التي يمكن أن ترسمها الأمثال والأقوال المأثورة عن ظاهرة ما في متخيل الإنسان نسبية لا يمكن أن تعكس بكل الأحوال ذاكرة جمعية موحدة؛ فالمثل ابن بيئته وظروفه، كما أنه مرن وحمل أوجه يحتمل أكثر من تأويل؛ بحيث يمكن أن ينتقل من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر تماماً مثلما يمكن أن ينتقل من سياق لآخر، لتتم تبيئته وتكييفه ليحمل معان ودلالات يمتزج فيها القديم بالجديد"².

من الأمثال التي وظف فيها لفظ الموت للتعبير عن جوانب مختلفة من حياة الإنسان نجد:

¹ دوران، المرجع السابق، ص. 278.

² ربحي، المرجع السابق، ص. 102.

- ٥٠ ٤٤٤٥٦ ٦٥٦ ٥ ٧٤٧٧٤ ٧٧٥٧١٤١.

- "أَوْزِ إِمُوتْ يَاتْ أَوِيلِي قَازْنِينْ."

- لم يمت أحد يا من استمروا في الحفر.

يقال المثل لمن وعد شخصا بمساعدته في الخروج من أزمة ما، لكن ليتراجع عن وعده فيكون جوابه أني لا زلت حيا أرزق.¹ يقابل ذلك في اللغة العامية المثل القائل: "مَا مَاتْ مَا طَلَّقْ كَفْنْ يَتْبَاعْ"، ويقال للمرء الذي يترك مشكلا معلقا، دون أن يسعى لحله، أو يحسم فيه، أو يتخذ موقفا تجاهه.²

- ٤٩٤٥ ٧٥٧٧٤ ٤٤٤٥٦١ ٥ ٤٥ + ٤٦١٥٧٥٥١.

- "إِرْضَا وَآلِي إِمُوتْنْ سْ مَاتْ إِنْجِرَارْنْ."

- الميت راض بمن يجره.

يقال المثل لمن كان في أمس الحاجة إلى مساعدة شخص ما، فاستجاب هذا الأخير لطلبه لكن تحت شروط معينة لا مفر منها إلا بقبولها. ويقال في اللغة العامية أيضا: "مَا عِنْدْ لَمِيَّتْ مَا يَقُولْ قَدَّامْ غَسَّالُوْ".

- ٥٠ ٥ ٦٦٥٥٤ ٦٥٤٥٦ ٦٥٦٦٥٤ ٥ ٥٧٥ ٥ ٧٧٥٥.

- "أَوْزِ أَتَّاسِي تَمَارْتْ تَايَّاضْ أَبْلَا سْ لُقْبَرْ."

- لا يحمل الرجل رجلا آخر إلا وهو متوجه به إلى قبره.

يقال المثل لحث المتكل على غيره بأن يعمل لكسب قوته وقوت عياله. فالرجل لا يشرفه أن يحمل على أكثاف غيره، إلا إذا توفي وحملوه إلى متواه الأخير.³ ويقابل هذا في اللغة العامية المثل القائل: "اللُّخِيَّة مَا نَهَزْ لُخِيَّة غَيْرْ لُقْبَرْ"، ويقال لمن يريد أن يعيش عائلة وعبئا على غيره وهو سليم، ليكون مرتاحا من كل تبعات المعيشة وتكاليفها.⁴

- ٥٨ ٥٠ ٤٤٥٥٥٥٦ ٤٧٤٧٤٧ ٧ ٤٤٤٤٥٧١.

- "أَدْ أَوْزِ طُوصُوتْ إِكِيكِيْلْ فَاِمُطَّاونْ."

- لا توصي اليتيم بالبكاء

يقال المثل لوصف من اعتاد الصراخ وكثرة الشكوى لأنقه الأسباب.

¹ مستاوي، المرجع نفسه، ص. 12.

² دودان، إدريس، المرجع نفسه، ص. 327.

³ مستاوي، المرجع نفسه، ص. 234.

⁴ دادون، إدريس، المرجع نفسه، ص. 275.

• 𐤀𐤒𐤌𐤔 𐤕𐤐𐤐𐤔𐤌 𐤀𐤒𐤌𐤔.

- 𐤒𐤕𐤕𐤔 𐤕𐤔𐤕𐤕𐤔 𐤕𐤕𐤕.

- 𐤕𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕.

حسب مستاوي، فإن هذا المثل مستوحى من حكاية شعبية، وتروي هذه الحكاية بأن فقيها استضاف ملك الموت في حياته، وقبل انصراف الملك طلب منه الفقيه أن يذكره بثلاث رسائل استعدادا للرحيل قبل مجيئه، ووعد ملك الموت بذلك، مما جعل الفقيه يتهاون في القيام بواجباته الدينية في انتظار الرسالة الأولى على الأقل. وبينما هو مستسلم لملذات الحياة، وقف ملك الموت بباب بيته مخبرا إياه بانتهاء أجله اللحظة. فاحتج الفقيه (نقول الحكاية) متهما ملك الموت بعدم وفائه بوعده الذي قطعه على نفسه...

- سأله ملك الموت: هل ضعف بصرك؟

- أجابه الفقيه قائلا : نعم.

- قال له: إنها الرسالة الأولى. وهل هزلت ركبتيك؟

- أجابه الفقيه: نعم.

- قال له: إنها الرسالة الثانية. هل شاب شعر رأسك؟

- أجابه الفقيه : نعم.

- قال له: إنها الرسالة الثالثة التي أرسلتها لك، وقد وفيت بوعدي إليك، ولم يبق لك إلا أن تودع

الأهل والحياة.

- أجابه الفقيه : نعم، نعم، نعم...¹

يقال المثل للتذكير بأن حدوث الموت أمر لا يعرفه إلا الله، وعلى المرء أن يكون دائما مستعدا لها من خلال التزامه بالعبادات، وفعل الخير، وحسن المعاملات.

• 𐤀𐤒𐤌𐤔 𐤕𐤐𐤐𐤔𐤌 𐤀𐤒𐤌𐤔 𐤕𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕.

- "𐤀𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕 𐤀𐤕𐤕 𐤀𐤕𐤕 𐤀𐤕𐤕."

- مات الرجل وترك قشا يابساً تذروه الرياح.

يقال المثل لمن كان إيجابيا في حياته وترك ابنا سلبيا².

¹ مستاوي، المرجع السابق، ص. 136.

² مستاوي، المرجع نفسه، ص. 170.

- 0 5.11. 88888 1111 0000. 7.1 0880.

• "أَزْ يَلَّا إِيكَيْكَ أَلَيْغَ إِسْوَا أَكَالِ إِيْرُوفَانَ."

• يبكي اليتيم حتى سقى تربة جافة.

يقال المثل لوصف يتيم بكى من فرط إهماله¹.

- [illegible]

• "وَأَنَّا دِيقُلْنُ أَرَاوْ نَسْ زُونْدُ أُوْرُ اِمُوْتْ."

- من ترك أبناء له كأنه لم يمت.

يقال المثل عندما يكون الخلف في مستوى السلف².

- ሃረግጽ ጸደቀ ሲሆን ይህም የጥያቄው ባለሙያ ነው፡፡

- "غَوَاتَا زُونْدَ وَالِّي إِزُولُنْ سُوْكَلْزِيْمَ لِّي سَرَادْ غَزْنُ نُقْبَرُ نَمَاسْ."

• ذاك كمن فر بالفأس الذي سيحفرون به قبر أمه.

يقال المثل للتعبير عن التناقض بين من تسعى جاهدا لمساعدته في أمر يهمه، بينما هو غير مهتم بأموره الشخصية، ولا بما تفعله من أجله.

- $f: \mathbb{R}^n \rightarrow \mathbb{R}$ and $f: \mathbb{R}^n \rightarrow \mathbb{R}^m$.

- "يَا نَ إِدَا أُورْدَ اِفْلَ وَالُو، يَا نَ يُشْكَادَ أُورْدَ يُوفَا وَالُو."

- أحدهم مات ولم يترك شيئاً، وآخر ولد ولم يجد شيئاً.

يقال المثل للتعبير عن فقر موروث³. يقابل هذا المثل في اللغة العامية المثل القائل: "عَاشَ مَا كُسِبَ مَاتَ مَا خُلِيَ". يقال لمن لا يملك شيئاً من حطام الدنيا ومتاعها في حياته، وليس له منها ما يخلفه لمن جاء بعد موته⁴.

- $\wedge_0 \Sigma^{++} \Gamma^{++} \otimes \mathbb{X} E \Sigma E \otimes E \otimes \mathbb{O}_0 \Sigma \wedge \mathbb{C} \Gamma \Sigma \gamma$.

¹ مستاوي، المرجع نفسه، ص. 176-177.

² مستأوى، المرجع نفسه، ص. 177.

³ مستاوي، المرجع السابق، ص. 231.

⁴ دادون، إدريس، المرجع السابق ص. 191.

- "دَا إِمْتَاتْ أَوْكُضِيضْ أَرْ ضَصَانْ إِخْشَمِينْ".
- يحتضر العصفور والأطفال يضحكون.

يقال المثل لمن يجهل معاناة الآخرين، ويظن أن الجميع بخير.¹ يقال كذلك "وَاحْدْ كَيْمُوتْ بِالْبُرْدْ، وَهُمَا كَيْرْشُوْهُ بِمَاوَرْدْ"، ويقال هذا المثل عند استعمال الشيء في غير محله، لأن من العادة أن يرش ماء الورد لتبريد الجسم من الحمى، أو شدة الحرارة التي قد يحمى وطيسها في فصل الصيف، فإذا هو يرش به في شدة البرد.²

- ٥٠ ٥٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨.

- "أَوْزْ أَدْ كُتَيْنْ لَفْعَالْ نُوتِيْسْ أَرْدْ إِمْتْ".
- لا يتذكرون محاسن الحصان إلا بعد موته.

يقال في من يجهل قيمة الآخر وأهميته.³

- ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨.

- "تُوفْ لُمُوتْ نَكْ تُودِرْتْ نَكْ".
- موتك أحسن من عيشك.

يقال المثل غالبا لشخص يفتعل الكثير من المشاكل لأهله، ويقال أيضا في اللغة العامية: "هَذَا مُوتُو خَيْرْ مِنْ حَيَاتُو"، ويقال لمن لا يفيد ولا يستفاد منه، ولا ينفع غيره ولا ينتفع منه. ويقال أيضا لمن مرض مرضا خطيرا جعله في غيبوبة مستديمة. وفي هذه الحالة يقال: "لُمُوتْ كُتْشَرْ لُعِيْبْ".⁴

- ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨ ٨٨٨٨٨٨.

- "مَا إِكْيِسْنْ إَوِيْلِيْ مُوتْنِينْ أَدْ أَوْرِينْ".
- هذا ما منع الأموات من الرجوع إلى الحياة.

يقال المثل لشخص رجع إلى بلده بعد أن هجرها، فوجد شخصا آخر يشغل مكانه.¹ يقابل هذا المثل في اللغة العامية المثل القائل: "الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا كَيْفُومُوشِي لُمُوتِي مِنْ مُوَاضَعُهُمْ"، حيث يقال لمن كان ينتظر

¹ أروض، ادريس، وآخرون، ألف مثل أمازيغي ومثلان، الرباط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية 2012، ص. 280.

² دادون، المرجع السابق، ص. 354.

³ أروض، المرجع السابق، ص. 285-259.

⁴ دادون، المرجع نفسه، ص. 365.

هكذا تعد الأمثال الشعبية لدى كل حضارات العالم مصدرا لمعرفة أحوال هذه الشعوب في مختلف مناحي الحياة، وأنواع العلاقات القائمة بين أفرادها، وكشف خبايا العادات والمعتقدات السائدة فيه. فالمثل هو بمثابة مرآة تعكس ما يعيشه الإنسان، فهو بذلك يشكل السجل الثقافي، والمنظومة الفكرية والإرث العريق لكل شعب من شعوب العالم. ويعتبر المثل من ألطف الأشكال التعبيرية، خاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع مقلق وغير مرغوب فيه كالموت والفناء.

¹ مستأوي، المرجع السابق، ص. 234.
² دادون، المرجع نفسه، ص. 293.

3. الموت والطقوس السحرية

آمن الأمازيغ منذ القديم بمعتقدات كثيرة، كوجود قوى خفية تسكن البيوت والغابات والجبال وتنتقل بحرية في الطبيعة، شأنهم في ذلك شأن باقي شعوب العالم. وكان وراء هذا الإيمان بقوى ما وراء الطبيعة الخوف من المجهول، وعدم إمكان معرفة الإنسان بخبايا المستقبل. يقول مصطفى وعراب، في هذا الصدد: "عبد الأمازيغ، وهم المغاربة الأقدمون، عيون الماء والأشجار والكبش ملك القطيع، والكواكب وجن المغارات والعيون والهواء، واعتقدوا في السحر؛ أي في امكانية خلق شيء أو حيوان أو بشر، إما برسمه أو بكل بساطة من خلال النطق باسمه، واعتقدوا أنهم بذلك يستطيعون التحكم فيه والإمساك به وتدميره أو معاقبته، ومارسوا أيضا عبادة الموتى. وكانوا يوجهون قبورهم جهة مشرق الشمس، ويدفنون مع موتاهم المجوهرات والجرار والقصاع الطينية، لاعتقادهم في خلود الروح¹.

ويحضر السحر عند كل الشعوب والحضارات؛ حيث مارسته الأقوام البدائية، ولا زالت تمارسه الشعوب المتحضرة إلى أيامنا هذه. في كل مكان نجد السحرة والمشعوذين، فالسحر ليس محتكرا على النساء فقط كما هو مشاع، بل مارسه الرجال كذلك. ورغم أن الإنسان المعاصر قد بلغ مستوى عالٍ من العلم والحضارة، وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً، إلا أنه ما يزال يتطلع إلى معرفة ما يخبئه له المستقبل، مستعملاً في ذلك كل الوسائل المتاحة التي منها السحر.

وما يهمنا في دراستنا هذه هو تلك الطقوس السحرية المرتبطة بالموت والأموات عند الأمازيغ. فما علاقة الموت بالطقوس والممارسات السحرية؟ ما أنواع الطقوس السحرية في آيت باعمران؟ وأين تمارس؟ وما هي بعض الصفات السحرية التي يستعمل فيها الأموات؟

1.3. تعريف السحر وأنواعه

يقول الأزهري: "السَّحْرُ عمل تُقَرَّب فيه إلى الشَّيْطَانِ، وبمعونة منه، كلُّ ذلك الأمر كينونة للسَّحَر، ومن السَّحَر الأَخَذَةُ التي تَأْخُذُ العَيْنَ حتى يُظَنَّ أن الأمر كما يُرَى، وليس الأصل على ما يُرى، والسَّحَر الأَخَذَةُ. وكلُّ ما لَطُف مأخذه ودقَّ فَهُوَ سِحْر، والجمعُ أَسْحَارٌ وسُحُور، وسَحَرَه، يَسْحَرُهُ سَحْراً وسِحْراً، وسَحَرَهُ، وَرَجُلٌ سَاحِرٌ من قومٍ سَحَرَةٍ وسَحَّارٍ"².

¹ وعراب، مصطفى، المعتقدات السحرية وطقوسها في المغرب، القنيطرة، دار الحرف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2007، ص. 8.
² ابن منظور، المرجع السابق، ص. 1951.

وقال ابن فارس: "هو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال هو الخديعة. و(سحره) بكلامه: استماله برقته وحسن تركيبه. قال الإمام فخر الدين في التفسير: ولفظ (السحر) في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويُخَيَّلُ على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع، قال تعالى: "يَخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى"، وإذا أُطْلِقَ دُمَّ فاعله¹.

يُعرَّفُ السحر اصطلاحاً على أنه صرفُ الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأنَّ السَّاحِرَ - لما أرى الباطل في صورة الحق، وخَيَّلَ الشيء على غير حقيقته - قد سَحَرَ الشيء عن وجهه، أي صَرَفَهُ، وقال الفراء في قوله تعالى: "فَأَنَّى تُسْحَرُونَ"، معناه فَأَنَّى تُصَرَفُونَ، ومثله: "فَأَنَّى تُؤَفَّكَونَ"، أَفَكَ وَسَحَرَ سَوَاء، وقال يونس: تَقُولُ الْعَرَبُ لِلرَّجُلِ: مَا سَحَرَكَ عَنْ وَجْهِ كَذَا وَكَذَا، أَي ما صَرَفَكَ عَنْهُ؟ وما سَحَرَكَ عَنَّا سَحَرًا، أَي ما صَرَفَكَ؟ والمعروف: ما شَجَرَكَ شَجْرًا. وروى شمر عن ابن عائشة قال: الْعَرَبُ إِنَّمَا سَمَّتِ السِّحْرَ سِحْرًا لِأَنَّهُ يُزِيلُ الصِّحَّةَ إِلَى الْمَرَضِ، وإنما يقال سَحَرَهُ أَي أزاله عن البُغْضِ إِلَى الْحُبِّ، وقال الكُمَيْتُ: وَقَادَ إِلَيْهَا الْحُبُّ فَانْقَادَ صَغْبُهُ بِحُبِّ مَنْ السِّحْرِ الْحَلَالِ النَّحْبِ يُرِيدُ أَنْ غَلَبَةَ حُبُّهَا كَالسِّحْرِ، وَلَيْسَ بِهِ، لِأَنَّهُ حُبٌّ حَلَالٌ، وَالْحَلَالُ لَا يَكُونُ سِحْرًا، لِأَنَّ السِّحْرَ كَالْخِدَاعِ².

في المعجم الوسيط، السِّحْرُ هو كل أمرٍ يَخْفَى سَبَبُهُ وَيَتَخَيَّلُ على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع. وكلُّ ما لُطِفَ مأْخُذُهُ وَدَقَّ، (ج) أَسْحَارٌ وَسُحُورٌ³. أما رياض عبد الرحمان الدوري، وعلي حسين فرج العماري فيعرفان السحر على أنه نظام من الأفعال الاجتماعية القائمة على الاعتقاد بالفاعلية الفورية لعدد من التصرفات والطرائق والعناصر التي كانت تستخدم بغية خلق النتائج المطلوبة، أو هو محاولة من الإنسان لترويض الطبيعة، والآخرين تبعاً لمشيئته وإرادته، أو محاولة السيطرة على القوى المحيطة به بواسطة طقوس وممارسات معينة⁴.

وينقسم السحر في المغرب حسب وعراب إلى قسمين: سحر دفاعي وسحر عدواني، ويرتبط كل قسم منهما بطبيعة الأغراض المرجوة، وبموقع كوكب القمر الذي يلعب دوراً حاسماً في إنجاح أو إفشال العملية السحرية. فالسحر الدفاعي لا ينجح إلا خلال النصف الثاني من الشهر القمري، ويلجأ إليه كل المصابين بالعين الشريرة، والملاحقين بلعنة سوء الحظ، كالنساء اللواتي يجهضن (بدون رغبة) والفتيات

¹ الفيومي المقرئ، المرجع السابق، ص. 268.

² ابن منظور، المرجع السابق، م 4، ص. 348 - 349.

³ أنيس، وآخرون، المرجع السابق، ص. 419.

⁴ الدوري، رياض عبد الرحمن، والعماري، علي حسين فرج، الساحرات في العراق القديمة والتوراة والتلمود، مجلة سومر، المجلد 53، 2006/2005، ص. 157.

اللواتي لم يتمكن من الزواج، والعشاق المخدوعين، والرجال الذين لا تتجح أعمالهم. أما السحر العدواني فيختص بأغراض الحب والهجر والمصائب والموت التي لا تتجح إلا خلال النصف الثاني من الشهر القمري. والسبب في ذلك أنه في أعمال السحر التي تستهدف الانتقام والحقد يقال: "كيفما غاب القمر يغيب فلان": أي مثلما غاب القمر، أريد لفلان أن يغيب¹.

يقول سي لبشير حول الوقت المناسب للأعمال السحرية في آيت باعمران:

« +εЖε ηηεψ . ++θκελOI +Λ%OεΛ(εI . ٨ I θθελO εX. + CI Ε%ЖЖ%CI + I Εεεεεε, .O ٨ ψηεI εC. .OI. ٨ CI 15 .O 29 ψ Λεεε%O, .O ε++εηε θθελO I ηηεO.ε ٨ ++.ε.++ε+ ٨ κ%η% C. εOθOεI. CI 1 .O 14 ψ Λεεε%O .O ε++εηε θθελO I ηC. .O.θθ. ٨ +ψ.Λ(θελ(εI η%ηηεIεI)»².

"تيزي لليغ أئوسكيرن ئوريوين أد ن سبخز إكات من طرمت ن ظيظ، أزد غلين إمتازن. د من أس ن 15 أز 29 غ وأيوز، أز إتيي سبخز ن لفراق د تشثوت د كولما إهزشن. من 1 أز 14 غ وأيوز أز إتيي سبخز ن لمحابا د نعاوسيوين فولكينين."

"الأوقات المناسبة للأعمال السحرية هي: من منتصف الليل إلى طلوع الفجر، ومن اليوم الخامس عشر إلى اليوم التاسع والعشرين من الشهر يصلح لسحر الفراق، وتشتيت الأسر وكل الأعمال المؤذية. بينما من اليوم الأول إلى غاية اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يصلح لسحر المحبة والأعمال الجيدة."

ويهدف السحر النافع إلى مساعدة الإنسان في مواجهة قوى الشر، بينما النوع الثاني السحر الأسود هدفه بشكل رئيسي إنزال الضرر بالإنسان. وهكذا يكون سحرة النوع الأول المسؤولون عن القضاء على شرور السحرة الذين يتعاطون السحر الأسود، كما أن من أبرز أهداف السحر النافع هو شفاء الناس من الأمراض التي تصيبهم بها العفاريت والأرواح الشريرة³.

ويرتكز السحر حسب فرايزر على مبدئين، الأول: الشيء يأتي بمثله أو الأثر يشبه المؤثر، والثاني: الأشياء التي كانت يوما متحدة تظل على صلة بعد انفصالها الفيزيائي. يسمى المبدأ الأول قانون التشابه، والثاني قانون الانتشار أو الاتصال، وباعتماده على المبدأ الأول يوحي لنا الساحر أنه يعطي الأثر الذي يرغبه بمجرد تقليده، وبناء على المبدأ الثاني يستطيع الساحر أن ينزل بالشخص كل ما ينزله بشيء مادي

¹ وعراب، المرجع السابق، ص. 11.

² مقابلة شفوية رقم (04)، بتاريخ 05 غشت 2019، السيد البشير، إمام مسجد، 45 سنة، من قبائل الأخصاص.

³ أسامة عدنان، يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة، بغداد، اشور بانيبال للكتاب، والكتاب السومري، الطبعة الأولى، 2016، ص. 250.

يقول سي لبشير حول ذلك:

"كُولُو اَيَّلِي اِزْلَيْن مَ لَمَائِيَّتْ اَرْتْ تَيَرِيْنْتْ تُمْعَارِيْن، زُونْدْ اَرَارْ نُسْ، نِيغْ اُسْكَارَنْ نُسْ، نِيغْ تِيْسْكَنِيَّتْ دُ اِفَالَانْ لِي مَ كُنَانْ لُكْفَنْ نُسْ. تِيغَاوَسِيوِيْنْ اَدْ اَرْ سَرَسْ تَغْنَتْ تَاْفُرُوْحَتْ فْ زَمَانْ نُسْ، نِيغْ اَرْكَازْ اَسُوْنْ اُوْرْ اِتَّاهْلْ اُولَا سُوْنْ اِسْنَكْرْ."

"تقوم النسوة بجمع كل ما يتعلق بالميت، كبقايا شعره أو أضافره، وكذلك الخيط والإبرة المستعملان في خياطة كفنه. وتستعمل كل هذه الحاجيات في أغراض سحرية تمنع الفتاة أو الشاب الأعزب من الزواج، كما تستعمل أيضا في خلطة سحرية لإعاقة انتصاب ذكر الرجل المتزوج."

تأتي في مقدمة الشروط الضرورية للممارسة السحرية الناجعة: النية، وهي الإيمان الراسخ والاعتقاد في نجاعة الطقوس السحرية، ويتجلى هذا الإيمان، حسب وعراب، في الاعتقاد الصادق في أن حركة ما أو مادة معدنية أو حيوانية إذا استعملت بطريقة ما، تنتج تأثيرا سحريا معينا. والمراد بالنية هنا هو أن يكون الزبون على يقين تام بنجاعة الطقوس السحرية التي يمارسها الساحر، ويعبر عنها من خلال عدم الشك، أو طرح أي أسئلة حول الطقس أو كيفية ممارسته أو ما مدى نجاعته³. يضيف وعراب قائلا: "إن الممارس إذا لم يقوم بالطقس السحري ب"نيته" فإن ذلك يؤدي إلى عدم حلول الآثار المنتظرة من العملية السحرية. ويلخص ذلك القول الدارج الذي يكرره السحرة في المغرب مثل لازمة "النية بالنية والحاجة مقضية"، أي أن النية المتبادلة بين الساحر والزبون شرط لقضاء الغرض المطلوب"⁴.

⁴ وعرباب، المرجع نفسه، ص. 21.

اختيار الزمن والمكان المناسبين: لكل نوع من أنواع السحر التي سبق ذكرها وقت ومكان مناسب لممارستها. يقول البوني في هذا السياق: "واعلم أن الكواكب السيارة السبعة (وهي مصنقات السحر: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، والقمر) لكل واحد منها وفق منسوب إليه، وفق تأثير يظهر منه بحسب تأثير الكواكب. فالقمر مثلا له منزلتان تناسب كل واحدة منهما نوعا من الممارسة السحرية، فالنصف الأول من الشهر القمري يناسب أعمال السحر الخاصة بالخير (السحر الأبيض)، بينما النصف الثاني منه مناسب لأعمال الشر (السحر الأسود)، بل إن التأثير السحري يختلف حسب أوقات اليوم الواحد، فهناك سحر يصلح للنهار وآخر لليل²، ذلك ما أشار إليه أيضا عدنان يحيى بقوله: "إن الحضارات القديمة تعتقد أن للكواكب أثر في صحة الإنسان، وتعمل أحيانا على إصابته بالمرض".³ وفي منطقة آيت باعمران يشير السيد محمد إلى أوقات ممارسة الطقوس السحرية قائلا:

”كُلُّوْا تَبِعَاوَسِيوِيْنَ اَدْنٰى سَبِيْحَرٍ، اَزْ تَسْكِرْنَتْ غُ اَسَانْ مَلُوْنِيْنِ؛ مِّنْ اَسْنِ 11 اَزْ 15 غُ وَاَيُّوْر. اَوْسَانْ اَدْنٰى اَزْ كِيْسِ تَبِلِيْ تَمَّاْيُوْرْتْ مِّنْ تَيُّوْنَتْسِيْ اَزْدِ اِفُوْ لَحَالْ“.

ويعتبر عبد الغني منديب بعض الأوقات أكثر ملاءمة لممارسة أعمال السحر، كالليالي القمرية وليالي السابع والعشرين من شهر رمضان وعاشوراء التي تشكل بؤرة لعدد كبير من الممارسات السحرية التي ترمى في الغالب الأعم إلى التأثير على الآخرين، كاستمالة قلب رجل أو المحافظة على إعجابه أو

⁴ مقابلة شفوية رقم (06) بتاريخ، 24 غشت 2019، السيد محمد 55 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.

معاشرته، أو الجمع بين عاشق ومعشوقته، أو التأثير على القدرات النفسية والعقلية أو الجنسية لشخص معين، كحرمانه من الإنجاب أو إضعاف خصوبته، (بالنسبة للمرأة) أو فحولته (بالنسبة للرجل)¹.

أما بالنسبة لمكان السحر، فإنه يشترط في بعض الطقوس السحرية أن تتم في مكان معين: كالحمام البلدي، أو شاطئ البحر، أو في المقابر. هذا دون أن ننسى ضرورة احترام تراتبية الطقوس؛ إذ ينجم عن عدم احترام ذلك بطلان العمل السحري بأكمله.

3.3. عناصر العملية السحرية

من بين أهم المواد والعناصر المادية التي تدخل في إعداد الوصفات السحرية حسب وعراب، نجد:²

- مواد حيوانية : حشرات، جلود، قرون، أطراف بعض الحيوانات وكذا دماؤها.
- مواد معدنية : بخور، صفائح الفضة، رصاص، حديد، نحاس.
- مواد نباتية : بخور، جذور ولحاف بعض الأشجار، إضافة إلى أزهار بعض النباتات.
- مستحضرات خاصة: ماء غسل الميت، دم الإنسان (الحيض، دم المغدور)، الثوب المستعمل بعد الجماع، شعر وأظافر الشخص المراد سحره.

4.3. مسار تكوين الساحر

لا تكفي قراءة كتب السحر المتوفرة كي يصبح الإنسان ساحرا، فهذا الأخير له قواعد وشروط تجعله غير متاح لعامة الناس. ورغم ما تكشفه كتب السحر المتداولة من أسرار تلك القواعد فإن الخفي منها أعظم. وفي هذا السياق يقول وعراب: "إن الساحر لا يولد ساحرا، ولكي يصبح الإنسان العادي ساحرا أو ساحرة، يكون أمامه مسار شاق عليه أن يقطعه في أماكن سرية، قبل أن يحظى باعتراف معلميه السحرة وتتوجيههم له ساحرا معالجا"³.

¹ منديب، عبد الغني، الدين والمجتمع دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2006، ص. 174.

² وعراب، المرجع السابق، ص. 22.

³ وعراب، المرجع نفسه، ص. 29.

يقدم مصطفى أخميس تصورا حول مسار التكوين الذي يجتازه الساحر المتعلم في مدارس سرية في سوس، تعلم السحر على النحو التالي:¹

ينسحب الفقيه الراغب في أن يصبح معالجا من الحياة العادية، لينغمس في حياة أخرى مسكونة بالأرواح. وهناك يختار الجني الخديم (الخادم) الذي لن يفارقه بعد ذلك أبدا، ولكي يرتبط بالجني لا ينبغي للفقيه أن يرى أحدا طيلة مئة يوم ويوم، ولا يحلق وجهه ويغتسل، ولا يأكل طيلة تلك المدة سوى التمر والحليب وخبز الشعير المعجون بدون خميرة، وعليه أن يحرق عند كل مطلع ومغرب شمس خليطا من الملح والحرمل والشب وجلد الثعبان. وفي متم اليوم الواحد بعد المئة ينظر الفقيه في معزله إلى مرآة على ضوء شمعة، فيرى بدل انعكاس صورة وجهه فيها صورة الجني "الخديم"، ويكون ذلك تنويجا له كفقيه معالج. وهنا يبدأ في التدريب الميداني، حيث يتمرس خلاله على العيش مع شيطانه الذي لن يتكلم معه إلا لغة خاصة تتضمن صيغا لغزية، ويختتم الساحر تدريبه بدراسة العلامات التي سيستعملها في إعداد الطلاس خلال حياته المهنية المستقبلية.

نسجل أيضا طريقة أخرى لتسخير الجن في خدمة الساحر، نقلها وعراب عن الطبيب الفرنسي موشون في ملاحظاته حول السحر في المغرب بداية القرن العشرين، وهي كالتالي:²

لكي يصبح المرء ساحرا يطلب من الشياطين أن يبلغوا رغبته إلى السلطان الأكبر (الجن)، ثم ينسحب إلى أحد الأودية بعيدا عن المدينة حاملا معه مرآة إطارها من خشب الأبنوس، ويأخذ طالب السحر تلك المرآة في يده، بينما يتمم بأدعية والبخور يتصاعد من موقد مجاور، ويقوم بتغيير ملابسه على رأس كل ساعة زمن، مكتفيا بأكل الخبز الذي تم إعداده من دون ملح وبقليل من الخميرة، مع التين المجفف والزبيب. في غضون أيام قليلة يظهر "الخديم" في المرآة فيخاطب الساحر قائلا: "لقد أزعجت كل الدار السفلى" (أي عالم الجن)، ثم يردف ناصحا إياه: "سوف ترى مرور الجيوش السبعة للسلطان، وهي مكونة من الأفاعي والعقارب والحيوانات المتوحشة... فلا تخف وحاذر أن ترد على من يكلمك منهم". وبعد أن ينسحب "الخديم" يشاهد الساحر الكتائب السبع يليها السلطان فوق جواده، فيكون عليه أن يمسك بالدابة التي يركبها سلطان الجن من لجامها، ثم يقدم ملتسمه. وفي الغالب يمنح السلطان للساحر خديما من رعاياه من الجان يصير مطلوبا منه أن يقيم معه أواصر علاقة حميمة ستجمعهما إلى الأبد.

¹ Akhmisse, Mustapha, Medcine, Magie et Sorcellerie au Maroc, ou l'art traditionnel de guérir, Casablanca, Dar Kortoba, 4ème Edition, 2000, p. 40 – 41.

² وعراب، المرجع السابق، ص 30-31.

ولهذه الغاية يوقد البخور فيتصاعد عمود من الدخان، ما يلبث أن يتحول إلى قطعة خشب تتمدد شيئاً فشيئاً، لتتحول من جديد وتصبح ثعباناً يتحول بدوره مرات عدة، ليأخذ أشكالاً مختلفة، فيصبح في النهاية شاباً جميل الخلقة، يحمل في يده سكيناً دامية: إنه الخديم.

يتبادل الساحر وخديمه (خادمه الجني) التحية من خلال التصافح بظاهر يديهما، ثم يمتلك كل منهما الآخر. ويأخذ الساحر المكرس علبة صغيرة يقدمها للشاب الذي يشرع في تقصير قامته إلى أن يتمكن من دخولها، فيغلقها عليه الساحر، ويحملها معه بعد ذلك باستمرار.

5.3. الطقوس السحرية

يجب تنفيذ مجموعة من الطقوس لإبعاد شبح ميت من جسد المريض. يقول أسامة عدنان يحيى: "إذا ظهر شبح أحد الموتى لشخص، وإذا عرفه هذا الشخص أو لم يعرفه فلأجل إبعاد هذا الشبح تصنع دمية تشبه ذلك الميت، وتوضع فوق فراش المريض، وفي اليوم الثالث تكنس الأرض في الظهيرة أمام شمس وترش بالماء النقي، ويقام مذبح صغير توضع فوقه كمية من الثمر وتنتثر كمية من الطحين، ثم تشغل مبخرة فيها عصير شجرة السرو، وتسكب جعة من نوع جيد، وبعد ذلك تلعن الدمية بالكلمات التالية: "شمس ! إنك دليل هذا الميت في العالم الأسفل، وفي العالم الأعلى فامنحني (حلاً لحالتي)، إنه مرعب، قبيح المنظر، بغیض، ومخيف ليلاً، إنني أتوسل إليك وأطلب أن تجعله مكاني، بحياة شمس ليبعد عني". تكرر هذه الصيغة ثلاث مرات ثم تكفن الدمية وتدفن في ظلال شجرة سدر ذات أشواك".¹

تعتبر الأدوات المستعملة في غسل وكفن الميت، وكذا بعض أعضاء الجثة من المواد الضرورية التي تستعمل في الوصفات السحرية، خاصة السحر الأسود. يقول وعراب في هذا الصدد: "كل ما لمس جسد الميت من ماء وأدوات تنظيف، كما هو شأن تراب المقابر وحجارتها ونباتها أو شعر الموتى وأظافرهم أو عظامهم وغيرها من مواد سحرية يمكن اللجوء إليها لإحداث موت معنوي أو فعلي لدى الأحياء".²

¹ أسامة عدنان، المرجع السابق، ص. 276.

² وعراب، المرجع السابق، ص. 213.

يقول السيد لبشير في هذا الصدد:

«O ++XOXI+ +CYOXI KX ΛΛO XOXOXI CYCIXI, OI KX O
OOXOXI CXAI KCOKKX+, OCK: O O +I +OKK. XO+I, O ++XX.
XKCO. AXI+ KXIΛ KCOKKX+. O O Λ OX XOΛK KXΛO I +CYO+
IIO.»¹

"أَزْ تِيرِيْنْتُ ثَمْعَارِيْنْ لِي دَارْ إِرْكَارُنْ شَقَّانِيْنْ، أَمَانْ لِي سِ سِيرْدُنْ مِيْدُنْ لَمَائِيْتْ، أَشْكَوْ أَرْ أَسْتُنْ تَكَّا
إِسُوْتُنْ، أَرْ إِتْكَ إِلْمَا دِيْنْتُ زُنْدُ لَمَائِيْتْ. أَوْزْ أَدْ سُولْ إِسَاوُلْ لُكَدَامْ نْ ثَمْعَارْتْ نُسْ"

"تتنافس النساء اللواتي لهن أزواج متسلطون حول الماء المستعمل في تغسيل الموتى، لتقديمه لهم ليشربوه.
حينها يصبحون كالأموات، ولن تعلوا بعدها أصواتهم على أصوات زوجاتهم."

ونستعرض هنا مجموعة من الصفات التي تستعمل فيها أعضاء الجثة، أو إحدى الأدوات
المستعملة في التغسيل والتكفين، إضافة إلى تراب المقابر:

دم المغدور: يعتبر دم كل شخص فارق الحياة في حادث قتل عنيف دما سحريا، يستعمل في إلحاق
الأذى بالآخر. حكّت لنا السيدة فاطمة عن ذلك قائلة:

«XΛOCCI KYAO+ O XOX OXOI ++ +CYOXI XOXXOXOI, O O ++XIXI
++ +OΛCXCOT. O OOO IXCI ++ +OKKIXI CXKXIXI. +OΛCXCOT O Λ
+XO KCOKK+: +KK. +KKX XCOKKI +Y. KΛ KΛ OKK: KX. O OI,
X+OΛ OK OOX +IX. O K. +OCQXE +OKKIXI, +KKX CXOI KIXAXΛ O
+I +IX. AYK.»²

"إِدَامُنْ لُغْدَرْتْ أَرْ كِيْسْ سَكَارُنْ ثَمْعَارِيْنْ إِسْكِيرُنْ، أَرْ أَسْ تِيْنِيْنْتُ تَاوْمِيْسْتْ؛ أَرْ سَرْسْ نَقَّانْتُ تَارْنِيْنْ
مَزِيْنِيْنْ. تَاوْمِيْسْتْ أَدْ تَكَا لَمَارْكَاتْ: ثَلَا تَالِيْ إِمَاطْلُنْ ثَنْغَا يَادْ يَانَ وَرَّانْ أُولَا سِيْنْ، خُتَادْ أَوْزْ أَسُولْ ثَنْغَا أَرْ
كََا شُمْرِيْضْ تَرَانِيْنْ، تَالِيْ إِكَانْ لُجْدِيْدْ أَرْ ثَنْ ثَنْغَا دُغْيَا."

"يتم خلط مجموعة من المكونات بدم المغدور، يطلق عليها اسم (تَاوْمِيْسْتْ)، تستعملها النساء في قتل
الأطفال الرضع بهدف الحسد والغيرة. وتنقسم (تَاوْمِيْسْتْ) إلى نوعين: الأولى قديمة سبق وأن استعملت
في قتل طفل أو طفلين، وهذه تسبب فقط أمراضا واضطرابات للطفل الذي تعرض أمام عينيه. النوع
الثاني تكون جديدة وهي خطيرة جدا لكونها تقتل الرضيع في الحين".

¹ مقابلة شفوية رقم (07) بتاريخ 05 غشت 2019، السيد البشير، إمام مسجد، 45 سنة، من قبائل الأخصاص.

² مقابلة شفوية رقم (08) بتاريخ 19 غشت 2019، السيدة فاطمة، 53 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.

يعتبر كذلك وعراب هذا الدم السحري كفيل بإحداث اضطرابات صحية خطيرة للأطفال الرضع الذين لم تظهر أسنانهم الأولى بعد، كما يستعمل من قبل المرأة التي تريد الانتقام من زوجها، حيث يؤدي بالرجل إلى فقدانه لقواه العقلية.¹ وأورد وعراب نقلا عن إحدى اليوميات المغربية قصة عن السحر بالموتى. وجاء في تفاصيل هذه القصة أن مشعوذة طلبت من سيدة جاءت إليها ترغب في الحد من عدوانية زوجها أن تشتري نصف كيلوغرام من اللحم، وبعد تحضيره ببعض العناصر السحرية، ثم أخذ ذلك اللحم إلى مستودع الأموات بالحي الحسني (بالدار البيضاء). بعد حصول الاتفاق مع إحدى المستخدمات العاملات به كي تتركه يقضي ليلة كاملة في فم رجل ميت، وفي اليوم الموالي طبخت السيدة اللحم وقدمته وجبة لزوجها، حيث طمأنتها المشعوذة أنه سيغير من عدوانيته بعد أن يأكل منه. لكن اللحم المسحور قضى على حياة المسكين مرة واحدة.²

يقول إدموند دوطي في هذا الصدد: "تلعب الجثة دورا أساسيا في السحر الأسود؛ فالهالك الذي فقد الحياة والبصر والسمع والحس يورث عجزه ذلك للأخرين"³، الشيء نفسه يؤكد فرايزر بقوله: "قبما أن الموتى لا يرون أو يسمعون أو يتكلمون، كذلك يمكنك حسب المبدأ التعاطفي التجانسي أن تنقل العمى والبكم والطرش باستخدام عظام الميت أو شيء مرتبط بعدوى الموت. لذلك يقوم بعض شبان الغاليليز الذين يريدون إقناع عشيقاتهم بحبهم بأخذ رماد من أحد القبور ونثره على سقف بيت محبوبته تماما فوق المكان الذي ينام فيه أهلها. هذا بتصورهم يمنعهم من الاستيقاظ في أثناء حديثه مع حبيبته، لأن تراب القبر سيجعل نومهم عميقا كالأموات." كذلك يعتمد الساطون على البيوت ليلا في سلافونيا الجنوبية بهذا النوع من السحر؛ حيث يقومون برمي عظام رجل ميت على المنزل قائلين بتهكم لاذع: "فليصح أهل هذا البيت إذا صحت هذه العظام". أيضا في جافا يأخذ السارقون ترابا من قبر وينثرونه حول البيت الذي يقصدون سرقة، الأمر الذي سيجعل كل من في البيت في نوم عميق"⁴.

تستعمل أسنان الميت عند آيت باعمران في الوصفات السحرية، خاصة لتتويم الإنسان، أو بعض الحيوانات من أجل سرقتها. يقول السيد محمد:

« ٥ ٨ + ٧٧٤٥ ٤٥٨٨٥ ٥ ٧٥ ١ ٨٤٥٦٦٤ + ٨٨٤ ٤٨٨٥ ٧ ٨٧٨٨٥٤,
 ٨٥٦٨ ٥ ٥ ١ + ٤٧٥ ١ ٥ ٤ ٦ ٥ ٤ ١ ٦ ٥ ٤ ١, ٥ ٥ ١ + ٥ ٥ ١ ٨ ٤ + ٧ ٥ ٥ ٥ + ٧ ١, ٥ ٥ ٥ ٥ ٥ ٨

¹ وعراب، المرجع السابق، ص. 74.

² وعراب، المرجع نفسه، ص. 210.

³ دوطي، إدموند، السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة: فريد الزاهي، الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة الثالثة، 2019، ص. 161.

⁴ فرايزر، المرجع السابق، ص. 52.

†00000. 128 00 0000 000† 00000† 00000† 00 0000 000 0000
128 00 0000 0000 0000»¹

"أَزْدُ تُكَيِّسُ إِسْحَارُنْ أَوْخَسَانْ لُمَيِّتْ لِي إِلَّانْ غُلْدَامْ، زَايْدَنَاسُنْ كُرَا نَنْغَاوَسِيُونْ يَاضَنِينْ، أَرْ تَنْ تَسُوْتُولُنْ
إِنْفُونَاسُنْ تَكُنْ، أَوْزْ أَسُولْ تَسْمُوْهْ. نَعْدُ أَرْ سِيَسُنْ سَكَا نَافَقِيْلَتْ كُوْلُوْتْ أَزْدُ أَسِيْنْ كُرَا لُكُنْزْ نِيْعْدُ أَزْدُ أَكُرُنْ
أَيَّنَا زَانْ".

"يقوم السحرة بنزع الأسنان الأمامية للميت (القواطع)، ثم يمزجونها بخلاطات سحرية، ليستعملونها في
تتويم الأبقار وسرقتها دون أن تحدث أي ضجيج، أو يقومون بتتويم الدوار بأكمله حتى يتسنى لهم حفر
وسرقة الكنوز دون أن يسمعون أي شخص".

حسب دوطي، فإن لتراب القبر الخصائص نفسها التي تملكها الجثة في مضمار السحر، فهي لها
القدرة على إنشاء المحن والمصائب، ومواساة المصاب، وهو ما يعرف بالسلوى أو السلوان لدى العرب
القدماء²، كذلك تستعمل المرأة الخائنة أجزاء من الجثة (أظافر أو شعر الميت)، أو بعض المواد التي
لمست الميت، لكي تغلق عيني زوجها عن سلوكها³.

تتعدد مجالات استعمال مواد تغسيل وتكفين الميت. من الأمثلة على ذلك لجوء الزوجة التي
تعاني من تسلط زوجها إلى جعله يغسل يديه بالصابون المستعمل في عملية تغسيل الميت، كي لا يعود
إلى ضربها بعد ذلك، كذلك الماء المتحصل من عملية غسل الميت فإن له في معتقد المغاربة قدرات
تأثيرية خطيرة جدا، لدرجة أنه يكفي رش فتاة بقطرات منه لتعطل زواجها، وتظل بلا زواج طوال العمر⁴.
وحول هذا الماء يقول دوطي: "لكي يتم منع فتاة من الزواج ترمى بالماء المستعمل في غسل الميت،
وحين تريد الفتاة فك هذا السحر تسير إلى شاطئ البحر، وهناك تتجرد كليا من ثيابها وتعم في سبع
موجات متوالية، شاربة من كل موجة شيئا من الماء، وعليها وهي تقوم بذلك، أن تحمل على كتفها قفة
تكون قد استعملت في ردم التراب على الميت، ينقب قعرها فتمرر رأسها منه بحيث تلبس القفة تماما كما
الحجاج، ثم تأخذ قطعة خشب وترش بالبخور الكريمة؛ أي بحرق دواليها الكبيرين وشعر الذئب والصوف،
وشوك القنفذ، وقشور البيض، وعظم القرن، وزغب الزنجية⁵.

¹ مقابلة شفوية رقم (09)، بتاريخ، 24 غشت 2019، السيد محمد 55 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.

² دوطي، المرجع السابق، ص. 161-162.

³ وعراب، المرجع السابق، ص. 216.

⁴ وعراب، المرجع نفسه، ص. 214.

⁵ دوطي، المرجع نفسه، ص. 47.

يقول السيد لبشير حول هذا النوع من السحر:

«XZ+ II. OZOI+ +CYOXI XO. I ++ZOX Z XO. I XOI, LO Z++XOX %XO.
LO XOX%, O +XI ++XXOI+ Y ZLX I XOXOX+ ZXI +XI XZO, %XXO.
XOXO A XOXI. OOXLO OX ZCZX. OOO. %O XOXOXOX, OX% ZXOX.
II Y AA% LOXOX»¹.

"لَوْفُتْنَا سَكْرُنْتَ تَمْعَارِينْ كُرَا نْ تَيَّافْ إِكْرَا نِيَانْ، أَوْزْ إِتِيَهْلْ أُولَا أَوْزْ يَارُو، أَرْ تَيْنْ تَكَاَنْتْ غُ إِمِي نْ لُمَيَّيْتْ
قُنْ تَيْنْ كِيْسْ، أُولَا كُرَاسْ ذُ لُكْفُنْ. سَيَحْزْ أَدْ إِشْقَا بَاهْرَا أَوْزْ أَيُطْبِتِيلْ أَشْكَو إِلَّانْ غُ دُو وَكَالْ"

"تقوم النساء أثناء تحضيرهن للخططات السحرية المسماة "التيقاف"، والتي تستعمل في منع شخص ما من الزواج أو الإنجاب، بوضعها في قم الميت وغلقة، أو خياطته في الكفن. ويعتبر هذا النوع من السحر خطيراً جداً لصعوبة إبطاله، لكونه مدفوناً تحت الأرض".

من الصفات المستعملة في كسب ود شخص يقول وعراب: "يأخذ الساحر رأس كبش ويذهب عند الخياط المتخصص في رتق أكفان الموتى، ويطلب منه مده بآخر إبرة استعملها مع قطعة كفن، وقليل من ماء غسل الميت، ثم يحضر مزيجاً من المواد السحرية يملأ بها قم الكبش ليخيطه بالإبرة وهو يقول: "ماشي قم الحولي للي كنخيط ولكن قم (فلان باش) ما يفتحو غير باش يطعني" (ليس قم الكبش ما أخيط بل قم (فلان)، لكي لا يفتحني إلا ليطيئني)"².

كذلك من الصفات التي يعتمد عليها المشعوذون والمشعوذات في ممارسة السحر الأسود، ما يسمى "كسكس يد الميت"؛ حيث تقوم الساحرات بقتل الكسكس بيد الميت فوق قبره، بهدف إطعامه للشخص المستهدف بالسحر، اعتقاداً منهن أن استخدام جزء من جثة الميت يروض الزوج، بغية التحكم فيه واستدراجه لتلبية رغباتها. وحول ذلك يقول دوطي: "في الجزائر خرجت امرأتان ليلاً واتجهتا نحو المقبرة، وببدهما قصعة وبعض الدقيق، فأخرجتا جثمان شخص دفن في اليوم نفسه من القبر، ووضعتاه أرضاً، إحداهما أجلسته فيما أمسكت الأخرى بيديه حتى يحضرا معا "البركوكش" لزوجها، ليصبح تحت طاعتها، كما هي الجثة بين يدي غسالها، وبذلك يمكنها أن تقوده كيفما شاءت، وتحويله إلى رجل مسالم بالسهولة نفسها التي تقتل بها حبات البركوكش بأيدي الميت. ويمكنها بذلك أن تمارس كل ما ترغب فيه أمامه من غير رقابة رقيب"³.

¹ مقابلة شفوية رقم (10)، بتاريخ 25 غشت 2019، السيد البشير، إمام مسجد، 45 سنة، من قبائل الأخصاص.

² وعراب، المرجع السابق، ص. 215.

³ دوطي، المرجع السابق، ص. 161.

يمارس كذلك هذا النوع من السحر في آيت باعمران، حيث يقول السيد البشير:

«K̄C̄ōK̄K̄+ IIō K̄ %Ō J̄ŌX̄Ī K̄Q̄Ē Ī %ŌŌā Ȳ K̄Z̄Θ̄Ō IĪŌ, ōŌ + X̄Ā K̄ĀĀX̄
Ī+ +C̄ȲōX̄Ī, ŌK̄Ō Ī+ Ō %K̄%Ō IĪŌ ĒĒĀC̄ K̄K̄Ī ++ X̄ K̄Ōō Ī %ŌX̄ōJ̄ ō +
X̄C̄C̄, ōK̄ōĀ ōX̄X̄X̄Ō +ĀK̄C̄»¹.

"لَمَآيَيْتُ نَا فُورَ زُرَيْنَ كُرَاضَ نُوسَانَ غَ لُقُبْرَ نُسْ، أَرُ تَيْذَ لُدَيْنْتُ تُمْغَارَيْنَ، سَكْرُ نُنْتُ سُوْفُوسَ نُسْ طُعْمُ
فُكُنْتُ إِكْرَا نُورَكَازَ أَتْ إِشْ، أَفَاذَ أَكَيْسَ نُحْكُمُ".

"تلجأ المرأة التي تعاني من تسلط زوجها إلى نبش قبر الميت الذي دفن حديثا (ألا يتجاوز ثلاث أيام)،
لتخرج يده وتحضر بها الكسكس الذي ستقدمه في ما بعد لزوجها ليأكله، من أجل التحكم فيه."

يعتقد وعراب أن أصل هذه الوصفة لم يكن مقتصرًا على النساء اللواتي يردن إخضاع أزواجهن
كما هو معروف اليوم، بل كانت تمارس في دوائر الحكم عندما كانت القبائل تتمرد على السلطة الحاكمة
"المخزن"، لتلتحق "ببلاد السبية" المتمردة على السلطة المركزية. فما كان القايد أو الحاكم كلما واجه خطر
قبيلة عليه، يلجأ إلى خدمات ساحرة لتعد له طبق "كسكس" مفتول بيد ميت، ثم يدعوا حوله زعماء القبيلة
ليتناولوا منه. وجاء في تفاصيل هذه الوصفة كما ذكرها وعراب: "خلال النصف الأول من الشهر القمري
تجلب الساحرة قليلا من الماء من سبع منابع مختلفة، وتشتري قطعة جديدة من السوق تغسلها، وتوقد فيها
الجاوي والقزبر، وتذهب لتستحم في الحمام البلدي. وعند خروجها من الحمام ترتدي ملابس نظيفة وتنتظر
حلول ساعة متأخرة من الليل، لتمضي وحيدة من دون أن تنطق بكلمة واحدة إلى المقبرة، فتحفر قبر ميت
تم دفنه في اليوم نفسه، وتخرجه من القبر وتفتح الكفن لتخرج الذراعين. تجلس الساحرة الميت أمامها
وتضع القصعة فوق ركبتيه، ثم تخلط فيها السميد والعسل والساكنة (وهي حبة صغيرة سوداء لامعة تشبه
حببات الحبق)، وثمرات نبات "عنب الثعلب" البري، وتمسك الساحرة بيدي الميت وتقتل بهما الكسكس.
وفي رعب الليل المخيم على المقبرة تردد سحبا دارجا معناه باللغة الفصيحة: مثلما يأتي النحل من كل
مكان عندما يشم رائحة العسل، أريد أن تأتي القبائل من بعيد كي ترضخ لزعيمها"، ثم تعيد الساحرة رتق
الكفن والميت إلى مرقده الأبدي، وتعود من حيث أتت، فتحمل الكسكس إلى "القايد" الذي يستدعي في
الغد القبائل المتمردة إلى ضيافته، فيعد لهم طبق "كسكس"، يضيف إليه قليلا من "كسكس الميت"².

¹ مقابلة شفوية رقم (11)، بتاريخ 25 غشت 2019، السيد البشير، إمام مسجد، 45 سنة، من قبائل الأخصاص.

² وعراب، المرجع السابق، ص. 216.

«ሂ ር.ላ ኔጆዐኒ ነዘ. ሂ ጃዕተ ተርሂዐዐኒ ዘር.ፍፍተ, ዐ ዐዐ ዐጸኔላላኒተ ተኔዐርተ ዐ.ላ, ዐሀ. ሂ ዘርላኒተ ጃዘ. ዘፎተዘ. ተ ዐዐኔዐኔላተ (ኔሂ ኔጸ. ተ.ርሂዐተ). ሂ ጃዐዐ ዘሂ ለ ሂኔዘ. ላ, ሂኔዘኔ ኔዐዐኔዐኔላኒኒ ዘር.ሀተ. ሂ ተጸርር. ለሂ ዐዐዐኔፌ.ዐ.ተ, ዐላ ኔተ.ርዐ ዐጸዐ፡ ዐላ ዐ ጃጃዐ ዘር.ፍፍተ. ዐ ተ ኔዘርር. ጃጃዐ ሂ ሀዘ. ተ ኔዐ. ዐ ሀተኔጸ ጸዐ 200 ለዐዐር ዐ 500 ለዐዐር ኔ ዘጸ.ዐ»¹.

من الوصفات السحرية كذلك التي تستعمل فيها أعضاء جسم الميت ما يسمى بالتوكال. قال وعراب في تعريفه لهذه الوصفة: "التوكال كلمة غامضة تعني بالتعبير الدارج، كل ما يتم دسه للإنسان في الطعام أو الشراب من مواد سامة بغية إلحاق الأذى به. ومن مظاهر التسمم الناتج عن التوكال حسب، الاعتقاد السائد، انتفاخ الجسم، التقيؤ، ظهور بعض الأمراض الجلدية، وسقوط الشعر"².

تنقسم المواد المستعملة في وصفات التسميم الشعبية (التوكال) إلى ثلاث أنواع وهي: سموم من أصل حيواني، سموم من أصل نباتي، وسموم من أصل معدني، ويضيف وعراب إلى هذا التقسيم نوعا رابعا، وهي تلك المتكونة من أجزاء جسم الإنسان، كالأظافر ودم حيض المرأة، هذا إلى جانب تفضيل كل ما يلمس جسد الميت وكل ما يوجد في المقبرة. لذلك نجد من بين المواد المستعملة في هذا النوع من التوكال: التراب المجلوب من سبع مقابر مختلفة، أضلع الموتى وعظامهم وأظافرهم وماء غسل الميت وما إلى ذلك³.

³ وعراب، المرجع نفسه، ص. 219.

تقول السيدة فاطمة حول هذه الوصفة:

«++%Xo X. CIIoL: oCЖLoo% oO X++oO. HXVXO XOCOL I HII, A
R%HX% C. OoA XEQQ% OoAC, Y KO. I HXSAE, +OEOA +CYoO+
HXSAE oA Y LooA, +X+ XKC. X LOXoЖ II O Y HCXHo %HXo
oOXKX, %HXo +o%, + %oA XCC OoAC XEQQ%+ IZ+. oAL LEOO OZ
X. OoC, oO + +oXo KO. I +CYoO+ XKO. I oA OoA oA XC+. oAL
LEOO XQoE oO oO ++XZ +LXoH HII, X+ +XOC+ Ho Y XCC. HII,
ЖoA oYOOX I LooA oO XAO+ +O+ XZO, %o +XOC+ Ho XIo oO
+AO+ +CC +O»¹.

"تُوكَالُ إِيكَأ أَنَاوُنْ: أَمَزَوَارُ أَرْ إِتَارَا لُفْقِيَهْ إِسْمَاوُنْ لُجْنْ، ذُ كُولُو مَا رَاذُ إِضْرُو بِنَاذِمْ ، غُ كُرَا لُكِيْعُضْ،
تُسِيرِدَتْ تُمْعَارَتْ لُكِيْعُضْ أَنْ غُ وَامَانْ، تَكْتُ إِلْمَا إِيْوَزْكَازُ نُسْ غُ لِمَاكَلَا وَلَا أَسْكَيْفْ، وَلَا أَتَايْ، أَتْ أُوْكَانْ
إِشْ بِنَاذِمْ إِضْرُوَتْ نِيَتْ. أَنَاوُ وَيِسْ سِيْنْ إِيكَأ سُمُ أَرْتْ تَاكَأ كُرَا نْتُمْعَارَتْ إِيْكَرَا نِيَانْ بَاشْ أَدْ إِمْتْ. أَنَاوُ وَيِسْ
كُرَاضْ أَرْ أَسْ تِيْنِيْنْ تُوْكَالْ نْ لُجْنْ، إِيْكَاتْ تِيْرْمَتْ نَا غُ إِشَا لُجْنْ، زُوْنْدُ أَغْرَافْ نُوْامَانْ أُوْرُ إِخْبُوْ تَشُوْثْ
كِيْسْ، أُوْلَا تِيْرْمَتْ نَا إِنْسَانْ أُوْرُ تَخْبُوْ تَشُسْ".

"ينقسم التوكال إلى ثلاث أنواع: النوع الأول يأخذ الفقيه المختص في السحر ورقة، ويكتب عليها أسماء الجن مع بعض الطلاسم الأخرى، بعدها يقدم هذه الورقة للمرأة التي تريد أن تسحر زوجها لتضعها في إناء به ماء، وتصنع بهذا الأخير أكلة خفيفة كالحساء، أو مشروب الشاي. ما أن يشرب الرجل ذلك المشروب حتى يمرض. النوع الثاني: هو سم تضعه النساء لأزواجهن، أو أحد الذكور بغرض قتله. النوع الثالث: يطلق عليه اسم توكال الجن، وهو الأكل الذي أكل منه الجن، كالطعام أو الماء الذي بقي ليلة كاملة بدون غطاء".

وحول السحر باستعمال الشعر المقصوص وقلامات الأظافر يقول فرايزر: "إن فكرة تطبيق السحر على قصاصات الشعر وقلامات الأظافر أو أي شيء منفصل عن الجسم، تعتمد الخرافة على الفكرة العامة وهي العلاقة المفترضة بين الشخص وكل شيء كان يوما جزءا من جسمه، أو كان متعلقا به بشكل كبير".² وطريقة تحضير هذه الوصفة حسب فرايزر كالاتي: يأخذ الساحر بعض الشعرات والقليل من البصاق أو أي مطرحات من جسم الشخص الذي يريد إيذاءه، ثم يغلفها في ورقة شجر ويضعها في

¹ مقابلة شفوية رقم (13)، بتاريخ 19 غشت 2019، السيدة فاطمة، 53 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.
² فرايزر، المرجع السابق، ص. 311.

156

كثيرا ما نسمع كذلك من بين الطقوس السحرية التي تمارس داخل المقابر ما يسمى بـ "اسقاط القمر" أو عجين القمر، ويعتبر هذا النوع من السحر (عجين القمر) جزءا من ترسانة السحر المستعمل في تفريق الأزواج. يقول وعراب نقلا عن الطبيب موشون: "إن عجين القمر يستعمل في أغراض الخير والشر التي يحققها السحر في المغرب"¹، ويتم تحضير هذه العجينة حسب وعراب كما يلي: "يترك الفقيه قصعة من الخشب في مقبرة لمدة سبعة أيام بلياليها، ثم يجلب الماء من سبعة آبار، وفي ليلة اكتمال البدر يذهب إلى مقبرة، وهناك يدعو كل الأرواح أن تنزل القمر في القصعة التي وضع فيها المسك والعنبر والدقيق، ثم يقوم بعجن كل ذلك ليحصل على عجينة تصلح لأغراض شتى"².

هناك عدة طرق لتحضير هذه الوصفة رغم أنها متشابهة، فقط نسجل بعض الاختلافات في تفاصيل تحضيرها، كاستعمال تراب إحدى المقابر المهجورة التي لم تعد تستقبل موتى جدد، ويقدم موشون الوصفة كما يلي:³ تشتري الساحرة قطعة جديدة في النهار، تغسلها وتزور بها كل مساكن الشياطين: «المجازر والمراحيض والمقابر وأضرحة الأولياء، وأيضا البيعات (الكنائس اليهودية)، وتأخذ الماء من سبع عيون أو سبعة آبار مغطاة، وتدعو في كل مرة الشياطين أن تساعدوا في إنزال القمر. تقوم الساحرة بكل هذه الاستعدادات عشية اكتمال البدر؛ أي عشية اليوم الخامس عشر من الشهر العربي، وتمضي الساحرة إلى المقبرة بعد أن تكون قد استحمت وتجملت بشكل غريب؛ حيث وضعت الكحل في العين اليمنى والأحمر فوق الخد الأيمن وتمرر السواك على النصف الأيمن من فمها فقط».

في المقبرة ترخي الساحرة شعرها على وجهها، كما تفعل النائحات، وتتعرى بشكل كامل، ثم تشرع في الجري فوق القبور وفي كل الاتجاهات، بعد أن توقد على الأرض بعض الأبخرة المستطابة للجن. وهنا تبدأ كائنات الخفاء في التجمع من حولها بكثافة. وإذا كانت الساحرة فاقدة لعذريتها، فإن في وسعها أيضا أن تتحدث إلى أولئك الجن الذين يقترّبون منها ليسألوها حاجتها، وبعد أن تحصل الساحرة على ما شاءت منهم، تضع صحنًا كبيرًا به ماء فوق قبر حديث الدفن، وتتوجه صوب القمر مرددة:

يا كمره، يا طالعة من مرارة

يا لابسة الدنيا كيف الغرارة

اعطيني ثلاثة يهود وثلاثة نصارى

¹ وعراب، المرجع السابق، ص. 226.

² المرجع نفسه.

³ وعراب، المرجع نفسه، ص. 227-228.

يجيبوا لي فلان ولد فلانة

وخا يكون في بغداد...

في نهاية الطقس السحري العجيب يكون القمر قد «سقط» في صحن الماء، وانتهى إلى «الإنطفاء» فيه، فتقوم الساحرة بتسخين الماء حتى يتحول إلى رغوة كثيفة شبيهة برغوة الصابون، تقوم بجمعها والاحتفاظ بها في قنينة لاستعمالاتها اللاحقة...

تعتبر السيدة فاطمة هذا النوع من السحر من بين أخطر أنواع السحر الأسود؛ إذ تقول حول

تفاصيل إسقاط القمر ما يلي:

«O A 0%ЖЖ%OI+ +C4.OXI KOKO +XЖX HX4Y XЖ%, A X4 0A.O. XCX%+ KO. I K; O.A X+H%K KO. I +H%KX X 0.0 0.OO 0.COI+ 0XO% HX4 YO.A 0XO I+ 00XAO. O ++XX. I+ HXII. X K.O %X%O K.O %O%, K.O %E.O K.O %O%, ЖЖ I+ K+ EEE K+ %O%, X X I+ HCO4.OX X K+ +OX. I XCX K+ %O%. AA% I+ 0 HCA X I+ KX HX HX4.KX IIOI+, 0X I+ X4.HXCI HX4 0 +A.O.QI CXAAI 0CEX (0VZX), O+ I +O%A% O ++ЖЖ.H I+ Y HCA X I+. XV.OI A O.A X X I+ KXЖE %H%O CEXO+ H.O.A O.A +A X X X I+ KQ.OE+ 0%OX. O.A, KQ.OE+ 0%OX. II. O O I+ XO.KI 4.KK%O O A X++OX, H%V+ II +I +X A XHX O A X X O EE.OI +H%KX, Y.O%K OI KQ.OE+ X X O I+ O.A XV.OЖ I+ HXO I Y4.HX4 0A.O. XEECE.HI, 00XIA XH.OOI II, 0.COI+ 0O 0XO%. O.A 0X XAA X I+ %E% II O.I+ 0C% I+ KX% X 0 HXOQ XO% I+, O XHC. A.Y ++ЖЖ.HI+, O.A KOOX 4.KK%O 0 %A.Y.O II, 4X I+ 0XO% O HX X I+ X 4.O O.I ++ O.A 0 0XOI+ 00A%O»¹.

"أَرْدُ سُوْرُوْرُنْتُ تُمْغَارِيْنَ أَيْوُرْ تِيْزِيْ لِيْغْ إِرُوْنْ، ذِ إِيْغْ بَحْرَا إِمُوْتْ كُرَا نْ يَانَ، أَرْدُ إِيْتْلُوْجْ غُ أَكُوْدْ أَنْ كُرَا نْ تُلُوْقِيْ بَاشْ أْ سُرْسْ أَمْسُنْتُ سَكْسُوْ لِيْ غَرَادْ سَكْرُنْتُ سَحْر. أَرْ تَكَاَنْتْ لُحْنَا إِيَانْ أَفُوْسْ يَانَ أَهُوْ، يَانَ أَوْصَارْ يَانَ أَهُوْ، زُوْلُنْتُ يَاتْ طِيْتُ يَاتْ أَهُوْ، كِيْنْتُ لُمْسَوَالْكِ إِيَاتْ تُسْكَا نْ إِمِيْ يَاتْ أَهُوْ. دُوْنْتُ سَلْمُدِيْنْتُ حِيْدُنْتُ كُوْلُوْ لُحَوَائِيْجْ تُسْنْتُ، أَسِيْنْتُ إِيْغَانِيْمَنْ لِيْ سْ أُنْعَبَارَنْ مِيْدَنْ أَصْمُضْلْ (أَسْقُوْلْ)، أَرْ تَنْ تُسْدُوْنْتُ أَرْ تَاَزْلَانْتُ غَلْمُدِيْنْتُ. إِقَانْدْ أَدْ كِيْنْتُ كُوْرُطْ أَوَّلَا صُضِيْسُطْ أَقَادْ أَدْ تَنْعِيْكِيبُنْتُ كُرَاطْ سُوْسْكِيَادْ، ذِ كُرَاطْ سُوْسْكِيَانْ. أَرْدُ أَسْنْتُ إِبَائِنْ وَأِيُوْرْ أَرْدُ إِيْآَكِيْ، لُوْقُنْتَا تَنْتِيْذْ إِيْكَمْ أَرْدُ كِيْسْ طَارْ تُلُوْقِيْ، غُ أَكُوْدْ أَنْ كُرَاضْتُ كِيْسُنْتُ أَرْدُ قَاَزَنْتْ لُغْبَرْ نْ غَوَالِيْ بَحْرَا إِيْطُوْمَصَالَنْ، بِيْنْدْ أَفُوْسْ نُسْ، أَمْسُنْتُ سُرْسْ سَكْسُوْ؛ أَرْدُ سَكِيْدِيْنْتُ

¹ مقابلة شفوية رقم (15)، بتاريخ 20 غشت 2020، السيدة فاطمة، 53 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.

أُنْشِكْ نَا زَانَتْ سُمُونْتُ كُولْشِي سَلْقَبُرْ حُبُونْتُ، أَرِ إلْمَا دَاغَ تَاَزْلَنْتْ، أَرْدُ يُوْرِي وَايُوْر سَ أُوْدَغَارُ نُسْ، أُوِيْنْتُ
سُكْسُو أَنْ فُكِينْتُ إِيَوَاتَا زَانْتُ أَدْ أَسْ سَكْرَنْتْ سَحُورْ."

"تلجأ النساء إلى طقوس إنزال القمر في اليوم الذي يكون فيه القمر مكتملاً؛ أي ليلة الخامس عشر من الشهر القمري، مع ضرورة أن تستقبل المقبرة ميتاً جديداً لم يمر على دفنه ثلاث أيام، حينها يسقط من القمر رغوة تأخذها النسوة ليصنعن بها الكسكس المسحور. يضعن الحناء في يدهن ورجلهن اليمنى فقط، ويكحلن إحدى عينهن فقط، ويضعن المسواك في جزء من الفم، بعدها يذهبن إلى المقبرة وينزعن جميع ملابسهن، يمتطين القصب الذي يستعمل في قياس طول القبر (أَشْقُولْ)، ثم يأخذن في الجري في جميع أنحاء المقبرة بعد أن ينقسمن إلى مجموعتين؛ بحيث يجب أن يكون عددهن من أربعة إلى ستة نسوة، مجموعة تجري جهة اليمين والمجموعة الثانية تجري جهة الشمال إلى حين رؤيتهن للقمر ينزل. ما أن يقترب من الأرض حتى تسقط منه رغوة لتسرع نساء المجموعة الأولى في تجميع تلك الرغوة، ويحفرن قبر الشخص الذي دفن حديثاً ويقطعن يديه لاستعمالها في فتل الكسكس. عند انتهائهن من فتل الكمية المرادة يرجعن كل الأدوات المستعملة إلى القبر، ويردن عليه التراب كما كان سابقاً، ثم يلتحقن بالمجموعة الأخرى التي لازالت مستمرة في الجري بدون توقف. وهنا تركض جميع النسوة من جديد في جميع أنحاء المقبرة وهن عاريات، حتى يرجع القمر إلى مكانه الأصلي، بعدها يأخذن ما صنعن من كسكس ليقدمنه لمن أردن سحره".

يقول وعراب حول تفاصيل تحضير هذه الوصفة:

في الليلة الموعودة بين منتصف الليل والساعة الواحدة صباحاً تكحل الساحرة عينها اليمنى فقط بالكحل، وتضع العكر (القرمز) على خدها الأيمن والسواك في الجزء الأيمن من فمها، ودملجاً في يدها اليمنى وحلقة في رجلها اليمنى، وتقتل من شعرها خصلة صغيرة في الجهة اليمنى من رأسها، بعد كل ذلك تذهب وحيدة لتضع قصعتها على الأرض في مكان يتوسط المقبرة بالضبط، وتتعرى الساحرة وتحمل في يدها اليمنى راية صغيرة بلون أخضر، وتذرع المقبرة من أطرافها إلى أطرافها وفي كل الاتجاهات، منادية أرواح الظلمات أن تنزل لها القمر.

وبعد أن تفرغ الساحرة ماء المنابع السبعة في القصعة، ترى القمر آخذاً في الصعود نحو النقطة من السماء التي تقع فوق رأسها عمودياً، ثم يهبط بطيئاً نحو القصعة. وفي أثناء ذلك الحين تتطلق عاصفة فيفيض الماء (في القصعة)، ويتدفق منها فتسرع الساحرة إلى جمع تلك الرغوة (رغوة الماء) في إناء،

وأثناء ذلك تحرق الجاوي والقزير في موقد قريب من القصعة، وهي تخاطب العجين السحري قائلة: "بغيتك تخدمني في الخير والشر" (أريد أن تخدمني في الخير وفي الشر).

وعندما يمتلئ الإناء بالرغوة تخدم الساحرة نار البخور، وتصب ماء القصعة في الأرض فيصعد القمر المتحرر من قبضتها رويدا رويدا نحو السماء، وتعود محملة بالإناء لتضيف إلى الرغوة صمغ المصصكي والجاوي الأبيض وعناصر سحرية أخرى تخلطها جميعا لتحصل على «عجينة» تصلح لعمل الخير، كما تصلح لعمل الشر¹.

هكذا انتشرت في الثقافة الأمازيغية طقوس وممارسة السحر بالأموات لأغراض الانتقام من شخص معين، بإعاقة انتصابه، أو منعه من الولادة أو تطليقه من شريك حياته، هذا إلى جانب السحر الأبيض الذي يهدف إلى جلب الحبيب، أو تيسير الزواج... وكل هذه الطقوس تستعمل فيها بقايا الميت كالأظافر والشعر والأسنان والعظام، وتحتضن فضائه المقابر. فما السبيل من أجل حماية هؤلاء الأموات؟ وما هي عقوبات مرتكبي هذه الجرائم؟

¹ وعراب، المرجع السابق، ص. 228-229.

II. الفضاء الجنائزي بقبائل آيت باعمران

تتعدد تفسيرات وتأويلات مفهوم الفضاء لكونه نقطة التقاء بين عدة مجالات فلسفية، رياضية، اقتصادية، جغرافية، وأيضاً أنثروبولوجية، مما جعله من أكثر المفاهيم إشكالية لما يحمله من دلالات وإيحاءات. وتعتبر أفقيهي أن لكل فضاء مميزات تختلف من فضاء إلى آخر، وذلك باختلاف المجتمعات والأوساط، وأيضاً باختلاف الأشخاص والأمكنة. هذه المميزات تضفي عليه خصوصية ومعان تحيله إما أن يصبح عادياً أو يحمل طابع القدسية والاحترام¹. وفي السياق نفسه يشير دوركايم إلى أن السمة المميزة للدين هي تقسيم العالم إلى مجالين متناقضين: الأول يحتوي على كل ما هو مقدس، والثاني يحتوي على كل ما هو دنيوي. يقول: "إن الأشياء المقدسة هي تلك التي تحميها المحظورات، والتي ينبغي أن تبقى على مسافة من الأولى"².

من جهته يرى مرسيا إلياد أن أقدم صورة لعلاقة الإنسان بعالمه هي تلك العلاقة المشبعة بالتعلق "بالمقدس"، وإضفاء معانيه على المكان والزمان. يقول: "ولما كان الإنسان الديني لا يستطيع أن يحيا إلا في جو مشبع بالمقدس، فإننا نتوقع بالضرورة وجود عدد كبير من "التقنيات" التي تساعد على تقديس المكان"³.

وكان الموتى في القديم يدفنون في أراضي المساكن والمعابد، ففي بلاد الرافدين أقيمت المنشآت تحت الأرض من أجل الدفن؛ حيث توجد هذه المنشآت تحت أراضي المنازل أو القصور، كما هو الحال للضريح الملكي في "أور"، حيث اكتشفت قبور حكام السلالة الثالثة لأور. وفي مصر كانت المقابر عبارة عن حفر بسيطة لتظهر بعد ذلك المقابر ذات الأبنية السفلية المتعددة الغرف، أما في شمال إفريقيا فكان الدفن في بدايته يتم في الكهوف الطبيعية، ثم انتقلوا بعدها إلى حفر قبور مربعة في الصخور تسمى الحوانيت.

بناء على ذلك، كيف هي الفضاءات الجنائزية المتواجدة بقبائل آيت باعمران؟ كيف يتم تدبيرها؟ ما هي وظائفها؟ ومن هم المكلفون بها؟

¹ أفقيهي، المرجع السابق، ص. 18.

² دوركايم، إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية المنظومة الطوطمية في استراليا، ترجمة رنده بعت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2019، ص. 65.

³ إلياد، مرسيا، المقدس والعادي، ترجمة: عادل العوا، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص. 65 - 66.

1. المقبرة

1.1. تعريف المقبرة

جاء في المعجم الوسيط، (قَبْر) الميت - قَبْرًا: دَفَنَهُ. (أَقْبَر) فلانًا: جعل له قبرًا. وفي التنزيل العزيز: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾. و- القوم: أعطاهم قتيلاً ليَقْبُرُوهُ. ويقال: أَقْبَرَهُمْ قَتِيلَهُمْ. (القَبْر): المكان الذي يدفن فيه الميت. (ج) قُبُورٌ، وأَقْبَر. (المَقْبَرَةُ): مجتمع القُبور. و- القبر. (محدثه). (ج) مَقَابِرٌ¹.

وأورد ابن منظور تعريفا موجزا للقبر يقول فيه: القَبْرُ مَدْفُنُ الْإِنْسَانِ، وجمعه قُبُورٌ، والمَقْبَرُ المَصْدَرُ. والمَقْبَرَةُ، بفتح الباء وضمة هاء: موضعُ القبور. قال سيبويه: المَقْبَرَةُ ليس على الفعل ولكنه اسمٌ.² وَقَبْرُهُ يَقْبُرُهُ: دَفَنَهُ. وَأَقْبَرُهُ: جَعَلَ لَهُ قَبْرًا. وَأَقْبَرَ إِذَا أَمَرَ إِنْسَانًا بِحَفْرِ قَبْرِ. قال أبو عبيدة: قالت بنو تميم للحجاج وكان قتل صالح بن عبد الرحمن: أَقْبَرْنَا صَالِحًا، أَيِ ائْتَنَّا لَنَا فِي أَنْ نَقْبُرَهُ، فقال لهم: دُونَكُمْوهُ. الْفَرَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ" أَيِ جَعَلَهُ مَقْبُورًا مِمَّنْ يُقْبَرُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّنْ يُلْقَى لِلطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ وَلَا مِمَّنْ يُلْقَى فِي النَّوَالِيسِ، كَانَ الْقَبْرُ مِمَّا أَكْرَمَ بِهِ الْمُسْلِمُ، وَفِي الصَّحَاحِ: مِمَّا أَكْرَمَ بِهِ بَنُو آدَمَ، وَلَمْ يَقُلْ قَبْرَهُ لِأَنَّ الْقَابَرَ هُوَ الدَّفْنُ بِيَدِهِ، وَالْمَقْبَرُ هُوَ اللَّهُ لِأَنَّهُ صَيَّرَهُ ذَا قَبْرِ، وَلَيْسَ فِعْلُهُ كَفِعْلِ الْآدَمِيِّ³.

يعرف محمد مومن نقلا عن عبد الوهاب قدوري، وأحمد العبيري القبر على أنه حفرة تأخذ الشكل المستطيل بمساحة جسم الإنسان المتوفى، وبعمق معين توضع فيه جثة الإنسان ويغطى بالتراب بعد ذلك، ولا يسمى قبرا حتى يدفن فيه، وقد يطلق على الحفرة قبرا إن أعدت لذلك، ولكن لا يخضع لأحكامه الشرعية حتى يدخله الميت. إلا أنه ليس المراد بالقبر الحفرة التي يدفن فيها الميت فقط، بل المراد أي مكان يحل فيه بعد الموت سواء الأرض أم الهواء أم البحار، أم بطون الحيوانات، أم غيرها.⁴ والقبر هو مآل الإنسان بعد الموت يوارى فيه إكراما له، وقد تواضع الناس على تحصيل مكان الدفن يسمى المقبرة⁵.

2.1. إحداث المقابر

لا تختلف المقابر في المجتمعات الأمازيغية المسلمة كثيرا عن المساجد، فكما أن للمسلم الحق في إيجاد مسجد للصلاة، فهو يملك أيضا الحق في أن يجد أرضا يدفن فيها بعد موته. وحسب محمد حقي:

¹ المعجم الوسيط، المرجع السابق، ص. 710.

² ابن منظور، المرجع السابق، م 5، ص. 28.

³ ابن منظور، المرجع نفسه، ص. 29.

⁴ مومن، محمد، أحكام المقابر الإسلامية في القانون المغربي، الطبعة الأولى دار الأفاق المغربية، الدار البيضاء، 2017، ص. 14.

⁵ مومن، المرجع نفسه، ص. 10.

يتدخل المسلمون لتوفير المقابر حين يعملون على تحبيس الأراضي لهذه الغاية، فعمرون والد جد القاضي عياض (ت 397هـ / 1006م) اشترى أرض المنارة بسبته، وبنى بها مسجدا ودارا، وحبس باقي الأرض للدفن.¹ كما أشار الوزان إلى أن مقابر ظاهرة فاس من وقف المحسنين لأجل الدفن. ويأتي المصدر الآخر لأراضي المقابر من هجوم عامة الناس على أراض محبسة لغاية أخرى، أو غير مستغلة وتحويلها إلى مقابر دون إذن ممن له أمرها، ويتبين ذلك في فتوى حول فدان حبس على طلبة مدرسة للحرث، ثم قام الناس بدفن موتاهم فيه، وغطت القبور أكثره.²

اعتبرت المادة 83 من القانون التنظيمي رقم 113.14 المتعلق بالجماعات المقابر من المرافق والتجهيزات العمومية اللازمة لتقديم خدمات القرب من طرف الجماعات، وأوكلت مهمة إحداثها وصيانتها لهذه الجماعات، كما أسندت لها مهمة نقل الأموات والدفن، وهو ما يعني أن المجالس الجماعية هي المسؤولة عن إحداث المقابر وتوفير الوعاء العقاري الضروري لذلك. من جهة أخرى يرى مومن أنه ليس هناك ما يمنع من إمكانية إحداث المقابر من طرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، واعتمد في رأيه هذا على عدة مبررات أهمها: أن هذه المقابر تعد من الأملاك الوقفية، ولا تعد من قبيل الأملاك الجماعية، كذلك أن بعض المصادر التاريخية ترجع مسؤولية إحداث المقابر الإسلامية إلى الجهة المكلفة بالأوقاف الإسلامية.³

وتقع المقابر الإسلامية في معظم الأحوال خارج الأسوار بالقرب من الطرق المؤدية إلى الأبواب الرئيسية للمدينة.⁴ ورغم ذلك فإن بعض المقابر كانت تقع بادئ الأمر خارج أسوار المدينة، فلما اتسعت المدينة أصبحت هذه المقابر داخلها. ويشير حقي إلى أن القاعدة في إحداث المقابر هي وضعها على هوامش الخطط السكنية؛ أي بعيدا عن الأحياء في الأماكن الخالية حتى بدون وجود أسوار. وتعطي مدينة مراكش أحسن مثال على ذلك؛ إذ أنها بنيت بدون أسوار، ولم تستحدث بها إلا بعد ستين عاما من بنائها، ومع ذلك فمقابرها جاءت عند الأبواب وفي نهايات الشوارع الرئيسية⁵، الشيء نفسه نجده في جل المقابر المتواجدة ضمن نفوذ قبائل آيت باعمران، حيث عمل البعمرانيون على إحداث مقابرهم على الهضاب المقابلة للدواوير، ويرجع سبب هذا الاختيار إلى طبيعة الموقع، إذ يجب أن يكون على شكل هضبة

¹ حقي، محمد، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، بني ملال، مطبعة مانبال، 2007، ص. 124.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 124.

³ مومن، المرجع السابق، ص. 31. 32.

⁴ عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، 1984، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ص. 129.

⁵ حقي، المرجع نفسه، ص. 129.

مرتفعة محمية من الأودية والسيول. أما السبب الثاني فهو أن يكون الموقع على مرمى بصر سكان الدوار من أجل حراستها، وتجنب التتكيل بالجثث والعبث بها، خاصة وأنه لا يوجد من يتولى مهمة حراسة هذه المقابر. يقول آيت الفقيه في هذا السياق: "في عالم الدفن يستحضر أفراد القبائل اتجاه مياه السيول القادمة من المقابر، فهناك من رأى أنها تضر الحرث والنسل، فأفتى بتصريفها بعيدا عن الشريط الزراعي، وعن مورد مياه الشرب، وهناك من يخالها مصدر الخصوبة فيحرص على توجيهها نحو المزارع"¹.



الصورة رقم (09): مقبرة إد عدي قبيلة آيت الخمس (آيت باعمران)، التقطت الصورة سنة

2019

- ويرى مومن ضرورة مراعاة مجموعة من الشروط أثناء إحداث المقابر، وأولى هذه الشروط:²
- ✓ أن تقام المقبرة على حواف المدن والقرى داخل مسافة محددة تتميز في الغالب بالقصر أو التوسط لتسهيل نقل الجثمان، وإمكانية مرافقة الجموع له، وتسهيل الزيارات لاحقا.
 - ✓ أن يكون الموقع على الأرض الأقل خصوبة والأقل إنتاجية لكي لا يحرم الأحياء من زراعتها.
 - ✓ أن تكون هذه الأرض مرتفعة حسب الإمكان، ومحمية من السيول والفيضانات، حتى لا تجرف القبور الموجودة فيها.

¹ آيت الفقيه، لحسن، الرموز الدفينة بين القبرية والمزارات الطبيعية، الطبعة الأولى، الرشيدية، مطبعة الجنوب، 2013، ص. 33.

² مومن، المرجع السابق، ص. 45. 46.

✓ أن يكون الموقع مفتوحا يحتمل التوسع، حتى يستجيب لحاجات الدفن على مدى سنين متعددة.

✓ أن تكون هذه الأرض بعيدة عن الأنهار ومجاري المياه العمومية، ومصادر المياه الباطنية.

✓ تحديد إحداثات المقابر ضمن تصميم التهيئة طبقا لما ينص عليه البند 6 من المادة 19 من القانون رقم 012.90 المتعلق بالتعمير.

كما يرى آيت الفقيه أنه من الطبيعي أن يحاذ حفارو القبور البنية الصخرية الرخوة لأنها لا تقاوم أداة الحفر، بيد أن الاعتقاد السائد لدى معظم سكان الأطلس الكبير الشرقي الأمازيغي يفرض في الغالب تحصين القبر، وبالتالي لا ينفع تدشين الدفن في رحاب تحتضن صخور السجيل (Marne) الهشة، أو بساط رملي تخترقه السيول، أو في مكان يغمره الوحل.¹ ويقول: "في قصر (دوار) زاوية سيدي بوكيل المتأثر سكانه كثيرا بالثقافة الأمازيغية اعتقادا يفرض اختيار الدرع الصلب للدفن رغم مشقة الحفر، في حين خُصص للغرباء عن القرية بساط سهل يسمح بتعجيل الدفن في كل أوقات النهار".²

عادة ما تحتوي المدينة الواحدة على عدة مقابر، ويرجع ذلك حسب حقي إلى تعدد الأبواب، أو كثرة السكان، ومدى مساعدة طبوغرافية المدينة على ذلك، هذا إلى جانب مسألة الملكية العقارية. فكلما كانت الأراضي في ملك أشخاص كلما صعب تحويلها إلى مقابر، عكس الأراضي الجماعية أو غير الصالحة للزراعة. وأحسن نموذج ذكره حقي هو مدينة الرباط وسلا، إذ إلترم سكان هذه المدن بالدفن في الأراضي الرديئة على ساحل البحر.³ وهذا ما نجده أيضا في مدينة سيدي إفني (المركز الحضري لقبائل آيت باعمران)، إذ تحتوي هذه المدينة على ثلاث مقابر: الأولى خاصة بالأجانب، وهي جد مهملة (أنظر ملحق الصور)، المقبرة الثانية (سيدي إفني) مبنية على ساحل البحر، وهي مقبرة نظيفة تحتوي على جميع التجهيزات الضرورية كالماء والكهرباء، رغم توقف الدفن بها لكونها ممتلئة. المقبرة الثالثة (مقبرة الشهيد يونس الدنوني)، وهي مقبرة حديثة ونظيفة تحتوي كذلك على كل التجهيزات الضرورية، كالماء والكهرباء، كما أن فضاءها مقسم إلى ثلاثة أجنحة: واحد خاص لدفن الرجال، والثاني لدفن النساء، والجناح الأخير خاص لدفن الأطفال الصغار.

بالإضافة إلى تموقع المقابر خارج أسوار المدن ذكر حقي دفن مجموعة من الشخصيات بمقابر

¹ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 28.

² آيت الفقيه، المرجع نفسه، ص. 30.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 125.

ملتصقة بالمساجد، ومن هؤلاء: عبد المالك بن محمد بن مروان الأيادي (ق 5هـ / 11م)، وأبو الحسن بن القطان عام (628هـ / 1231م)، ومحمد بن إبراهيم العساني التلمساني عام (663هـ / 1265م)¹. من خلال أماكن دفن هؤلاء تتضح حقيقة أخرى عن أماكن تواجد المقابر خاصة في العصر الوسيط، ذلك أنها في المراكز الحضرية الصغيرة، وفي القرى تستقر بجوار المساجد الرئيسية.

3.1. تنظيم المقابر

1.3.1. اختيار القبر

حاول سكان المغرب والأندلس دائماً جمع أفراد الأسرة الواحدة في مدفن واحد، بل دفعت مسألة الجمع بين شملهم إلى نشاط ظاهرة نقل الموتى من مكان الوفاة إلى مكان الدفن، ولو كان بعيداً خاصة في أوساط الحكام والوجهاء. ومع القرن 5هـ / 11م ظهرت حركة جديدة بوضوح وهي اختيار الناس لقبورهم قبل الموت، ومن معايير هذا الاختيار هو قدسية المكان لكونه محلاً للعبادة، أو لاستقرار جثة ولي به، ولذلك نجد أن تهافت الناس على هذه الأماكن نابع من البركة التي يرجى الحصول عليها، ومساعدة الولي للميت في تجاوز الحساب وتحقيق الخلاص والنجاة². من جهة أخرى سجل آيت الفقيه أن لحسن الجوار حضور كبير في ثقافة الدفن واختيار القبر، وطالما غلف ذلك بالغلاف العرقي، كما هو في إحدى القرى الزراعية بحوض كغير التي سجل فيها احتجاج أحد الأشخاص على حفر قبر ميت من الأقليات العرقية قرب قبر جده، مما دفع بهذه الأقلية إلى اختيار موضع جديد للدفن³. يتضح إذن أنه في البداية كان اختيار القبر يتم على أساس العلاقات الدموية والأسرية، ثم بعد ذلك انتقل الاختيار إلى بحث الناس عن قبور بناء على أسس أخرى مثل: بركة وقدسية المكان من خلال تواجد القبر بمقربة من قبر ولي أو شيخ من شيوخ المتصوفة.

2.3.1. بناء القبر

اعتنى سكان قبائل آيت باعمران خاصة المتواجدون في المجال الحضري بإعداد قبور موتاهم، لذلك تخصص أناس في حفرها وإعدادها مقابل أجور غير محددة يتلقونها من ولي الميت. ورغم هذا الاعتناء فقد تميزت قبورهم بالبساطة وعدم المغالاة في البناء والتجهيز، إذ يرى بعض الفقهاء أن تجميل

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 126.

² حقي، المرجع السابق، ص. 111 - 113.

³ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 57 - 58.

المقابر بفرش الأشجار، وتبليط ممراتها وإنارتها بالكهرباء وغير ذلك من أنواع التجميل لا يتفق مع الحكمة الشرعية، كون ذلك يقوي جانب الاغترار بالحياة ونسيان الآخرة. يشير جمال بامي إلى أن تزيين القبور يدخل ضمن مشابهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى في تشجير مقابرهم وتزيينها، فيترتب عليه عمليا ربط حياتنا وسلوكنا ومعاشنا بمخالفة أهل الكتاب في الأمور والعقائد الثابتة في الأصل، وهو ما يندرج تحت نهى النبي (ص) التشبه بهم¹. وفي العصر الوسيط رفض يعقوب المنصور الموحي بناء وزخرفة قبرين لقرييين له، معتبرا ذلك تصرف الجبابة، كما تدخل الموحدون في الفن الجنائزي وأوقفوا جانب الزخرفة والمباهاة، وركزوا على الجانب الروحي، مما زاد من توقد المشاعر الدينية مستفيدين من دعم الحركة الصوفية²، ويظهر لنا الاختلاف في المكانة الاجتماعية في مستوى الزخرفة وتجهيز القبر، فإذا كان الفقراء يكتفون بوضع التراب على شكل سنام وشاهد عند رأس ورجلي الميت مكون من حجارة طويلة، فإن الأغنياء يتقنون في بناء قبورهم.



الصورة رقم (10): مقبرة الشهيد يونس الدنوني (مدينة سيدي إفني)، التقطت الصورة سنة 2020

¹ بامي، جمال، دراسة حول حالة مقابر المسلمين بالمغرب، ومقترحات علمية من أجل إصلاحها، الرباط، المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012، ص. 21.

² حقي، المرجع السابق، ص. 116.

- يميز حقي في الفترة الوسيطة بين ثلاثة أشكال رئيسية من القبور، وهي على الشكل التالي:¹
- ✓ القبور المسنمة: تتكون من حافتين مائلتين في الأعلى لتشكل عرfa يمتد على طول القبر، وهذا النوع واسع الانتشار وأكثر تداولاً في قبور العصر الوسيط.
 - ✓ القبور التي تشبه أحواضا: اكتشفت في مدينة "فاسكوس"، حيث يكون القبر مستطيلاً وتوضع على زواياه الأربعة أربعة شواهد.
 - ✓ القبور المسواة بالأرض: يوجد هذا النوع في قبة أبي الحسن المريني بشالة، وهي مزخرفة بالزليج الملون، حيث يفضل الصالحون هذا النوع.

3.3.1. شاهد القبر

يعرف حقي شاهد القبر على أنه عبارة عن لوح من الحجر أو الخزف، أو أي مادة تستعمل على القبور من أجل التعريف بصاحب القبر، وحفظ اسمه ومنع اختلاطه بغيره من القبور.² يسمى باللغة الأمازيغية المحلية ب ⵉⵎⵎⵓⵔ (تيمنازين)، وهو عبارة عن حجتين مسطحتين من "الحدود" توضع واحدة عند رأس الميت والأخرى عند قدميه إن كان ذكراً، أما إن كان الميت أنثى فتوضع ثلاث حجات واحدة عند رأسها، والأخريتين عند قدميها. في المقابل نجد أن شاهد القبر في المجال الحضري لقبائل آيت باعمران كمدينة سيدي إفني يكون على شكل لوحة من الرخام منقوش عليها اسم المتوفى، تاريخ وفاته وتاريخ ولادته، بالإضافة إلى دعاء مثل: "تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته"، أو عبارة "إنا لله وإنا إليه راجعون"، أو "كل نفس ذائقة الموت". يرى آيت الفقيه أن من علامات القبر شاهدان مثبتان بشكل رأسي في غايته [تيمنازا] بالأمازيغية، وهو في الغالب لوحتان حجريتان من الأردواز، إحداهما شاهد الرأس، والثانية شاهد الرجلين. فالأول يتناسب واتجاه القبر، والثاني يختلف اتجاهه حسب النوع؛ فإذا كان شاهد الرجلين مقابلاً لشاهد الرأس فالقبر مذكر، وإن كان معاكساً له فالقبر مؤنث.³ يضيف آيت الفقيه بقوله: "يقطع سكان قرية (في زاوية سيدي بوكيل) أكثر من 15 كلم لجلب أوراق صخر الأردواز التي توظف في السقوف ومعلمة القبور، فالأردواز بما هو صخر متحول يمكن اللحد من الصمود عدة قرون أمام عوامل الدهر، ويظهر أن لهذا التقليد أصولاً تعود إلى زمن (الدلمن) (Dolmen) و(المنهر) (Menhir)."⁴

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 116 - 117.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 118.

³ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 58.

⁴ آيت الفقيه، المرجع نفسه، ص. 30 - 31.

قام ليفي بروفنسال منذ ثلاثينيات القرن الماضي بدراسة الشواهد المتوفرة بالأندلس، وبناء على الشكل والزخرفة قسمها إلى أربعة أصناف هي:¹

✓ الشكل المربع أو المستطيل الذي يوضع عند رأس الميت، وهو الأكثر انتشارا وقديما؛ حيث توضع الكتابة وسط اللوحة ويحيط بها إطار يحدد مجال الكتابة على الجوانب الأربعة، أو فقط ثلاثة فيما يترك الأسفل مفتوحا.

✓ الشكل الأسطواني: يكاد يقتصر على طليطلة وضواحيها، ظهر في نهاية القرن 4هـ / 10م، ثم توسعت في القرن الموالي، وتصنع من الرخام أو الحجر الرملي؛ بحيث توضع الكتابة في شكل مستطيل في جزئها.

✓ شاهد المرية أو الشاهدة المرابطية: تمثل أشكال محاريب عقودها متجاوزة منكسرة، تحملها أعمدة على مناكب، ويدور بالعقود طرد مستطيلة الشكل تعلوها أفاريز، وتحف بهذه الأفاريز والطرر نقوش كتابية، وتغطي المحاريب المنقوشة كتابات جنائزية.

✓ مقابريات: عبارة عن ألواح من الرخام توضع على جانبي القبر، ظهرت في الأندلس الشرقية منذ القرن 6هـ / 12م وقبلها وجدت في افريقية والمغرب الأوسط وصقلية.



الصور رقم (11): نموذج لشاهد القبر، من مقبرة الشهيد يونس الدنوني (سيدي إفني)،

التقطت الصورة سنة 2020

¹ في حقي، المرجع السابق، ص. 119.

وتتمثل أهم عناصر الشاهد كما حددها بروفنسال فيما يلي:¹

✓ عبارة البداية العادية.

✓ آية قرآنية تعبر عن فناء الدنيا، وهي في الغالب الآية 5 من سورة فاطر.

✓ تعيين الميت بالبء بعبارة: "هذا قبر..."

✓ عبارة التبجيل (رحمه الله)

✓ الشهادة التي تستعمل للتعبير عنها الآية 35 من سورة التوبة.

✓ تاريخ الوفاة.

✓ ترحم على الميت.

يقنضي تنظيم المقبرة تصنيف القبور ليتناسب اتجاهها واستقبال القبلة. في قرية "تيزوفاغين" بحوض غريس سجل آيت الفقيه رأيين اثنين: أحدهما يؤكد على ضرورة استقبال القبر القبلة؛ أي وضع الجثة متكئة على الجانب الأيمن، وهو الرأي السائد في الوقت الراهن، وفي الماضي القريب. وثانيهما يجعل الميت في وضع يسمح له بإمكانية الوقوف للسير نحو مكة يوم البعث والحشر، لذلك تتكى الجثة على الظهر في قبر منحدر في اتجاه الشرق، وهو رأي نادر أحياء بعض الفقهاء المتصوفة.²

وقد أصدر المشرع المغربي عدة نصوص قانونية تتعلق بتنظيم المقابر، سواء من حيث الإشراف، أو التدبير أو الصيانة، كما قرر بعض التدابير للمحافظة على هذه المقابر. ويمكن استخلاص أهم الأحكام المتعلقة بتنظيم المقابر الإسلامية فيما يلي:³

✓ تقسيم أرض المقبرة إلى أجنحة: تقسم إلى أجنحة تفصلها سياجات، ولا يقع استغلال كل جناح من تلك الأجنحة إلا بعد نفاذ الدفن بالجناح الذي يسبقه، كما أجاز المشرع إحداث مدافن عائلية تحدد أمكنتها بمقتضى قرار لرئيس المجلس الجماعي، ويمنح امتياز استغلالها بترخيص مسبق منه، وسمح أيضا الفصل 23 من القرار الجماعي ببناء الأضرحة بهذه المدافن العائلية طبق موصفات البناء التي تحددها المصلحة التقنية بالجماعة، بالإضافة إلى إعداد ممرات بالمقبرة لتسهيل الولوج إلى داخلها، وكذا تحديد مسافة كافية تفصل القبور عن بعضها لتسهيل المرور لزوار المقابر، مما يضمن الاحترام اللازم للموتى.

¹ في حق، المرجع السابق، ص. 120 - 121.

² آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 56.

³ مومن، المرجع السابق، ص. 51. 54.

✓ تقسيم المقبرة حسب سن الميت: تنقسم المقبرة حسب الفصل الثالث من نموذج القرار الجماعي إلى ثلاثة مناطق: الأولى خاصة بدفن الكبار، الثانية لدفن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ستة وعشر سنوات، والثالثة خاصة بدفن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن سنة.

✓ تحديد الأشخاص الذين لهم الحق في الدفن في المقبرة: حدد الفصل الأول من الظهير الشريف رقم 986.68 بتاريخ 19 شعبان 1389 (31 أكتوبر 1969) المتعلق بنظام دفن الجثث وإخراجها من القبور ونقلها الأشخاص الذين لهم الحق في الدفن في المقبرة وهم:

- الأشخاص المتوفون والقاطنون في المنطقة التي توجد بها المقبرة.
- الأشخاص المالكون بهذه المقبرة مدفنا عائليا أينما كان محل سكناهم أو وفاتهم.
- والأشخاص الآخرون شرط أن يتسلموا إذنا خاصا من الجماعة المختصة التي توجد المقبرة في دائرة نفودها.

✓ تحديد مقاييس حفر القبور: حدد الفصل السادس من نموذج القرار الجماعي مقاييس حفر القبور حسب أعمار الأشخاص المتوفين كما يلي: القبور الخاصة بالكبار: العمق 1.50 متر، الطول متران، العرض: 0.70 متر. الأطفال بين سنة وعشر سنوات: العمق: 0.80 متر، الطول 1.60 متر، العرض: 0.50 متر. الأطفال الذين تقل أعمارهم عن سنة: العمق: 0.60 متر، الطول: 0.60 متر، العرض: 0.40 متر.

✓ تحديد المكلف بحفر القبور: لا يتم حفر القبور إلا من طرف الأعوان الذين تعينهم الجماعة الترابية لهذا الغرض، ويتعين عليهم أثناء الحفر مراعاة المسافة الكافية التي تفصل القبور عن بعضها لتسهيل المرور لزوار المقابر بما يضمن الاحترام اللازم للموتى.

✓ التعريف بالقبور والبناء عليه: أجاز الفصلان 9 و10 الكتابة على القبر بشروط حددت فيما يلي: ألا يكتب عليه إلا اسم ونسب الشخص المتوفى، تاريخ ازدياده وتاريخ وفاته، وبعض الآيات القرآنية وألا يكتب عليه بغير اللغة العربية، أما الفصل 11 فقد منع على ذوي الشخص المتوفى بناء القبر إلا بعد الحصول على ترخيص مسبق من رئيس المجلس الجماعي.

4.1. المحافظة على المقبرة وصيانتها

لعبت الأعراف المحلية في قبائل آيت باعمران دورا حاسما في الحد من أشكال تدهور البيئة عموما والأماكن المقدسة خصوصا، فالجفاف يزيد من هشاشة المجال والإفراط في الرعي يؤدي إلى تفاقم

عوامل التدهور، وعملت هذه الأعراف على تقنين الرعي في بعض الأماكن، وفي بعض الأوقات، بالإضافة إلى تنظيم عملية جمع الحطب "ه٨٨٨هـ" والمحافظة على المراعي الاحتياطية. يقول بامي في هذا الصدد: "سنت الأعراف قوانين جد صارمة بتعيين المواضع التي يجب أن يرتادها الرعاة فمنعت عليهم مثلاً المقابر والأنادر، لا سيما عندما يبدأ وضع المحاصيل الزراعية، وقد ثبت في أعراف قبائل آيت عطا أن البهائم إن سرحوا في المقابر أو "النوادر" نصافهم مُدّاً شعيراً لكل بهيمة، وهو لا محالة عرف أصيل يساهم في حفظ المقابر من عبث البهائم فما بالنّا بعبث الإنسان الذي إذا ضبط فإنه يواجه بالنّبذ والإقصاء"¹.

يؤكد حقي على أن المقابر في المغرب والأندلس كانت مهمة طيلة العصر الوسيط، ولم يسجل إلا حالات استثنائية قليلة في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإبرية ومراكش. يقول: "منذ القرن 3هـ / 9م كانت مقبرة عامر غرب مدينة قرطبة تستقبل مياه الصرف من حمام ودور مجاورة لها، وفي القرن 4هـ / 10م كانت مقبرة متعة شمال المدينة ممراً للأبقار والسالكين خاصة أهل الذمة، وكانت مقبرة إشبيلية مكاناً لإلقاء الأزبال وتجفيف جلود الدباغين والرقاقين"².

وردت في كتب الفتاوى والنوازل مجموعة من النصوص تبرز أن موضوع إهمال المقابر كان مصدر قلق لأهل الأندلس، وبعدهم أهل المغرب، وذلك منذ القرن 3هـ / 9م؛ ففي عهد الأمير عبد الله الأموي اشتكى الناس من تجمع مياه الصرف الصحي في المقابر، وطرحت القضية نفسها في بداية القرن الموالي، إضافة إلى مرور الدواب والمارة في هذه المقابر. وكانت الردود من أعمدة فتوى عبيد الله بن يحيى الليثي (ت298هـ / 910م)، ومحمد بن عمر بن لبابة (ت314هـ / 925م)، وأيوب بن سليمان (ت302هـ / 914م) متراوحة بين إقرار المسائل المشتكى منها أو تحريمها أو منعها³. يضيف حقي مشيراً إلى أن طرح هذا المشكل أو حتى حله لم يكن يهتم بالمقبرة وقدسيتها، بل أساساً بمشاكل السكان المجاورين لها، أنفة من مرور غير المسلمين على مقابر المسلمين⁴.

ورغم إهمال المقابر فإن المجتمع كان يحمل نوعاً من الاحترام المقرون بالخوف للمقابر، لذلك يمتنع الناس عن أخذ كل ما يوجد في المقبرة خاصة النباتات والأشجار، حتى إن بعض المقابر تحولت إلى محميات إيكولوجية لاحتوائها على غطاء نباتي منقرض. ذلك ما أشار إليه آيت الفقيه بقوله: "تعتبر

¹ بامي، المرجع السابق، ص. 52.

² حقي، المرجع السابق، ص. 129.

³ حقي، المرجع نفسه.

⁴ حقي، المرجع نفسه، ص. 130.

المقابر محميات إيكولوجية بقوة العرف والرمز والقيمة، فبقوة العرف يمنع المرور بين القبور واتخاذها مراعى ومحاطب، وبقوة الرمز أصبحت المقابر كالمساكن والدور والقصور، ولا شك أن احترام الأموات لا يقل تقديرا وقيمة عن احترام الأحياء، لذلك فالمقبرة وسط للتنوع البيولوجي بمحيطها البيئي.¹ من جهته يشير بامي إلى أن المقابر في واحة درعة حرم مصان بشكل طبيعي، وكل تعدٍ على حرمتها يعني النبذ من طرف الجماعة، وكل من ضبط عابثا بمقابر المسلمين بنش أو تدنيس أو شعوذة يطرد من القبيلة، وإذا ضبطت امرأة تمارس الشعوذة في المقبرة تطرد مع أسرتها من المدينة.² والثابت في القبائل الأمازيغية عموما وقبائل آيت باعمران خصوصا أن حماية المقدسات أمر جماعي تتعاقد عليه القبيلة، من ذلك حفظ المساجد وحفظ مقابر المسلمين وحفظ كل ممتلكات القبيلة. أما العناية بالمقبرة من منظور قدسي فسوف يظهر في القرن 5هـ / 11م مع ابن عبدون الذي أمر بصرامة أن لا تبسط الأقدار على أفنيته، مثل جلود الدباغين والرقاقين وشبه ذلك، ونهى كذلك ابن تومرت عن التبرز في المقابر، كما دعا الكرسيفي إلى منع كل ما يضر بالأموات كالأزبال ووقود النار واتخاذ الخرق.³

إلى جانب رمي الأزبال وممارسة الطقوس السحرية بالمقابر تحدث بامي عن نبش وانتهاك قبور زعماء وطنيين، ومن ذلك ما حصل في مقبرة "المجاهدين" بمدينة الحسيمة شمال المغرب، وهي مقبرة تضم قبور العديد من الوطنيين، خاصة الذين قاوموا الاستعمار الإسباني إلى جانب الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال عشرينيات القرن الماضي، وكان ضمن القبور المنبوذة قبر شقيقه محمد الخطابي المدفون هناك سنة 1968.⁴ وتعرضت كذلك بعض المقابر التاريخية لملوك مغاربة للتخريب والعبث؛ حيث نبش قبر السلطان أبو الحسن المريني داخل موقع شالة الأثري، وأيضا نبش قبر الملك الغرناطي عبد الله بن بلقين بأغمت قرب مراكش.⁵

إن ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة بخصوص القبور الإسلامية من احترامها وعدم الاعتداء عليها يندرج ضمن ما أصبح يتعارف عليه في القوانين الوضعية المعاصرة بالشرطة الإدارية، وهي الوظيفة الموكولة اليوم في المغرب إلى السلطات المحلية والجماعية. من جهته يرى مومن أنه يتبين من النظام القانوني للمقابر الإسلامية بشقيه الشرعي والوضعي عدة ملاحظات أهمها:⁶

¹ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 51.

² بامي، المرجع السابق، ص. 53.

³ حقي، المرجع نفسه، ص. 131.

⁴ بامي، المرجع نفسه، ص. 45.

⁵ بامي، المرجع نفسه، ص. 45.

⁶ مومن، المرجع السابق، ص. 28.

✓ أن مقابر المسلمين لا تعتبر من قبيل الأملاك العمومية الجماعية، بل تعتبر أملاكاً وقفية عامة، وأن نظام الأوقاف يوفر لهذه المقابر الحماية الكاملة التي تقتضيها طبيعة هذه المرافق وقديستها؛ بحيث لا يجوز، عملاً بقواعد هذا النظام، أن تكون هذه الأملاك وتوابعها وملحقاتها محلاً للتصرف أو الحجز، أو التملك بالتقادم، كما لا يجوز نزع ملكيتها، أو التعدي عليها.

✓ إن المقابر الإسلامية برغم طبيعتها الحبسية تخضع في إدارتها وتنظيمها وصيانتها للجماعات الترابية.

✓ إن هذه المقابر تخضع لإشراف مزدوج تمثله وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية من جهة، والجماعات المحلية من جهة أخرى.

ومن المقابر التي حظيت بالعناية وكانت على مستوى عال من التنظيم والجمال في العصر الوسيط يذكر حقي مقبرة مألقة في جبل فاره، التي وصفها ابن الأبار عندما تحدث عن أبي الربيع ابن سالم (ت 574هـ / 1178م) فقال: "اجتاز ببقيع مألقة، فاستحسن ما رأى من زخرفة القبور به، واغتراس الأشجار ذات النواوير والأزهار أثناءها، فتمنى أن يدفن هناك فوفت الأقدار بأمنيته عند موافاة منيته".¹ ووصف حقي نقلاً عن العمري مقابر الشيوخ والأمراء جنوب مراكش فقال: "هناك مقابر أكابرهم وجنائز الأعيان في نهاية حسن المباني والغرس".²

وتشمل تدابير المحافظة على المقبرة حسب ما أشار إليه مومن ما يلي:³

- تعيين المشرفين على المقبرة: يتعين على المجالس الجماعية أن تعين شخصين من بين أعوانها لتدبير شؤون المقبرة والمحافظة على نظافتها، أحدهما يتولى حراسة المقبرة، والثاني يكون محافظاً لها.

- تنظيم زيارة المقابر: نظم نموذج القرار الجماعي عملية زيارة المقابر؛ حيث نص على أن المقبرة تفتح طيلة أيام الأسبوع من شروق الشمس إلى غروبها. وبخصوص الأجنحة المغلقة من المقبرة التي نفذ الدفن فيها فتفتح لزيارة العموم يوم الاثنين ويوم الجمعة من كل أسبوع، وذلك من التاسعة صباحاً إلى غاية الخامسة بعد الزوال.

- صيانة المقبرة: نص نموذج القرار الجماعي، وكذا منشور وزير الداخلية عدد 83 حول تدبير المقابر الإسلامية بتاريخ 29 مايو 2000 على اتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات أهمها:

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 131.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 130.

³ مومن، المرجع السابق، ص. 54. 56.

تسييج المقبرة بسياج صلب، أو إحاطتها كلها بسور يحفظها ويميزها عما حولها، ويقيها من كل اعتداء عليها، أو ولوج الحيوانات إليها. تعيين أعوان يعد إليهم بصيانة المقبرة وتنظيفها باستمرار، ويكلفون تحت مسؤولية حارس المقبرة بإزالة الأشواك والنباتات البرية، والسهر بصفة عامة على جمالية المقبرة ونظافتها. تشجير المناطق الوقائية المحيطة بالمقابر، وتشجير جوانب الممرات المتواجدة بداخل المقبرة، كما ينبغي إقامة حزام من الأشجار حول سياج المقبرة.

أما عن وضعية المقابر الإسلامية بالمغرب من حيث الصيانة، فيشير بامي إلى أن هذه المقابر توجد في حالة مزرية، فهي في المدن كما في البوادي تعاني من الإهمال التام؛ سواء على مستوى المحافظة عليها أو على مستوى صيانتها، فأغلبها يوجد على أرض خلاء من دون تسييج ولا رقابة ولا صيانة، مما يعرضها وباستمرار إلى الانتهاك والامتهان من لدن الإنسان والحيوان على السواء.¹ ويتبين من خلال الدراسة الميدانية التي قام بها بامي لعدد من مقابر المغرب أنها تعرضت لانتهاك حرمتها بأفعال متنوعة بين انتشار القمامة، وتهالك الأسوار، وتكسير شواهد القبور، وشرب الخمر وتناول المخدرات، أو العبث بمحتويات القبر من أجل ممارسة الشعوذة، كما أن ممارسة العلاقات الجنسية بين القبور أضحت ظاهرة منتشرة.²

¹ بامي، المرجع السابق، ص. 59.

² بامي، المرجع نفسه، ص. 45.

2. الأضرحة

تنتشر الأضرحة على طول وعرض قبائل آيت باعمران سواء في المجال الحضري أو في المجال القروي، فلا يخلو جبل من جبال آيت باعمران، أو هضبة من هضابها من ضريح يُعتقد أنه لولي صالح يمتلك قدرات خارقة، ويقصده الزوار للتوسط لهم عند الله من أجل التبرك وقضاء حوائجهم الدنيوية. ويتمحور الضريح كمؤسسة حول قبر الولي الدفين؛ إذ تعتبر الأضرحة في الغالب الأعم قبورا للأولياء، أو الصالحاء، أو السادة، أو الشرفاء، وكلها أسماء متعددة لمعنى واحد، هم شيوخ (رجال ونساء) من البشر وأحيانا من الجن يعتقد أنهم يمتلكون القدرة على قهر الأرواح الشريرة، وجلب الخير لمن يرضاهم، وإحقاق الستر بمن يسخطهم من الناس، وذلك بفضل ما لديهم من بركات¹.

وللأضرحة تاريخ قديم في المغرب، فهي سابقة عن فترة ظهور الإسلام، فكما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول عرف سكان المغرب القديم (المجتمعات الأمازيغية القديمة)، وأيضا الحضارة المصرية القديمة تطور العمارة الجنائزية من مدافن عادية إلى مصطبات مكونة من غرفتين: الأولى تضم تماثيل الميت، والثانية تحتوي على الأثاث الجنائزي الخاص بالميت، لكن معظم الأضرحة المتواجدة حاليا بالمغرب ارتبطت بأولياء وشرفاء الزوايا الصوفية (البوتشيشية، الدرقاوية، والتيجانية) حيث ظهرت هذه الزوايا في فترة عرفت فيها البلاد فراغات سياسية وأمنية، نتيجة لغياب سلطة مركزية، وتوالي الكوارث الطبيعية من مجاعات وأوبئة، بالإضافة إلى الغزو المستمر للأعداء، الأمر الذي جعل الزوايا تلعب أدوارا اجتماعية وسياسية غير وظيفتها الدينية.

يرى جهادي أن انتشار الأضرحة له ما يبرره في مجتمعها، منها المنفعة المادية والمعنوية وحتى السياسية، وهي ظاهرة قديمة في التاريخ، فمنها ما كان قبل الإسلام مثل: الأهرام في شمال إفريقيا، وهيكسل سليمان بفلسطين، وقبب فارس وقصور الرومان، وأماكن للتعبد والتأمل في المرتفعات لمراقبة الأبعاد وحراسة الحدود والشواطئ من التسرب الأجنبي، ومنها تشهير مقام من يستحق التعظيم لمكانته عبر القرون، وقد سبقت إلى ذلك الوثنية، ثم الديانات السماوية كلها².

¹ منديب، عبد الغني، الدين والمجتمع دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006، ص. 150.

² جهادي الحسين، من ذاكرة سوس وبصمات الحاضر نموذج آيت باعمران، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2016، ص. 207.

تنقسم أضرحة الأولياء في قبائل آيت باعمران إلى قسمين: الأولى مستقلة يقوم معظمها في المقابر القديمة المنتشرة داخل فخذات هذه القبائل، مثل ضريح سيدي بوغرفا، ضريح سيدي محند يونس، وضريح سيدي علي إفني المطل على شاطئ مدينة سيدي إفني. القسم الثاني ملحق بالجوامع والزوايا، وهي تنسب إلى الأولياء من تلك القبائل، أو الوافدين عليها من مختلف البلاد الإسلامية، كضريح سيدي علي أتول، وهو ملحق بالزاوية الدرقاوية سيدي علي أتول المتواجدة بقبيلة أصبوياء، ضريح سيدي سليمان بوتमित الملحق بزاوية سيدي سليمان بقبيلة آيت الخمس.

ومن الناحية المعمارية تنقسم هذه الأضرحة في آيت باعمران وفي المغرب عموماً إلى صنفين، الصنف الأول: أضرحة مقببة، ويعتبرها عبد الوافي مدفون (القبة) من السمات الأساسية للضريح المغربي؛ حيث يرمز هذا البناء المكعب إلى العالم الأرضي، في حين يرمز سقفه المسامي الشكل إلى العالم السماوي موطن التقوى ومبعث الفضيلة.¹ ويصف إبراهيم حركات شكل الضريح بقوله: "أما شكل الضريح فإن الغالب أن ترتفع أضلاعه الأربعة في ذات الوقت دليل للقادم من بعيد، وشكل هندسي يسمح بامتصاص أقل قدر من أشعة الشمس ويقي من الحرارة في الداخل، ويعطي للمكان جلالاً بفضل الفضاء الداخلي."² والقبة حسب المتخيل الشعبي تشير إلى ذلك الارتباط بين السماء والأرض؛ إذ تحتضن المكان وتحيط به هالة من التقديس والاحترام. ومن بين [كل] البلدان الإسلامية يعتبر المغرب البلد الذي يبجل أكبر عدد من الأولياء، فلا وجود فيه مطلقاً لهضاب لا يتوجها مزار، وقليلة هي القرى أو المقابر التي لا يوجد بها ضريح يمجّد ولياً أو أكثر من ولي.³

الصنف الثاني: أضرحة غير مقببة وتحمل الميزات نفسها التي تحملها الأضرحة المقببة، بكونها بناية مقدسة، وتضم بداخلها رفاة ولي صالح، غير أنها تختلف عنها في شكل السقف، فالأول مقبب، والثاني غير مقبب. ويرجع أسباب عدم توفر بعض الأضرحة على قباب إلى ما يلي:⁴

✓ إما إلى عدم شهرة الوالي الصالح، وبالتالي لم ينل الاهتمام الكافي والعناية اللازمة.

✓ استحالة بناء القبة على الضريح لأسباب ميثولوجية.

✓ عدم توفر الإمكانات المادية في المكان الذي يوجد به الضريح.

¹ مدفون، عبد الوافي، المجال المقدس ووظائفه الاجتماعية، الرباط، منشورات الزمن، 2014، ص. 129.

² حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، الطبعة الأولى، البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1985، ص. 532 - 533.

³ بول باسكون، الأساطير والمعتقدات بالمغرب، في مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، 1986، ص. 96.

⁴ مدفون، المرجع السابق، ص. 131.



الصورة رقم (12) : نموذج لضريح غير مقبب (تيوغزة آيت باعمران)، التقطت الصورة سنة 2019

1.2. وظائف الأضرحة

كانت الأضرحة فيما مضى مكانا يلتقي فيه الناس خلال المواسم والمناسبات، ومكانا يقصدونه لعقد مناسباتهم الاجتماعية، كالزواج، ربط العهود، وعقد الصلح بين الأقارب والعائلات، أو بين القبائل المتنازعة. وترتبط الشعائر الخاصة بالأولياء ارتباطا وثيقا بالاعتقاد بأهميتهم، والوظائف التي يقومون بها وتأثيرهم في الحياة اليومية بالنسبة للذين يعتقدون اعتقادا راسخا فيهم، وكذلك للذين يرتبطون بهم برباط القرابة الشعائرية، حيث يعتبروهم أباءهم وأجدادهم الروحيين. يشير منديب إلى أن الأولياء يظلون أحياء حتى بعد أن تختفي أجسادهم تحت الثرى في أضرحتهم، يواصلون التدخل والتوسط عند الله لقاصديهم من الناس.¹ يضيف مدفون في السياق نفسه بأن كثيرا من الأفراد يرجعون أسباب نجاحهم في تأدية أعمالهم اليومية، من عمل، وإنجاب الأطفال، ودراسة لأولادهم، وزواج بناتهم إلى محافظتهم على القيام بتأدية هذه الشعائر، وإلى تأثير هؤلاء الأولياء عليهم، بالإضافة إلى الاعتقاد في أنهم السبيل الوحيد للتقرب والوصول إلى الله²، وفي اعتقاد زوار هذه الأضرحة تبقى النية والخشوع أثناء طقس زيارة الضريح المحدد الأساسي لاستجابة الطلب وقضاء الحاجة.

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 150.

² مدفون، المرجع السابق، ص. 58.

1.1.2. الوظائف الاجتماعية

وظيفة الزواج

يشكل تأخر الزواج داخل المجتمع المغربي بصفة عامة، والمجتمع الباعمراني بصفة خاصة أمراً معيباً، ومؤشراً على خلل ما، حيث أشار التقرير الوطني للمندوبية السامية للتخطيط إلى ارتفاع متوسط سن الزواج في السنوات الأخيرة مقارنة بما كان متعارفاً عليه في الماضي، إذ يناهز متوسط سن الزواج خلال فترة الاستقلال 17 سنة بالنسبة للنساء، و24 سنة للرجال. وفي سنة 2018 بلغ متوسط سن الزواج حسب التقرير الذي أعدته المندوبية 31.9 سنة للرجال، و25.5 للنساء، كما بلغت العزوبة عند الإناث مستويات عالية في الأعمار الحاسمة سنة 2014: حوالي الربع (24%) من النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين 30 و34 سنة لم يسبق لهن الزواج، والعزوبة تخص أكثر من 11% من النساء في سن 45 – 49 سنة¹.

وتعرف العنوسة في المصطلح الشعبي العامي "بالبايرة"، ويقصد بها حسب مدفون كل فتاة تأخرت عن سن الزواج المتفق عليه اجتماعياً؛ ففي عرف المجتمع "البايرة" هي الفتاة التي لم تعد صالحة للزواج، لأن قطار الزمن تجاوزها، وهذا المصطلح من قولهم بارت الأرض إذا فسدت ولم تعد صالحة للزراعة.² وهذا يعني أن الفتاة التي تجاوزت سن الزواج المحدد ولم تتزوج لا تستطيع الإنجاب، أو تكون خصوبتها ضعيفة، ومن ثم يتجنب الشباب الزواج بها، لكون الهدف الأول والأخير للزواج هو الإنجاب.

يعتبر تأخر زواج الفتاة داخل المجتمع المغربي إلى حدود سن الثلاثين أمراً معيباً، ومؤشراً على خلل ما يثير علامات الاستفهام والحيرة في محيط الأسرة والمجتمع. ولمواجهة نظرات التشفي أو الإشفاق التي تلاحقها تنتكر الفتاة العانس لمنطق العقل الذي يرى مبرر أزمة الزواج القائمة في الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي تشل دينامية المجتمع وحركيته. وتحت ضغط الوسط الأسري تقبل الفتاة بتفسيرات الوهم والخرافة التي تحمل مسؤولية تأخر فرص الزواج للقوى الغيبية الشريرة³.

¹ التقرير الوطني، السكان والتنمية في المغرب خمس وعشرون سنة بعد مؤتمر القاهرة 1994، الرباط، المندوبية السامية للتخطيط، 2019، ص.36.

² مدفون، المرجع نفسه، ص. 59.

³ وعراب، المرجع السابق، ص. 69.

اشتهرت بعض الأضرحة في قبائل آيت باعمران وكذلك القبائل المجاورة بأنها تبعد شبح العنوسة عن الفتيات الراغبات في الزواج، من هذه الأضرحة: ضريح "سيدي براهيم أوعبلا" الذي قالت عنه السيدة خديجة ما يلي:

«+XK. ٢٠+ +o%+ ٢ JKJLx+ I 0x8x 00.0xL %H0XK. ٢ 0%X0X. ٠0 000 +88% I+ +XOXxI II. X xYK. JKJL. ٠, XX0I+ Xx0 xI8.0 II0I+ 00x08 I+ X%K% 88.0+ II0I+ 0 L.0L. I +o%+ o, K%8 I+ xKJL. xI8.0 KxX ٠ I+ ٢xI K0I+ LxKx.0»¹.

"ثَلَا يَات تَانُوتْ غُ زَاوِيَتْ نْ سِيْدِي بَرَاهِيْمُ أُوْعْبَلَا غُ بُوْكَرْفَا، أَرْ سَرْسْ تَنْوُنْتُ تَقْرَحِيْن نَّافْ إِيْغَلَا زَمَانْ كُنْسُنْتُ كِيْسْ إِيْجَعَاضْ نُسْنْتُ، سَيَزْنُنْتُ كُوْلُو دَاتْ نُسْنْتُ سَوَامَانْ نَتَانُوتْ أَنْ، لُوْحْنْتُ إِيْمَا إِيْجَعَاضْ لِيْ كُنْسُنْتُ غِيْنْ، لُسِيْنْتُ وَيَاَضْ".

"توجد بزاوية سيدي براهيم أوعبلا ببوكرفا (آيت باعمران) عين تقصدها الفتيات اللواتي تأخر عليهن الزواج. هناك ينزعن ملابسهن ثم يستحمن بماء هذه العين، ويرمين ملابسهن القديمة ليرتدين بعد ذلك ملابس جديدة".

وفي الدار البيضاء يعرف ضريح سيدي مرس السلطان كونه أصبح محجا للفتيات اللواتي تجاوزن سن الزواج، وسيدي محمد بولكباش، وسيدي محمد مول الصبيان، وسيدي علال القرواني الذي يواسي المطلقات ويعطيهم الأمل في تجربة أخرى ناجحة وبدون مشاكل، ومزارة مرشيش، وضريح سيدي عبد الرحمان، هذا الأخير الذي يعد بدون منازع الأوفر حظا من سابقه في علاج هذه المعضلة الاجتماعية، نظرا لعدد زواره ومرتديه الكبير².

طلب العمل

تعتبر البطالة من أهم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها المجتمع المغربي بصفة عامة، فحسب أرقام المندوبية السامية للتخطيط فإن معدل البطالة في المغرب تخطى في نهاية 2017، 10% مقابل 9,9% سنة 2016. إذ تظل البطالة خصوصا الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و24 عاما (26,5%) مع معدل وصل إلى أكثر من 42% بين شبان المدن.³ ويرى محللون أن أسباب البطالة في المغرب ترجع إلى عجز القطاع العام عن استيعاب الأيدي العاملة الجديدة بالمغرب، وعدم قدرة

¹ مقابلة شفوية رقم (16)، بتاريخ 25 يناير 2021، السيدة خديجة 63 سنة، قبيلة آيت النص.

² مدفون، المرجع السابق، ص. 60.

³ مذكرة إخبارية للمندوبية السامية للتخطيط، حول وضعية سوق الشغل خلال الفصل الأول من سنة 2018.

القطاع الخاص على توفير البديل للدور الذي كان يلعبه هذا القطاع، بالإضافة إلى ضعف معدل النمو في القطاع الزراعي بسبب التغيرات المناخية فضلا عن كفاية الاستثمارات التي يتم ضخها في شرايين الاقتصاد لاستيعاب الأيدي العاملة.¹ كل هذه الأسباب أدت بعدد كبير من الناس إلى اللجوء إلى الأضرحة والمزارات لتلبية هذا الطلب وإزالة الحظ العاثر.

في هذا السياق يعرف ضريح سيدي بليوط بالدار البيضاء بكرامة تتعلق، بالشغل نظرا لوجوده بالقرب من الميناء الذي بدوره كان بحاجة إلى اليد العاملة، فكان سكان القرى المجاورة يأتون إلى الميناء، وقبل وصولهم إليه يمرون على الضريح ويقدمون له القرابين، ثم ينصرفون إلى البحث عن العمل في الميناء، وعند وجوده يرجعون في المساء إلى الضريح للتبرك منه وشكره على تلك النعمة.²

ويشير منديب إلى مدى حرص مسيري الأضرحة (أحفاد الولي الذين يعيشون من رأسماله الرمزي) على إشاعة قدرات جدهم في إنجاز المعجزات؛ حيث ينسبون إليه كل المنجزات التي تسير متطلبات العصر، وتستجيب لرغبات الزوار. ويساهم الخدام والمريدون هم أيضا في تدعيم الرأسمال الرمزي للولي صاحب الضريح برواياتهم المتجددة حول حاجاتهم التي قضيت ورغباتهم التي حققت بفضل مزايا وبركات الولي.³

وظيفة التحكيم وربط العهود

تعتبر أضرحة الأولياء في القديم أماكن مقدسة تبرم فيها العهود وتعد في المواثيق، وذلك بضمانة الولي دفين الضريح؛ إذ لا يجرؤ المتعاقدون على نكث العهد الذي أبرم مخافة أن ينزل عليهم عقاب الولي. يقول منديب حول ذلك: "بالرغم من وجود خطاب ديني مناوئ لزيارة الأضرحة ولبعض الطقوس المرتبطة بها، فإن الناس يصرون على زيارتها اعتقادا منهم بشفاء الأمراض، وربط العهود والمواثيق والاستخارة والتظلم والتخلص من سوء الحظ الطالع... ويعتبر ضريح "مولاي عبد الله أمغار" الذي يقع جنوب مدينة الجديدة أشهر مكان مقدس يقصده الناس للمصادقة على عهودهم ومواثيقهم، وهذه العهود هي في الغالب الأعم تعهدات بالإخلاص والوفاء وضمان لوجود الثقة وبقائها بين الزوجين، أو شريكين اقتصاديين (شراكات تجارية، أو زراعية، أو غيرها)⁴

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 61.

² مدفون، المرجع نفسه، ص. 62.

³ منديب، المرجع السابق، ص. 150.

⁴ منديب، المرجع السابق ص. 153.

في الدار البيضاء اشتهر ضريح سيدي مبارك بوكدره بخاصية ربط العهود، وهو المعروف بأمانته وسط الناس؛ حيث كانت توضع عنده الودائع، وتقبل عليه القبائل من جميع مناطق الشاوية وآنفا لحل الخلافات التي كانت تتجم بينهم، وربط العهود والمواثيق بعدم العودة إلى أسباب النزاع، وكذلك كانت تقد إلى الضريح للتبرك منه، كما كان الناس يقصدون الضريح كلما سرق لأحد مال أو متاع، وكلما وضع شخص أمانة عند شخص آخر ولم يردّها له، إلا وألزمه أن يؤدي القسم داخل الضريح¹.

من جانبه يقول بول باسكون حول ضريح سيدي أحمد أوموسى: "منذ حوالي قرن من الزمن، أو ما يزيد على ذلك بعض الشيء، وعد أحد الأشخاص فرعا آخر من غير فرعه بتزويجه ابنته، إلا أنه تراجع عن وعده في ليلة العرس، فهدّد أب العريس ناكث عهده بصواعق الولي: "ببركة سيدي احماد أوموسى لن يكون بمقدور بنات ذريتك أن يتزوجن زواجا عاديا." ومنذ ذلك الحين باتت البنات المنحدرات من هذا الفرع عندما يبلغن سن الزواج يختفين بضعة أيام أو بضعة أشهر، ثم يرجعن بقدرة قادر دون أن يتذكرن أي شيء، سليمان أحيانا وغير سليمان أحيانا أخرى، لكن مشبوها فيهن دائما².

في السياق ذاته، تقول السيدة مينة:

«ЖεΚΚ ΚΑΟΗ οΟ ε+ΛΛε εΚΟεΧ, Λ +ΚΟεΧ+ ΙΙο εΟηο ηΛ ++εΘΚΙ, Θ ΛοΟ ΚΟο Ι εεεΧ ΚΚΙ ΧεΘ ΚΛοΘΛ εΟ εΚΚοΚ ΚηΙ ΧεΘΙ ΚΛοΚεΕ. εΚο ΚοΙΙο ΟοΛ εΚΕQ ΚΟο ΚΚΚεΘ ε ΚΟο Ι ΚηΙ, οΟ οΟ +Ι ΚεΚΚο Υ ΕΕοQεΛ Ι ΚΟο ΚΚοΚε εΘΚΚΙ, ηΚε εΟ εΚΕοΟ ηΛ εQΚ ΚΛοΘΛ ηΙ ΚΚε εΚΚο ΚΧΛΛοε ΙΙο»³.

"رَبِّكَ لَحَالٌ أَرِ إِتْدُو أَفْرُوخُ، دُ تَقْرُوخْتُ نَا إِرَانْ أَدُ تِيَهْلُنْ، سَدَارْ كُرَا نَشِيخْ فُكُنْ كِيَسْ لَعَاهْدُ أُوْرْ إِقَالَ يَانْ كِيَسْنْ وَايَّاضْ. أُوْلَا وَانَا رَادُ الْضُرْ كُرَا لُقْلُوسْ إِكْرَا نْ يَانْ، أَزْ أَسْتَنْ يَاكَا غُ ضَارِيخْ نُكْرَا لُوَالِي إِضْلُخُنْ، أَشْكُو أُوْرْ إِزْضَارْ أَدُ إِزْرُ لَعَاهْدُ أَنْ لِي إِكْفَا لُكْدَامْ نُسْ".

"في قديم الزمان يقصد الشاب والشابة اللذان يرغبان في الزواج ضريح أحد الشيوخ بالقبيلة ليقطعا على نفسيهما وعدا بعدم تخلي كل واحد منهما على الآخر، كذلك كل من يريد أن يقرض مالا لأحدهم يقصد ضريح ولي صالح ليمنحه المبلغ المتفق عليه بحضور الولي دفين الضريح، لكون هؤلاء يحترمون ضمانته الولي ولا يستطيعون نكث عهده".

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 63.

² باسكون، المرجع السابق، ص. 97.

³ مقابلة شفوية رقم (17)، بتاريخ 25 يناير 2021، السيدة مينة 65 سنة من قبيلة آيت الخمس.

طلب الإنجاب

183

بالبكاء وبث شكواها لسيدي بليوط وهي على يقين أن حاجتها ستقضى بمجرد خروجها من هذا الضريح. وإن كان غرض المرأة من ولوجها للضريح هو الحصول على الأطفال فيتوجب عليها الطواف حول الضريح عدة مرات، ليأتي الفرع على يد هذا الوالي، خاصة وأن الثقافة الشعبية المغربية لا ترحم المرأة العاقر، مما يجعلها مضطرة إلى تجربة عدة وصفات، واللجوء لمختلف الأماكن من أجل الحصول على ولد أو بنت تكفيها من شر السؤال والتشفي، مغيبين الأسباب الحقيقية وراء عدم الإنجاب¹.

2.1.2. الوظيفة الاستشفائية

يظهر أن العديد من الباعمرانيين يقصدون الأضرحة والمزارات رغبة في التخلص من الاضطرابات التي لحقت بهم، فمنهم من يرى أن سبب مشاكله هو "السحر"، ومنهم من يعتقد أن الأرواح الشريرة سكنت روحه وأثرت على حياته، ومنهم من يعتقد أنه أصيب بضربة "عين حاسد". من هنا فزيارة الأضرحة والمزارات تعتبر السبيل الوحيد للتداوي. يعرف مدفون المرض النفسي في الخيال الشعبي على أنه تلك الحالة التي تسمى جنونا، والتي يظهر صاحبها فاقدا للسيطرة على نفسه، مهملا لملبسه وهيائته. حينها بدلا من التوجه نحو المستشفيات المتخصصة على قتلها لأجل العلاج، يتوجه نحو زيارة الأضرحة واللجوء للفقهاء واقتناء أنواع الجاوي والحرمل لطرد الأشباح الشريرة التي تسكن الجسم والمكان، والمتسببة في المرض النفسي².

ويحتضن الضريح كذلك حلقات التفرغ عن النفس من ضغوط الحياة أو العمل. يشير مدفون إلى ذلك بقوله: "يتحلق الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى في هدوء وصمت، فقد استرخين واطمأنت نفسيتهن، وأثناء ذلك يعرضن على بعضهن مشاكلهن الزوجية أو العاطفية والإنجابية أو الصحية. فتكون بذلك وظيفة الضريح هي توفير إطار غير رسمي لحل مثل هذه المشاكل النفسية، ولتبادل الحوار في المحذور خارجه أحيانا، وأخذ الاستشارة من ذوي التجربة والاستفادة منهم في حل مثل هذه الصعوبات³.

ويفسح الضريح للمرأة المجال لتفجر مكنونها وتعبير عن همومها، ولتشير شعورها بالسخط على وضع معين، وتطلق إحساساتها للأخريات اللاتي يعشن التجربة نفسها، ويكون هذا الجو النسائي الجماعي قوة يبعد عنهن الحزن والمعاناة والألم، ويتحررن من سلطة طالما خضعت لها خارجه، وكأنهن صاحبات

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 63.

² مدفون، المرجع نفسه، ص. 65.

³ المرجع نفسه.

علاج الأمراض العضوية

اشتهر ضريح "سيدي وافود ن إكرامن" في آيت باعمران بكرامته الخارقة في علاج من أصابهم العرج؛ حيث يقصدونه حاملين له مختلف الهدايا المكونة غالبا من "معزة" أو "جدي" يذبح في الضريح، لتقام بذلك طقوس "المُعزُوف"، وفي الأخير يدعى للسائل أن يرزقه الله الشفاء العاجل من مرضه. تقول السيدة خديجة حول هذا الأخير:

سِيِّدِي وَأَفُودُ نَ إِكْرَامُنْ إِطَّافَ رَّاوِيْتْ أَرُ كِيْسْ سَكَارُنْ مِيْدُنْ لَمْعَارِيْفْ، أَرُ سَرَسْ تَدُونْ وَيِنَّا كُوشْمَنِيْنْ أُوِيْنْ
تِيْعَزْسِي صَالْبُنْ رَيِّي أَتْنْ إِشَافَا".

185

"يحتوي ضريح "سيدي وافود ن إكرامن" على زاوية يقصدها الأشخاص المقعدون، والذين أصابهم العرج، محملين بالذبيحة التي تحتضن طقوسها زاوية الضريح، ويدعى لها كل الزوار بالإضافة إلى القائمين على الضريح. وفي الأخير ترفع دعوات المريض إلى الله من أجل شفائه".

يشير منديب إلى أن المرأة التي تعاني من اضطراب الخصوبة في منطقة دكالة تقوم بزيارة ضريح مولاي بوشعيب الرداد المعروف بـ"منقد العاقرات"، كما يمكنها اللجوء إلى ضريح "مولاي إبراهيم" المتواجد بضواحي مدينة مراكش، والذي توصف زيارته للداء نفسه، فهو من منظور الناس "واهب الصبية الذكور بامتياز"¹.



الصورة رقم (13) : ضريح سيدي علي إفني (مدينة سيدي إفني)، التقطت الصورة سنة 2020

من جانبه قسّم مدفون تخصصات الأضرحة في الدار البيضاء إلى قسمين: قسم عام Généralistes يختص في جميع الأمراض، وقسم خاص Spécialistes يختص بأمراض معينة. بالنسبة للعام فهناك مثلا ضريح سيدي مسعود الذي تبدأ طقوس زيارته بعد دخول الزائر إلى الضريح بالطواف حول تابوت الولي الصالح ثلاث مرات، مع قراءة سورة الإخلاص طوال مدة الطواف، ثم بعدها يجثو الزائر على ركبتيه، ويدخل رأسه من خلال نافذة صغيرة وسط الثابوت، فيدعو بما شاء برفع البلاء وكشف المرض

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 151 - 152.

الذي ألم به، وبعد ذلك تضع حفيظة الضريح سلسلة على المكان الذي ينبعث منه الألم إذا كان المريض عضوياً. القسم الثاني (الخاص) ويشمل ضريح سيدي برنوصي الذي يقبل الناس على ضريحه من أجل التبرك والترحم على الولي، وعلاج المرضى المصابين ب (الحمى والعواية)، كما عرف ضريح سيدي أحمد بلحسن بكرامة إدرار الحليب لدى المرضعات، إذ لازالت النساء تقصدنه لنفس الغرض¹.

رد الحسد والسحر

يعتقد العديد من المغاربة أن قبور الأولياء والصالحين قادرة على تحقيق العديد من الرغبات والأمانى، بالإضافة إلى علاج بعض الأمراض الجسدية وكذا النفسية، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها ما هو ثقافي يرتبط بانتشار الخرافة في أوساط العامة، ومنه ما يرتبط بعدم قدرة الأطباء على التعامل مع بعض الحالات، مثل العقم وإزالة السحر، ما يدفع الناس للجوء إلى الأضرحة. وقد أجمع معظم الدارسين لهذه الظاهرة في المجتمع المغربي، قدماء منهم أو محدثين، أجانب أو محليين، على أن طلب وساطة الأولياء يعد جزءاً من الإسلام كما يدركه ويفهمه عامة الناس، ومعلوم أيضاً أن الناس يلجؤون إلى أضرحتهم المفضلة لطلب المشورة والاستشارة في الأمور الحيوية والهامة، أو التخلص من سوء الطالع الذي يلاحقهم².

يقول مدفون في هذا الصدد: "تأتي خاصية دفع الحسد، والعين، والتابعة، والسحر، ومس الجن، من الخصائص العلاجية الأساسية للأضرحة؛ حيث يتخذ "الفقيه" أو "الشوافة" فضاء الضريح مقراً لهما، وهما بذلك يكملان عمله في علاج هذه الآفات"³.

في آيت باعمران يعرف ضريح سيدي بوكرفا بفكه "تيقاف" المرأة العانس، لهذا تقصده النساء اللواتي تأخر عنهن قطار الزواج من أجل فك وثاقهن؛ حيث يقمن بالاعتسال من العين المتواجدة قرب الضريح. تقول السيدة عائشة حول هذا الأخير:

« +oXo%X+ IIo ʎ ʎIIo +ʎZoX %O ++ O ʎ%IIʎ o^ + +ʎOII, oO +^A^% O OʎAʎ O%XO%o, ʎIIo XʎO ʎo II^ʎI ʎ ʎo %IoQʎX oO XʎO +OoʎOʎA, Oo% o^ oO ʎ^ʎʎ^ + +ʎZoX IIʎX XʎO ʎIIoI»⁴.

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 68.

² منديب، المرجع السابق، ص. 155.

³ مدفون، المرجع نفسه، ص. 69.

⁴ مقابلة شفوية رقم (20)، بتاريخ 26 يناير 2021، السيدة عائشة، 55 سنة، من قبيلة آيت الخمس.

"تَفْرُخْتُ نَّ غِيْلَ تَيْقَافٍ أَوْزُ تَسْ يُوجِّي أَدُ تَيْهَلْ، أَرْ تَدُو سَ سِيدِي بُوكَرْفَا، إِلَّا كَيْسَ يَانَ لُعَيْنَ غَ يَانَ أُوجَارِيْفَ أَرْ كَيْسَ نُسَيْرِيْدْ، بَاشْ أَدُ أَسْ إِحِيْدُ تَيْقَافَ لِي كَيْسَ الْآنَ".

"تتوجه الفتاة التي تعاني من ظاهرة "التيقاف" إلى ضريح سيدي بوكرفا، حيث تغتسل بماء عين متواجدة هناك لكي يزيل عنها هذا النوع من السحر الذي حال دون زواجها".

ويرتبط علاج الحسد، والعين، والتابعة، وسحر العكس، ومس الجن في ضريح سيدي عبد الرحمان في الدار البيضاء بمجموعة من طقوس التطهير التي يتعين على الزائرات تأديتها، وفق كيفيات خاصة منها: طقس الاغتسال، وطقس التبخر، وطقس قربان الدم، ثم الحضرة. وفي ضريح سيدي بليوط يقوم الزائر أو الزائرة بتعليق أقفال مغلقة على سياج الثابوت بهدف المحافظة على كل أنواع العقارات من شر العين والحسد؛ فأغلاق القفل، بحسب هذه الذهنية، يشير إلى الرغبة في امتلاك العقار والحفاظ عليه، بالإضافة إلى ذلك فإن استعمال الأقفال وتعليقها على سياج الثابوت، الذي يضم رفاة سيدي بليوط يدل على إغلاق أبواب "النحس" و"التابعة"، ووضعها تحت تصرف الشيخ من أجل طردها، والخروج سالما منها إلى خارج الضريح¹.

ويعرف ضريح الولي "سيدي اسماعيل مول الزاوية" في دكالة باختصاص يميزه عن باقي أولياء دكالة الكبار، فهو يشفي من داء "التابعة"؛ أي النحس وسوء الطالع الذي يلزم شخصا ما، وللتخلص من هذا النحس ما على الزائر سوى التخلص من قطعة من ملابسه، ووضعها على كوم من الشوك مخصص لهذا الغرض، فيسجن بهذا الطقس كل سوء الحظ الذي ينغص عليه حياته، ويعود إلى بيته آمنا مطمئنا.² كما يغتسل الراغبون في إزالة "العكس" في ضريح سيدي محمد مرس سلطان بالدار البيضاء من ماء البئر المقدس الذي يوجد في الواجهة اليمنى للفناء، وإذا كانت حاجة الزائر صعبة المنال كتأخر الزواج بسبب "العكس" أو "التابعة" أو مرض خطير، فإن الأمر يتطلب الاغتسال بماء البئر، ورمي التابعة بإجراء "التفوسخة"، ثم رمي قطع الملابس في الخلوة³.

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 69 - 70.

² منديب، المرجع السابق، ص. 156.

³ مدفون، المرجع نفسه، ص. 70.

3.1.2. الوظيفة التعليمية

لم تقتصر الأضرحة في تشكيل مؤسستها على الوظيفة الاستشفائية فقط، بل ثمة وظائف أخرى ساهمت بدورها في تقوية رصيدها الرمزي. فالضريح كان في الأصل مركز للتعليم والوعظ، من خلال الزاوية التي تكون ملحقة به. ومن هذه الأضرحة في آيت باعمران نجد ضريح وزاوية سيدي علي أوتول المتواجد بقبيلة صبويا، ضريح سيدي سليمان بوتमित بقبيلة آيت الخمس، وضريح سيدي علي أوسعيد بقبيلة آيت عبد الله.

حسب جهادي كان في آيت باعمران، منذ القديم، مريدون لزاوية تامكروت الناصرية المنتشرة في البوادي لبساطتها، لذلك كانوا يؤدون لها بعض الأعشار حسب عرفهم، ويقومون بزيارتها في موسمها كل عام، وهي التي مزغت الأمهات الفقهية فزال الاحتكار، فعرف المجتمع السوسي فرائض دينه بلغته، ومنها جميع الصفات بسهولة عجيبة:

(التوحيد هو أن نقر بوجود إله واحد)	أَيْكَان تَأُوْحِيد نَسْن نْس وَر نْلِي بِلَا رَبِّي
(لاشريك له قادر على كل شيء)	يَان أَيِكَ نْسُول نْسَاو نْرَضَار نْمَاير
(يعلم كل شيء، أرسل رسوله)	نَسْن د يَصْرَف رَبِّي أَرْقَاس رَسُولِ اللَّهِ
(ليعلمنا الحلال والحرام)	نْمَلَا يَاغْ أَكْ مَا د نْرَا رَبِّي وَلَا مَا د يُوَكِّي ¹

تعليم الصغار

يعتبر التعليم الأولي خاصة تحفيظ القرآن الكريم من بين أهم نشاطات الأولياء ومريديهم بمختلف قبائل آيت باعمران؛ حيث عرفت الكتاتيب القرآنية بكل مناطق المغرب انتشارا واسعا. ويمكن أن تكون هذه الأخيرة مرفقا تابعا لأحد أضرحة الأولياء والصالحين، أو ملحقا لإحدى الزوايا أو المسجد خصص لغرض تحفيظ القرآن، وتعليم اللغة والفقه. وحسب إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق للموسم الدراسي 2017-2018 بالمغرب بلغ عدد هذه الكتاتيب 11749 كتابا قرآنيا يدرس بها 341085 متدرسا، من الإناث والذكور، ومن جميع الفئات العمرية².

ولا تتعدى ثقافة هذه الزوايا في آيت باعمران حسب جهادي ترداد الصلاة على النبي وطقوسها،

¹ جهادي، الحسين، المرجع السابق، ص. 202 - 203.

² إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق للموسم الدراسي 2017-2018، منشورة بموقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية:

<http://www.habous.gov.ma>

كما لا تتعدى مريدي كل زاوية، وأغلبهم يحفظون بالأمازيغية ما أمكن من أوزال وبحر الدموع، والأمير، وابن عاشر، وأبوشكر، أو من منظومات صوفية منها إرشاد المجتمع بأن الدين يسر لا عسر فيه، ومن الوعاظ من يمزج بين الرجاء والخوف، ومنهم من يقذف مجتمعه بشواظ من نار ونحاس وبأهوال يوم القيامة، ولا سبيل للرحمة وغفران الله إلى خطابه العنيف¹. يضيف جهادي قائلاً: "هناك صالح يسمى سيدي أُمْلَحَافَت، هو قديم جداً، وضريحه في جهة تانگرفا، حيث مدرسة عتيقة علمية وقرآنية حسب تخصص المشارط فيها، كالفقيه المتمكن سيدي أحمد بن محمد بن محند الملقب بهميش، توفي 1334هـ، وكان فقيها عالماً عارفا بعلم الميراث دراسة وعملاً، وكان يشتغل بالقضاء بقبيلة آيت الخمس، مع ملازمة التدريس في المدرسة العتيقة المذكورة بتانگرفا"².

أما في مدينة الدار البيضاء فقد عرفت أضرحته نشاطاً علمياً بارزاً، تمثل في تكوين الناشئة تكويناً إسلامياً يركز على تعليم الأطفال المبادئ الأولية، والكتابة، مع تحفيظهم ما تيسر من كتاب الله العزيز، وتلقيهم مبادئ الدين الإسلامي، وتنشئتهم تنشئة إسلامية رفيعة³.

وعرفت هذه الأضرحة تراجعاً كبيراً في السنوات الأخيرة؛ حيث لم تبق سوى زوايا قليلة تستقبل الأطفال الصغار لتعليمهم وتحفيظهم القرآن الكريم. حسب مدفون يرجع عدم استمرارية الأضرحة في القيام بهذه الوظيفة إلى تعدد المؤسسات التعليمية التي أنيط بها هذا الدور، وكذلك بسبب ظهور انتقادات بخصوص بعض الأوضاع غير الصحية التي كانت تعرفها الأضرحة والكتاتيب؛ مثل ضيق المكان المخصص للكتّاب، وتكدس الأطفال في وضع غير صحي بسبب تزايد عددهم⁴.

تلقين دروس العلم الشرعي

اشتهرت العديد من الزوايا في قبائل آيت باعمران بوظيفة تحفيظ القرآن الكريم وتفسيره؛ حيث أخذت هذه الوظيفة مصدرها من الاهتمام الذي كان الولي الدفين يوليه لكتاب الله تدبراً، وتعليمه لموريديه. هكذا استمرت هذه الوظيفة حتى بعد وفاتهم، فتحوّلت أضرحتهم من مكان للتبرك والدعاء، إلى زوايا وكتّاب لتحفيظ القرآن، وتلقين دروس في العلوم الشرعية سواء لسكان المنطقة، أو غيرهم ممن لديهم الرغبة في ذلك. وتعرف هذه الفضاءات محلياً بـ"المُدرّست" (مدرسة عتيقة).

¹ جهادي، المرجع السابق، ص. 205.

² جهادي، المرجع نفسه، ص. 547.

³ مدفون، المرجع السابق، ص. 71.

⁴ مدفون، المرجع نفسه، ص. 71.

ويشير جهادي إلى أن في إصبويا مدرسة عتيقة مر منها فقهاء كبار، منهم فقيه سباعي يذكر قديما هناك، وممن شارط فيها أيضا الحسن الأصبوياني الباعمراني (حياته ما بين 1260هـ - 1324هـ): عالم كبير، وقاض جليل، وكريم يذكر بكرم، لعله أخذ عن الأدوزي رفع راية القضاء فصارت له شهرة كبيرة، حتى إنه كان أعلى وأشهر من الزبير التدراتي، ولم ينفرد علماء بعمرانة يجتمعون على مائدته، فيتباحثون في المسائل، وخصوصا في أيام معلومة كرمضان¹.

وذكر كذلك مدفون بأن ضريح سيدي الطاهر الموجود بداخل المدينة القديمة بالدار البيضاء تحول إلى كتاب قرآني، ومكان لتجمع الفقهاء لقراءة القرآن والأمداح النبوية، مثل البردة والهمزية في المناسبات الدينية²، وهذه سمة مشتركة بين عدد كبير من الأضرحة التي تحولت إلى كتاتيب قرآنية، وأصبحت لها وظيفة ثانية.

4.1.2. الوظيفة الاقتصادية

شكلت الأضرحة متنفسا للسكان لممارسة التجارة ولتصريف بضائعهم؛ حيث كانت المواسم السنوية التي تقام على شرف الدفين ولي الضريح مناسبة اقتصادية هامة، كما أن حاجة الزائر إلى المكوث أو الاستقرار بجوار الضريح من أجل التبرك أو العلاج دفع سكان المنطقة المجاورين للضريح، أو أحفاد الولي إلى التفكير في بناء بيوت على شكل غرف لإيواء الناس، والتي تعود عليهم بمداخل مهمة، بالإضافة إلى فتح دكاكين لبيع لوازم الزيارة من الشمع والحناء وماء الزهر. ومن هذه المواسم المنظمة في قبائل آيت باعمران وباقي القبائل المجاورة التي يقصدها التجار الباعمرانيون لبيع سلعهم نجد: موسم سيدي علي إفني، موسم سيدي محمد بن عبد الله بمرلفت، وموسم سيدي الغازي بمدينة كلميم.

يقول مدفون في هذا السياق: "لا ينكر أحد أهمية الموقع الذي يوجد فيه الضريح على المستوى الاقتصادي والتنموي، ذلك أن كثيرا من المواقع التي كانت أصلا أضرحة أصبحت نواة لمدن أو قرى عامرة تشع بنشاطات متعددة، وتقدم فيها خدمات كثيرة للناس، وبالتالي تساهم في تنمية المنطقة على جميع المستويات، وتنعش الحياة بجوارها، سيما إذا كان لهذا الضريح إشعاعا محليا أو وطنيا، بفضل ما يقدم للزوار من بركات وما يوفره في هذه المنطقة من حركة اقتصادية، أو تنمية محلية"³.

¹ جهادي، المرجع السابق، ص. 204.

² مدفون، المرجع السابق، ص. 72.

³ مدفون، المرجع نفسه، ص. 72.

ويعد موسم إيسيك في آيت باعمران، والمنتسب للولي الصالح "سيدي بوبراهيم الباعمراني" من أقدم وأعرق المواسم التجارية في منطقة سوس. يقول جهادي: "كان هذا الموسم في بعمرانة كلها تسيره القبيلة الكبرى آيت بوبكر أويحيا، وكان معروفا بالمبادلات بين شمال المغرب وجنوبه، حتى جنوب الصحراء، ومما يدل على قدم هذا الموسم أنه عرف بموسم إيسيك أي الحوض، لكن حاليا صار ينعته البعض باسم الصالح سيدي بو أبراهيم العالم الباعمراني القديم، ولعل إقامة هذا الموسم من سلسلة المواسم التجارية الممتدة عبر تابريدا من "تينيوكتو وولاته من بلاد السودان إلى مدينة تگاوست الكبيرة - لعلها القصابي- بضواحي أكولميم المزدهرة حتى عام 919هـ¹.

شراء لوازم الزيارة

يعتبر مجال الضريح ومحيطه مكانا تجاريا نشيطا، خاصة في أيام العطل والمواسم؛ حيث تشهد هذه المواسم حركة تجارية لمواد متنوعة، كالبخور بأنواعه، وماء الزهر، والحناء، وأيضا الشموع. تطلق على هذه المواد التي تحمل إلى الضريح اسم "الفتوح"، وهي مشتركة بين جميع الأضرحة، وتتاح لجميع زوار الضريح فقراء كانوا أو ميسورين. يتم وضعها في مكان مخصص لها بجوار تابوت الولي الصالح هدية له، وأملا في استجابة الدعوة أو رفع البلاء أو شفاء من مرض، أو تحقيق رغبة. حسب جهادي فإن لكل موسم بآيت باعمران خصوصياته، ويعد موسم سيدي محمد بن عبد الله بتابلوكوت على ساحل المحيط الأطلسي بآيت باعمران نموذجا توفرت فيه شروط النجاح منها:²

- أهمية اختيار التوقيت الزمني في الخميس الأول من يوليوز من كل سنة، وذلك مناسب للمجتمع الفلاحي الذي أنهى عمله بعد الحرث والحصاد والدراس وجمع المحصول عامة، ومن مميزاته تبادل السلع بين شمال المغرب وجنوبه، وخاصة شراء الماشية كالثيران والسلع المهربة (كونتربونض).
- هذا الموسم يناسب تسوق القبائل؛ حيث يعد ملتقى لسكان الجنوب من الساقية الحمراء ووادي الذهب بماشيتهم التي تباع بأثمان مناسبة لأهل شمال المغرب، حيث يتسوق من ورزازات إلى أكادير فيتم تبادل منتوجات الشمال بمنتوجات الجنوب بأثمان مناسبة.

¹ جهادي، المرجع السابق، ص. 535.

² جهادي، المرجع نفسه، ص. 513 - 514.

- يتوفر موسم الصالح سيدي محمد بن عبد الله بتابلوكوكت على مساحة شاسعة تمتد شمالا من شعبة مَو أماسا بمرفلت، إلى واد أكندو: إيدوشاّي جنوبا، وبينهما وادي سامطماط (سالكماض)، حيث ضريح ومدرسة الصالح المذكور.

وتقدم هدايا متنوعة عندما ينال أحد زوار الضريح مبتغاه وتقضى حاجته، وهي تكون نذرا نذر بها الزائر، وإما شكرا للولي دفين الضريح على قضاء حاجته، تكون غالبا هذه الهدايا ثوبا أخضر يوضع كغطاء على تابوت الولي الصالح، كذلك تقدم النقود بحيث توضع في صندوق "الفتوح"، الذي يوجد بجوار تابوت الولي. وفي بعض الأحيان يأتي بعض الزوار في المناسبات الدينية (كعيشورة)، أو ليلة السابع والعشرين من رمضان بخروف أو جدي أو عنزة يذبحها، ويوزع لحمها على الفقراء الذين يوجدون بالضريح في هذه المناسبة الدينية¹.

وتعتري الذبيحة أحكام ضرائحية معينة. فحسب مدفون، إذا كانت ستقدم إلى ضريح ولي صالح فيجوز فيها جميع الأنواع والألوان، أما إذا كانت ستقدم إلى "الجن" أو "مَلَك"، حسب الاصطلاح المتداول بين الناس، فإن الذبائح التي تحظى بالأفضلية لديه ذبائح الدجاج والماعز الأسود. وتقضي طقوس تقديم الذبيحة أن ينحر طائر الدجاج في الأماكن التي يعتقد في وجود الجان بها؛ خصوصا مجاري المياه والبرك، وينثر بعد ذلك ريشها وأمعائها كي "يلتهمها الجان"، مع منع القطط والكلاب من النيل من تلك الوليمة الغريبة².

هكذا فإن الدكاكين المجاورة للضريح لا تكتفي بعرض لوازم الزيارة فقط، بل يشمل المعروض كل حاجيات الزائر من أغراض مثل التمور، والفواكه الجافة، والأواني الطينية، والقلائد والأساور، وبعض المستحضرات التقليدية كالحناء، والمسواك، والكحل، والتي قد يحمل بعضها كهدايا لأفراد العائلة الذين لم تسمح لهم الظروف بزيارة الضريح؛ حيث جرت العادة ألا يعود الزائر إلى عائلته خاوي الوفاض دون هدية، ولو كانت متواضعة، وقد تبقى تلك الهدية عند بعضهم إرثا يحتفظ به، ورمزا لاستجلاب الخير ودفع الشر.

¹ مدفون، المرجع السابق، ص. 73 - 74.

² مدفون، المرجع نفسه، ص. 74.

خاتمة الفصل الثاني

اهتمت الثقافة الأمازيغية بموضوع الموت وتدبير فضائه الجنائزي منذ القديم، إذ عمل الإنسان الأمازيغي على إنتاج مجموعة من الطقوس، والأمثال الشعبية التي تعكس لنا موقفه من هذا الموضوع المقلق. أما الأساطير فذهبت إلى إثارة فلسفيا وفكريا، محاولة بذلك الإجابة على تساؤلاته الغامضة التي حيرت الإنسان إلى يومنا هذا، وعملت هذه الأساطير عبر مختلف الحضارات على إنتاج ثقافة الهروب من وجه الفناء، والاحتفاء بفكرة الانبعاث. بذلك أكد المفهوم الميثولوجي فكرة إبطال الثنائية القائمة بين الموت والحياة على أساس أن الموت لا يناقض الحياة، بل هو امتداد لها عن طريق الانبعاث.

نستنتج من هذا الطرح حرص الميثولوجيا على البحث الدائب عن تأسيس حياة تتوفر لها عناصر القوة والإخصاب والتجدد لمواجهة الفناء الكلي، ففي أسطورة كلكامش تقدم سيدوري إلهة النبيذ مجموعة من النصائح لكلكامش تتلخص في أن يستمتع بما تبقى له من الحياة، بدل أن يقضيها في البحث عن الخلود، وأن يكون سعيدا بما لديه، أما الأساطير الأمازيغية فترى أن سبب ظهور الموت هو أنثى مدفوعة بعاطفة الأمومة، وتحكيم رأيها الفردي ضدا على مصلحة الجماعة، أو مدفوعة بفضولها وتهورها. وفي المقابل منحت هذه الأساطير اختصاصا بالموت وسجنها للمجتمع الذكوري، ويتجلى ذلك في عدة أساطير، كالصياد الذي استطاع أن يتحائل على الموت وأن يسجنها في زوادته، ثم اتحاد الرجال على الإمساك بالموت. والملاحظ أن هذه الأساطير تعزز ذكورية المجتمع الأمازيغي، وذلك من خلال توظيف الصورة النمطية عن المرأة؛ أي أنها دائما على خطأ، ورأيها لا يؤخذ به لكونها "ناقصة عقل"، تفكر وتستخدم عاطفتها أكثر من عقلها، في حين أعطت هذه الأساطير المعرفة والحكمة والرزانة للرجال من خلال استطاعتهم الإمساك بالموت، واحتجازها ومنعها من قتل البشر.

تتمثل وظيفة الموت في خلق توازن مجتمعي بالزيادة والنقصان (أي الولادة والموت)، ويتبين ذلك من خلال الأسطورة التي تحكي بعث الناس لرسول يبحث عن الموت ليقنعها بالعودة للقبيلة بعد أن ضجت بالبشر، لكونهم لا يموتون. في المقابل نسجل إصرار بعض الأسر الأمازيغية منح أسماء موتاهم للمولودين الجدد تأكيدا على بقاء عقيدة التقمص أو التناسخ عندهم، ويدل استعادة الاسم بهذا الإصرار على بعث الجسد المسمى وتخليده، وإن كان تطور الفكر البشري يفسر هذه الظاهرة بالتيمن بذكرى الفقيد، أو تكريمه بحفظ اسمه من الضياع والتلف، وهذه الممارسة ما زالت شائعة في الجنوب الغربي وعموم بلاد المغرب إلى يومنا هذا.

من خلال دراستنا للطقوس السحرية بمجال آيت باعمران يتضح لنا جانبا آخر لعلاقة الأمازيغ مع الموت، والذي يتجلى في الاستعانة بالأموات من خلال استعمال بقايا الميت كالشعر والأظافر في الطقوس السحرية. ففي الماضي القريب وأثناء تغسيل الميت تحاول بعض النسوة التسلل إلى الغرفة التي تحتضن طقوس التغسيل والتكفين لأخذ بعض بقايا شعر الميت وأظافره بغرض استعمالها في وصفات سحرية. أما في أيامنا الحاضرة تطورت أساليب الحصول على هذه المواد الأولية؛ إذ يتكفل بمهمة جمع هذه البقايا المغسّلون أنفسهم (رجالا كانوا أو نساء)، أو موظفي مستودعات الأموات التابعة للمستشفيات الإقليمية أو الجهوية، كما يقومون كذلك بتحضير الكسكس باستعمال يد الميت، ثم بيعها في ما بعد لتجار هذه المواد المعروفين باسم ⵙⵉⵎⵓⵔⵉⵙ أو ⵙⵉⵎⵓⵔⵉⵙ "لغشابة" أو "لغطارة" بأثمنة تتراوح بين ثلاثمائة وخمسمائة درهم للكأس الواحد، ويستعمل هذا الكسكس أو بقايا الميت (الشعر والأظافر) في أغراض سحرية انتقامية، إما تمنع العزاب من الزواج، أو لإعاقة انتصاب ذكر رجل متزوج بغرض تطليقه من زوجته.

بالنسبة لتدبير الفضاء الجنائزي نجد أن الباعمرانيين قد عملوا على إحداث مقابرهم خارج التجمعات السكنية؛ حيث تتواجد أغلب هذه المقابر على الهضاب المطلّة على الدواوير؛ إذ يجب أن تكون مرتفعة قد الإمكان لتجنب أن تجرفها السيول والفيضانات، وأيضا أن تبقى في مرمى بصر السكان لحراستها من دخول الغرباء إليها والعبث بقبورها، خاصة أن جل هذه المقابر لا تتوفر على حارس، رغم أن المشرع المغربي نص على ذلك. ومن شروط إحداث المقابر حسب القانون التنظيمي رقم 113.14 المتعلق بالجماعات: أن تكون في حواف المدن والقرى، أن تكون هذه الأرض أقل خصوبة وأقل إنتاجية، مرتفعة ومحمية من السيول والفيضانات، وأن تكون الأرض بعيدة عن الأنهار ومجاري المياه. ومن خلال المعطيات الميدانية نسجل بأن بعض المقابر في قبائل آيت باعمران بنيت بالقرب من الأودية، مما يهدد القبور المتواجدة بها بالانجراف، ومن هذه المقابر: مقبرة الشهيد يونس الدنوني، وأيضا مقبرة سيدي على إفني المتواجدتان بمدينة سيدي إفني.

يشمل تنظيم المقبرة اختيار قبر الميت، وهنا نسجل الرغبة الكبيرة لأهل الميت في أن يدفن فقيدهم في مقابر تحوي جثة ولي صالح، أو شيخ من الشيوخ المتصوفين، وذلك لاعتقادهم في قدسية المكان الذي يدفن فيه. أما مسألة بناء القبر فتكاد تنعدم في مجمل القبائل الباعمرانية؛ فعملية الدفن تتم بطريقة عادية باستعمال التربة وحجرتين (الشاهد)، في حين أن البناء كان حاضرا فقط في المجال الحضري

وبالضبط بمقبرة الشهيد يونس الدنوني. نسل الشيء نفسه في ما يتعلق بشاهد القبر، فهو حاضر فقط في نفس المقبرة، وهو عبارة عن لوحة من الرخام منقوش عليها اسم الميت، تاريخ ولادته ووفاته، إضافة إلى عبارات الدعاء له بالرحمة والمغفرة. أما باقي مقابر قبائل آيت باعمران فالشاهد فيها يكون على شكل حجرتين من حجارة "الحد" توضع واحدة عند الرأس والأخرى عند الرجلين.

أما بخصوص الأضرحة بقبائل آيت باعمران فتنقسم إلى أضرحة مستقلة منشرة داخل الفخذات والدواوير، كضريح سيدي محند يونس، وضريح سيدي علي إفني، وأضرحة ملحقة بها جوامع أو زوايا كضريح سيدي علي أوتول الذي يضم الزاوية الدرقاوية وجامع سيدي علي أوتول، كذلك ضريح سيدي سليمان بوميت ويضم زاوية سيدي سليمان. أما من الناحية المعمارية والهندسية فتنتشر داخل القبائل أضرحة مقببة، وأخرى غير مقببة. وأبرز مثال على ذلك تواجد ضريحين على شاطئ مدينة سيدي إفني، واحد مقبب وهو للولي الصالح سيدي علي إفني، وآخر غير مقبب وهو للولي الصالح سيدي محند أوخليف. ويرجع هذا الاختلاف ربما إلى مكانة الولي الاجتماعية، فعدم شهرة الولي تجعله لم ينل الاهتمام الكافي والعناية اللازمة، وبالتالي يقام له ضريح بمستواه أي غير مقبب.

يتضح مما سبق أن لمؤسسة الضريح لدى قبائل آيت باعمران عدة وظائف، إما اجتماعية كطلب الزواج، طلب وظيفة أو عمل، أو طلب الزيادة في الرزق، خاصة في صفوف ممتنهي التجارة، بالإضافة إلى طلب التحكيم بين المختصمين، وربط العهود بين الشركاء؛ حيث لا يجرؤ أحد على نكث العهود المبرمة في حضرة الوالي، ثم وظائف استشفائية: كالتخلص من الاضطرابات التي تلحق الإنسان بسبب اعتقاده أنه مصاب بعين حاسد، أو سحر حاق، هذا إلى جانب علاج أمراض عضوية كالعقم الإجهاض المتكرر، أو عدم إنجاب الذكور، بالإضافة إلى علاج أمراض نفسية وعقلية يعتقد أنها ناتجة عن مس الجن، أو عمل سحري. الوظيفة التعليمية: حيث أنشئت ملحقات لبعض الأضرحة، دورها تعليم وتحفيظ القرآن للصغار، وكذلك إنشاء مدارس عتيقة متخصصة في تفسير القرآن وتلقين دروس العلوم الشرعية. أخيرا الوظيفة الاقتصادية: حيث تلعب المواسم السنوية التي تقام على شرف الدفين ولي الضريح مناسبة اقتصادية مهمة، ومتنفسا للتجار لتصريف سلعهم وبضائعهم، ونذكر من بين هذه المواسم: موسم سيدي محمد بن عبد الله بميرلفت، موسم سيدي علي إفني بمدينة سيدي إفني، موسم سيدي الغازي بمدينة كلميم، وموسم سيدي احساين بجماعة الأخصاص.

الفصل الثالث

الطقوس الجنائزية بآيت

باعمران

الفصل الثالث: الطقوس الجنائزية بآيت باعمران

1. تطهير الميت وتجهيزه

يسبق وضع الميت في القبر طقوس وعادات لا تقل أهمية عن نظيرتها التي تؤدي في باقي مراحل الجنازة، لذلك نجد المجتمع الباعمراني يوليها مكانة خاصة من حيث الاهتمام بها، وكذلك الحرص الكبير على إبقائها رغم التغيرات التي عرفها المجتمع بفعل مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية.

وللوقوف على أهم الطقوس والعادات التي تميز الجنازة بهذه المنطقة الأمازيغية اعتمدنا تقنية الملاحظة بالمشاركة، حيث حاولنا الإنخراط في كل مرة سمحت لنا فيها الفرصة في طقوس إعداد الميت، خاصة أثناء التغليف والتكفين، بالإضافة إلى حفر القبر ودفن الميت. وتأتي هذه المشاركة للتقرب أكثر من هذه الطقوس والتعرف على حقيقتها، وكذا وصف طريقة أدائها، وذلك من أجل دراستها وتحليلها. وتجدر الإشارة إلى أن مشاركتنا هذه اقتصرنا فقط على الطقوس المسموح لنا التواجد أثناء أدائها؛ أي تلك الخاصة بالرجال، أما في ما يتعلق بتلك التي تؤديها النساء، فقد اعتمدنا على روايات المختبرات اللواتي أخذن على عاتقهن مهمة المشاركة في هذه الطقوس ووصفها لنا بدقة. وقد اعتمدنا، إلى جانب الملاحظة، تقنية المقابلة المفتوحة، وذلك من أجل جرد كل الطقوس والعادات التي كانت تمارس في القديم، وأقصد هنا خمسينيات القرن الماضي، وذلك من أجل معرفة كيفية أدائها والطرق المتبعة في ذلك.

وسنعمل في هذا الباب على جرد طقوس إعداد الميت التي تمارس قبل الدفن، وذلك من خلال التركيز على تلقين الميت، طقوس التغليف والتكفين، إضافة إلى تجربة جمعيات تتكفل في أيامنا الحالية بطقوس تطهير الميت وتجهيزه. فما هي إذن هذه الطقوس؟ ومن الذين يشاركون فيها؟ وما التغيرات التي طرأت عليها بين الماضي والحاضر؟ وما هي أوجه الاختلاف بين طقوس المجال القروي وطقوس المجال الحضري؟

1. الاحتضار

يعرف ابن منظور الاحتضار، حيث يقول: "حُضِرَ الْمَرِيضُ وَاحْتَضَرَ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حُضِرَ فُلَانٌ وَاحْتَضَرَ إِذَا دَنَا مَوْتُهُ".¹ فالاحتضار إذن هو القرب من الموت، أي تلك اللحظة التي ينفصل فيها الروح عن الجسد. لكننا لن نتوقف فقط في تلك اللحظة القصيرة المدة التي ينفصل فيها الروح عن الجسد، بل سنوسعه ليشمل مدة المرض الذي يسبق الموت، والذي يدوم أياما أو شهورا. وما يهمنا هنا رصد كل الطقوس التي ترافق هذه الفترة سواء من جهة المحتضر أو المحيطين به.

كان سكان آيت باعمران في القديم يداوون مرضاهم داخل المنازل ووسط العائلة، إلى أن يشفى المريض أو يموت، خاصة إذا كان متقدما في السن. ونظرا لحساسية المشهد لا يسمح بحضور إلا أقرب الأقربين أو بعض أصدقائه، والذين يحضرون فقط من أجل طلب الصفع والغفران، خاصة إذا كان هناك خلاف بين المحتضر وأحد أقربائه أو معارفه، ففي تلك اللحظة تنسى كل الخلافات. ذلك ما أكدته منديب بقوله: "ينقاطر الأقارب والجيران على منزل المريض الآيل للموت لتوديعه وطلب السماح منه عن كافة الأخطاء التي اقترفت في حق هذا المريض، أو اقترفها هو في حق مودعه بشكل مقصود أو غير مقصود".² يحضر أيضا لزيارة المحتضر شخصيات معروفة كشيوخ وأعيان القبائل، خاصة إذا كان هذا الأخير رجلاً صالحاً، أو ذا شأن داخل القبيلة، آنذاك تتوسع دائرة الحضور داخل مجلس الاحتضار، وذلك حسب مكانة المحتضر، فكلما كان معروفاً كثر الحضور لزيارته، هذا دون أن نغفل أن دور الشيوخ والأعيان هنا ليس فقط زيارة المحتضر وطلب الصفع منه، بل أيضا مواساة أبنائه حيث يثنونهم عن البكاء في حضرة والدهم، ويحذرونهم من الضعف، هذا دون أن نغفل زيارة رؤساء وأعضاء المجالس المنتخبة للمحتضر، إلا أن هناك من يرى زيارة هؤلاء ما هي إلا استغلال لمثل هذه المناسبات لكسب قاعدة شعبية واسعة.

يجتمع الحاضرون حول المحتضر في جو يسوده الحزن والشفقة، ذلك ما أكدته ابن عبد ربه حيث قال مصورا حالة المحيطين بالمحتضر:

من لي إن وجدت بين الأهل والولد وكان مني نحو الموت قيد يد
والدمع يهمل والأنفاس صاعدة فالدمع في صبيب والنفس في صعد³

¹ ابن منظور، المرجع السابق، م 4، ص. 199.

² منديب، المرجع السابق، ص. 158.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 39.

يغرق الحاضرون حسب البيتين في البكاء والشفقة على مصير المحتضر، لاسيما إذا كان مقصرا في واجباته الدينية أثناء حياته. من جهة أخرى يرى حقي أن مجلس الاحتضار كثيرا ما يحول إلى حلبة للصراع والتنافس بين الورثة؛ حيث يحاول كل واحد الفوز بأكبر قدر من الغنيمة، مستغلا ضعف المحتضر ورقته في هذه اللحظة¹.

قال عياض: "أن رجلا تزوج امرأة حديثا فمرض، فحملة أهله لتمريره في منزلهم فقالوا له: هذه المرأة حديثة العهد بك، ونخاف أن تترك إن حانت وفاتك، فقال لهم: ما ترون في ذلك؟ فقالوا له: نرى أن توصي بثلاث ممالك لامرأة أخيك، وبالثلاث للمسكين، وتترك ديونا أكثر من الثلث الباقي." وقال ابن الحاج: "أن مريضا متزوجا من امرأة ثانية، جاءت إليه بناته عند احتضاره فطلبن منه أن يكتب لهن شيئا من أملاكه ففعل"².

من خلال ما ذكر نستنتج أن هناك شعورا آخر مرافقا للحظة الاحتضار، إلى جانب القلق والشفقة، وهو الطمع والرغبة في الميراث؛ أي أننا أمام مشاعر متناقضة، فتارة يسود المكان جو من الحزن والتحسر، وتارة أخرى الجشع والطمع.

تتمثل آخر رغبات المحتضر في الاعتراف بأخطائه، أو الكشف عن بعض الأسرار التي ربما أخفاها طيلة أيام حياته، ذلك ما أشار إليه الخشني قائلا: "في قرطبة احتضر رجل (قبل 206هـ/821م) كان قد شهد شهادة زور، فأرسل يطلب القاضي ليعترف له، ويطلب منه فسخ الحكم."³ نجد أيضا أن المحتضر يعمد في آخر لحظات حياته إلى تصفية بعض الأمور العالقة، كرد دين لأحد معارفه، أو بإخبار أبنائه عن حصته من الأبقار أو الأغنام التي يتقاسمها مع شريكه. ومن جهة أخرى نجد من يوصي أولاده الكبار على حسن معاملة زوجته الثانية، أو أبنائها الصغار. نستنتج من كل هذا أن ساعة الاحتضار تبقى كملخص لعمر الإنسان؛ حيث يستعيد فيه شريط عمره دون نسيان.

ذكر حقي نموذج للحظة احتضار أبو عمر ابن شهيد، وهو من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، ولد عام 382هـ/991م في قرطبة، حيث قال عنه: "كانت حياة هذا الأخير حياة لعب ولهو ومتعة بالحياة ولا مبالاة، حتى أصيب بمرض أدخله في حالة احتضار دامت حوالي السبعة أشهر، وطمغى على هذه الفترة الرعب الشديد، والشكوى من شدة الآلام وضيق النفس، ذلك ما جعله يكتب قصائد

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 39.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 39.

³ حقي، المرجع نفسه، ص. 42.

يتذكر فيها أيام قوته وقدرته على الفتك، ويدعو رفاق لهوه إلى تذكرها. وكتب في أخرى عن تأمله لكل ما قضاه من لذات فوجده صفقة خاسرة بعد ما صار رهينا لذنوبه. حاول أن يستشف ببعض الزهاد والصلحاء، لذلك أوصى أن يصلي عليه أبو عمر الحصار الرجل الصالح. وقبل موته بقليل كان يتكلم ويرغب إلى الله أن يرفق به، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا إلى أن ذهبت نفسه في جمادى الأولى من عام 426هـ/1035م¹.

من خلال هذا النموذج يتضح أن خوف بن شهيد من الموت مرتبط أساسا بحياة الله والإباحة التي عاشها، لذلك شعر بالذنب وخاف من مصيره. وهذا ما يؤكد أن الموت يثير الخوف أساسا عند أولئك الذين لا يضمنون مصيرهم في الحياة الأخرى.

من خلال دراستنا لعدة حالات احتضار تمكنا من رصد مجموعة من العلامات التي من خلالها يعتبر الباعمرانيون أن الميتة ميتة حسنة، وأن مصير صاحبها سيكون الجنة. وعموما يبقى النطق بالشهادة وترديدها بدون صعوبة أهم وأبرز هذه المؤشرات، إضافة إلى خروج روح المحتضر وهو بكامل قواه العقلية والذهنية، هذا إلى جانب وقت الوفاة، إذ يعتبر يوم الجمعة أو أواخر شهر رمضان من أبرز العلامات على حسن الخاتمة. يشير حقي إلى أوقات الميتة الحسنة فيقول: "إن أفضل الأوقات هي التي تأتي بعد أن يؤدي الميت كل صلوات الفريضة، ويوم الجمعة." هذا دون أن نغفل أيضا شهر رمضان، لاعتباره أحب الشهور إلى الله²، واستدل حقي على ذلك بقول أبي عبد الله بن الحسن اليصليتي (ت595هـ/1199م) من فاس: "يا رب أريد أن تقبضني وليس علي فرض من فرائضك وأن أموت يوم الجمعة، فقال لي كذلك قضيت عليك أن تموت يوم الجمعة بعد أن تصلي الصبح"³.

ويعتبر أيضا موت الإنسان وهو مستقبل القبلة من معايير الميتة الحسنة، حيث نجد أن أهل المغرب والأندلس استدلو بهذه العلامات للحكم على ميتة كل فرد، لذلك كانوا يحرصون على ترقيتها ثم مساعدة المحتضر على تحقيقها، خاصة النطق بالشهادة وتوجيه المحتضر جهة القبلة⁴. ومن ضمن المؤشرات أيضا سهولة خروج الروح وليونة مفاصل أطراف الجثة، واستيعاب القبر لحجمها وكثرة عدد المشاركين في الموكب الجنائزي، كل ذلك سمات دالة على صلاح الميت وحسن مآله والعكس صحيح⁵.

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 43.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 48 - 49.

³ المرجع نفسه، ص. 48.

⁴ المرجع نفسه، ص. 49.

⁵ منديب، المرجع السابق، ص. 160.

2. التلقين

يشترط في من يحضر مجلس التلقين أن يكون على طهارة، فلا يقبل حضور امرأة جاءها الحيض، ولا رجل جناب. أما أولوية الحضور فتكون للأقارب كالأبناء بالدرجة الأولى، ثم الإخوان، ثم الأعمام، وأبناء العمومة، بالإضافة إلى رجل عالم بأمور الدين كفقيه المسجد. وعند بعض القبائل لا يحبز تواجد النساء في غرفة المحتضر لاعتقاد الناس أن الشيطان يرافقه ويتسلل من خلالهن لهذه المجالس، مما سيعقد الأمور عليه، لاسيما أن الشيطان لن يدعه ينطق الشهادتين. يحكي السيد البشير إحدى الوقائع التي سمع بها في المنطقة، ويتعلق الأمر بلحظة احتضار أحد الأشخاص المسنين. يقول:

«X Y O A X X O Y Q Q X I X X X I O X A X X X O O, X O X X O X X X O Q I + O L O X X O K K O I I O, O O O X + O O O A. X X X E E O I I O Y O X I I O K O O A, X O O A X X X O O X X O I I O X X A X Y O X O X. X X X Y K X O X X X O X X X X O L O A X I Q O, X I I O O L O O A Y + X X X O O O O O X + + O O K L O A O + + O O I + + I X, A O O X X X + + O O A O + X + + X I X X X O X X O Y + X X X O O A X + + O X A A X A O K O X X O I L O L O, O O X + + X I X X O A O A O + O O O A + X X Y X O + O O +»¹.

«لَيْغَ رَاذَ إِفَاغَ رُوحَ نَ إِكْلَيْنَ نَسِيدِي لُحْسَيْنَ، إِسْكُوسَ إِيوسَ تَامَا نَ أُوْكَايُونُسَ، أَرْ أَسَ إِشْهَادَ. كُونُ صُورَ نَا غَاسَ إِنَّا أَشْهَدُ، إِرَارْدَ فَلَاسَ سَوُفُوسَ نُسَ زُونْدَ إِغَ أَوْزَ إِرِي. لَيْغَ يُونُسَ إِيوسَ الْفَقِيهَ مَاذَ إِجْرَانُ، إِنَّا أَسَ مَاسْدَ غَتِيْزِي أَنَ بَابَاسَ أَرْ إِتَانَايَ مَاذَ أَوْزَ تَانَايَنَ نُنْتِي، ذَ أَهُو لِي تَانَايَنَ أَرْتَ إِتِيْنِي إِبْلِيْسَ، أَشْكَو غَ تِيْزِي أَنُ أَرْدَ إِشْكََا يَاوِيْدَ دِيْدُسَ يَانَ لُكَاسَ نَوْمَانُ، أَرْ إِتِيْنِي إِبْنَادُمَ أَذَ أَوْزَ تَشْهَدْتُ فُكْغَ أَكْ أَتْسُوْتُ».

"في لحظة احتضار سيدي الحسين، وبينما يلقنه ابنه الأكبر نطق الشهادتين فوجئ من حضر المجلس برفض هذا الأخير ذلك، ففي كل مرة يرفع يده مشيراً بالرفض، ولما سأل الابن أحد الفقهاء عن ما وقع أخبره أن والده في ذلك الحين يرى ما لا يروونه، وأن ذلك الرفض ما هو إلا رفض لإغراءات الشيطان، ولا يتعلق الأمر بنطق الشهادتين؛ حيث يحضر الشيطان لدى المحتضر وفي يده كأس ماء يغريه به، ويطلب منه عدم قول الشهادتين مقابل أن يمده برشفة ماء".

¹ مقابلة شفوية رقم (21)، بتاريخ 10 أبريل 2018، السيد البشير، إمام مسجد، 45 سنة، من قبائل الأخصاص.

يضيف السيد عبد الله عن أسباب منع تواجد النساء لدى المحتضر. فيقول:

«%O +@@I+ XO. OoA @oXoI+, XZKZKZ ++%Q+oI+ @ XZ%+ I+I+X OoA @oXoI+ @XO% @ %X%O XZKZKZ+»¹.

"أورُ تُسَنَّتْ كُرَا رَادَ سَالَانْتْ، كِيَّ تُوْشَتَانُطْ سْ لُمُوْتُ نُنْتَتِي رَادَ سَالَانْتْ سَكُؤْ سْ أُوْفُؤْسْ لُمِيْتُ"

"أنت جاهل بما سيفعلن، ربما سيستثمرن انشغالك بالوفاة ليحضرن أكلتهن السحرية الكسكس بيد الميت"

ربما كان سبب منع النساء من حضور مجلس التلقين في هذه المجتمعات هو الإيمان بالجسد المقدس (الجسد الذكري)، والمدنس (الجسد الأنثوي)، فزيادة على اعتبار الجسد الأنثوي مصدر فتنة وإغراء في اعتقادها، فهو يمر بمراحل بيولوجية مثل الحيض والنفاس، مما يجعله أكثر دنسا. ولصعوبة معرفة المرأة "الطاهرة" من غيرها، لجأت تلك المجتمعات إلى إنتاج أساطير "مرافقة الشيطان للنساء أثناء التلقين"، من أجل منع وعزل النساء خاصة الحوائض. لهذا يحرص أبناء المحتضر من خلو غرفة أبيهم من النساء اللواتي ليست لهن قرابة به، وتخصص فقط لاستقبال أصدقائه الذين يزورونه ويتسامحون معه. وهنا تلعب الطقوس الجنائزية وظيفية حل النزاعات وفض الخصومات؛ حيث يتوافد الأهل والأقارب على منزل المحتضر لتوديعه، وطلب الغفران منه عن كافة الأخطاء التي ربما اقترفوها في حقه أو اقترفها هو في حقهم بشكل مقصود أو غير مقصود². وفي حالة كان المحتضر أنثى فيكون معها النساء القربات كبناتها وجاراتها وزوجات أبنائها، كما يجب أن يحضر أحد أبنائها أو أحد أقاربها ليلقنها، ويساعد النساء المتواجدات عندها، ويوجههن في كل ما يفعلنه.

يمكن التمييز في آيت باعمران بين طقسين أساسيين أثناء مرحلة التلقين. الأول: وضع المحتضر في اتجاه القبلة، ويقال له بالأمازيغية %OZ@XI+ (سُقْبِلْنْتُ)؛ أي يضعون وجهه في اتجاه القبلة. يرافق هذا الطقس قراءة القرآن عند رأس المحتضر خاصة سورة «يس»، ويقوم بذلك إما أحد أبناء المحتضر أو أحد أقاربه، وفي حالة تعذر ذلك يتم استدعاء فقيه المسجد ليتكلف بهذه المهمة، كما يشترط في من يقرأ القرآن من الأقارب أن يكون طاهرا، وأن يكون عالما بأمور الدين.

الطقس الثاني يسمى %O%X%O I %O% (أُسُورُزْ نْ وَأَمَانْ) يقال %O%X%O I %O% (أَزْ أَسْ سُوْرُورُنْ أَمَانْ)؛ أي يسقونه الماء. والغرض من ذلك هو بل حلق المحتضر بالماء، لأنه ربما ينشف من شدة ما نزل به فيعجز عن الكلام، كما أن ذلك قد يسهل عليه نطق الشهادتين، حيث يرافق

¹ مقابلة شفوية رقم (21)، بتاريخ 10 أبريل 2018، السيد عبد الله، 68 سنة، من قبائل آيت باعمران.

² منديب، عبد الغني، الدين والمجتمع دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006، ص. 158.

مورس طقس تقديم الماء في الحضارات القديمة بطرق مختلفة، ففي الحضارة السومرية يسمى هذا الطقس بطقس "المي نقو"، وهو طقس سكب الماء لإرواء ظمأ الميت؛ حيث كان الماء يسكب عبر أنبوب فخاري ينزل من سطح الأرض إلى العالم الأسفل. وعثر في الأضرحة الخاصة بالملوك في أور على منافذ خاصة لهذا الغرض.¹

𐤅𐤇𐤇𐤃𐤕 𐤐𐤐𐤕𐤕 𐤇𐤕𐤕𐤕	(إِقْوَعُ رُوحُ نَسْ أَيْتَمًا)	لقد توفي يا إخواني
𐤕𐤕 𐤅𐤐𐤕𐤕 𐤕𐤕𐤕𐤕 𐤅𐤕𐤕𐤕𐤕	(أَتْ إِرحم رَبِّي الْكَلْبَيْنِ)	اللهم ارحم المسكين

يعتقد الناس في آيت باعمران أن سبب بقاء عين المتوفى شاردة في السماء لحظة موته راجع إلى كونه كان يراقب روحه وهي تصعد إلى السماء، كما يعتقد أيضا أن هذه اللحظة تشرف عليها الملائكة، حيث أخبرتنا السيدة خديجة أنها كانت حاضرة لحظة موت أب زوجها، حيث قالت:

قَبْلَ أَذِ إِفْوُغِ رُوحِ نَسِ إِكْلَيْنِ، نَكْصَا إِكْرَا نَ وَاصُو إِفْوُلْكَيْنِ غَ لَبِيتْ إِنَّا أَنْعَ سَيِّ لُبَشِيرَ لَمَلَايَكَةِ نَ رَبِّي أَيَّانَ
أَوْشَكَانْدَ أَذِ أَوْبَنْتَ رُوحِ نَسِ "

⁴ مقابلة شفوية رقم (22)، بتاريخ 11 أبريل 2018، السيدة خديجة، 63 سنة، قبيلة آيت النص.

"قبل خروج روح المسكين انتشرت في الغرفة رائحة طيب، وأخبرنا السيد البشير¹ أن ذلك يدل على حضور الملائكة لقبض روح المحتضر."

يسارع الأحياء بعد خروج روح المحتضر إلى تغطيته بإزار أبيض، أو أي غطاء آخر في انتظار وصول المغسلين لتغسيله وتطهيره، ويعتبر الجطاري ذلك بأنه حماية لجسد الميت. يقول: "بمجرد ما تغادر الروح جسمه (الميت) يقومون بتغطيته حتى لا تسكنه روح أخرى، وهذا الثوب يقوم بدور الوساطة بين الأموات والأرواح المنتشرة في الأرض."²

في حين تعتقد السحيري بأن الغرض من هذا الطقس هو طمأنة الأحياء، وتسكين خوفهم العميق من الجثة. تقول: "تستجيب التسجية³ لرغبة في الهروب من الموت وإقصاء كل ما يذكر ببشاعته."⁴ بذلك يكون هذا آخر ما يشهده مجلس التلقين وآخر ما يقدم الملقن لجسد الميت، ليبقى هذا الأخير على هذا الحال إلى حين وصول المكلفين بتغسيله وتطهيره قبل دفنه.

3. التغسيل

عُرفت طقوس تغسيل الموتى منذ الحضارات الإنسانية القديمة؛ حيث كان تطهير الميت عند السومريين ومن ثم عند البابليين والآشوريين يجري بطريقتين: إما الغسل بالماء أو الحرق، أما عند المصريين فكان طقس غسل الميت بماء النيل يستبق عملية التحنيط، وكان هذا الغسل عاملاً طقسياً إلى أبعد مدى، لأن المصري رأى فيه رمزا لأسطورة خلق الشمس من ماء النيل، وانحسار مياه الفيضانات، لذلك فغسل الميت ليس بطقس إسلامي جديد، فقد عرفه العرب من قبل، وكذلك الحضارات ما قبل الإسلام.

وتعتبر طقوس التطهير من السلوكات التي يقوم بها الأحياء إزاء الجسد الميت؛ ففي آيت باعمران تبدأ طقوس تجهيز الميت بتطهير جسده، وطبعاً يبقى الهدف من هذا الطقس تخليص الجسد من النجاسة، وإعطاء الجسم قدرة أكبر على الصمود أمام التفسخ والانحلال من خلال استخدام مادة "الكافور". ورد ذلك أيضاً في نص لابن أبي زيد جاء فيه:

¹ سي البشير حوالي 60 سنة، فقيه وأحد أقارب المتوفى، كما أنه المشرف على مهمة التلقين.
² الجطاري، بلقاسم، الطقوس الجنائزية في التراث الأمازيغي، في مجلة حفريات مغربية، وجدة، دار النشر الجسور، الطبعة الأولى، 2001، ص. 48.
³ التسجية: هي تغطية الشيء، يسجي الميت بثوب أي يغطي به.
⁴ السحيري، المرجع السابق، ص. 333.

ويقول البطاري: "إن نظافة الأموات حظيت بأهمية كبيرة؛ حيث إن الأمازيغ القدامى كانت لهم عادة تعطير الماء الذي يغسل به الميت"²، واعتبر البطاري ذلك من بين الطقوس التطهيرية التي يحظى بها الميت قبل دفنه، ذلك ما وجدناه أيضا ضمن الممارسات الطقوسية لقبائل آيت باعمران من خلال ما أشار إليه السيد عبد الله بقوله:

"عَمَادُ إِرْرِينَ كَانْتَيْنِ مِيدُنْ أَرْ تَغَانْ إِفْرُونْ نْ أَرْكَارْ غْ وَامَانْ لِي سِرَادْ سِيرْدُنْ لَمَآيَيْتْ".
 "في القديم كان الناس يضعون أوراق شجرة السدر في الماء الذي سيغسل به الميت".

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 53.

³ مقابلة شفوية رقم (23)، بتاريخ 10 أبريل 2018، السيد عبد الله، 68 سنة، من قبائل آيت باعمران.

⁵ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

مناسبة، كالحياض العصبي والعرق، فضلا عن ورعه وانقطاعه في معظم الأوقات للتعب، بعيدا عن الشأن الذي تحمله القبيلة. وفي صفوف النساء لا يسمح لغسل الموتى إلا لزوجة إمام المسجد، أو أرملة مجردة من اللباس العرقي، أو مطلقة متقدمة في العمر، مواظبة على الصلاة في أحسن الأحوال¹.

ويعتقد حقي أن الميت منذ النصف الثاني من القرن 4هـ/10م لم يعد يبحث عن غاسل فقط، بل يريد غاسلا زاهدا لمباركة جسده، فأبو جعفر عمر بن عبادل الزاهد (ت 378هـ/988م) يوصي صديقا له بغسله، وكذلك فعل يحيى بن عبد الرحمن الأصبهاني (ت 608هـ/1211م) من غرناطة. هناك أيضا من يبحث عن المتصوفين لنفس الغرض أي مباركة الجسد. ويقول في ذلك ابن عبد الملك: "عندما حضرت المنصور [الموحدي عام 595هـ/1199م] الوفاة عهد أن يتولى غسله أبو موسى [عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت] تبركا به."² من هنا يظهر أن هناك معايير في اختيار المغسل أو المغسلين إذ لم يعد الإلتقان لوحده كافيا، بل أضيف إلى ذلك أن يكون المغسل شخصا زاهدا متصوفا، لما يضيفه ذلك إلى جسد الميت كالبركة والستر لعيوبه.

تتطلب الطقوس بإعداد المكان المناسب وكل الأدوات والتجهيزات التي سيحتاجها المغسلون أثناء التغليف، ونظرا لقلّة التجهيزات الضرورية في الماضي، يلجأ أغلب السكان إلى تغسيل موتاهم في نفس الغرفة التي مات فيها، ويستعمل في ذلك باب إحدى الغرف الذي يتم نزعها من مكانه، ويوضع على أربعة أحجار وفوقه قطعة من البلاستيك، مهمتها تجميع المياه المستعملة أثناء التغليف من أجل تفرغها فيما بعد خارج المنزل، بالإضافة إلى منع الماء من الوصول إلى الباب الخشبي نقاديا لإتلافه. توضع الجثة على الباب الخشبي للتغليف، ويشرف على هذا الطقس الفقيه بمساعدة شخصين آخرين، مع الإلحاح على عدم حضور غير المغسلين، لأن ذلك يدخل ضمن خيانة الستر وإكرام الميت، إضافة إلى عدم تحمل رؤية ذلك المشهد خاصة أبناء الفقيد، كونهم لن يستطيعوا نسيان آخر مرة رأوا فيها والدهم وهو ممدد على لوح من الخشب شبه عار، يغسله أشخاص ربما غرباء عنه، ذلك ما أكده الركوك؛ حيث اعتبر طقس تغسيل الميت حدثا يثير الكثير من العواطف³، ولهذا يلجأ المغسلون إلى إغلاق باب الغرفة كي لا يشاهد أحد الجثة، فربما يكون فيها تشوه أو شيء من هذا القبيل، وطبعا يستثنى من ذلك أبناء الفقيد إن هم أرادوا حضور طقوس التغليف والتكفين.

¹ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 25.

² حقي، المرجع السابق، ص. 55.

³ Ragoug, ibid, p.8.

يبدأ الطقس بانتزاع الملابس على جسد الميت، وتقطيع التي لصقت به في حالة ما لزم الفراش لمدة طويلة، ولم يستطع أهله تغييرها له. يسكب أحد المغسلين الماء الدافئ على مختلف مناطق جسد الميت. وجدير بالذكر أنه في الماضي تستعمل أوراق شجرة تسمى +٥٥٥+ (تأمراً) أثناء التغليف كبديل للشامبو والصابون. يقوم المغسل الثاني (الفقيه) بتعصير بطن الميت؛ حيث يساعده في ذلك المغسل الثالث (المساعد) من أجل ذلك يلبس المغسل قفازات من البلاستيك أو خرقة من الصوف في القديم، من أجل تنقية مخارج الجثة من الفضلات ثم الاستجاء والوضوء لها، بداية بالمضمضة باستعمال ثوب أبيض صغير يدخله المغسل في فم الجثة من أجل غسله وتنقية أسنانه، يليه الاستنشاق بوضع الماء في أنفه ثم يميله جهة اليمين لإفراغ الماء، لينتقل بعد ذلك لغسل الوجه واليدين، ثم يسكب المغسل الأول الماء على سائر الجسد بداية بالجهة اليمنى ثم اليسرى، ومن الأعلى نحو الأسفل.



الصورة رقم (14): تمثيل لطقس تغسيل الميت، من أرشيف جمعية مغسلة الرحمة، 2019

يصف منديب هذا الطقس بقوله: "يغسل جسد الميت بالماء الساخن والصابون، ويقوم المغسل بتدليك كافة أعضاء الجثة الهامدة بواسطة قطعة من القماش المخطط (الخرقة)، باستثناء الفم والأعضاء التناسلية التي يستعمل المغسل في تنظيفها يد الميت نفسه¹. من جهته تحدث حقي عن بعض الحالات التي يوصي فيها الميت قبل موته بغسل بماء معين يقول: "أن أبو جعفر اسحاق بن اسماعيل من آل

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

أمغار (ق 6 هـ / 12م) من رباط عين الفطر يوصي بغسله بماء البحر المالح، وكان لأهل هذا الرباط عادة لا يتنازلون عنها وهي غسل موتاهم بماء بئر أبي عبد الله محمد الموجود بمسجده تبركا به وتشفعا به لموتاهم¹.

يشترط في طقس التغليف وجود ثلاث أشخاص، المغسل الأول مهمته تدفئة المياه وسكبها على مختلف مناطق الجسد كل ما طلب منه ذلك، إضافة إلى تجميع المياه المستعملة في أنية ورميها خارج المنزل، المغسل الثاني هو المشرف على الطقس، مهمته تنقية الجثة والوضوء لها، المغسل الثالث مهمته المساعدة في قلب وتحريك جسد الميت لتسهيل عملية التغليف.

ينشف جسد الميت بعد الانتهاء من التغليف باستعمال المناشف، تحضيراً لطقس التكفين. وهنا يحرص المغسلون على جمع كل الأشياء والأدوات المستعملة في التغليف كالصابون المتبقي والخرقة وبقايا شعر الميت لرمي كل ذلك بعيداً أو حرقه، وذلك لكون هذه الأغراض تستعمل كثيراً في أعمال السحر والشعوذة كما رأينا ذلك في الفصل السابق. يقول منديب في هذا السياق: "يعتقد عدد كبير من المستجوبين أن الأدوات التي استعملت في تغسيل الميت وتكفينه ودفنه تصير منبعاً لقوى سحرية وذات مفعولات فوق طبيعية، قادرة على إحداث الضرر بالناس، لذلك يحرص أهل الميت على الاحتفاظ بها بعيداً عن تناول بعض النساء الراغبات في استعمالها"². لذلك يلجأ ذوي الميت إلى دفن هذه الأدوات لاتقاء شرها.

4. التكفين

لا يدخل التكفين ضمن التحضيرات التي سبق وأشرنا إليها، ويقتضي إعداد مكان خاص به، ويكون ذلك غالباً في نفس الغرفة التي غُسل فيها الميت؛ إذ لا يستقيم أن تغسل جثة في غرفة وتكفن في غرفة أخرى. والكفن هو غطاء خاص يستخدم لتغطية الموتى، والتكفين هو المرحلة الثانية من مراحل تجهيز الميت قبل الدفن. وقد عُرف هذا الطقس قبل ظهور الإسلام؛ حيث يذكر ابن حبيب أن العرب قبل الإسلام كانوا يكفنون موتاهم³.

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 53.

² منديب، المرجع نفسه، ص. 160.

³ السحيري، المرجع السابق، ص. 333.

إن أشد ما يحرص عليه الإنسان المغربي عموماً والأمازيغي خصوصاً هو توفيره لكفنه قبل موته. يقول في ذلك حقي نقلاً عن الموعيني أن "أبو وهيب عبد الرحمن العباسي الزاهد (ت 344هـ / 954م) من قرطبة لما وجد ميتاً في منزله، وجد جيرانه إلى جانبه قطعاً نقدية كافية لشراء كفنه"¹.

ويبقى الهم الأكبر إلى جانب توفير الكفن هو أن يكون مصدره من مال حلال؛ حيث ذكر ابن عذاري أن المنصور العمري الحاجب الأموي على غناه وثروته الكبيرة اتخذ أكفانه من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، كما أشار التادلي إلى أن "أبو موسى الذكالي من سلا أوصى جيرانه بدفنه بدراهم تركها وثمان مصحف كان قد اشتراه من أجرة حراسة الكروم في مدينة الإسكندرية"².

كانت الجثة في الماضي تكفن على $\alpha\epsilon\zeta\theta$ (لَمَيْسَانُ) النعش ليسهل نقلها للدفن، وقبل ذلك يلفون الجثة بقطعة قماش أبيض (كفن)، ثم يخيطنونه باستعمال الخيط والإبرة، ولا تقبل في ذلك إلا الخيوط البيضاء لكون الكفن كله من اللون الأبيض، لما يحمله هذا اللون من رمزية تدل على الطهارة والنقاء من الذنوب والخطايا. يقول فخري: "كان اللون الأبيض شعار مصر العليا، وقد اعتبر رمزاً للنقاء والطهارة الروحانية، وكان يضم جثمان المتوفين بالضمدات البيضاء اللون الكتانية تطابقاً بما يرتديه الإله أوزيريس"³، وكان هذا الطقس يأخذ جهداً ووقتاً كثيراً؛ حيث تتراوح مدة التكفين بين الساعتين والثلاث ساعات، لينتقل ذلك إلى ما يقارب النصف ساعة في أيامنا الحالية، معتمدين في ذلك على قطع كفن جاهزة يقتنيها أقارب المتوفى في السوق بثمن يتراوح ما بين مائة وعشرون ومائة وخمسون درهماً، وتتراوح القطع المكونة لكفن الرجل بين ثلاث قطع و خمسة، أما كفن المرأة فيتكون غالباً من سبعة قطع. يقول منديب في هذا الصدد: "يتم تكفين الميت في ثوب أبيض يقسم إلى ثلاث قطع سروال وصدريّة مخاطان بشكل سريع وقطعة ثالثة غير مخيطة تلف فيها الجثة بكاملها"⁴.

ويشترط في الكفن أن تكون القطع المكونة له عدداً فردياً، فبالنسبة لكفن الرجل يتكون من فوقية، سروال، جوارب، عمامة الرأس، إضافة إلى الغطاء الخارجي الذي تلف فيه الجثة. يقول السيد عبد الله عن سر تحديد العدد الفردي في الكفن وفي باقي الطقوس الجنائزية:

"الله واحد لا شريك له" "رَبِّي إِكَّا غَارَ يَانَ" « $\alpha\epsilon\zeta\theta$ $\epsilon\chi\theta$ $\gamma\theta\theta$ $\kappa\theta\theta$ »

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 59.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 59.

³ فخري، المرجع السابق، ص. 324.

⁴ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

⁵ مقابلة شفوية رقم (24)، بتاريخ 10 أبريل 2018، السيد عبد الله، 68 سنة، من قبائل آيت باعمران.

يشير السيد عبد الله في قوله إلى تفضيل العدد الفردي على الأعداد الزوجية، لكون الله واحد لا شريك له، الشيء نفسه أكده حقي بقوله: "يستحب أن يكفن الميت في وتر من ثلاثة أثواب أو خمسة أو سبعة وما جعل له من إزار وقميص وعمامة فذلك محسوب في عدد الأثواب الوتر". ويوضح ابن رشد ذلك أكثر بقوله: "إن تكفين الرجل يتم في ثلاثة أثواب والمرأة في خمسة".¹ نسجل هنا إذن خضوع الطقوس الجنائزية لمبدأ الوتر: ثلاثة أثواب للرجل، وخمسة للمرأة، كما نلاحظ اعتماد اللون الأبيض وهو لون الطهارة والنقاء.



الصورة رقم (15): تمثيل لطقس تكفين الميت، 2018

يردد أمازيغ سوس أثناء تحضير كفن الميت أبياتا شعرية، ذلك ما أشار إليه الجطاري، حيث أورد أبيات شعرية خاصة بهذه المرحلة، ونجد من بينها:

أيا وگمي نآيت ربي بيد ناغ گيس أمولانا
 زلات ابندام تامنت سربي أما لارزق توران كولو²
 "آه على الدار الآخرة ساعدنا فيها يا ربنا"
 "صلي وآمن بالله يا إنسان أما الأرزاق فهي مكتوبة"

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 60.

² الجطاري، المرجع السابق، ص. 52.

يتم تحضير مستلزمات التطيب التي سيتم استخدامها في التكفين، ومن هذه المواد: القرنفل، الكافور، المسك، والعود. تخلط هذه المواد وتجمع على شكل أعمدة صغيرة ملفوفة في القطن، وتوضع على مناطق مختلفة من الجسم، كالعينين، الأنف، الفم، تحت الإبطين، بين أصابع اليدين والرجلين، والمخارج، لاعتبارها المناطق التي تسبق إلى التحلل، وبالتالي تنبعث منها روائح كريهة. وقد أشار إلى ذلك منديب بقوله: "يوضع داخل الكفن مجموعة من المعطرات تسمى محليا "بالحنوط"، وتتألف من وريقات الورد والريحان وحبات الحرمل وقنينة من ماء الزهر"¹.

وتستعمل "الحنوط" حسب القسطلاني قصد التطيب للمصلين والملائكة، وتقوية البدن ودفع الهوام وردع ما يتحلل من الفضلات، ومنع إسراع الفساد إلى الميت². ومن جهتها ترى السحيري أن الغاية من استعمال "الحنوط" هو تأجيل تحلل الجثة، وذلك يعود بالنفع على الميت والأحياء المصلين عليه والملائكة، وهو يستجيب لشعور عميق كوني بالرهبة من تحلل الجثة وفسادها، ولعل هذا التحلل من الأسباب التي تجعلها نجسة³.



الصورة رقم (16): نثر الحنوط على جسد وكفن الميت، 2018

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

² السحيري، المرجع السابق، ص. 332.

³ السحيري، المرجع نفسه، ص. 332.

"لما توفي رجل عجوز في القبيلة في مساء أحد الأيام، غسله الفقيه ومساعدته، وكفنوه استعدادا لدفنه، إلا أنهم لم يدركوا ذلك نظرا للوقت المتأخر جدا، وتواجد المقبرة خارج القرية ولا إنارة فيها، لذلك انتهى بهم الأمر إلى ترك الجثة في نفس الغرفة حتى الصباح ليتم دفنها. بعد بزوغ شمس الصباح وتجمع أهل القرية لنقل الجثة، وأثناء حملها على النعش لاحظ أحدهم أن الكفن غير مربوط، مما جعله يطلب الفقيه ليتفقد الأمر ويصلح ما كان ناقصا، إلا أن صدمة هذا الأخير كانت قوية بعدما وجد سلحفاة داخل الكفن وقد لصق على ظهرها صورة فتاة تنتمي إلى نفس القبيلة، رسمت عليها رموز وطلاسيم كثيرة".

سألنا السيد عبد الله عن هذه الواقعة وما مدى صحتها، فأخبرنا أن ذلك صحيح، وأضاف: "هناك من النساء من تستغل انشغال أهل الميت وحزنهم للتسلل إلى الجثة وقطع يدها، لاستعمالها في طهي وإعداد الكسكس المعروف بكسكس يد الميت"¹.

هكذا حرص الأمازيغ على إعداد الكفن بعناية واختيار أصلح الأثواب، من خلال التأكيد على أن يكون ثمنه حلال، واختيار ملابس لها دلالة خاصة، كالثوب الذي يصلي به الميت صلاة الجمعة والأعياد، هذا إلى جانب اختيار مغسلين معروفين بالزهد والورع، وبعد الفراغ من طقوس التجهيز يستدعى أقرب الناس إلى الميت كالأبن أو الأخ لإلقاء النظرة الأخيرة عليه قبل أن يغلق الكفن، ليصبح بذلك جاهزا لمغادرة البيت إلى دار البقاء.

¹ مقابلة شفوية رقم (26)، بتاريخ 11 أبريل 2018، السيد عبد الله، 68 سنة، من قبائل آيت باعمران.

١١. الدفن والموكب الجنائزي

يعتبر الدفن من أهم الشعائر في الطقوس الجنائزية؛ بحيث لا يجوز التخلص من الجثة بأي طريقة أخرى غير دفنها في المقبرة، كما أن الديانات السماوية لم تبح حرق جثمان الأموات، بل إن أتباع هذه الديانات يضعون قبور أمواتهم في أفضل المواقع في المدن. وتبقى القاعدة العامة في الدفن هي الإسراع بدفن الميت مباشرة بعد موته، إلا في حالة كان هناك من الظروف ما يحول دون ذلك؛ كأن تقع الوفاة بعد دخول الليل أو طلب أحد أبناء الفقيد عدم الدفن لحين وصوله.

وتعتبر مجموعة من الوقائع التي تحدث في فضاء المقبرة من المؤشرات القوية التي تحدد مصير الميت في العالم الآخر، ومنها سهولة حفر القبر واستيعابه لحجم الجثة، بحيث يحكى في قبائل آيت باعمران أنه أثناء وفاة شخص معروف ببطشه وطغيانه ذهب شخصان لحفر قبره، إلا أنهما وجدا صعوبة في ذلك، فكلما بدؤوا الحفر في مكان إلا ويجدون الصخور تعيقهم، ولا تدع لهم مكانا للحفر، وظل الوضع على حاله إلى حين حضور فقيه المسجد ليرى ما يحدث بنفسه. وخلص بعد ذلك إلى أن أهل المقبرة لم يقبلوا بدفن هذا الشخص بالقرب منهم، واقترح عليهما الحفر في مكان معزول بعيدا عن باقي القبور، وعندما جربوا ذلك نجح الأمر ولم يجدوا الصخور التي كانت تعيقهم¹. يؤكد منديب هذا الطرح بقوله: "تعتبر مجمل الأحداث التي تقع خلال هذه المرحلة حسب الاعتقاد السائد بمثابة علامات مؤشرة على مصير هذا الميت في العالم الآخر؛ فتشهد الميت وسهولة خروج الروح وليونة مفاصل أطراف الجثة الهامدة، واستيعاب القبر لحجمها وكثرة المشاركين في الموكب الجنائزي، وغيرها سمات دالة على صلاح الميت وحسن مآله والعكس صحيح"².

وإذا كنا تحدثنا في المبحث السابق عن طقوس ما قبل الدفن، فإننا سنخصص هذا المبحث لوصف وتحليل الطقوس الخاصة بمرحلة الدفن، وذلك من خلال الطقوس التالية: حفر القبر، موكب الجنازة، صلاة الجنازة، دفن الميت. فما هي إذن هذه الطقوس؟ وما المعاني والدلالات التي تحملها؟ وما المعتقدات التي يؤمن بها أصحابها؟

¹ رواية شفهية رقم (26)، بتاريخ 11 أبريل 2018، السيد محمد 55 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.

² منديب، المرجع السابق، ص. 160.

1. نُبْرِيح

لُنْبْرِيحُ هو أسلوب تواصلِي غايته إيصال الخطاب إلى أهل القبيلة، وذلك لتنظيم العلاقات الاجتماعية. عادة ما يتم استعماله في أوقات الشدة كحالة الحرب أو اكتساح الجراد، أو الصراعات القبلية أو تنظيم علاقات سوسيو اقتصادية، خاصة عندما يتزامن وقت الحصاد مع جمع حبات الأركان¹، أو في حالة وفاة شخص معين، أو لإعلاء كلمة الحق أو إشهار رمضان، أو العيد أو زيارات القواد والبشوات أو غيرهم من السلطات المحلية للقبائل.

كانت عادة أهل المغرب والأندلس في الإعلان عن الوفاة في العصر الوسيط النياح والصياح؛ بحيث يرتفع عويل وبكاء أهل الميت لحظة خروج روحه، ويبقى هذا النوع من الإعلان عفويا، نظرا لعدم تقبل أهل الميت فراقه، كما يعتمدون أيضا الرسائل في تبليغ خبر الوفاة؛ حيث يبعثون بها إلى من له علاقة بالميت، هذا إلى جانب بعث أشخاص لتبليغ الخبر شفويا². في آيت باعمران يتكلف إمام المسجد أو المؤذن بإخبار الناس بحدوث الوفاة بشكل منظم، ويستعمل في ذلك مكبر الصوت بالمسجد؛ ينادي في الناس، ويقول: "صلاة الجنازة رحمكم الله" ثلاث مرات. أورد الونشريسي هذه العادة في التبليغ في فتوى جاء فيها: "... أهل موضع عادتهم إذا مات لهم إنسان يصعد أحدهم في ربيع النهار في المنار في الجامع الأعظم ويقرأ شيئا من القرآن ويذكر نحو ما يفعل المؤذن بالليل، ثم يدور في المنار ويقول مات فلان وجنازته في كذا، إلى أشياء كثيرة من نحو ذلك"³.

وجاء في فتاوى البرزلي أن مناسبات الوفاة خلال العصر الوسيط لم تكن مصحوبة بعبادات مطابقة تماما للمذهب المالكي كما ضبطه الفقهاء؛ مثل حمل جثث الأموات إلى المساجد، واستقبال جنازات الأولياء الصالحين بالزغاريد والأهازيج، كما كان المذهب المالكي يستكر الإعلان عن الوفيات في المحلات العمومية بصوت مرتفع، ومع ذلك كانت كل هذه العادات رائجة في إفريقيا⁴. وحسب السحيري، فإن الإعلان عن الوفيات في المحلات العمومية قد أقرها الأبى خلافا لشيخه ابن عرفة، واعتبرها بدعة مستحسنة، وذلك عندما يكون المتوفي شخصا ورعا، فتحصل البركة لمن يحضر جنازته⁵.

¹ أركان: شجر نادر يتواجد بشكل كبير في جنوب المغرب، وخصوصا بمنطقو سوس، يستخدم زيت هذه الشجرة في المطبخ التقليدي، كما يستخدم لخواصه التجميلية والعلاجية.

² حقي، المرجع السابق، ص. 45 - 46.

³ المرجع نفسه.

⁴ السحيري، المرجع السابق، ص. 330.

⁵ المرجع نفسه.

يرى الجطاري نقلا عن L.V. Thomas بأن بعض القبائل الأمازيغية كانت تحاول ألا تذكر اسم الفقيد؛ بحيث كانت تستخدم الناي كوسيلة لإخبار القبيلة بموت شخص ما، ويصاحب هذا الناي بكاء وصراخ النساء اللواتي يقمن بدائرة حول جثة الميت، ويرثونه بالأبيات التالية:

أيا مارك أمان أور نوفي بيدات تاغكيس أمولانا

أيا مارك أمان أور نوفي زيلات أنبي مولانا¹

آه على الشوق بعد الفراق ساعدنا هناك يا ربنا

آه على الشوق بعد الفراق صلوا على النبي مولانا

يرافق هذا الرثاء صراخ النساء وبكاؤهن، وهو بمثابة تعبير تلقائي عن الألم؛ بحيث يكون لهذا الرثاء تأثير عميق على سامعيه، خاصة أن الصرخة الأولى تصدر عن أقارب الفقيد كزوجته أو أخواته أو بناته.

وعرف طقس نُبريخ أو إعلان الموت تغييرا كبيرا في طريقة ممارسته بين الماضي والحاضر، سواء في المجال القروي أو الحضري، ففي المجال القروي عوض أن ينادي المؤذن لإقامة صلاة الجنازة يكتفي بوضع شريط قرآني مسجل ليُعرف أهل القبيلة أن الأمر يتعلق بجنازة، ويلتحقوا بفضاء المقبرة لتشجيع الجنازة وإقامة الصلاة عليها، رغم جهلهم في البداية بهوية المتوفى.

أما في الوسط الحضري، فالتقليد المتبع هو أن أهل الميت يحتفظون بالجثة حتى حين وصول وقت إحدى الصلوات المفروضة، ليسيروا في موكب من السيارات اتجاه المسجد، وبمجرد فراغ الإمام من الصلاة، يقوم من مكانه مخبرا المصلين بوجود جنازة كي لا يغادر أحد، مع ضرورة الإشارة لنوع الجثة هل هي للذكر أو الأنثى، ويقول حينها:

صلاة الجنازة رحمكم الله.....جنازة رجل/امراة.

يلجأ الناس في أيامنا الحالية لعدة طرق لإعلان الوفاة، ومن هذه الطرق وسائل الاتصال كالهاتف، وعبر الرسائل القصيرة، أو نشر خبر الوفاة بصفحات مواقع التواصل الاجتماعي "كالفيسبوك" أو "الوتساب"؛ إذ بمجرد نشر الخبر تنطلق الاتصالات والرسائل النصية مستفجرة عن الميت، وأسباب الوفاة، فيلتحق أغلب أفراد العائلة إلى بيت المتوفى رغم ظروف العمل وأحيانا بعد المسافة، حيث يعتبر

¹ الجطاري، المرجع السابق، ص. 50.

البعمرانيون الصلاة على الميت، وحضور الدفن من الأمور المقدسة التي لا يجب على الإنسان إهمالها، رغم الخصومات التي تحدث بين أفراد القبيلة.

2. حفر القبر

يتجه أغلب السكان بعد إعلان الموت داخل القبيلة إلى منزل المتوفى لتقديم العزاء أولاً، ثم للمساعدة في إعداد الميت للدفن، في حين يتجه فريق آخر مكون من شخصين أو ثلاثة أشخاص إلى المقبرة لحفر القبر وتجهيزه حسب نوع الجثة ومكان وفاتها. فقبور المتوفى في المستشفيات العمومية وكذا المصحات الخاصة يكون كبيراً لأن الجثة توضع في صندوق خشبي قبل دفنها، في حين أن الأشخاص المتوفون في منازلهم لا يوضعون في أي صندوق، وبالتالي قبرهم يكون أصغر حجماً من السابق.

يلجأ الناس في قبائل آيت باعمران إلى دفن أمواتهم تجنباً لتشرّد أرواحهم، كما أن عدم دفن الميت عند الأمازيغ يعتبر تدنيساً وانتهاكاً للحرّمات ولو كانوا أعداء، ذلك ما أكده الجطاري بقوله: "إن القبر لا يعتبر مجرد مكان تودع فيه الجثة، ولكنه أيضاً مأوى للروح، مما يجعلهم يتجنبون حياة التشرّد التي تعتبر في نظرهم المآل والقدر الأكثر بأساً، ومن المحتمل جداً أن الأرواح التائهة والصارخة في الجبال هي أصوات الأرواح غير المدفونة، حيث يعتبر الأمازيغ القدامى أن كل الأرواح تتخذ شكل طائر ليلي، "الغراب"¹. المعتقد نفسه نجده حاضراً بقوة عند آيت باعمران؛ حيث يسمون هذا الطائر XEXE I "أكْضِيضْ نُلْمُوْثْ" (طائر الموت)؛ إذ بمجرد أن يطير حول إحدى المنازل، مصدراً تلك الأصوات التي يعتبرونها مزعجة تحدث الوفاة في تلك العائلة، لذلك أثناء سماعهم له يهرعون إلى قرع الطبول بكل قواهم حتى يطير بعيداً عن المنزل.

يستعمل الناس في القديم لقياس طول القبر في آيت باعمران، وباقي القبائل المجاورة ما يصطلح عليه بـ 𐤀𐤌𐤌𐤍 "أَسْقُول"؛ وهو قصب يستعمل كوحدة للقياس. هنا تبدأ المرحلة الأولى من طقوس حفر القبر؛ حيث يأخذ المكلف بعملية الحفر القصب المسمى "أَسْقُول"، ويضعه على جسد الميت ليقاس طوله، ثم يقطع ذلك القصب حسب طول الحثة، وبأخذه للمقبرة لتبدأ عملية الحفر. أما عرض القبر فهو

¹ الجطاري، المرجع السابق، ص. 49.

معروف لدى عامة الناس بعبارة +oOΛoЖ+ "تَارَذَاژَتْ". يشير منديب إلى ذلك بقوله: "يوضع الميت على جانبه الأيمن داخل قبر لا يزيد طوله عن المترين ولا يتجاوز عرضه الثلاثين سنتمترا (شبر)"¹.

يرمي الحفار أثناء الحفر "أَسْقُولُ" ليقس طول القبر، كي لا يحفر قبرا كبيرا، وبالتالي لا يستهلك مساحة أكبر من فضاء المقبرة، فبمجرد دخول قصب "أَسْقُولُ" في القبر يتوقف الحفار عن الحفر، لينتقل إلى إعداد الحجارة التي سيغطي بها القبر، وتسمى هذه الأخيرة "الحدود"؛ وهي حجارة مسطحة على شكل ألواح يغطي بها القبر، ويتراوح عددها بين خمسة أحجار وسبعة حسب طول كل جثة، كما يشترط أن تكون هذه الألواح عددا فرديا.

سجلنا عدة اختلافات بين طقوس الدفن في الوسط القروي والوسط الحضري، فعلى مستوى الوسط الحضري تتكلف الجمعيات بإعداد الألواح الإسمنتية التي يغطي بها القبر، وهنا انتقل عدد هذه الألواح من العدد الفردي إلى عدد زوجي، وبالتالي اختفاء طقس الأعداد الفردية من الطقوس الجنائزية المؤداة في الوسط الحضري. إضافة إلى طرق وأدوات الحفر، أشرنا في الوسط القروي إلى استعمال "أَسْقُولُ" كوحدة للقياس، أما في الوسط الحضري فهناك مقاييس محددة منشورة في نموذج القرار الجماعي (أنظر الفصل الثاني)، وتستعمل في تحديد هذه المقاييس المتر، كما أن الجمعيات في الوسط الحضري لا ينتظرون حدث الوفاة لحفر القبر، بل تلجأ في كل مرة إلى حفر أزيد من عشرة قبور في المرة الواحدة، وبعد الوفاة يكون القبر جاهزا مسبقا.

تشمل الاختلافات كذلك المسؤولين عن الحفر، ففي الوسط القروي يتكلف بهذه المهمة أقارب الميت أو جيرانه أو أصدقائه؛ حيث يحفرون قبر الميت بدون مقابل مادي، بل هناك من يعرض على عائلة المتوفى المساعدة، ويبتغون في ذلك جزاء من عند الله. عكس الوسط الحضري؛ حيث يوجد ممتهني هذه المهنة يسمون بـ "حفاري القبور"؛ وهم أناس يقضون يومهم بفضاء المقبرة ينتظرون حدوث الوفاة ليتم تكليفهم بحفر القبر مقابل مبلغ مالي لا يتجاوز في الغالب سبعون درهما.

توكل لمن سيحفر قبر الميت في آيت باعمران مهمة جلب أغصان شجرة السدر؛ وهي شجرة معروفة بأشواكها الحادة، حيث توضع أغصانها على القبر، وتتمثل وظيفتها في حماية القبر من العبث به، ذلك ما أشار إليه السيد عبد الله بقوله:

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 160.

"إِصْكِيضُنْ نْ أَرْكَازَ عَيْدْ كَا أَغْ أَتْنْ تَكَّانْ مِيدْنْ أَمَارْ لُوحْشْ، أَدْ أَوْرْ إِلْدِي لَمَيَّتْ غْ لَقْبَرْ نُسْ".
 "وضع أعصان السدرة على القبور هو اختراع محلي؛ حيث يخاف الناس من أن تنبش الحيوانات
 كالخنازير والضباع القبر لتأكل الجثة".



كانت ساكنة آيت باعمران والقبائل المجاورة في الماضي تعاني من حفر الخنازير والضباع للقبور الحديثة، وهو ما شكل انتهاكا لحرمة المقابر، فكما تحكي الروايات الشفوية بهذه المنطقة أن هناك حيوان يسمى بالأمازيغية ⵙⵉⵎⵉⵏ ⵙⵉⵎⵉⵏ "ضبع القبور"؛ وهو متخصص في نبش القبور الحديثة الدفن، وحمل الجثث لأكلها. ذلك ما أشار إليه جهادي في معرض حديثه عن صلحاء آيت باعمران. يقول: "وهناك صالح يسمى سيدي واملحافت... وكان يخاف من الضبع، إلى حد أنه ترك وصية لتحصين قبره حتى لا يأكله ذلك الوحش الذي تسلط على استخراج الموتى من المقابر ليلا بجواره، ثم يجرها إلى

222

مغاراته حيث يغذي جراهه، وكان الناس يتعجبون من خوف هذا الفقيه من هذا الوحش ولو كان في قبره، وبعد وفاته نفذت وصيته، وحسن الناس قبره بالزرب المشوك وبالحجارة حتى ما حوله، وقال لي سيدي إبراهيم فقيه المدرسة: ورغم ذلك نقب عنه الضبع من بعيد حتى وصل إليه في قبره، فأكل قليلا من راحة يده، فأدركه الصباح فانصرف، وكأن المرحوم علم بذلك، ومن خاف شيئا سلط عليه¹.

توضع على القبر بالإضافة إلى أغصان شجرة السدر جرائد النخل؛ حيث يعتقد أن وضعها على القبر يخفف العذاب على من بداخله، وهذا ما ذكر في حديث جابر في "صحيح مسلم" (231/8) _ (232) وفيه قال الرسول: "إني مررتُ بقبرين يعذبان، فأحببت بشفاعتي أن يردَّ عنهما ما دام الغصنان رطبين"². يتبين من خلال الحديث المذكور أن سبب تخفيف العذاب عن الميت في القبر هو شفاعته الرسول، وليس رطوبة الأغصان الموضوعة على القبر، وإلا لكان أخف الناس عذابا هم المسيحيون الذين يدفنون في مقابر أشبه ما تكون بالحدائق لكثرة ما يزرع فيها من ورود ونباتات.

3. موكب الجنائز

يجتمع المشيعون أمام المنزل فور انتهاء المغسلين من تجهيز الميت، لينطلق بذلك الموكب الجنائزي في اتجاه المقبرة التي تسمى بالأمازيغية هــ٨٧٧٥٩ (أعماز)، وقد عرف هذا الموكب تغيرات عديدة بين الماضي والحاضر، سواء من خلال التصرفات والأقوال وكذلك الشكل. وتبين هذه الاختلافات بشكل جلي خلال مقارنة بين الموكب الجنائزي في المجال القروي والمجال الحضري. يقول حقي في هذا الصدد: "عرف الموكب الجنائزي تطورا عبر مرحلتين: الأولى تمتد من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن 4هـ/10م، والثانية من 5هـ/11م حتى نهاية العصر الوسيط، وتميزت المرحلة الأولى بتواضع الموكب الجنائزي وبساطته، حيث يتكون من عدد محدود من الناس غالبا ما يكونون أقرباء الميت وأصدقائه وبعض من يرغب في الأجر، المرحلة الثانية أصبحت الجنائز الكبيرة سمة عامة واختصت بها كل فئات المجتمع من خاصة وعامة"³.

رغم بساطة الموكب الجنائزي في القديم وقلة المشيعين، إلا أن هناك حالات استثنائية طبعا؛ فعلى سبيل المثال نجد جنازات الشخصيات من أصحاب النفود وأعيان القبائل وكذلك الشيوخ المتصوفون

¹ جهادي، المرجع السابق، ص. 547 - 548.

² الألباني، محمد ناصر الدين، أحكام الجنائز وبدعها، الرياض، مكتبة المعارف، 1992، ص. 254.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 69.

يحضرها عدد كبير من المشيعين، ويكون الموكب الجنائزي في هذه الحالة عظيما. يقول عياض: "عندما توفي أبو العباس أحمد بن أيوب بن أبي الربيع الزاهد (ق5هـ/11م) بقرطبة انزعجت العامة بموته انزعاجا لم يسمع بمثله، وشهده الناس حتى خلت قرطبة. احتاج أولو الأمر إلى ضبطها وحرس أبوابها حتى فرغ من شأنهم." ، ويقول التادلي : "حضر جنازة أبي يعقوب ابن محمد بن أمغار (ت614هـ/1217م) بأزمور خمسة عشر ألفا أو يزيدون"¹.

يتبين من خلال ذلك بأن موكب الجنازة الخاص بالزاهدين والمتصوفين تكون أكثر ضخامة من غيرها؛ حيث يشارك فيها آلاف الناس من أقارب وأتباع وأصدقاء الميت، ذلك ما أكدته حقي بقوله: "تحظى جناز المتصوفين والزاهدين بعناية وأهمية كبيرين، حيث يتهافت الكل على حمل نعشهم وبل تكسيره وتقسيم أعوده للتبرك بها"². ورصد حقي مجموعة من الحالات التي تم فيها التبرك بالنعش، ونذكر منها جنازة الزاهد محمد بن بالغ (ت قبل 270هـ/884م) بوادي الحجارة؛ حيث انهال الناس على النعش وتمسحوا به، كما تمسح الناس أيضا بنعش أبي وهب عبد الرحمن العباسي (ت444هـ/954م)³.

استعمل سكان آيت باعمران في القديم لنقل جثامينهم إلى دار البقاء أدوات بدائية كباب خشبي مهترئ، أو شبكة تستعمل لجمع الزرع أيام الحصاد، وفي وقت لاحق انتقل الناس إلى استعمال *«لميسان»* (النعش)، وصولا في وقتنا الحاضر إلى استعمال سيارة نقل الأموات، لاسيما إن كانت المسافة بعيدة بين مكان الوفاة ومكان الدفن. تعطى الأولوية في حمل النعش إلى المقبرة لأبناء وأقرباء الميت ليتبعهم بذلك باقي سكان القبيلة، أما النساء فيودعنه بالبكاء والنحيب وهن واقفات أمام باب المنزل، لعدم السماح لهن بمرافقة الموكب إلا في حالات استثنائية، ذلك أكدته منديب بقوله: "تلك اللحظة الرهيبة التي تتعالى فيها أصوات النساء الباكية والمنتحبة مودعة جسد الميت الذي يغادر منزله ممددا على نعش محمول فوق أكتاف أربعة رجال من أقربائه إذ لا يسمح للنساء بالمشاركة في الموكب الجنائزي"⁴. من جهته يصف حقي لحظة خروج النعش من منزل المتوفى بقوله: "ما إن يتجاوز النعش باب البيت حتى تنطلق زغاريد مرعدة من حناجر النساء خلفه تعبيرا عن صلاح الميت وتقواه، كما تتبعه أيضا مجامير البخور التي تفوح منها رائحة الطيب وتضفي على الجو نوعا من القداسة والوقار"⁵.

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 70.

² حقي المرجع نفسه، ص. 74.

³ حقي، المرجع نفسه، ص. 74.

⁴ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

⁵ حقي، المرجع نفسه، ص. 73.

يسير الموكب الجنائزي بخطوات متتالية في اتجاه المقبرة، وهو منقسم إلى قسمين، فريق يحمل النعش والذين يسيرون بمحاذاته، وفريق يسير في الخلف. يردد الفريق الأول بصوت خافت: "لا إله إلا الله"، ويرد عليهم الفريق الثاني بنفس الإيقاع: "محمد رسول الله". في منطقة دكالة ذكر منديب أن الرجال في موكب الجنازة يرددون ترتيلاً من قبل: "مولانا نسعوا رضاك وعلى بابك واقفين لا من يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين"¹، ويقول حقي: "شهد القرن 8هـ/14م استتجار الفقراء والمتصوفة للذكر في الجنائز، وقد عارض العلماء هذه التصرفات واعتبروها بدعة وأقروا كراهيتها كما أكدوا على ضرورة الصمت في الجنائز والتفكير في الآخرة والابتعاد عن كل ما يشغل ذلك، إلا أن هناك من أقر بذلك كمحمد بن غازي الذي أوصى أن يخرج بجنازته بالهيللة وتكرار عبارة يا كريم يا قدير اغفر لميتنا الذليل الحقير بجاه سيدنا محمد البشير النذير ونحو ذلك"². هكذا يرى حقي أن الموكب الجنائزي يخدم الأحياء بنفس القدر الذي يخدم به الأموات إن لم يكن أكثر، حيث اختلط الدنيوي والأخروي بشكل متناسق ومتكامل.

يعتقد الناس في آيت باعمران أن الميت يسمع كل الحاضرين أثناء حمله إلى المقبرة، كما أنه يتحدث إليهم، إلا أنهم لا يستطيعون سماعه، وهنا نميز بين نوعين من الناس: الإنسان الصالح الذي يقول للموكب أسرعوا بي إلى دار البقاء، ويفسر ذلك أنه يرى في تلك اللحظة مصيره الذي هو جنات النعيم، ويرى كل الخيرات التي وعده الله بها لذلك يستعجل الوصول. أما النوع الثاني فهو الإنسان السيء فيقول للموكب: "بالله عليكم إلى أين أنتم راحلون بي" لكونه هو الآخر يشاهد مصيره الذي هو النار³.

تغيرت الوسائل المستعملة في هذه المرحلة في أغلب المدن المجاورة لقبائل آيت باعمران، كمدينة سيدي افني ومدينة كلميم، رغم أن الطقس قائم لا يتغير؛ إذ بدل التوجه إلى المقبرة على الأرجل والنعش محمل على الأكتاف، يلجأ الناس هنا إلى اتخاذ موكب من السيارات تسبقهم سيارة نقل الأموات التي يحمل عليها الميت، تتبعهم باقي السيارات وهي تسير ببطء مستعملة أضواء الإشارة كما في الأعراس. ويتميز موكب الجنازة عن موكب العرس في أن الأول تحضر فيه سيارة نقل الأموات، ولا تكون باقي السيارات مزينة، عكس موكب العرس الذي يطغى عليه الضجيج من خلال الأغاني وأبواق السيارات.

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 159.

² حقي، المرجع السابق، ص. 76.

³ مقابلة شفوية رقم (27)، بتاريخ 11 أبريل 2018، السيد محمد 55 سنة، من قبيلة آيت عبد الله.



الصورة رقم (20): أثناء نقل الميت في موكب جنازي، التقطت الصورة سنة 2020

يشير مزين في مقاله "الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب الجواهر للزياني إلى أن حمل الميت إلى مثواه الأخير حسب المذهب المالكي المتبع يجب أن يتم في خشوع وصمت، إلا أنه يحدث عكس ذلك؛ ففي بلاد غمارة يقرأ الناس القرآن والتهاليل المختلفة وهم في طريقهم إلى المقبرة، بل كان الرجال أقرباء الميت ينوحون ويصرخون، وكانت النساء يحلقن شعرهن ويسلخن وجوههن زيادة على الصراخ والعويل، وكانت العادة في بعض القرى تحتم على النساء تلطيخ وجوههن بالروث والشد على رأسهن بالحبل¹. ذلك ما ذهب إليه أيضا الجطاري بقوله: "أن النساء يتركن رؤسهن عارية وهذا دليل على تحسرن عليهن فيرثونه بعبارات كلها أسي وحرز، ويمزجن ذلك بالصراخ وبحركات يقمن بها كرفع الأيادي وتحريكها"²، وتحدث المؤرخ الفرنسي لا دوري (E.L.Ladury) عن نفس الظواهر في أوروبا المسيحية، واعتبرها تعبيراً عمومياً عن الألم (Expression publique de la douleur)، ويضيف بأن أفراد أسرة الميت يستأجرون "باكيات ممتهات" (Pleureuses à gages) كن يساعدن على انفجار الألم، ذلك الانفجار الذي يمكن أن يكون طبيعياً أو مسرحياً، والذي يسهل تمرير عمل تشييع الجنازة³، ويؤكد المؤرخ الهولندي هوبزينا أن هذا البكاء والصراخ يعبران عن الخوف من الموت وليس عن ألم فراق الميت⁴.

¹ مزين، محمد، الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياني، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المحدية، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، 1995، ص. 110.

² الجطاري، المرجع السابق، ص. 50.

³ مزين، المرجع نفسه، ص. 110 - 111.

⁴ مزين، المرجع نفسه، ص. 111.

منعت النساء منذ القديم من حضور الجنائز والمشي في مواكبها في مختلف مناطق المغرب، لأن حضورهن يثير جدلا واسعا بين من حرمه ومن أباحه، في ذلك يقول حقي: "أن القاضي أبوبكر يعيش بن محمد الأسدي المخلوع عام 417هـ/1026م من طليطلة والطرطوشي والبرزالي والكرفسي يحرمون ويمنعون حضور النساء في الجنائز، في حين أباح ابن رشد والعقباني حضورهن في جنائز أقاربهن"¹، وذكر حقي جنازتين حضرت فيها النساء، الأولى جنازة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الصقر الأنصاري (ت569هـ/1173م)، والثانية داود بن سليمان بن داود ابن حوط الله (ت621هـ/1224م) بمالقة، وتقول السحيري نقلا عن القسطلاني: "حمل الرجال الجنازة دون النساء لضعفهن عن مشاهدة الموتى غالبا، فكيف بالحمل مع ما يتوقع من صراخهن عند حمله ووضعها، وغير ذلك من وجوه المفاسد"².

تسير عادة عدم السماح للنساء بالحضور في الجنائز نحو طريق التغير والتحول، ونستحضر هنا ما كتبه أحمد الدغرني في وصفه لجنازة المرحوم الأستاذ الحسين الملكي³. يقول: "كانت العادة أن تغيب النساء عن الجنازة في المقبرة، ولوحظ خاصة غياب المحاميات وقريبات الميت قبل جنازة الحسين الملكي، إن لم أقل إنها أول مرة في تاريخ المحاماة بالرباط تحضر النساء جنازة محام، وكان وراء حضور النساء في هذه الجنازة سببين، الأول: كون المرحوم مشهورا بدفاعه عن الحقوق المالية للمرأة من خلال العرف والقانون الحديث، والسبب الثاني: لأنه يؤمن بحضارة وقوانين الأمازيغ المسماة بإزرقان أي الحقوق، والتي تجيز للنساء حضور الجنائز خلافا لعادات وأعراف شعوب أخرى"⁴.

وشهدت كذلك منطقة الريف بالشمال المغربي حضور النساء في جنازة المفكر الأمازيغي محمد شاشا⁵ بمسقط رأسه برأس الماء، والذي أوصى بحضور النساء أثناء تشييع جثمانه، وهو ما تم بالفعل احتراما لإرادته ورغبته، وكان ذلك بحضور والدته وبعض مناضلات الحركة الأمازيغية. يقول الشامي: "...وتجدر الإشارة إلى أن العنصر النسوي كان حاضرا بقوة، بمجموعة كبيرة من مناضلات الحركة الأمازيغية، ولأول مرة في الريف تشهد جنازة دخول النساء إلى المقبرة من مناضلات الحركة الأمازيغية وعائلة المرحوم. وحري ذكره أن الفقيد كان من المدافعين عن المرأة، ومن المطالبين دائما بتحقيق المساواة

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 71.

² السحيري، المرجع السابق، ص. 338.

³ الحسين الملكي: محامي وحقوقى ومناضل مغربي، وهو صاحب النظرية القانونية الكد والسعاية، المعرفة في الأعراف الأمازيغية باسم ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵏ ⵓⵎⴰⵎⴰⵣⵉⵖ ⵏ ⵓⵎⴰⵎⴰⵣⵉⵖ أو ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵏ ⵓⵎⴰⵎⴰⵣⵉⵖ.

⁴ الدغرني، أحمد، جنازة الحسين الملكي وتغير طقوس الدفن بالرباط، مقال منشور بتاريخ 05 أبريل 2018، على موقع أمازيغ والد على الرابط التالي: http://www.amazighworld.org/arabic/history/index_show.php?id=6273

⁵ محمد شاشا: (1955 - 2016) هو كاتب وروائي وشاعر ومغني ومفكر مغربي من منطقة الريف.

بين الرجل والمرأة، وهو المطلب الذي كتبه في وصيته بمشاركة الريفيات المناضلات في مثواه الأخير¹، وعرفت كذلك مقبرة "إكنيون" بالجنوب الشرقي حضور مناضلات الحركة الثقافية الأمازيغية أثناء جنازة الطالب عمر خالق الملقب "بإزم"² الذي انطلق موكب جنازته من أمام مسكن أسرته بجماعة "إكنيون" إقليم تنغير، بحضور الآلاف من المشيعين من أهل الفقيد وأقاربه ورفاقه ورفيقاته في الحركة الثقافية الأمازيغية بكل مواقعها، دون أن ننسى جنازة المناضل اليساري رشيد سكيرج³ التي شيعت بمدينة طنجة، وعرفت حضور النساء من عائلات وصديقات ورفيقات الفقيد، وعلى رأسهن السيدة نبيلة منيب الأمينة العامة للحزب الاشتراكي الموحد.

هكذا يتبين لنا مما سبق بأن حضور النساء في الجناز في المغرب عامة وفي قبائل آيت باعمران خاصة يحكمه انتماء الفقيد بالدرجة الأولى، وكذا المستوى الفكري والاجتماعي لعائلته.



الصورة رقم (21): حضور النساء جنازة أحد مناضلي الحركة الأمازيغية

¹ الشامي، طارق، تشييع جثمان المناضل الراحل محمد شاشا بمسقط رأسه رأس الماء بعنوان كسر الطابوهات، مقال منشور بموقع الجريدة الإلكترونية ناظور ستي على الرابط: <https://www.nadorcity.com>

² عمر خالق: (1990 - 2016) طالب، ومناضل، وشهيد الحركة الثقافية الأمازيغية، كان يتابع دراسته بشعبة التاريخ والحضارة بجامعة القاضي عياض بمراكش.

³ سكيرج رشيد: مناضل يساري مغربي، من مؤسسي حركة 23 مارس إلى جانب عدد من رفاقه المنسحبين من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وأحد مؤسسي "منظمة العمل الديمقراطي الشعبي سنة 1983".

4. صلاة الجنازة

لا يتوقف تجهيز الميت عند ما هو مادي فقط، بل يشمل كذلك الاهتمام بالجانب الروحي، ومن بين أهم الطقوس المرافقة لذلك قراءة القرآن قبل خروج الروح، ترديد الأدعية والأذكار أثناء التغسيل والتكفين، وأيضاً على طول الطريق نحو المقبرة، وتبقى الصلاة على الميت من أهم الطقوس التطهيرية لروحه. يشير حقي إلى أن الصلاة على الميت حق ثابت لكل المسلمين، حتى ولو دفن بدون صلاة فالجماعة مطالبة بالصلاة على قبره، ولا يعفى منها إلا الشهداء والموتى بالطاعون عند كثرتهم¹. وذكر ابن حبيب أن العرب مارست هذا الطقس قبل ظهور الإسلام. يقول: "كانوا يكفنون موتاهم ويصلون عليها، وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه ثم يقول: "عليك رحمة الله ويدفن"². واستدل ابن حبيب على كلامه ببيت شعري لرجل من كليب في الجاهلية قال لأبيه:

أعمرو ! إن هلكت وكنت حيا فإني مكثرت لك في صلاتي³

يرجع المكلفون بحفر القبر إلى بيت الميت ليعلموا أهله أن كل شيء جاهز، بعدما أنهوا إعداد القبر وكل ما يستلزم عملية الدفن، وتقام صلاة الجنازة في قرى ومدائر قبائل آيت باعمران غالباً في فضاء المقبرة، إلا لظروف القاهرة كهطول الأمطار الغزيرة والرياح، وفي هذه الحالة تكون الصلاة في المسجد عكس المجال الحضري الذي تكون فيه الصلاة على الميت دائماً داخل المساجد بعد أداء إحدى الصلوات المفروضة. يشير حقي إلى أن أغلب المساجد الكبرى في المدن المغربية والأندلسية تحتوي على قاعة خاصة بالصلاة على الجناز عادة ما يفتح عليها باب يدعى باب الجناز، ومنه يخرج الإمام إلى تلك القاعة للصلاة على الموتى. ومن الأمثلة التي قدمها حقي نجد جامع القرويين بفاس الذي يحتوي على باب ناحية الغرب يدعى باب القضاة، ومصلى الجناز أو باب الجناز، كذلك لجامع الأندلس بنفس المدينة بابان يدخل منها مقدم الجامع الذي يصلّى فيه على الجناز، والثاني على يمين المحراب والمنبر ومنه يخرج الخطيب يوم الجمعة للخطبة ويتوجه للصلاة على الجناز⁴.

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 62.

² السحيري المرجع السابق، ص. 335.

³ السحيري، المرجع نفسه، ص. 335.

⁴ حقي، المرجع نفسه، ص. 63.

توضع الجثة على الأرض غير بعيد عن قبرها المهياً مسبقاً، وينتظم الناس في صفوف لإقامة الصلاة؛ حيث تسند الإمامة لأحد الحاضرين ممن توفرت فيهم شروط الإمامة، وغالباً ما يكون إمام المسجد أو أحد الفقهاء أو الأولياء أو الشيوخ المعروفين بالتصوف. ومن بين أسباب تفضيل إمامة الشيوخ للصلاة على الميت خصالهم الحميدة، كالزهد والتصوف، وكذا سعي عائلة الميت إلى التبرك بهم وطلب الشفاعة لميتهم. يقول حقي حول هذا الاختيار: "إن ذلك يحقق للميت شيئين اثنين: إتيان الصلاة ومباركة جسده، أما اختيار شخصيات مشهورة للصلاة على الميت كالقضاة فيحمل وراءه البحث عن السمعة والشهرة والمباهاة، دون أن يمنع ذلك البحث عن إتيان الصلاة وحسن الدعاء"¹. من جانبه يعتقد بلقاسم الطباي أن السبب في اختيار الأولياء والصلحاء لإقامة الصلاة على الميت، هو ضمان نجاعة هذه الصلاة أو للتبرك بشخص الإمام ممن اشتهروا بالورع والصلاح، مما يسهل انتقالاً هادئاً إلى عالم الأموات².

كان هناك طرفان يتنازعان حول من يكون له حق الصلاة على الميت في العصر الوسيط، فمن جهة نجد قرابته، ومن جهة ثانية السلطة الشرعية التي يمثلها القاضي وأعوانه. ويشير ابن عربي إلى أن هناك اختلافاً بين حق الولي أي القريب والوالي، حيث وقف إلى جانب الثاني، أما ابن رشد فيقف إلى جانب الولي القريب، ففي كل الحالات التي وقع فيها الصدام بين الطرفين، رجحت كفة الولي. فعندما مات يحي بن يحي الليتي تقدم القاضي محمد بن زياد للصلاة عليه، فنازعه ابنه اسحاق وصلى بصلاته، ولم يستطع القاضي تبرير تقدمه إلا بتقديم أخيه له، كما وقع الاختلاف حول من يصلي على إبراهيم بن محمد بن باز ابن القزاز (ت 276هـ/989م) بين ابنه وصديق له فرجحت كفة الابن³.

يقف الإمام عند رأس الجنازة إن كانت للرجل، وفي وسطها إن كانت للمرأة، متجهاً إلى القبلة رافعاً يديه مكبراً "الله أكبر"، وتشمل الصلاة أربع تكبيرات وهي كالتالي:

- ✓ التكبيرة الأولى: يقوم فيها الإمام بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ثم يقرأ سورة الفاتحة كاملة.
- ✓ التكبيرة الثانية: يكبر الإمام التكبير الثانية ثم يقوم بالصلاة الإبراهيمية: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد".

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 66 - 67.

² الطباي، بلقاسم، الموت في مصر والشام، ج. 2، طغرس الموت وعاداته في العهد المملوكي (1250 - 1517)، 2014، ص. 66.

³ حقي، المرجع نفسه، ص. 65.

✓ التكبيرة الثالثة: يكبر الإمام التكبيرة الثالثة فيدعو بعدها للميت من الأدعية التي وردت عن الرسول، ومنها: "اللهم اغفر له، وارحمه وعافه، واعفُ عنه، وأكرم نُزله، ووسّع مُدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقّه من الخطايا كما نقيت (في رواية: كما يُنقى) الثوب الأبيض من الدّنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجته، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار".¹ كما يزيد الإمام عن ذلك بقوله: اللهم إن كان محسناً فزد من حسناته، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته، أو يقول: اللهم اغفر له وثبته بالقول الثابت.

✓ التكبيرة الرابعة: يقول الإمام: "اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأخيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفّه على الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تُضِلنا بعده"²، أو يسكت قليلاً ثم يسلم عن يمينه تسليمه واحدة، ويجوز كذلك أن يسلم تسليمه ثانية عن يساره.

يصف الركوك طقوس صلاة الجنازة بقوله: "عند وصول موكب الجنازة إلى المقبرة توضع على الأرض من أجل إقامة صلاة الجنازة، وهي صلاة مختلفة لا يوجد فيها لا سجود ولا ركوع"³. وترى السحيري، أن انعدام السجود والركوع في صلاة الجنازة مرده الخوف من التباس عبادة الله بعبادة الميت. واستدلت بقول القسطلاني: "ليس فيها ركوع ولا سجود، فهي تفارق الصلاة المعهودة وإنما لم يكن فيها ركوع ولا سجود لئلا يتوهم بعض الجهلة أنها للميت فيفضل بذلك"⁴. وتبقى صلاة الجنازة كباقي الطقوس الجنائزية يميز فيها بين الذكر والأنثى؛ فإن تعلق الأمر بالصلاة على ذكر يقف الإمام عند رأسه. تقول بن سلامة نقلاً عن القسطلاني: "فالرجل يقف الإمام عند رأسه لئلا يكون ناظراً إلى فرجه، بخلاف المرأة فإنها في القبة كما في الغالب ووقوفه عند وسطها ليسترها عن عيون الناس. في حين إن تعلق الأمر بأنثى يقف في الوسط، يقول سمرة بن جندب: صليت وراء النبي على امرأة ماتت في نفاسها، فقام عليها وسطها"⁵. وسبب هذا التمييز حسب المراجع الإسلامية أن الإمام يحجب المصلين من النظر إلى تفاصيل الجثة، وربما إلى فرجها، في حين إن تعلق الأمر بجثة ذكر فيقف عند رأسه لكي لا يكون هو ناظراً إلى فرجه.

¹ الألباني، المرجع السابق، ص. 157.

² الألباني، المرجع نفسه، ص. 157 - 158.

³ Ragoug, Ibid, p.

⁴ السحيري، المرجع السابق، ص. 336.

⁵ بن سلامة، رجاء، الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط. 2، 2009 ص. 194.

ترى السحيري أن وظيفة الصلاة على الميت هي إعادة التوازن الذي فقده المجتمع بفقدان أحد أفرادها. تقول: "تأتي صلاة الجنازة لتعيد للمجموعة توازنها الذي فقدته بفقدان أحد أفرادها، فهي من الطقوس التي تعيد الانتظام إلى الحياة بعد حلول الاختلال"¹. تؤكد ابن سلامة هذا الطرح بقولها: "فصلاة الجنازة تقترب في إحدى وظائفها من صلاة الكسوف فهما صلاتان غير يوميتين وإنما يضطر إليهما عند حدوث ما يختل به توازن الكون (كسوف الشمس) أو توازن المجموعة (موت أحد أفرادها). فهما من الطقوس القولية التي تعيد الانتظام إلى الحياة بما أنها تعتمد على اللغة المنظمة المقسمة للعالم، وبما أنها تتوجه إلى الله الذي بأمره كل شيء. فصلاة الجنازة تجعل الأحياء يعدلون عن البكاء المعبر عن الفوضى إلى الكلام المعبر عن النظام"²، وتضيف ابن سلامة وظيفة أخرى إلى صلاة الجنازة، إذ ترى أن القصد من الصلاة على الموتى ضمهم إلى المجموعة الإسلامية أو التذكير بأنهم منها، فتكون إذن للصلاة وظيفة إدماجية³.

تغيرت بشكل ملحوظ الطقوس المرافقة للجنازة بقبائل آيت باعمران خلال السنتين الأخيرتين (2020 - 2021)، منذ أن فرضت السلطات المغربية تعليمات صارمة بفرض الحجر الصحي الشامل⁴؛ حيث منعت أي تجمع أو تجمهر أو اجتماع لمجموعة من الأشخاص مهما كانت الأسباب الداعية إلى ذلك، كما قيدت عدد المشاركين في التجمعات العامة فيما بعد، محاولة بذلك منع تفشي فيروس كورونا الذي ظهرت أولى حالاته بالمغرب في مارس 2020. وتقتضي قواعد التباعد الاجتماعي عدم زيارة أسرة الفقيد من أجل تقديم التعازي، أو معانقتهم، وأيضا مرافقتهم أثناء الدفن. يقول السيد حسن:

«ИИХУ ХЦЦ%+ Х"Ц. Ц%АЦЦ.А У ООӨХЕ.О I %ХИЦХЦ, %О ИИИ.О I 米米%ИИХ У +Ц米ХХА. УЦКИИХ ICX.O, %Х% VVI ++ ОО.А+ ol ИИХУ +ИИ. II.ХА., I米米И ХИЦЦ. ИИИ.О У ИЦАХI+ У.О О ОЦЦ%О ЦХААI X+Ц. О А +.ОЦ. IIО.»⁵

"لَيْغِ إِمُوتْ كَمَا مُحَمَّادُ غُ صُبِيْطَارُ نْ أُوْغْلَمِيْم، أُوْرُ فَلَاسْ نَزْلِي غُنْمَزْكِدَا غَمْكَلِي نُمِيَار، أَشْكَو فُنْتُ سَاعَتْ أَنْ لَيْغِ تَلَّا جَائِحَا، نَزَالُ إِلْمَا فَلَاسْ غُلْمْدِيْنْتُ غَارْ سْ سُمُوسْ مِيْدُنْ آيْتَمَاسْ ذُ تَارُوَا نُسْ."

¹ السحيري، المرجع السابق، ص. 337.

² ابن سلامة، المرجع السابق، ص. 196.

³ ابن سلامة، المرجع نفسه، ص. 197.

⁴ مرسوم رقم 2.20.293، بخصوص إعلان حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا - كوفيد19، منشور بالجريدة الرسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 24 مارس 2020، ص. 1783.

⁵ مقابلة شفوية رقم (29)، بتاريخ 25 يناير 2021، السيد حسن 40 سنة، فخذة آيت إعلاتن، قبيلة آيت لخمس.

"لما توفي أخي محمد في المستشفى الجهوي بمدينة كلميم لم نصلي عليه في المسجد كما ألفنا من قبل، لكون هذا الأخير مغلق بسبب تفشي فيروس كورونا، وارتأينا في الأخير الصلاة عليه في المقبرة أثناء الدفن بحضور خمسة مصليين فقط وهم أولاده وأشقائه".

لم تكن الأمراض الوبائية مجهولة في المغرب؛ حيث عرف تاريخه كثيرا من الأوبئة والمجاعات والجفاف منذ عصر المرابطين والموحدين وحتى الفترة الحديثة. ذكر محمد الأمين البزاز في دراسته لتاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن من سنة 1670 إلى 1700 تفشى الوباء بقوة في تونس والجزائر، وفي 1718 ظهر بمصر، ومع ذلك ظل المغرب بمنأى حتى سنة 1742 بعد أن أصيبت الجزائر، وتلمسان، وإقليم وهران في سنوات 1738، 1740 و1741¹. وجاء في مراسلة بتاريخ 16 أكتوبر 1742 أن المرض تفشى في جميع المغرب حتى سان كروا (أكادير)، ومات به بتطوان 5 إلى 6 أفراد في اليوم، وبطنجة 40 ضحية، وفي 6 نوفمبر بلغ عدد الضحايا بمكناس 59 و60 ضحية في اليوم، ثم ارتفع إلى 100 وحتى إلى 150، بينما كان يموت بطنجة 30 إلى 40 ضحية في اليوم، وبتطوان 10 إلى 12. تضيف المراسلة أن الوباء كان أخف حدة بسلا والرباط؛ إذ لم يرتفع عدد الضحايا إلى 25 و30 ضحية في اليوم إلا في حالات استثنائية، في حين أن المألوف هو 12 إلى 18 ضحية فقط².

يقول أبو إسحاق الرقيق في وصف الوباء في تونس ما بين سنة 1004 و1005: "ومع هذه الشدة وباء وطاعون هلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج، فلا ترى متصرفا إلا في علاج أو مريض أو آخذاً في جهاز ميت أو تشييع جنازة أو انصراف من دفن، وكان الضعفاء يُجمعون إلى باب سالم فتحفر لهم أخاديد ويدفن المئة والأكثر في الأخدود الواحد، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجار والنساء والصبيان ما لا يحصي عددهم إلا خالقهم تعالى، وخلت المساجد بمدينة القيروان وتعطلت الأفران والحمامات"³، وفي القاهرة في عشرينيات القرن الخامس عشر جرت العادة أن ترفع الجثة من التابوت الذي نقلت فيه إلى المسجد وتدفن بالكفن. وعندما اشتد وباء الطاعون جرى التخلي عن العادات المتبعة

¹ البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992، ص. 53.

² البزاز، المرجع نفسه، ص. 56.

³ بيرن، جوزيف، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، أبوظبي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، ط. الأولى، 2014، ص. 390.

عندما ارتفعت أعداد الموتى إلى درجة لا تحتمل، فاخفت التوابيت تماما، بل أعيد استعمال الأكفان، وصارت الجثث توضع عارية في خنادق الدفن الكبيرة¹.

واعتبر العديد من فقهاء وسلاطين ذلك العصر أن لهذه الأوبئة والمجاعات ارتباط وثيق بأعمال الناس، فرغم أنها تعزى إلى القدرة الإلهية إلا أنها تعتبر أيضا عقابا سماويا للإنسان على زيغته عن الطريق السوي والسنة النبوية، وانتشار المعاصي بين مختلف مكونات المجتمع. وللد من هذه الآفات تمارس مجموعة من الطقوس الدينية كصلاة الاستسقاء أثناء توالي سنوات الجفاف. يقول البزاز: "لدى احتباس المطر، كانت أولى ردود الفعل تتجه إلى محاولة تلافي غضب السماء بإقامة صلاة الاستسقاء، وكانت هذه الصلاة تقام عند "الوقفة"، وهو الوقت الذي يكون فيه بالإمكان إنقاذ المزروعات إذا ما تداركها الله بلطفه، وينطبق زمنيا مع فصل الشتاء وبداية فصل الربيع؛ ويقابله وقت "اليبسة"، وهو الوقت الذي يكون فيه الجفاف قد تواصل زمنا طويلا ودمر المحاصيل، بحيث لم يعد هناك أمل في إنقاذه بإقامة الصلاة"².

هكذا غير انشار فيروس كورونا (كوفيد 19) طقوس الجنازة ومراسيم الدفن والمآتم؛ حيث قضى العديد من الأفراد نحبهم وحيدون في المستشفيات بدون طقوس التلقين، أو اتباع موكبهم الجنائزي، أو الصلاة عليهم وتوديعهم الوداع الأخير؛ حيث اضطرت الحكومة المغربية إلى تعديل إجراءات الدفن وطقوس الجنائز، والصلاة على الموتى، بما يتناسب مع احترام البرتوكول الصحي المعمول به.

5. مراسيم الدفن

تبدأ مباشرة بعد الصلاة على الميت مراسيم الدفن التي يشرف عليها أقرب الناس إلى الميت بتعاون مع أصدقاء المرحوم وجيرانه، وكل من حضر الجنازة، ودور هذه الأخيرة هو ضمان الاستقرار لروح المتوفي في العالم الآخر؛ إذ أن عدم إقامة الجنازة يجعل الأرواح تائهة وغير مستقرة. يقول الماجدي: "وكان عدم دفن الميت وعدم أداء هذه الطقوس تؤدي إلى صعود روح الميت بهيئة شبح مؤذ من العالم الأسفل إلى عالم الحياء"³. من جهته يعتقد البطاري أن القبر عند الأمازيغ القدامى لا يعتبر مكانا تودع فيه الجثة فقط، ولكنه مأوى للروح أيضا، مما يجعلهم يتجنبون حياة التشرذم التي تعتبر في

¹ بيران، المرجع نفسه، ص. 407.

² البزاز، المرجع السابق، ص. 349.

³ الماجدي، المرجع السابق، ص. 331.

نظرهم المآل والقدر الأكثر بأسا. يضيف الجطاري بقوله: "إن مصير الفرد بعد موته يظل متعلقا بالجماعة التي ينتمي إليها، فإذا كانت الموت نتيجة لظروف طبيعية فينبغي عليهم تشييد جنازته حتى تهأ روحه، وأثناء ذلك تردد الأبيات التالية:

الحريات لجنت ارزن دماوني هاينا تسليت تشكان داروني
والملايكة رزمنت البيان هاينا تسليت تشكان داروني¹

يا حريات الجنة ها هي عروس آتية عندكم
يا ملائكة افتحوا الأبواب ها هي عروس آتية عندكم

ويعتبر الدفن في نظر السحيري المصير النهائي لجسد الميت، وهو النمط السامي، كما أنه في الإسلام طقس أنموذجي، لأنه يعود إلى بدء الخلق عندما أرسل الله لقابيل غرابا يعلمه كيف يوارى أخاه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾²، تضيف السحيري بقولها: "إن دفن الموتى يستجيب لمبدأ المفاهيم المطمئنة أو المعقنة، وهو عودة الجسد إلى التراب الذي منه خلق، والدفن هو آخر عملية ستر ومواراة للجثة وقد صارت جنازة"³.

يرى حقي أن أهل المغرب والأندلس يميلون إلى تأخير الدفن في العصر الوسيط إلى ثاني يوم الوفاة، وذلك انطلاقا من القرن 4هـ/10م، ويرجع هذا التأخير إلى ثلاث أسباب منها: العناية التي تعطى لتجهيز الميت وإعداده، ثانيا الحرص على تجمع الناس وحضور أكبر عدد ممكن في الموكب الجنائزي، أخيرا الرغبة في التأكد من الوفاة⁴. ويتم الدفن في كل أوقات النهار، إلا أن هنالك تفضيل لفترة ما بعد صلاة العصر، والسبب في تفضيل هذا الوقت حسب حقي: أولا طبيعة المناخ المتوسطي والذي يتميز بارتفاع درجة الحرارة في وسط النهار، وبالتالي تفضيل ما بعد العصر حيث تنخفض هذه الأخيرة، ثانيا تفضيل هذا الوقت للفراغ الديني الذي يتميز به؛ بحيث أن النوافل مكروهة ما بعد صلاة العصر حسب المذهب المالكي المتبع بالمغرب، وبالتالي ترك الدفن لهذا الوقت من أجل التفرغ له، مما يفسح المجال للعلماء والطلبة لحضور الجنائز وهم يشكلون عنصرا أساسيا فيها⁵. وبالنسبة للأيام المفضلة في الدفن يبقى يوم الجمعة أفضل الأيام، وذلك للقداسة التي يتميز بها.

¹ الجطاري، المرجع السابق، 49.

² سورة المائدة، الآية 31.

³ السحيري، المرجع السابق، ص. 334.

⁴ حقي، المرجع السابق، ص. 78.

⁵ حقي، المرجع نفسه، ص. 78 - 79.

توضع جثة الميت داخل القبر مباشرة بعد الصلاة عليها على الجهة اليمنى، وذلك لاعتقاد الباعمرانيين أن ذلك هو الأفضل، فلطالما تم تفضيل الجهة اليمنى على اليسرى، وكذلك ليوجه وجهه جهة القبلة، كما هو الحال عند الصلاة؛ أي جهة بيت الله (الكعبة). هذا الاختيار كذلك يستمد مرجعيته من اعتقاد الناس في هذه المنطقة أن يوم البعث سيكون من المشرق (مكة)، وبالتالي تسهила لقيام الأموات في القبور يتم دفنهم على الجهة اليمنى؛ إذ بمجرد قيامهم يتمشون جهة المشرق. عموما يدفن الموتى المسلمون في اتجاه واحد وهو القبلة رمز (الكعبة المشرفة)، ويحدد وضع الرأس من جهة الغرب والقدمين من جهة الشرق، ويدفن على جانبه الأيمن ليكون باتجاه القبلة، فإذا ما قام الإنسان حسب اعتقادهم بالبعث فسيكون وجهه مقابلا للقبلة¹.



الصورة رقم (22): تغطية قبر المرأة أثناء دفنها، التقطت الصورة سنة 2019

ينسحب الفقيه وتلامذته للوراء بمجرد إدخال الميت في القبر، تاركين المجال لأهل القبيلة لتواري التراب على الميت، وتكون طبعا الأولوية لأبناء الفقيد وإخوانه وأقربائه ثم إلى الأشخاص العارفين بطرق الدفن، والذين اعتادوه في كل مرة تحدث فيها الوفاة. ذلك ما أكدده أيضا حقي بقوله: "إن عبد الرحمان الثاني الأموي أنزله إلى قبره أخواه المغيرة وأممية، كما أنزل سليمان بن أحمد بن أحمد الطيلسان (ت

¹ فخري، المرجع السابق، 330.

607هـ أو 608هـ/1210م أو 1211م) إلى قبره على يد ابن أخيه أبي القاسم¹. يضيف قائلاً: "وقد يتكلف بعض الأصدقاء بتلك المهمة كما فعل قاضي أغمات أبو محمد عبد الرحمان بن تيبست وأبو العباس ابن أجوزول عندما أنزلا أبا عبد الله الهزميري إلى قبره عام 678هـ/1279م"².

يغطي القبر بأحجار مسطحة تسمى محليا بـ"الحدود"، ثم أحجار صغيرة الحجم لسد كل المسامات كي لا يدخل منها التراب، وتوضع الشواهد عند الرأس والقدمين، وهنا تجدر الإشارة إلى أن قبر الرجل يوضع فيه شاهدان فقط، واحد عند الرأس وآخر عند القدمين، عكس قبر المرأة الذي توضع فيه ثلاثة شواهد، واحد عند الرأس واثنين عند القدمين، وهذا الطقس المحلي راجع لكون ساكنة قبائل آيت باعمران لا تبني على القبور ولا يزينونها ولا يضعون يافطات عليها، بل تكون كلها مغطاة بالتراب، باستثناء المناطق الحضرية كمدينة سيدي إفني أو مدينة كلميم. يشير منديب إلى نفس الظاهرة بقوله: "يواري القبر بالترى بعد أن يغطي بمجموعة من الأحجار المسطحة، وتوضع حجرة عند رأس الميت يخط عليها اسمه وأخرى عند قدميه لرسم حدود القبر، ذلك أن القرويين لا يعتنون كثيرا بقبور موتاهم عكس أهل المدن"³.



الصورة رقم (23): وضع الألواح الإسمنتية لتغطية القبر، التقطت الصورة سنة 2019

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 79.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 79.

³ منديب، المرجع السابق، ص. 160.

يقول الوزان: "يوضع على جثة الميت أو بالأحرى على المكان الذي يرقد فيه، حجر طويل رقيق ذو ظهر مثلث الشكل، وبالنسبة للأشراف وذو الحيشيات فتقتضي العادة أن توضع على قبورهم لوحة من رخام عند الرأس وأخرى عند القدمين، تنقش عليها أبيات شعرية تسلي عن هذا الانتقال الصعب المرير من الحياة إلى الممات، ويذكر تحتها اسم الهالك وأسلافه ويوم الوفاة وسنتها"¹. من جهة أخرى يرى الجطاري أن الأمازيغ يولون عادة الدفن عناية فائقة؛ فبعد الحفر العميق يتم تغطية الجثمان بحجارة صلبة، ثم يفرشون عليها نباتا شوكيا "تازكات" قبل ملء الحفرة برمتها بالتراب، تقاديا لنبشها من طرف الحيوانات الضالة².

تتميز مقابر آيت باعمران بالبساطة؛ إذ لا يبني الباعمرانيون فوق قبور موتاهم ولا يزينونها. ومن الأسباب التي جعلت الناس لا تعطي أهمية كبيرة لبناء القبور وإعطائها مظهرا جميلا، أن سكان المنطقة يلتزمون بما يقوله الفقيه، ففي عدة مناسبات ينهاهم عن البناء عن القبر مستدلا على ذلك بالحديث: "روى مسلم في صحيحه عن جابر، قال: نهى رسول الله أن يخصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبني عليه"، إضافة إلى ذلك هناك من يرى بأن بناء القبور يأخذ مساحة أكبر في فضاء المقبرة، عكس ما هو متعارف عليه، وأكدوا على ذلك بأن البناء يتسبب في سرعة امتلاء المقابر. ورغم منطقية الحجج التي قدمها لنا المستجوبون في القبائل، يبقى السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا يؤمن سكان المدن بذلك الاعتقاد؟ حيث يتميز المجال الحضري بالعناية بالقبور والمقابر، مستعملين في ذلك كل وسائل البناء من الإسمنت، الياجور، الزليج وكذلك الرخام، هذا إلى جانب ما تعرفه الحواضر من ارتفاع كبير في أثمان العقارات، مما يؤدي بالجماعات المحلية إلى تخصيص أراضي خارج المجال الحضري للدفن.

يجلس الفقيه وتلامذته غير بعيد عن القبر، في الوقت نفسه الذي يوارى الفقيد التراب لقراءة القرآن قراءة جماعية، حيث يبدؤون بقراءة سورة ياسين والمعوذتين وسورة الإخلاص. يذكر حقي أن هذه العادة كانت منذ القديم، فبعد وفاة المنصور الموحدي بمراكش (595هـ/1199م) رتل القراء عليه يوما كاملا، كما أقام القراء على قبر أبي موسى الدكالي (ق6هـ/12م) بسلا سبعة أيام كاملة³. من خلال ذلك أصبحت عادة القراءة على القبر منتشرة وشائعة، بل تطورت وامتهنها الشيوخ وطلاب المدارس العتيقة.

¹ الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ج.1، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط.2، 1983، ص. 280.

² الجطاري، المرجع السابق، ص. 52.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 90.

وبمجرد الانتهاء من الدفن، يلتحق المشيعون بالفقيه مشكلين بذلك حلقة يلقي فيها الفقيه درسا مختصرا لا تتجاوز مدته سبع دقائق في الغالب؛ حيث يذكر الناس بالقبر ويوم القيامة، ويحثهم على الاستعداد له من خلال الإكثار من فعل الخير وتجنب المعاصي، كما يذكر بالخصال الحميدة للفقيه، ويوصي أبناءه أن يكونوا دائما كوالدهم، خاصة إن كان معروفا بفعل الخير والزهّد. يقول حقي في هذا الجانب: "تستغل مناسبة الدفن للقيام ببعض الأنشطة الخاصة بالجماعة الإسلامية، حيث تستغل في مراكش لإلقاء الموعظة، أما في قرطبة فيدعون فيها بنصرة المجاهدين ونزول الغيث، كما تستغل أيضا لثناء الميت وتأبينه فوق قبره"¹، ومن بين الأمثلة التي قدمها حقي: "بعد دفن ابن المكوي (ت401هـ/1010م) بإشبيلية قام على قبره الفقيه ابن الشقاق فقال: رحمك الله يا أبا عمر، فلقد فضحت الفقهاء بقوة حفصك في حياتك ولتفضحهم بعد مماتك، أشهد أنني ما رأيت أحدا أحفظ للسنة كحفظك ولا أعلم من وجوها كعلمك"².

خلافا لذلك يعتقد البطاري أن المراثي لا تقتصر فقط على تعداد خصال الفقيه، وإنما تتعداه إلى غير ذلك من المظاهر السائدة آنذاك؛ كتمزيق الثياب وجلد الوجه وضربه بالنعل، مما يذل على معاناتهم الجماعية، وهذا السلوك يبين بجلاء اتحاد أفراد القبيلة فيما بينهم وتضامنهم مع الفقيه³.



الصورة رقم (24): الدعاء للميت في المقبرة بعد دفنه، التقطت الصورة سنة 2019

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 79.

² المرجع نفسه.

³ البطاري، المرجع السابق، ص. 51 - 52.

يختتم الفقيه درسه بالدعاء للفقيد ولجميع الموتى، ثم يقف ابن الفقيد أو أحد أقاربه من داخل الحلقة ليطالب وبصوت مسموع الصفح والغفران للميت، كما يدعو أهل القرية إلى مناسبة ٥٨٨٧+ "سُلُوكُتْ" (تقديم الطعام)، والتي تقام في غالب الأمر في اليوم الثالث بعد الوفاة، ويرجع اختيار الناس لهذا اليوم دون غيره فقط للتسوق والتحضير لهذه المناسبة التي تكلف مبالغ مهمة في أغلب الأحيان. ومن بين عادات أهل المغرب والأندلس في العصر الوسيط التصديق على القبر. يقول حقي: "عندما ماتت جارية عبد الرحمن الثاني الأموي أم الأمير محمد دفنها بقرية فحرر أهلها من المغارم، ومات أبو عمران موسى بن إسحاق الوريكي (ت 592هـ/1196م) بمراكش فقيرا فلما دفن رق الناس لأولاده فجمعوا لهم صدقة، فاشتريت لهم منها دار وأعطوا باقيةا ليصلحوا منها شأنهم"¹.

تنتهي بذلك مراسيم الدفن لدى سكان آيت بعمران، لتتطلق بعدها طقوس أخرى تمارس بعد الدفن مباشرة؛ ومنها تقديم التعازي لمن فاتته ذلك، ومناسبة "سُلُوكُتْ" أو ما يعرف بطقوس الإطعام، طقوس الحداد والعدة عند النساء، والعودة إلى الحياة العادية.

فما هي إذن هذه الطقوس؟ وكيف تمارس عند آيت بعمران وباقي المناطق المجاورة؟ وما الثابت فيها وما المتحول؟

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 80.

١١١. طقوس الحداد والمآتم

لا زال سكان قبائل آيت باعمران بالجنوب الغربي للأطلس الصغير متشبثين بعادات وتقاليد الجنائز، رغم ما عرفه المجتمع من تغير وتطور في مجموعة من الميادين، مما أدى إلى إعادة النظر في طريقة تفكير الأفراد، ومن ثم التخلي على مجموعة من الطقوس والعادات التي كانت تمارس منذ القديم، أو تطويرها وممارستها بطرق جديدة. وتختلف الطقوس التي تمارس بعد الدفن من منطقة إلى أخرى، ويبقى الدفن بذلك الضامن لاستمرار الطقوس الجنائزية.

أولى البعمرانيون اهتماما بالغا لطقوس ما بعد الدفن، وكان وراء شدة اهتمامهم بظاهرة الموت تشبثهم بمعتقداتهم الدينية، وخوفهم من مصيرهم المجهول؛ ففي اعتقادهم أن الأموات الذين لم يحظوا بطقوس في المستوى تعود أرواحهم إلى الدنيا في صفة أشباح تزعج أفراد عائلتهم، لذلك قام الأمازيغ منذ القدم ببناء القبور وممارسة طقوس جنائزية مصاحبة لعملية الدفن. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطقوس تختلف من يوم لآخر ومن مرحلة لآخرى، ففي كل مرحلة تستوقفنا طقوس وعادات مختلفة عن سابقتها، الشيء الذي يجعل ظاهرة الموت بهذه المنطقة أرضا خصبا للبحث والتنقيب، رغم ما طرأ عليها من تغيرات وتطورات بفعل تغيير نمط الحياة وارتفاع مستوى التعليم وانتشار برامج محو الأمية.

وسنركز في هذا الباب على طقوس الحداد، سُلُوْكُتْ (الإطعام)، إِفْقِيرُنْ (الأمداح النبوية)، ثم حَقْ
الله (العدة). فكيف تمارس إذن هذه الطقوس؟ وما رمزيتها لدى سكان آيت باعمران؟

1. الحداد

يعرف ابن منظور الحَدَادُ على أنه ثياب المآتم السود، والحادُّ والمُحَدُّ من النِّساء: التي تترك الزينة والطَّيبَ؛ وقال ابنُ دُرَيْدٍ: هي المرأة التي تترك الزينة والطَّيبَ بعد زوجها للمعدة، حَدَّتْ نَحْدًا حَدًّا وَجَدَادًا، وهو تسليُّها على زوجها، وأَحَدَّتْ، وأبى الأصمعيُّ إلا أَحَدَّتْ تُحَدُّ، وهي مُحَدٌّ، ولم يعرف حَدَّتْ؛ والحَدَادُ: تركها ذلك. وفي الحديث: لا تُحَدُّ المرأة فوق ثلاثٍ ولا تُحَدُّ إلا على زوجٍ. وفي الحديث: لا يَجِلُّ لأحدٍ أن يَحَدَّ على مَيِّتٍ أكثر من ثلاثة أيامٍ إلا المرأة على زوجها فإنها تُحَدُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا. قال أبو عبيد: وإِحْدَادُ المرأة على زوجها تَرْكُ الزَّيْنَةِ، وقيل: هو إذا حَزِنَتْ عليه وَلَبِسَتْ ثِيَابَ الْحُزَنِ وَتَرَكَتِ الزَّيْنَةَ وَالْخِصَابَ؛ قال أبو عبيد: ونرى أَنَّهُ مأخوذٌ من المنعِ لَأَنَّهَا قَدْ مُنِعَتْ من ذلك، ومنه قِيلَ لِلْبَوَّابِ: حَدَادٌ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الدُّخُولِ¹.

يتبين من خلال التعريف السابق أن الحداد يتعلق أكثر بزوجة المتوفى، لكونها من يلبس ثوب الحداد لمدة أربعة أشهر وعشر أيام، وهذا لا ينفي أن الرجال لا يشملهم الحداد، وإنما بدرجة أقل من النساء؛ حيث يقتصر حزنهم على ارتدائهم ثياب الحزن فقط أثناء الموكب الجنائزي والدفن وحفل التأبين. يشير منديب إلى هذا الطقس بقوله: " بعد دفن الميت تسود أجواء الحزن داخل الدوار بأكمله ويقلع كافة السكان عن جل مظاهر الفرح احتراماً لروح الفقيد (رجل أو امرأة). بيد أن أقرباء الميت هم الذين يبقون معنيين أكثر بمظاهر الحداد، إذ تتوقف لديهم كل معالم الزينة عند النساء كما عند الرجال وبالأخص زوجة الميت التي تدخل في حداد خاص يشار إليه محلياً بتعبير تصعب ترجمته "حفظ حق الله"². وفي العصر الوسيط عند موت المنصور العامري لبس فتيانه المسوح والأكسية بعد الوشى، كذلك بعد الانتهاء من جنازة أخت السلطان أبي عنان المريني عام 757هـ/1357م، وعودة المشيعين من رجال الدولة أمر لهم السلطان بالثياب الرفيعة والملابس الفخمة، وأمر أن يخلعوا ثياب الحزن³.

ويعتقد منديب بأن الغرض من فترة الحداد هو إدماج الميت داخل عالمه الجديد، وإدماج حدث الموت وسط عالم الأحياء. يقول: "بعد نهاية مرحلة فصل الميت عن عالم الأحياء، بتغسيله وتكفينه ودفنه، تبدأ مرحلة أخرى تروم من جهة إدماج الميت داخل عالمه الجديد، وإدماج حدث الموت وسط عالم

¹ ابن منظور، المرجع السابق، م 5، ص. 143.

² منديب، المرجع السابق، ص. 160 - 161.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 84 - 85.

الأحياء من جهة ثانية، وذلك عبر تحريك آليات وقواعد تقبله وضبط السير الجيد للحداد¹، فلكي يتم قبول الميت داخل عالم الموتى وحصوله على الاعتراف من قبلهم، كما يشير إلى ذلك إلياد، يجب على ذويه الأحياء القيام بعدد من الطقوس والإجراءات التي تتعاقب وفق ترتيب معين². أما ابن سلامة فتشير إلى أن الحداد حالة نجاسة يعزل فيها أهل الميت عن بقية المجموعة لئلا تلحق بها خسارة أخرى؛ أي أنه امتناع رمزي عن الحياة³. في حين يعتبر الماجدي الحداد شعيرة أو طقساً لأنه يخفف من التوتر الذي كان يعاني منه أهل وأقارب الميت من جهة، وطمأنينة وراحة للميت بسبب عدم نسيانه من جهة أخرى⁴.

ترتدي زوجة المتوفى في الماضي ملابس سوداء، وتبقى بهذا الزي لمدة أربعة أشهر و عشرة أيام، وبعد انتهاء هذه المدة تغتسل وتغير ملابسها السوداء كعلامة لانتهاء فترة في حياتها، وبدء حياة جديدة. يذكر برنشفيك بخصوص الألوان الخاصة بالحداد في إفريقية أنه في أواخر القرن الثالث عشر كان اللباس الأسود يمثل ثياب الحداد في البلاط التونسي، وبعد ذلك بخمسين سنة بمناسبة وفاة أحد الأمراء الحفصيين، المتقلد لولاية قسنطينة غير كل من في البلد ثوبه حزناً عليه⁵، وكان وراء اختيار اللون الأسود كزي لزوجات المتوفى ربما عدم الرغبة في جلب أنظار الذكور إليها، لكونها في فترة لا تسمح لها ببدأ علاقة جديدة. ويشير آيت الفقيه إلى أن اختيار اللون الأسود للنساء قائم على الطوطم، وبالتالي يدل على تحقير جسد المرأة. يقول: "نسجل أن قبائل "آيت ياف المان" قبل دخولها الأطلس الكبير الشرقي، كانت نساؤها ترتدي رداء أسود. ومعلوم أن الصحراء، أو بالأحرى، الهضاب الواقعة جنوب جبال الأطلس الكبير، موطن أصلي لهذه القبائل. ونسجل أن اختيار اللون الأسود بالنطاق الصحراوي، لم يكن في الغالب وليد البيئة، رغم كونه يتحمل الأوساخ، ويمتص الحرارة التي تحرق الأجساد في هذا النطاق الجغرافي. والراجح أن اللون الأسود، بالنطاق الصحراوي، قائم على الطوطم، ويهدف إلى تحقير جسد المرأة ظاهرياً"⁶.

وتلجأ الأرامل في أيامنا الحالية إلى ارتداء الثوب الأبيض طيلة مدة الحداد، لما يرمز له هذا اللون من النقاء والطهارة. يقول ياسر بنهيمية في معرض حديثه عن لباس المتصوفة في المغرب الوسيط: "إن الانجذاب الاستثنائي إلى اللون الأبيض، باعتباره علامة على النقاء أو النور المبهر للملائكة،

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 160.

² Eliade, Mircea, Le sacré et le profane, Gallimard, 1965, p 157.

³ ابن سلامة، المرجع السابق، ص. 218 - 219.

⁴ الماجدي، المرجع السابق، ص. 331.

⁵ برنشفيك، روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص. 291.

⁶ آيت الفقيه، لحسن، المرأة المقيدة دراسة في المرأة والأسرة بالأطلس الكبير الشرقي، المحدية، شركة أوداد للاتصال، 2002، ص. 27 - 28.

حاضر بقوة في مصادرها المناقبية¹، وخلافا لذلك يرى آيت الفقيه أن فرض اللون الأبيض على النساء ما هو إلا تحقير لجسدهن. يقول: "هناك من يفضل احتقار جسد المرأة بالرداء الأبيض، كما لو كان ذلك الجسد جثة هامة يسترها كفن يدفع الأنظار ويرسخ العفة في النفوس. لكن الرداء الأبيض يكون -إن أريد به تحقير جسد المرأة- مقرونا بالحجاب، وإن اقتضى الحال بإجبار النساء على البقاء بالمنزل، وابعادهن عن ميدان يفرض عليهن الاختلاط بالرجال، ويوفر شروطا لعلاقة جنسية غير مشروعة"². من جانبه أشار حقي إلى شهادتين خاصتين بمدينة فاس خلال القرن 8هـ/13م. يقول في الأولى: أن ابن الأحمر يقول عن أحدهم: لقي يوما ببعض من فاس امرأة بارعة الجمال، وقد لبست ثياب حزن زرق وهي سافرة عن وجه كالقمر، وهي تلطمه بيديها. وفي الشهادة الثانية يقول أبو البركات القاضي محمد بن أبي بكر البلفيقي السليمي في زرقه عينيه:

حزنت عليك العين يا مغني الهوى فالدمع منها بعدك ما رقا
ولذلك ما صبغت بلون أزرق أو ما ترى ثوب المأتم أزرقا³

ورغم الشهادتين لم يؤكد حقي على أن اللون الأزرق يدخل ضمن ألوان الحداد المعروفة بالمغرب، وكذا الأندلس، واكتفى باعتبار أن المحدث صبغ وجهها وقميصها وغطاء رأسها بالنيلة صبغا قويا، فتظهر زرقاء اللون تماما كما يحصل في الشرق.

تبدأ طقوس المأتم بمجرد خروج روح المحتضر؛ حيث يسود جو من الصياح والنواح خاصة في صفوف النساء قريبات المتوفي، الشيء الذي اعتبره مجموعة من الباحثين من علامات إعلان الوفاة. يقول الوزان: "تجتمع النساء إذا مات لهن زوج أو أب أو أم أو أخ، مرتديات لباسا خشنا ويلطخن وجوههن بسواد دخان القدور ثم يستدعين أولئك الأندال الذين يتجولون وهم لابسون ثياب النساء، ليضربوا على دفوف مربعة ويرتجلوا أنظاما حزينة مبكية في رثاء الميت، وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخشن صدورهن وخدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وينتفن شعورهن نائحات مولولات"⁴.

تبدأ هذه الشعائر في المجتمعات البدائية لأستراليا منذ اللحظة التي تبدو فيها الوفاة وشيكة، حيث يصف لنا دوركهائم مشهدا نقله عن سبنسر وغيلين لدى الوارارمونغا. يقول: "كان طقس طوطمي قد انتهى

¹ بنهيمية، ياسر، لباس المتصوفة في المغرب الوسيط من خلال المصادر المناقبية، ترجمة رابحي رضوان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2018، ص. 11.

² آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 30.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 85.

⁴ الوزان، المرجع السابق، ص. 258.

من فوره وأخذت فرقة المؤيدين والمشاهدون يغادرون المكان المقدس، عندما ارتفعت فجأة صرخة مدوية من المخيم؛ كان رجل يحتضر فيه. على الفور، شرعت الفرقة كلها تركض بأسرع ما يمكن وبدأ معظم أفرادها يطلقون الصرخات وهم يركضون. ويتابع هذان الراصدان: كان بيننا وبين المخيم جدول عميق يجلس على ضفته رجال عدة؛ كانوا مبعثرين، خافضين رؤوسهم بين ركبهم، يبكون وهم يتأوهون. ولما عبرنا الجدول، وجدنا أن المخيم تفكك بموجب العادة. كانت النساء أُنثِنَ من جميع الاتجاهات ممددات على جسد المحتضر، في حين كانت أخريات واقفات أو راكعات حوله، وكل منهن تغرس في أعلى رأسها النهاية الحادة للعصا المستخدمة في استخراج البطاطا الحلوة، محدثة بذلك جروحا يتدفق منها الدم على وجهها. في الوقت عينه، كنَّ يطلقن عويلا متواصلا. وفي هذه الأثناء، سارع الرجال للقدوم؛ ارتموا بدورهم أيضا على الجسد بينما نهضت النساء؛ وبعد بضع لحظات، لم تعد تُرى إلا كتلة متراسة من الأجسام المتعانقة. وإلى الجانب جلس ثلاثة رجال من طبقة الثابونغارتى (Thapunagarti) لا يزالون يحملون تزييناتهم الطقسية، يطلقون عويلا حاداً وهم يديرون ظهورهم إلى المحتضر. وبعد دقيقة أو اثنتين، سارع رجل من الطبقة عينها إلى المكان وهو يصرخ من الألم ويلوح بسكين حجرية. وفور وصوله المخيم، أحدث جروحا عميقة في فخذه وعضلاته حتى أصبح عاجزا عن الوقوف، وانتهى به الأمر للسقوط أرضا وسط مجموعة؛ أخرجته امرأتان أو ثلاث نساء من أقاربه من هناك ووضعن شفاههن على الجروح الفاعرة، في حين استلقى هو بلا حراك على الأرض. لم يمت المريض إلا في وقت متأخر من المساء. وفور لفظه أنفاسه، عاد المشهد عينه طازجا. لكن هذه المرة، كان العويل أشدَّ حدّة. وكان الرجال والنساء تملّكهم جنون حقيقي، وراحوا يركضون مهتاجين ويجرحون أنفسهم بالسكاكين وبالعصي المدببة؛ وكانت النساء يضربن بعضهن بعضا من دون أن تسعى أي منهن إلى اتقاء الضربات؛ وأخيرا وبعد ساعة، سار موكب في ضوء المشاعل عبر السهل حتى الشجرة التي سجّي الجثمان على أغصانها¹.

يجتمع أهل الميت في قبائل آيت باعمران في جو يسوده الحزن والبكاء، ويتميز المآتم لدى هؤلاء بالانقسام؛ إذ لا يختلط الرجال بالنساء، وهذا ما سمح لنا بالتواجد فقط في الفضاء الخاص بالرجال، ووصفه إضافة إلى رصد تصرفات أهل الميت مادية كانت أو معنوية، وخلصنا إلى أن المآتم عند الرجال يغلب عليه الصمت في غالب الأحيان، ثم الحديث عن الميت من عدة نواح، أولها الخصال الحميدة التي كان يعرف بها، ثم بعض الأقوال والكلمات التي نطق بها قبل موته، وغالبا ما تكون لهذه الكلمات معنى وتفسير معين؛ كتوصية لرد دين أو عقار لأحد أفراد القبيلة، أو وصية بعدم ترك أولاده والاهتمام بهم

¹ دوركهائم، المرجع السابق، ص. 501.

خاصة إن كانوا صغار، أو كانوا من زوجته الثانية، أو السؤال على أحد ابنائه الغائبين... ثم ثانيا مناقشة بعض الأمور الإجرائية؛ كاستدعاء طبيب المركز الصحي لمعاينة الجثة، وإرسال شخصين لحفر القبر وإعداده، أو طلب الفقيه والمغسلين لتغسيل وتكفين الجثة. وفي هذه القبائل يطيل الرجال شعر لحاهم ويمتنعون عن حضور الأفراح حدادا على موتاهم. هذا ما رأيناه أثناء دراستنا لعادات الحداد في الحضارات القديمة؛ ففي سومر كان أهل الميت يعبرون عن حزنهم بترك الشعر أو بننقه والنواح بأصوات عالية واللمطم على الوجه، وإلقاء الديدن على الأرض وضربها وتمزيق الثياب¹، كذلك تشير أسطورة جلجامش أن هذا الأخير قص شعره حزنا على موت أنكيديو؛ حيث جاء في الأسطورة:

ورفع صوته بصراخ كزئير الأسد؛

وكلبوة سلبت أشبالها؛

صار يروح ويجيء أمام السرير؛

يقطع بيده شعره ويرميه؛

وكان المصريون القدماء إذا نزلت بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر الرأس واللحية حتى تنتهي أيام الحداد التي تبلغ أربعين يوما، وإذا مات في بيت من بيوتهم رجل ذو قدر كبير لطخت نساء البيت الرأس والوجه بالطين، ثم يتركن الجثة في الدار، ويجلسن لاطمات وقد شمرن وكشفن عن صدورهن، ومعهن كل قريباتهن، والرجال كذلك يلطمون ويشمرون².

ويتميز المآتم عند النساء بالصياح والبكاء الجماعي على الميت؛ حيث تشارك فيه كل النساء قريبات الميت (الأخوات، بنات الأعمام والأخوال...)، ذلك ما أشار إليه حقي بقوله: "خلال المآتم تجتمع نساء القرابة والجيران والأصدقاء للبكاء على الميت بشكل جماعي، بل يتجاوز الأمر القريبات لتشارك في المآتم نساء غريبات مستأجرات، ذلك أن المنطقة عرفت ظهور مهنة جديدة وهي مهنة النواح والبكاء على الموتى"³، وربما كان وراء استئجار هؤلاء النساء الباقيات تفخيم المآتم، وإظهار ضخامة المصيبة، وذلك نوع من الدعاية لمكانة الميت وأسرته. يشير الهبطي في منظومته إلى أن النساء يلطن رؤوسهن وأجسادهن بالطين، حيث قال:⁴

يتقبن خدهن بالأظافر سخطا على الإله الباري

كخلق ما لهن من شعر لا يرتضي لفعالهن من كفر

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 332.

² فخري، المرجع السابق، ص. 304.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 87.

⁴ حقي، المرجع نفسه، ص. 88.

تشير السحيري نقلا عن دوركهائم أنه "لا توجد أي علاقة بين المشاعر الحقيقية للبكايات، وما تقوم به من بكاء وإذاية للجسد؛ حيث كانت ملامح وتعابير الوجه كثيرا ما تتغير بسرعة، وقد تبدو باسمية في بعض الأحيان¹. ويتبين من خلال ذلك أن البكاء الطقوسي ليس بتعبير تلقائي عن مشاعر فردية، وأن البكايات يؤدين دورا لا أكثر ولا أقل. هذا ما جعل السحيري تعتبر البكاء على الميت بمثابة دين يقتض ويسترد، حيث تقول: "قد يكون هذا البكاء الطقوسي واجبا تؤديه امرأة في حق امرأة أخرى توفي عنها أحد أقربائها وسبق لها أن شاركت هذه المرأة في البكاء على ميت"²، فالبكاء الطقوسي إذن واجب تؤديه النساء، ويكون نتيجة لقرار واع تأخذه المرأة، وبالتالي فهو ليس تعبيرا تلقائيا عن الحزن. ويرى حقي بأن العناية الكبيرة التي يحظى بها المأتم في المغرب والأندلس تأتي اعتقادا منهم أن الميت يحاسب خلال هذه الأيام، لذلك لا يجب مفارقتها وتركه في هذه المحنة، وكذلك لاعتقادهم أن الميت يسعد بذكر أوليائه وأهله له، ويظهر ذلك في البيتين لأبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف (ت 591هـ/1195م) من سبته إذ يقول:

ولم أجزع لهول الموت ولكن بكيت لقلّة الباكي عليا
أسر بأنني سأعيش ميتا به ويسوءني إن مت حيا³

يدوم هذا الحال في قبائل آيت باعمران إلى حين دفن الميت، فبمجرد دفنه ينصرف الكل رجالا ونساء إلى تحضير وتجهيز المنزل، استعدادا لاستقبال الضيوف والمعزين.

2. سُلُوكُتْ

تُعرف طقوس الإطعام بمنطقة آيت بعمران باسم ⵙⵓⵏⵓⵏⵓⵔ "سُلُوكُتْ"، وهي مناسبة تحضرها عائلة الفقيد وجيرانه وكل أصدقائه ممن لم يسعفهم الوقت لحضور مراسم الدفن، أو تقديم التعازي لأسرة الفقيد. ويحضر كذلك هذه المناسبة فقيه أو فقهاء الدوار وطلبة المساجد العتيقة، إذ تكون هذه المناسبة فرصة لقراءة القرآن والأمداح النبوية والدعاء للميت بالرحمة والمغفرة، في جو من الخشوع وبساطة الاحتفال. يقول الجطاري: "من المميزات الأكثر إثارة في الحياة الدينية عند الأمازيغيين هي بساطة الاحتفال وغياب الوساطة بين العابد والمعبود وكذلك قلة الطقوس"⁴، وتشير السحيري من جهتها إلى أن

¹ السحيري، المرجع السابق، ص. 343.

² السحيري، المرجع السابق، ص. 341.

³ حقي، المرجع السابق، ص. 92.

⁴ الجطاري، المرجع السابق، ص. 55.

الطعام والدعوة له والمشاركة فيه؛ كالهدايا وتبادلها وسيلة للتواصل والتفاعل بين الناس، والمشاركة فيه إلغاء للعوانية، وإبعاد لخطر التهديد الذي قد يأتينا من الآخر¹.

تقام مناسبة 𐎶𐎵𐎫𐎠 "سُلُوْكُتْ" في اليوم الثالث لحدوث الوفاة، ويأتي هذا الاختيار حسب اعتقاد أهل آيت باعمران أنه لا يجوز تقديم التعازي لأسرة الفقيد بعد مرور ثلاثة أيام على الوفاة، كي لا تذكرهم بمصائبهم، وبالتالي فهذه المناسبة هي آخر فرصة لتقديم التعازي والدعاء للميت في منزله. إلا أن طرْحاً آخر يرى أن تخصيص اليوم الثالث لتقديم الطعام ليس وراءه شيء سوى إعطاء الوقت الكافي لأهل الفقيد من أجل التحضير لهذه المناسبة التي تتطلب جهداً كبيراً؛ ابتداءً من الانتقال إلى أحد الأسواق الأسبوعية والتي غالباً ما تكون بعيدة عن الدوار، من أجل اقتناء كل مستلزمات حفلة المأتم.

في معرض حديثه عن طقوس تقديم الطعام لدى شعوب الحضارات القديمة، أشار الماجدي إلى طقس في سومر يسمى "الكسبا"، تقدم فيه مختلف الأطعمة إلى أرواح الموتى، وتذبح فيه الخراف ويقدم الزيت والعمور والبخور والنبذ الأبيض والفاكهة، وتقام هذه الطقوس بفرش مائدة توضع عليها الأطعمة والأشربة، وترتب مقاعد حول المائدة، حيث يترك مقعد واحد فارغ لروح الميت الذي أقيمت الوليمة لأجله، ويسمى هذا المقعد بالسومرية (كش كوزاديا) كرسي الروح².

ويعتقد قان غاناب أن عند شعب اللوشاي بأسام في الهند، يُلبس للميت أحسن ثيابه، ويربط بوضعية الجلوس على سقالة من قصب البامبو، ثم توضع بجانبه الأواني والأسلحة، بعدها يتم قتل خنزير، ماعز، وكلب، ويتشارك كل الأقارب والأصدقاء والجيران في اللحم، كما يقدم للميت الطعام والشراب، وفي المساء يوضع الميت في حفرة قرب المنزل، ليودعه بذلك أقرب أقربائه، ويطلبوا منه أن يعد المكان للأشخاص الذين سيلتحقون به فيما بعد³.

كما يشير شارل فيروللو أثناء عرضه لأحداث أسطورة "موت بعل" الكنعانية إلى تقديم الطعام كقربان للميت. يقول: "عندما دفنته (بعل) أخته "عانات" أقامت على قبره قرباناً ضخماً يسمح لأخيها أن يقضي حياة هادئة خلال الأشهر الطويلة التي يمضيها بين أحضان الأرض. لقد قرّبت سبعين جاموساً وسبعين ثوراً وسبعين خروفاً وسبعين وعلاً وسبعين تيساً وسبعين حماراً. وكان المجموع أربع مئة وعشرين حيواناً. وهذا أكبر قربان ذكر ووصف في قصائدنا"⁴. تقام هذه الطقوس في سومر بعد الوفاة مباشرة أو في أوقات

¹ السحيري، المرجع السابق، ص. 343.

² الماجدي، المرجع السابق، ص. 330.

³ Van gennep, Arnold, Les Rites de passage, Paris, Picard, 1981, p.231- 232.

⁴ فيروللو، شارل، أساطير بابل وكنعان، تعريب ماجد خيربك، دمشق، مطبعة الكاتب العربي، 1990، ص. 99.

محددة، كالיום التاسع والعشرين من الشهر وهو اليوم الذي يختفي فيه القمر كلياً؛ حيث تتجمع فيه أرواح الموتى ويقوم الأحياء بتقديم القرابين والشعائر، وكان يسمى يوم وليمة الموتى، أو يوم الكآبة أو يوم الندب¹.

يرى حقي أن طقوس تقديم الطعام قد طرأ عليها تغير كبير؛ حيث كان هذا الطعام في البداية مساعدة من أهل الدرب أو الحي أو البلدة لأجل القيام بشأن الميت وضيوفه الذين جاؤوا من مكان بعيد للتعزية، إلا أن الأمور تغيرت في أيامنا الحاضرة، حيث أصبح الطعام يصنع في بيت الميت ومن ماله، بل يتنافس الناس في إعداد وتجهيز المنزل لاستقبال المعزين²، ذلك ما أكدته القرطبي بقوله: "لقد صار إعداد الولائم في المآتم أمراً متداولاً وعرفاً محفوظاً، بل وصار مصدر تنافس وتفاخر بين الأسر في كمية ونوعية الطعام وعدد الأيام التي يقام فيها أيضاً"³.

وتختلف طقوس تقديم الطعام من مكان لآخر، ومن زمن لآخر، ففي قبائل آيت باعمران تنطلق منذ الصباح الباكر؛ إذ تسرع النساء في تحضير وجبة الإفطار التي ستقدم للفقهاء، بينما ينتقل الرجال إلى تحضير الفضا الذي سيحتضن الضيوف المسمى +XLOQX+ "تَمْصُرِيْت"، هذا التحضير يشمل تقريش الزرابي والأغطية، إضافة إلى وضع البخور وتحضير قنينات العطر للترحيب بالضيوف. يصل إلى منزل الفقيد فقيه المسجد وتلامذته، وبعض فقهاء الدواوير المجاورة حوالي الساعة التاسعة صباحاً، حيث تقدم لهم وجبة الفطور المكونة من طبق الأرز الذي يوضع في صحن كبير تتوسطه زلافة بها زيت أركان⁴، وإناء به لبن البقر. تسمى هذه الوجبة عند قبائل آيت باعمران بـ 8Y% 8Q% 8X% "رُورُ دُ أَوْغُو"، ويستمر تقديم هذه الوجبة لكل من حضر إلى المنزل، حتى حدود الحادية عشرة صباحاً، بعدها ينسحب الفقيه ومن معه إلى داخل الغرفة، حيث يفتتحون مجلس القراءة بتلاوة سورة ﴿يس﴾، ثم الدعاء للميت بالرحمة والمغفرة، بعدها يوزع أحد الطلبة ما يسمى بـ +XLOQX+ "تَفْرِيقُ"⁵ على الفقهاء والطلبة ممن توفرت فيهم شروط القراءة، وتكون هذه القراءة فردية بحيث أن كل واحد مطالب بقراءة نسخته كاملة. جاء في نص للقاضي عياض يتحدث فيه عن مآتم ابن العطار القرطبي (ت 399هـ/1008م) يقول: "توفي ابن العطار عقب ذي الحجة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وكان جمعه

¹ الماجدي، المرجع السابق، ص. 331.

² حقي، المرجع السابق، ص. 89.

³ حقي، المرجع نفسه، ص. 89.

⁴ أركان: زيت يستخرج من لوز شجرة الأركان، وهو شجر نادر يتواجد بشكل كبير في المغرب، وخصوصاً بمنطقة سوس، ويستعمل كثيراً في المطبخ التقليدي لهذه المنطقة.

⁵ تَفْرِيقُ: هي نسخ من القرآن، وتحتوي كل نسخة على خمس أحزاب.

"أَرْ قَالْنِ طَلْبَا أَيْلِي سُمُونُ غُ سُلُوكُتْ، إِ تَارَوَا نْ لَمْزُحُومُ بَاشْ أَتْنِ سَرْسُنْ عَاوُنْ، إِغْ إِكَا دَرْيُوشْ، أَوْرْ
إِطَافْ يَاتْ إِفْلَدْ تَارَوَا مَرْيِينِ، د.أَرْ سُمُنَانْ طَلْبَا غُ سُلُوكُتْ نَكْرُ رُيْعِينْ دُ سَتْنِينْ أَلْفْ".

"يتنازل الفقهاء على المساهمات المجمعة في (سُلُوكُتْ) لصالح أبناء الفقيد، كنوع من التآزر والتضامن،
خصوصاً إن كان فقيراً، وخلف وراءه أبناء صغار لا معيل لهم. ويتراوح المبلغ المجمع في حجر الفقيد أو
الكور بين ألفي درهم وثلاثة آلاف درهم".

تبدأ طقوس "سُلُوكُتْ" في المجال الحضري لقبائل آيت باعمران حوالي الساعة الحادية عشر
صباحاً؛ حيث يتلقى الفقهاء الستة الذين سيحضر هذه المناسبة دعوة من أحد أبناء الفقيد أو أقربائه منذ
لحظة الدفن، ففي المدن لا يلتزم السكان بانتظار مرور ثلاثة أيام للقيام بطقوس الإطعام؛ إذ بمجرد كراء
القاعة التي ستحتضن المدعوين، يحضر الفقهاء ويقدم لهم بمدخل القاعة الحليب والتمر والعصائر. يدخل
هؤلاء إلى داخل القاعة وتوزع عليهم نسخ القرآن، بحيث يكون كل واحد منهم مطالباً بقراءة عشرة أحزاب،
أي نسختين من "تَفْرِيقْ"، وتستغرق قراءة كل نسخة حوالي ساعة من الزمن. بعد الفراغ من القراءة الفردية
يقوم أحد الفقهاء بترتيل ربع أو ثمن من الحزب. حوالي الساعة الواحدة بعد الزوال يصل أقرباء الفقيد
وأصدقاؤه المدعوون لحضور حفل المأتم، ففي المجال الحضري لا يحضر هذه المناسبات إلا المدعوون.
يشرع بعد ذلك المنظمون بتقديم وجبة الغداء المكونة من ثلاثة أطباق رئيسية: الدجاج المحمر، الطبق
الثاني: اللحم بالبرقوق، (يقدم لحم البقر أو لحم الجمل)، أما الطبق الثالث فهو طبق الفواكه. ونسجل بهذا
تحول مناسبة العزاء إلى ما يشبه حفلات الزفاف، ويتجلى ذلك في توفير وجبات الأكل بمختلف أصنافها
للمعزين والمدعوين من خلال تنظيم هذه المناسبة من لدن شركات مختصة، أو أحد الممومنين الذي يتكلف
بكل شيء بداية بطهي الطعام وصولاً إلى تقديمه داخل القاعة.

نستنتج من خلال حضورنا لمناسبات سُلُوكُتْ المنظمة في المجال الحضري أن المجتمع
الباعمراني طرأت عليه تحولات كبيرة على مستوى تجهيز وتنظيم احتفالية المأتم. لقد كانت هذه الأخيرة
مناسبة للتضامن والتآزر بين مختلف مكونات المجتمع، ويتبين ذلك في مساعدة أبناء القبيلة في تجهيز
ودفن الميت، وتقديمهم الطعام لأسرته وللمعزين، بالإضافة إلى تقاسمهم الحزن والحداد معهم، فلا ينظمون
حفلات الزواج، أو العقيقة أو أي مظهر من مظاهر الفرح والسرور حتى تمر على دفن الميت أربعون
يوماً. ويشير منديب إلى أن العادة تقتضي أن لا توقد نار المطبخ في بيت الميت طيلة الفترة التي تسبق

موعد العشاء (عشاء الميت)، فالجيران هم الذين يتكفون خلال هذه الفترة بإطعام أهل الميت والمعزين¹.

ونسجل بذلك تحول الجنائز من مصيبة عظيمة للدوار أو القبيلة بأسرها إلى مصيبة فردية تعني أسرة الفقيد لوحدهم، كما تحولت البساطة في تنظيم احتفالية المآتم إلى تكلف وتصنع وسباق نحو التباهي والافتخار، من خلال تقديم ما لذ وطاب من الأكل وارتداء آخر أنواع الجلابيب الأنيقة. ويعتبر حقي المآتم مناسبة لتجاوز الأخروي والدنيوي، فهو خدمة للميت وأهله الأحياء على حد سواء، وذلك من خلال مجموعة من التصرفات التي كانت تمارس في المآتم عبر استغلال المناسبة للتفاخر والتباهي بكثرة الأطعمة والأموال التي تخصص للقراء والنائحات، والفقراء وكذا بناء القباب، وتجهيز القبر².

تختتم احتفالية الموت بقبائل آيت باعمران بقراءة خاتمة القرآن والمعوذتين وسورة الإخلاص، ليشرع بعد ذلك الفقيه (رئيس الجلسة) بالدعاء للفقيد بالرحمة والمغفرة، وأن يكون من أصحاب الجنة ولسائر أموات المسلمين، ويشمل الدعاء أيضا أبناء الفقيد؛ حيث يدعى لهم بالهداية وأن يزيدهم الله في رزقهم، وأن يرزقهم رضى والدهم ووالدتهم. ليقوم بعد ذلك أحد أبناء الفقيد بتوزيع ستة أظرفة على الفقهاء الستة، ويحتوي كل ظرف على مبلغ مالي يتراوح ما بين مائة ومئتي درهم تعطى لهم كمقابل على قراءتهم للقرآن ودعاءهم للفقيد.

3. إِفْقِيرُنْ

ينظم مجلس الذكر في مساء اليوم نفسه الذي تقام فيه "سُلُوكُتْ"، ويشارك في هذه المناسبة الصوفيون من الزاويتين الدرقاوية أو التيجانية، ويسمى هؤلاء محليا بـ "إِفْقِيرُنْ" أي الشيوخ أو العجائز. يقول منديب: "بعد غروب الشمس يقام بمنزل الميت حفل تأبين يسمى محليا بـ "عشاء الميت" ينشطه مجموعة من الطلبة بقراءتهم الجماعية لعدد من الأبيات والسور القرآنية"³. يتلقى هؤلاء المتصوفة دعوة من ابن الفقيد أو أحد أقربائه، سواء لحظة الدفن أو فيما بعد، حيث يخبرهم بمكان وزمن احتفالية التأبين، والتي تكون في الغالب في منزل الفقيد، أو في مقر الزاوية. ومنذ لحظة تلقيهم الدعوة فهم مطالبون بإعداد ما يسمى "لَفْدِي".

يجتمع "إِفْقِيرُنْ" أمام المسجد بعد صلاة العشاء في انتظار أن يلتحق بهم من أراد

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 161.

² حقي، المرجع السابق، ص. 92.

³ منديب، المرجع السابق، ص. 161.

مراقبتهم، ليتوجهوا سيرا على الأقدام في موكب، وهم يرددون بصوت مرتفع وملحن:

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .. لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ..

وأثناء وصولهم أمام بيت الفقيه يبدؤون في ترديد مجموعة من الأشعار الصوفية، من بينها:

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سلام عليكم ورحمة الله

تقبلوا من جاءكم زاركم الله

يا مرحبا بكم يا من جاءنا لله

مولانا كفيكم والمقصود هو الله

يدخل الصوفيون إلى منزل الميت، وهم ينشدون تلك الأبيات دون إلقاء التحية على أهل البيت أو الحديث معهم؛ إذ يسترسلون في الإنشاد على شكل حلقة، وتسمى هذه الأشعار في قاموسهم بتحية المجلس. يجلسون بعد ذلك على شكل حلقة يلتفون فيها حول المسمعين، ليبدأ بذلك السماع والمديح، تارة باللغة العربية وتارة ينشدون أمداحا أمازيغية محلية، ومن الأمداح التي سمعناها في هذه المجالس، نذكر:

لَبَّارِي تَعَالَى يَا لَطِيفُ يَا اللَّهُ رَبِّي
أَنْ أَوْزُ أَفِيغُ تِيْلَاسْ غُلْفَنَزْ أَوْلَا لُخُوفِي
الباري تعالى يا لطيف يا الله أنت ربي
ألا أجد الظلام ولا الخوف في قبري

بَاسْمِكَ الْبَارِي وَبِحَمْدِكَ ابْتَدِيتُ
إِسْمُكَ الْبَارِي أَسْ بُدِيغْ دُ لَحَامْدُكَ
تليه الصلاة على شفيعنا يوم الحشر
أَفَادُ سَطْرَالِيْتُ فَأُشَافِيغْ لَمَحْشَرِي

سَيِّدِي تَنْغُ رَاسُولُ اللَّهِ إِيكَانْ
نُورُ غُ إِخْلُقْ رَبِّي لُكُونْ إِرْحَمْتُ سَرْسِي
سيدنا محمد رسول الله هو
النور الذي خلق منه الله الكون

طَارَلِيْتُ أَنْ إِيْلَانْ دُ سَلَامْ مَتَبَعَانْ
دُومَنْ بَدَا فُلَاسْ أَوْزْ سَارْ نَنْهَآوْنِي
طَارَلِيْتُ أَنْ إِيْلَانْ دُ سَلَامْ مَتَبَعَانْ

یداومون علیہا بدون تہاون

نَتًّا أَوْ لَا أَيَّدَازْسْ أَوْ لَا لَصَحْبًا نَسِي
أَدَاغْ سَرْسْ إِنْفَعُو زَيِّي سَلْقَاضْلْ نَسِي
هو وعائلته وأصحابه
فلينفعنا به الله وبفضله

لَبَّارِي تَعَالَى يَا لَطِيفُ يَا اللَّهُ رَبِّي
أَنْ أُرْ أَفِيعَ تِيْلَاسْ غَلْقَبْرُ أُولَا لُخُوفِي
الباري تعالى يا لطيف يا الله أنت ربي
ألا أجد الظلام ولا الخوف في قبري

سلام على قبر يزار من البعد	سلام على الروضة وفيها محمد
سلام على من قال للضب من أنا	فقال رسول الله أنت محمد
سلام على من زار في الليل ربه	وبلغه المرغوب في كل مقصد
سلام على المدفون في أرض طيبة	ومن خصه الرحمن بالقدر والمجد
نبي خصه الله بالحسن والبهاء	فطوبى لعبد زار قبره محمد
أيا راكبا نحو المدينة قاصدا	بلغ سلامي للحبيب محمد

يطلب شيخ الزاوية أو من ينوب عنه في حالة غيابه من الصوفيين (𐤇𐤊𐤆𐤃𐤌) إخراج التسبيح المعلق بأعناقهم والمسمى محليا بالورد، من أجل بدء 𐤋𐤍𐤁 "لُقْدِي"، وذلك بترديد عبارة لا إله إلا الله سبعين ألف مرة، ويقال لذلك بالتعبير المحلي +𐤏𐤎𐤕𐤔𐤓𐤀𐤈 𐤋𐤍𐤁 𐤒𐤖𐤗 𐤅𐤂 𐤠𐤙𐤄 "أَدْ كُنْسُ لُقْدِي لَمَائِيتْ" (أن يفدوا الميت). يشرع كل من يتوفر على الورد أو التسبيح من الحاضرين في ترديد عبارة لا إله إلا الله في صمت، الى حين بلوغه الألف، ثم يقول للمسؤول عن الحساب جملة 𐤅𐤂 𐤑𐤟𐤉𐤔𐤓𐤀𐤈 " أَسِي يَا نُسَيْدِي " (خد واحدا يا سيدي)، ليأخذ المسؤول حبة من السبعين حبة الموضوعية في إناء، وهكذا حتى فراغ الإناء من كل الحببات، وبذلك يعلن الشيخ أنهم فرغوا من 𐤋𐤍𐤁 "لُقْدِي" بالدعاء للفقيد، واهدائه تلك السبعين ألف من عبارة لا إله إلا الله.

تنتقل من جديد حلقات السماع والمديح، ثم يلقي الشيخ درساً له علاقة بموضوع المناسبة؛ أي الاستعداد للموت ويوم الرحيل، وذلك بالتأكيد على فعل الخير ما أمكن، كما يستغل الشيخ المناسبة للحديث عن التصوف، وحث الناس على إكرام المتصوفين والتصدق عليهم. بعد درس الشيخ تدخل إلى المجلس موائد الطعام، ومن المعروف في قبائل آيت باعمران أن وجبة العشاء التي تقدم للمتصوفين تكون عبارة عن طبق الكسكس، ويسمى محلياً بـ "ḤḤḤ" "طَعْمٌ"، ولهذه الوجبة رمزية تدل على التضامن والتآزر، لكونها تؤكل بطريقة جماعية؛ حيث يلتف على كل مائدة سبعة أشخاص يأكلون بأيديهم من الصحن نفسه.

تحمل الموائد إلى الخارج بعد الفراغ من الأكل، ويتكلف شخصان أو ثلاثة أشخاص بسكب الماء للحاضرين ليغسلوا أيديهم، بعدها يأخذ ابن الفقيد أو أحد أقاربه قارورة كبيرة مملوءة بالعطر ويرشه على شيخ الزاوية وكل الحاضرين، وبذلك يجتمع الكل للدعاء للفقيد بالرحمة والمغفرة، حيث تقدم عائلته اثني عشر قالباً من السكر كمقابل للمتصوفين وكجزء لهم على ما قدموه من أمداح ودعاء للفقيد.

4. حَقُّ الله

تعرف طقوس "حَقُّ الله" في اللغة الأمازيغية بـ ḤḤḤ ḤḤḤ "لَحَقُّ نْ رَبِّي"؛ وهي طقوس تمارسها المرأة المتوفى عنها زوجها، من خلال تجنبها وامتناعها عن كل ما يدعوها إلى ممارسة الجنس أو رغبة الآخرين فيها؛ كالتزين ووضع العطور، أو الخروج إلى الأماكن العمومية والسفر بمفردها. ويشير منديب إلى أن "حفظ حق الله" هو حداد خاص تدخل فيه زوجة الميت، باغتسالها في المكان نفسه الذي غُسل فيه زوجها، وارتداؤها ثياباً بيضاء بأكملها من الجوارب حتى غطاء الرأس، ويرمز ذلك إلى احترام الزوجة لروح زوجها وشدة حزنها عليه¹.

يسمى طقس "حَقُّ الله" في معاجم اللغة العربية بالعِدَّة، وعِدَّة المرأة حسب ابن منظور أَيَّامُ قُرْئِهَا، وَعِدَّتُهَا أَيضاً: أَيَّامُ إِحْدَادِهَا عَلَى بَعْثِهَا وَإِمْسَاكِهَا عَنِ الزَّيْنَةِ شَهْراً كَانَ أَوْ أَقْرَأَ أَوْ وَضِعَ حَمْلٌ حَمَلَتْهُ مِنْ زَوْجِهَا. وَقَدْ اعْتَدَّتِ الْمَرْأَةُ عِدَّتَهَا مِنْ وَفَاةِ زَوْجِهَا أَوْ طَلَاقِهِ إِيَّاهَا، وَجَمَعَ عِدَّتَهَا عِدَّةً وَأَصْلُ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ الْعَدِّ، وَقَدْ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا. وفي الحديث: لَمْ تَكُنْ لِلْمُطَلَّقةِ عِدَّةً، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الْعِدَّةَ لِلطَّلَاقِ. وعِدَّة المرأة الْمُطَلَّقةِ وَالْمُتَوَفَّى زَوْجُهَا: هي ما تَعُدُّهُ مِنْ أَيَّامِ أَقْرَائِهَا، أَوْ أَيَّامِ حَمْلِهَا، أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ عَشْرَ لَيَالٍ. وفي

¹ منديب، المرجع السابق، ص. 161.

257

وحسب حقي فإن الحداد يعني لباس ثياب الحزن السود بصفة عامة، ولبس المرأة لباس الحزن وتركها للزينة بكل أشكالها طيلة فترة العدة بعد فقد زوجها¹.

يمثل اللباس أهم مظاهر الحزن على الميت، حيث انتقل من اللون الأسود في الحداد إلى الألوان الغامقة دون وجود الأسود بالنسبة للأرامل الصغيرات السن، والمتواجدات في المجال الحضري، هذا إلى جانب ارتداء اللباس الأبيض بالنسبة للمسنات والنساء اللواتي أدين فريضة الحج. يؤكد حقي من خلال مجموعة من الشهادات التي أوردها أن أهل الأندلس وحتى القرن 6هـ/12م كانوا يتخذون اللباس الأبيض في حزنهم، ونفس الشيء بالنسبة للمغرب مركزا في تأكيده هذا على استمرار لباس الإزار الأبيض بالنسبة للأرامل طيلة مدة العدة، ويرى حقي أن اتخاذ أهل المغرب لهذا اللون كان نتيجة لارتباط المغرب بالأندلس منذ القرن 4هـ/10م سياسيا وثقافيا، مما سيسهل مرور هذه العادة إليه².

وتضم كذلك قائمة الممنوعات لدى الأرامل، وضع الكحل على العينين وكذلك الحناء لليدين والرجلين، وذلك طيلة فترة العدة، إضافة إلى ضرورة لزومها لبيتها، وألا تخرج منه إلا لضرورة أو حاجة لا تجد من يقوم بها، وفي حالة خروجها يجب عليها الرجوع إلى البيت قبل مغرب الشمس، وألا تقضي ليلتها في مكان آخر إلا عند أحد محارمها كأبنائها أو بناتها أو أحد إخوانها.

تحكي الميثولوجيا الأمازيغية عن الأرامل اللواتي نقضن عهد الله، ولم يحفظن حقه (أيام العدة)؛ بحيث لم يلتزم بشروط العدة، ومن هذه الأساطير المتداولة في أغلب المناطق الأمازيغية: أسطورة ⵜⵉⵎⴰⵔⵜ ⵏ ⵉⵎⵎⵣⴰⵏ "تغمارت ن إصمضال" (بغلة القبور)، وهي حسب وصف أوسوس كائن روحاني شرير يتخذ هيئة فرس بيضاء جميلة، تهيم ليلا في المقابر المهجورة، وتعدو محدثة ضجة كبيرة وقعقة بواسطة سلاسل حديدية أو حلي تجرها وتتدلى من عنقها، إذ تداهم المارة ليلا وتغريهم بامتطائها، فينخدعون بلطافتها، لتجنح بهم إلى المقبرة، حيث تحفر لهم قبرا بحوافرها أو تلتهمهم في الغالب³. ووصفها محمد خير الدين على أنها حيوان فوق طبيعي يمتلك طاقة فانتاستيكية ويمثل قوى الشر، لقد كانت ملكة الليل بلا منازع توحى برعب شديد للمسافرين ليلا، ويعتقد أنها تتحرك كزوبعة من الشرار، إذ يتطاير من حوافرها أو ينبعث من ناصيتها (أزاك) كإشعاع ناري كثيف⁴.

¹ حقي، المرجع السابق، ص. 83.

² حقي، المرجع نفسه، ص. 84.

³ أوسوس، محمد، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، الرباط، منشورات المعهد الملكي الأمازيغي، 2007، ص. 119.

⁴ أوسوس، المرجع نفسه.

في بداية الليلة التي من المتوقع أن تعرف طواف بغلة القبور تقوم المرأة المصابة بهذا النوع من اللعنة بتحضير طعام العشاء لأبنائها في وقت مبكر، ثم تفتح الأبواب استعداداً لوقت معلوم، لا يسمح لها وضعها بالقيام بأي فعل بشري، وحيث إنها تنتبأ بما سيحدث لها، توصي أبناءها بالتزام الهدوء، إن تبين لهم وضع غريب في المنزل، وفي ساعة الخروج تتبدل صفة الأرملة، فتتمدد الأطراف العليا والسفلى، ويكسوها وبر حيواني ثم يطول عنقها وتتغير كل صفاتها وقسمات وجهها، ولما يتم التحول الكلي، تخرج للهواء الطلق لتفزع المارة، وتصبح حديث العام والخاص في الأيام المقبلة¹.

تحكي الرواية الشفوية في قبائل آيت باعمران أن أصل أسطورة +oXLoO+ I xOLEoX "تَكْمَارْتْ نْ إِصْمُصَالْ (بغلة القبور) يعود إلي امرأة مات زوجها ولم تلزم بشريعة الله؛ حيث سمحت لنفسها بالتزين بمختلف أنواع الزينة من كحل وعطر وحناء، بل هناك من يقول أنها خرجت من منزلها ليلاً، وقضت ليلتها خارج البيت، غير آبهة بحفظ حق الله، فانتقم منها وحولها إلى بغلة ترتاد المقابر ليلاً، وتعود إلى هيأتها الطبيعية (امرأة) مع بزوغ الفجر. ذلك ما أكدته الباحثة في الميثولوجيا الأمازيغية أسوس بقوله: "هي امرأة مات زوجها فلم تلتزم بالحدود المفروض اجتماعياً في هذا الموقف، ولم تحترم مقتضيات فترة العدة، بل سمحت لنفسها بمعاشرة رجال آخرين وإقامة علاقات جنسية غير مشروعة معهم فعاشت في تهتك، فتحوّلت عقاباً لها إلى فرس تاكمارت أو بغلة (تبعاً للمناطق) بعد موتها، فعدت لتقتنص المارين قرب المقبرة وتلتهمهم"². من جهته يرى منديب أن فترة العدة غير إجبارية، حيث يمكن لزوجة الميت أن لا تلتزم بها، ولكن في هذه الحالة ينظر إليها بعين الريبة والشك في متانة علاقتها بزوجها الفقيـد³.

تكاد المجتمعات الأمازيغية تتفق في كون المرأة الحادة مصدر شؤم، ففي الجنوب (ورزازات، وطاقا...) يقول أسوس نقلاً عن محمد اعليوش: "لا تخرج المرأة الحادة من بيتها حتى تتم عدتها، وإن فعلت تصبح مصدر شؤم لمن رآها، وفي (قبائل إيكرنان) عندما تريد المرأة المتوفى عنها التحلل من عدتها، تقوم باكراً وتصحب امرأة أخرى، فتذهبان بعيداً عن المساكن بحثاً عن كائن حي لتلقي عليه ملابس العدة، وترتدي ملابسها العادية، فالناس يؤمنون بامتلاك هذه المرأة قوة خارقة في إلحاق الضرر والمصائب -وأحياناً نادرة جلب المنافع العظيمة- بكل من تقع عينها عليه، وهذا الاعتقاد يؤدي إلى شل

¹ آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 64 - 65.

² أسوس، المرجع السابق، ص. 121.

³ منديب، المرجع السابق، ص. 161.

الحركة بالمنطقة من غروب الشمس في آخر يوم من مدة العدة إلى ضحى اليوم الموالي حيث يصبح الخروج والدخول سترا، والكلام همسا خوفا من المصائب التي تتسبب فيها تلك المرأة الشبح¹.

يتميز الجنوب الشرقي بوجود نوعين من بغلة القبور، النوع الأول ينطبق حسب خيال السكان المحليين على أرملة لم تحافظ على حصانتها وقت العدة، أو على الأقل تجرأت على الخروج ليلا. والحال أن العرف الاجتماعي يفرض عليها التزام المكوث بالمنزل من غروب الشمس إلى مطلع الفجر. والنوع الثاني شبحي، وهو في الأصل امرأة ميتة تحولت روحها إلى هيكل بغلة تخرج لتتجول في الليل، ويكثر الحديث عن هذا النوع قرب الممرات الاستراتيجية التي كانت تخترقها الطرق القديمة، كالطريق التجارية سجلماصة/فاس.² ويرى آيت الفقيه أن الخيال المحلي بالجنوب الشرقي ابتدع طريقة للتعرف على كلا النوعين، حيث يكفي غرس السكين في التراب لإرجاع بغلة القبور إلى أصلها، فإن كان جنسها من أصل الأحياء فستظهر امرأة معلومة، يعرفها العام والخاص من سكان القصر (الدوار)، وإن كانت من النوع الشبحي فستختفي وتعود الروح إلى القبر³.

وأكد آيت الفقيه من جانب آخر أن فكرة إنتاج حكايات الخوف والترهيب كان وراءه تلجيم الأرامل، كي لا يخرجن عن طاعة المجتمع، إذ إن المجتمع المنغلق والمتوقع لا يقبل سوى المحصنات من النساء المستقرات في المنازل، أو العاملات بالحقول في أحسن الأحوال، وبالتالي فالمرأة إذا زغت في الأشهر الأربعة الأولى من موت زوجها بحثا عن لذة جنسية غير مشروعة فإن الحمل الناتج عن ذلك ينسب للهالك، ويؤثر على سلامة العرق⁴.

ويعتبر طقس "حَقُّ الله" من الطقوس الهامشية، حيث يضع المرأة التي فقدت زوجها على الهامش؛ إذ تحرم من الاختلاط مع الناس، وكأنها تحمل معها عدوى الموت. يقول أسوس: "إنها امرأة مدنسة وغولة وجنية مشئومة، مما يفسر تعدد صفات وأبعاد هوية تكمّارت ن - إيسمضال المتحدرة منها. فالحداد أو العدة يعتبر طقس اجتياز، إنه فعل سحري احترازي، وهو يمكن من تجاوز تلك العتبة الخطيرة التي تجعل المرأة الفاقدة زوجها tadgalt في وضع حرج تكون فيه حياتها مشرعة أمام الموت، وهويتها ملتبسة متدببة بين الانتماء إلى الجماعة البشرية، والانتماء إلى عالم الأرواح الشريرة المرتبطة بالموت والقبور

¹ أسوس، المرجع السابق، ص. 127.

² آيت الفقيه، المرجع السابق، ص. 63.

³ المرجع نفسه.

⁴ آيت الفقيه، المرجع نفسه، ص. 67.

كفضاء مهجور inhabité، والليل كزمان تتعدم فيه أو تكاد كل الأنشطة البشرية والثقافية، إنها ليست كبقية الأحياء لكنها متميزة عن الأموات، مما يفسر تحييتها على الهامش، وحرمانها من الاختلاط بالعامّة الذين تشكل خطراً عليهم ما لم تتخطى ذلك الحد السحري الحرج بعد استيفاء مدة العدة، ورفع الحداد الذي يعيدها إلى حالتها العادية، ويدمجها من جديد في الجماعة، لتستأنف أنشطتها الاعتيادية بعد التطهر¹.

يتبين لنا بشكل كبير بعد دراستنا لطقوس العبور بقبائل آيت باعمران شدة معاناة الأقليات الدينية بالمغرب، إذ لا يسمح لهم بممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية طيلة حياتهم، أما بعد موتهم فتسلم لذويهم رخص دفنهم في مقابر المسلمين، وتقام لهم صلاة الجنازة بالمساجد، وتردد لهم "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وهم في طريقهم إلى المقبرة، كما تقرأ عليهم الآيات القرآنية عند دفنهم ولو كانوا غير مسلمين، فربما كان الميت مسيحياً، أو بهائياً، أو شيعياً، أو لا ديناً أو ملحداً. من جهتها طالبت مجموعة من الهيئات الحقوقية بتخصيص مقابر مدنية، خاصة للملحدين المغاربة المتوفين، حتى لا يدفنوا في مقابر إسلامية وبالطريقة الإسلامية، على اعتبار أن ذلك حق من حقوق الإنسان، ويقول الريسوني حول ذلك: "إن المذاهب الإسلامية متفقة على أن غير المسلمين لا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، وكذلك لا تجوز صلاة الجنازة على جثامينهم، ولا يجوز إدخالها إلى المساجد أصلاً." يضيف الريسوني: "هذه المسلمات لا تحتاج إلى وصية أو طلب من الملحد أو من أصدقائه وأهل ملته، فالموتى الملحدون - وغير المسلمين عموماً - لا مكان لهم في مقابر المسلمين ولا في مساجدهم، حتى لو رغبوا أو رغب أقاربهم في ذلك"². ويرى مومن أنه إن مات غير المسلم في بلاد إسلامية، ولا يوجد أحد من أوليائه وأهل ملته يتولى أمره، فإنه يجب دفنه. فعن علي بن أبي طالب: "لما توفي أبو طالب أتيت النبي فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات، فمن يواريه؟ قال: اذهب فواره..." ولا يلزم أكثر من ذلك فلا غسل ولا تكفين ولا صلاة، لأن هذه خصيصة بمن مات مسلماً. ويدفن في مقابر خاصة بهم³.

ويعتبر رفض دفن هؤلاء بالمقابر الإسلامية بمثابة اعتراف بوجود أقليات دينية بالمغرب، وبالتالي يجب على الدولة أن توفر لهم جميع حقوقهم على قدم المساواة مع المسلمين، بما في ذلك إحداث مقابر مدنية لهم، حيث يدعو مبدأ الديمقراطية والمواطنة وحقوق الإنسان إلى كون كل مواطن مغربي عليه واجبات تجاه الدولة، وله حقوق يجب على هذه الأخيرة أن توفرها له.

¹ أوسوس، المرجع السابق، ص. 129.

² الريسونس، أحمد، دفن الملحدين، كيف؟ وأين، مقال منشور على موقع الجريدة الإلكترونية هوية بريس، بتاريخ 16 يوليوز 2016، على الرابط التالي: <http://howiyapress.com>

³ مومن، المرجع السابق، ص. 74.

وتخضع المقابر من الناحية القانونية لنظام قانوني مزدوج يتركب في جزء منه من بعض الأحكام المنبثقة عن الفقه الإسلامي، وفي جزئه الآخر من الأحكام التي وضعتها بعض النصوص القانونية الوضعية. انطلاقاً من ذلك تبقى المقابر أملاكاً حبوسية، بمعنى أن إحداثها وإيجاد الأراضي اللازمة لذلك من اختصاص وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، باعتبارها الجهة المشرفة على الأحباس العامة بالمملكة، في حين يبقى أمر صيانة هذه المقابر والمحافظة عليها من اختصاص الجماعات المحلية.

وإذا أضفنا بعض العبارات المكتوبة سواء على جدران المقابر بالمغرب: "المقبرة الإسلامية"، أو على سيارات نقل الأموات التابعة للجماعات المحلية: "نقل أموات المسلمين"، وكذلك بعض الوثائق الرسمية كالمقرر الوزيري إلى الباشوات بتاريخ 11 جمادى الأولى عام 1369 الموافق فاتح مارس 1950، ومما جاء فيه إسناد مسألة إحداث المقابر ومعايشتها والتصرف فيها للبلديات بمشاركة لجنة مركبة من: الباشا بصفته رئيساً، ناظر الأحباس، القاضي، عضوين من اللجنة الخيرية، رئيس البلدية، قابض الصندوق البلدي. ومن المهام المنوطة بهذه اللجنة إعطاء الرأي المناسب لإحداث المقابر للمسلمين وتعديلها والتصرف فيها، كذلك منشور وزير الداخلية رقم 83 ق.م.م/3 بتاريخ 29 مايو 2000، موجه إلى السادة الولاة وعمال عمالات وأقاليم المملكة حول تدبير المقابر الإسلامية والمحافظة عليها وصيانتها. ورغم أن هذا المنشور أسند مهمة تنظيم المقابر إلى السلطة المحلية، وحدد الأشخاص الذين لهم الحق في الدفن في المقبرة وهم الأشخاص المتوفون القاطنون في المنطقة التي توجد بها المقبرة، أو الأشخاص المالكون بهذه المقبرة مدفناً عائلياً أينما كان محل سكناهم أو وفاتهم، فإنه لم يشر في تفاصيله عن نوع ديانة الأشخاص الذين لهم الحق بدفنهم، ولكن أشار إلى ذلك في موضوع المنشور (تدبير المقابر الإسلامية والمحافظة عليها وصيانتها)؛ أي أن المشرع المغربي لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى وضعية الأموات المغاربة غير مسلمين حق ممارسة طقوسهم وشعائرتهم، إحداث مقابر مدنية لدفنهم... وبذلك نكون أمام ميز عنصري بسبب الدين، وهو ما يتعارض مع منطق الدستور المغربي؛ لا سيما الفصل الثالث منه الذي يقول: "الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية"¹. فهل تكفي الطقوس الجنائزية "الإسلامية" لإعلان الميت مسلماً؟ أم أن الموت يحوله إلى الإسلام؟ أم هنالك تقصير للسلطات المعنية في توفير مكان يدفن فيه هؤلاء الأقليات؟

¹ الدستور المغربي، منشور بالجريدة الرسمية، تحت عدد 5964 مكرر، بتاريخ 30 يوليو 2011.

خاتمة الفصل الثالث

بعد عرض وتحليل الطقوس الجنائزية بقبائل آيت باعمران، ومحاولة الإحاطة بالموضوع من مختلف الجوانب، اتضح بأن هذه الطقوس تهم الأحياء أكثر مما تهم الأموات، فهي بمثابة أداة لإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد حدوث فاجعة الموت. وتتجلى هذه الفكرة بشكل كبير في عدة طقوس أهمها: إفراغ المنزل من كل ملابس وحاجيات الميت، وتوزيعها على أصدقائه وأقربائه، وعدم استحسان زيارة العائلة والأصدقاء بعد الرجوع مباشرة من تقديم التعازي، بالإضافة إلى دق الطبول في كل مرة يسمع فيها أهل القبائل صوت الغراب الأسود في المساء، لخوفهم الشديد من حدوث الموت، دون أن ننسى زيارة الأحياء للمحتضر وطلب الصفح والغفران منه قبل موته، إذ بعد ذلك لن يجدوا من يغفر لهم أخطاءهم التي ربما اقترفوها في حقه. نجد كذلك تهافت الناس على تجهيز وحمل نعش الأموات من المتصوفين والأولياء، بل وصل بهم الأمر إلى كسر النعش وأخذ أعواده للتبرك بها واعتبارها مصدر خير، وأيضا تكليف مموني الحفلات بتجهيز وإعداد احتفالية المأتم التي تقدم فيها مختلف أنواع الأطعمة، وتباهي عائلة الميت بارتداء أفخر أنواع الملابس، وتزيين قبر ميتهم بالزليج والنقش على الرخام، وكل ذلك من أجل التقاخر بالمكانة الاجتماعية لهذه العائلة. هذا دون أن نغفل أن هناك من يستغل هذه اللحظات والمناسبات للتقرب من عائلة الميت ومساعدتهم، سواء في الإجراءات الإدارية، أو في الإعداد للمأتم، وهذا ليس لفعل الخير أو لأخلاقه الإنسانية، وإنما لمصالحه الشخصية وكسب قاعدة شعبية واسعة يلجأ إليها في الانتخابات المحلية والجهوية.

تعتبر أغلب الطقوس الجنائزية التي تمارس في قبائل آيت باعمران أثناء حدوث الموت امتداداً لمختلف الطقوس، التي انتشرت لدى شعوب الحضارات القديمة. فمثلا طقس تغسيل الموتى عرفه المصريون القدماء منذ أكثر من 3000 سنة قبل الميلاد؛ حيث يغسلون موتاهم بماء النيل قبل تحنيطهم، وكذلك يلجأ البابليون والآشوريون والسوماريون أثناء تطهير موتاهم إلى غسلهم أو حرقهم، بهدف تطهير الجسد من النجاسة والدنس. بالنسبة لطقوس الموكب الجنائزي، فقد كانت تؤدي في مصر القديمة وسط نوع من الرقص الجنائزي؛ إذ يسير الرجال في المقدمة وتتبعهم النساء، ليقوم الكهنة بحرق البخور، وترتيل التراتيل الحزينة. وبعد انتشار الإسلام أدخلت مجموعة من التعديلات على هذا الطقس، وأصبحت بذلك النساء ممنوعات من حضور الموكب الجنائزي والمشاركة فيه، على غرار الديانة اليهودية. كما أقر المذهب المالكي بضرورة حمل الميت إلى مثواه الأخير في صمت وخشوع، والتفكير في الموت والآخرة،

لكن ذلك لم يكن في الواقع، إذ يردد الناس عبارات التشهد (لا إله إلا الله... محمد رسول الله)، ويقرؤون القرآن والتهاليل، وهم في طريقهم للمقبرة. كما أن طقوس "سُلُوكُتْ" عند الأمازيغ قد عرفت منذ القديم، ففي سومر تُسمى هذه الطقوس باسم "الكسبا"، وتقدم فيها مختلف الأطعمة إلى روح الموتى، وتذبح فيها الخراف، ويقدم الزيت والبخور والنبيد الأبيض والفاكهة. كذلك جاء في أسطورة "موت بعل" أن أخته "عانات" أقامت على قبره قربانا ضخما مكونا من أربعة مئة وعشرين حيوانا (سبعين جاموسا، سبعين ثورا، سبعين خروفا، سبعين وعلا، سبعين تيسا، سبعين حمارا)، وهدف ذلك أن يقضي "بعل" حياته هادئة بين أحضان الأرض. وخلافا لذلك رأى الإسلام أن تقديم الطعام يجب أن يكون من طرف أهل القبيلة؛ بحيث يقدم لأسرة المتوفى، وضيوفهم الذين جاؤوا من مكان بعيد لتقديم التعازي، إلا أن الواقع يحكي عكس ذلك؛ حيث أصبح الناس يتنافسون في إعداد وتجهيز المنزل لاستقبال المعزين، بل بلغ بهم الأمر إلى كراء قاعات الأفراح المتنقلة، وتكليف مموني الحفلات لتجهيز وإعداد احتفالية المأتم، وتقديم ما لذ وطاب من الأكل والشرب، وأيضا استقدام المنشدين الدينيين والفقهاء لقراءة القرآن وترديد الأناشيد الدينية.

تتفق جميع الطقوس الجنائزية عند قبائل آيت باعمران على تحقير الجسد الأنثوي، وتمييزه عن الجسد الذكوري؛ إذ يُمنع حضور النساء أثناء جلسات التلقين والاحتضار، على اعتبار أن الشيطان يكون مرافقا لهن، أو اتهامهن بمحاولة تحضير الخلطة السحرية (كسكس يد الميت) أثناء حدوث الوفاة، كما تُمنع النساء من المشي في الموكب الجنائزي، وحضور طقوس الدفن، بدعوى أنهن ضعيفات وعاطفيات يبكين كثيرا ويندبن على الميت. والمتناقض هنا هو أنهن يمنعن من حضور لحظة الاحتضار بدعوى الخوف من محاولتهن إعداد كسكس يد الميت، وفي الموكب الجنائزي وأثناء الدفن بدعوى أنهن عاطفيات. فهل التي تستطيع أن تعد الخلطة السحرية باستعمال يد الميت، وكذلك حضورها بالمقابر ليلا لنفس الغرض رقيقة وعاطفية؟! يتغير أيضا موقع الإمام أثناء الصلاة بتغير جنس الميت، فإن تعلق الأمر بميت ذكر يقف الإمام عند رأسه ليصلي عليه، وإن كانت الجثة لمرأة وقف الإمام في الوسط بدعوى أنه يحجب باقي المصلين من النظر إليها أو إلى فرجها، وهنا نتساءل أيضا عن طبيعة مشاعر هؤلاء المصلين الذين يستطيعون التفكير في الشهوات وفي جسد الأنثى وهم أمام جثة و جنازة وموت؟ تأتي فترة الحداد لتبين كذلك مدى التمييز الذي يمارس على الجسد الأنثوي، فالمرأة المتوفى عنها زوجها تكون ملزمة بارتداء ثوب الحداد لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام، مع الامتناع عن الخروج من البيت والاختلاط بالناس في الأماكن العمومية؛ بمعنى آخر فإن حياة هذه المرأة تتوقف طيلة مدة الحداد. وهناك من يعتقد

بأن حياة هؤلاء النسوة تنتهي بموت أزواجهن، ولا يجب عليهن بدء تجربة جديدة، لذلك يجب عليهن التفرغ لتربية أبنائهن والبقاء في منزل أزواجهن، عكس الرجل الذي يقتصر عنده ارتداء ثياب الحداد فقط في الموكب الجنائزي، وأثناء احتفالية التأبين، ويحق له وضع العطور والتزين كيف ما أراد، وله الحق أيضا في اختيار شريكة حياة أخرى بعد موت زوجته، بل يتدخل أقاربه وعائلته لحثه على الزواج من جديد إن هو رفض تلك الفكرة.

ابتكر الخيال الشعبي أساطير وقصص تهم النساء اللواتي لم يلتزمن بأيام العدة والحداد، وتحولهن إلى 𐎓𐎗𐎙𐎚𐎛𐎜𐎝𐎞𐎟𐎠𐎡𐎢𐎣𐎤𐎥𐎦𐎧𐎨𐎩𐎪𐎫𐎬𐎭𐎮𐎯𐎰𐎱𐎲𐎳𐎴𐎵𐎶𐎷𐎸𐎹𐎺𐎻𐎼𐎽𐎾𐎿𐏀𐏁𐏂𐏃𐏄𐏅𐏆𐏇𐏈𐏉𐏊𐏋𐏌𐏍𐏎𐏏𐏐𐏑𐏒𐏓𐏔𐏕𐏖𐏗𐏘𐏙𐏚𐏛𐏜𐏝𐏞𐏟𐏠𐏡𐏢𐏣𐏤𐏥𐏦𐏧𐏨𐏩𐏪𐏫𐏬𐏭𐏮𐏯𐏰𐏱𐏲𐏳𐏴𐏵𐏶𐏷𐏸𐏹𐏺𐏻𐏼𐏽𐏾𐏿𐐀𐐁𐐂𐐃𐐄𐐅𐐆𐐇𐐈𐐉𐐊𐐋𐐌𐐍𐐎𐐏𐐐𐐑𐐒𐐓𐐔𐐕𐐖𐐗𐐘𐐙𐐚𐐛𐐜𐐝𐐞𐐟𐐠𐐡𐐢𐐣𐐤𐐥𐐦𐐧𐐨𐐩𐐪𐐫𐐬𐐭𐐮𐐯𐐰𐐱𐐲𐐳𐐴𐐵𐐶𐐷𐐸𐐹𐐺𐐻𐐼𐐽𐐾𐐿𐑀𐑁𐑂𐑃𐑄𐑅𐑆𐑇𐑈𐑉𐑊𐑋𐑌𐑍𐑎𐑏𐑐𐑑𐑒𐑓𐑔𐑕𐑖𐑗𐑘𐑙𐑚𐑛𐑜𐑝𐑞𐑟𐑠𐑡𐑢𐑣𐑤𐑥𐑦𐑧𐑨𐑩𐑪𐑫𐑬𐑭𐑮𐑯𐑰𐑱𐑲𐑳𐑴𐑵𐑶𐑷𐑸𐑹𐑺𐑻𐑼𐑽𐑾𐑿𐒀𐒁𐒂𐒃𐒄𐒅𐒆𐒇𐒈𐒉𐒊𐒋𐒌𐒍𐒎𐒏𐒐𐒑𐒒𐒓𐒔𐒕𐒖𐒗𐒘𐒙𐒚𐒛𐒜𐒝𐒞𐒟𐒠𐒡𐒢𐒣𐒤𐒥𐒦𐒧𐒨𐒩𐒪𐒫𐒬𐒭𐒮𐒯𐒰𐒱𐒲𐒳𐒴𐒵𐒶𐒷𐒸𐒹𐒺𐒻𐒼𐒽𐒾𐒿𐓀𐓁𐓂𐓃𐓄𐓅𐓆𐓇𐓈𐓉𐓊𐓋𐓌𐓍𐓎𐓏𐓐𐓑𐓒𐓓𐓔𐓕𐓖𐓗𐓘𐓙𐓚𐓛𐓜𐓝𐓞𐓟𐓠𐓡𐓢𐓣𐓤𐓥𐓦𐓧𐓨𐓩𐓪𐓫𐓬𐓭𐓮𐓯𐓰𐓱𐓲𐓳𐓴𐓵𐓶𐓷𐓸𐓹𐓺𐓻𐓼𐓽𐓾𐓿𐔀𐔁𐔂𐔃𐔄𐔅𐔆𐔇𐔈𐔉𐔊𐔋𐔌𐔍𐔎𐔏𐔐𐔑𐔒𐔓𐔔𐔕𐔖𐔗𐔘𐔙𐔚𐔛𐔜𐔝𐔞𐔟𐔠𐔡𐔢𐔣𐔤𐔥𐔦𐔧𐔨𐔩𐔪𐔫𐔬𐔭𐔮𐔯𐔰𐔱𐔲𐔳𐔴𐔵𐔶𐔷𐔸𐔹𐔺𐔻𐔼𐔽𐔾𐔿𐕀𐕁𐕂𐕃𐕄𐕅𐕆𐕇𐕈𐕉𐕊𐕋𐕌𐕍𐕎𐕏𐕐𐕑𐕒𐕓𐕔𐕕𐕖𐕗𐕘𐕙𐕚𐕛𐕜𐕝𐕞𐕟𐕠𐕡𐕢𐕣𐕤𐕥𐕦𐕧𐕨𐕩𐕪𐕫𐕬𐕭𐕮𐕯𐕰𐕱𐕲𐕳𐕴𐕵𐕶𐕷𐕸𐕹𐕺𐕻𐕼𐕽𐕾𐕿𐖀𐖁𐖂𐖃𐖄𐖅𐖆𐖇𐖈𐖉𐖊𐖋𐖌𐖍𐖎𐖏𐖐𐖑𐖒𐖓𐖔𐖕𐖖𐖗𐖘𐖙𐖚𐖛𐖜𐖝𐖞𐖟𐖠𐖡𐖢𐖣𐖤𐖥𐖦𐖧𐖨𐖩𐖪𐖫𐖬𐖭𐖮𐖯𐖰𐖱𐖲𐖳𐖴𐖵𐖶𐖷𐖸𐖹𐖺𐖻𐖼𐖽𐖾𐖿𐗀𐗁𐗂𐗃𐗄𐗅𐗆𐗇𐗈𐗉𐗊𐗋𐗌𐗍𐗎𐗏𐗐𐗑𐗒𐗓𐗔𐗕𐗖𐗗𐗘𐗙𐗚𐗛𐗜𐗝𐗞𐗟𐗠𐗡𐗢𐗣𐗤𐗥𐗦𐗧𐗨𐗩𐗪𐗫𐗬𐗭𐗮𐗯𐗰𐗱𐗲𐗳𐗴𐗵𐗶𐗷𐗸𐗹𐗺𐗻𐗼𐗽𐗾𐗿𐘀𐘁𐘂𐘃𐘄𐘅𐘆𐘇𐘈𐘉𐘊𐘋𐘌𐘍𐘎𐘏𐘐𐘑𐘒𐘓𐘔𐘕𐘖𐘗𐘘𐘙𐘚𐘛𐘜𐘝𐘞𐘟𐘠𐘡𐘢𐘣𐘤𐘥𐘦𐘧𐘨𐘩𐘪𐘫𐘬𐘭𐘮𐘯𐘰𐘱𐘲𐘳𐘴𐘵𐘶𐘷𐘸𐘹𐘺𐘻𐘼𐘽𐘾𐘿𐙀𐙁𐙂𐙃𐙄𐙅𐙆𐙇𐙈𐙉𐙊𐙋𐙌𐙍𐙎𐙏𐙐𐙑𐙒𐙓𐙔𐙕𐙖𐙗𐙘𐙙𐙚𐙛𐙜𐙝𐙞𐙟𐙠𐙡𐙢𐙣𐙤𐙥𐙦𐙧𐙨𐙩𐙪𐙫𐙬𐙭𐙮𐙯𐙰𐙱𐙲𐙳𐙴𐙵𐙶𐙷𐙸𐙹𐙺𐙻𐙼𐙽𐙾𐙿𐚀𐚁𐚂𐚃𐚄𐚅𐚆𐚇𐚈𐚉𐚊𐚋𐚌𐚍𐚎𐚏𐚐𐚑𐚒𐚓𐚔𐚕𐚖𐚗𐚘𐚙𐚚𐚛𐚜𐚝𐚞𐚟𐚠𐚡𐚢𐚣𐚤𐚥𐚦𐚧𐚨𐚩𐚪𐚫𐚬𐚭𐚮𐚯𐚰𐚱𐚲𐚳𐚴𐚵𐚶𐚷𐚸𐚹𐚺𐚻𐚼𐚽𐚾𐚿𐛀𐛁𐛂𐛃𐛄𐛅𐛆𐛇𐛈𐛉𐛊𐛋𐛌𐛍𐛎𐛏𐛐𐛑𐛒𐛓𐛔𐛕𐛖𐛗𐛘𐛙𐛚𐛛𐛜𐛝𐛞𐛟𐛠𐛡𐛢𐛣𐛤𐛥𐛦𐛧𐛨𐛩𐛪𐛫𐛬𐛭𐛮𐛯𐛰𐛱𐛲𐛳𐛴𐛵𐛶𐛷𐛸𐛹𐛺𐛻𐛼𐛽𐛾𐛿𐜀𐜁𐜂𐜃𐜄𐜅𐜆𐜇𐜈𐜉𐜊𐜋𐜌𐜍𐜎𐜏𐜐𐜑𐜒𐜓𐜔𐜕𐜖𐜗𐜘𐜙𐜚𐜛𐜜𐜝𐜞𐜟𐜠𐜡𐜢𐜣𐜤𐜥𐜦𐜧𐜨𐜩𐜪𐜫𐜬𐜭𐜮𐜯𐜰𐜱𐜲𐜳𐜴𐜵𐜶𐜷𐜸𐜹𐜺𐜻𐜼𐜽𐜾𐜿𐝀𐝁𐝂𐝃𐝄𐝅𐝆𐝇𐝈𐝉𐝊𐝋𐝌𐝍𐝎𐝏𐝐𐝑𐝒𐝓𐝔𐝕𐝖𐝗𐝘𐝙𐝚𐝛𐝜𐝝𐝞𐝟𐝠𐝡𐝢𐝣𐝤𐝥𐝦𐝧𐝨𐝩𐝪𐝫𐝬𐝭𐝮𐝯𐝰𐝱𐝲𐝳𐝴𐝵𐝶𐝷𐝸𐝹𐝺𐝻𐝼𐝽𐝾𐝿𐞀𐞁𐞂𐞃𐞄𐞅𐞆𐞇𐞈𐞉𐞊𐞋𐞌𐞍𐞎𐞏𐞐𐞑𐞒𐞓𐞔𐞕𐞖𐞗𐞘𐞙𐞚𐞛𐞜𐞝𐞞𐞟𐞠𐞡𐞢𐞣𐞤𐞥𐞦𐞧𐞨𐞩𐞪𐞫𐞬𐞭𐞮𐞯𐞰𐞱𐞲𐞳𐞴𐞵𐞶𐞷𐞸𐞹𐞺𐞻𐞼𐞽𐞾𐞿𐟀𐟁𐟂𐟃𐟄𐟅𐟆𐟇𐟈𐟉𐟊𐟋𐟌𐟍𐟎𐟏𐟐𐟑𐟒𐟓𐟔𐟕𐟖𐟗𐟘𐟙𐟚𐟛𐟜𐟝𐟞𐟟𐟠𐟡𐟢𐟣𐟤𐟥𐟦𐟧𐟨𐟩𐟪𐟫𐟬𐟭𐟮𐟯𐟰𐟱𐟲𐟳𐟴𐟵𐟶𐟷𐟸𐟹𐟺𐟻𐟼𐟽𐟾𐟿𐠀𐠁𐠂𐠃𐠄𐠅𐠆𐠇𐠈𐠉𐠊𐠋𐠌𐠍𐠎𐠏𐠐𐠑𐠒𐠓𐠔𐠕𐠖𐠗𐠘𐠙𐠚𐠛𐠜𐠝𐠞𐠟𐠠𐠡𐠢𐠣𐠤𐠥𐠦𐠧𐠨𐠩𐠪𐠫𐠬𐠭𐠮𐠯𐠰𐠱𐠲𐠳𐠴𐠵𐠶𐠷𐠸𐠹𐠺𐠻𐠼𐠽𐠾𐠿𐡀𐡁𐡂𐡃𐡄𐡅𐡆𐡇𐡈𐡉𐡊𐡋𐡌𐡍𐡎𐡏𐡐𐡑𐡒𐡓𐡔𐡕𐡖𐡗𐡘𐡙𐡚𐡛𐡜𐡝𐡞𐡟𐡠𐡡𐡢𐡣𐡤𐡥𐡦𐡧𐡨𐡩𐡪𐡫𐡬𐡭𐡮𐡯𐡰𐡱𐡲𐡳𐡴𐡵𐡶𐡷𐡸𐡹𐡺𐡻𐡼𐡽𐡾𐡿𐢀𐢁𐢂𐢃𐢄𐢅𐢆𐢇𐢈𐢉𐢊𐢋𐢌𐢍𐢎𐢏𐢐𐢑𐢒𐢓𐢔𐢕𐢖𐢗𐢘𐢙𐢚𐢛𐢜𐢝𐢞𐢟𐢠𐢡𐢢𐢣𐢤𐢥𐢦𐢧𐢨𐢩𐢪𐢫𐢬𐢭𐢮𐢯𐢰𐢱𐢲𐢳𐢴𐢵𐢶𐢷𐢸𐢹𐢺𐢻𐢼𐢽𐢾𐢿𐣀𐣁𐣂𐣃𐣄𐣅𐣆𐣇𐣈𐣉𐣊𐣋𐣌𐣍𐣎𐣏𐣐𐣑𐣒𐣓𐣔𐣕𐣖𐣗𐣘𐣙𐣚𐣛𐣜𐣝𐣞𐣟𐣠𐣡𐣢𐣣𐣤𐣥𐣦𐣧𐣨𐣩𐣪𐣫𐣬𐣭𐣮𐣯𐣰𐣱𐣲𐣳𐣴𐣵𐣶𐣷𐣸𐣹𐣺𐣻𐣼𐣽𐣾𐣿𐤀𐤁𐤂𐤃𐤄𐤅𐤆𐤇𐤈𐤉𐤊𐤋𐤌𐤍𐤎𐤏𐤐𐤑𐤒𐤓𐤔𐤕𐤖𐤗𐤘𐤙𐤚𐤛𐤜𐤝𐤞𐤟𐤠𐤡𐤢𐤣𐤤𐤥𐤦𐤧𐤨𐤩𐤪𐤫𐤬𐤭𐤮𐤯𐤰𐤱𐤲𐤳𐤴𐤵𐤶𐤷𐤸𐤹𐤺𐤻𐤼𐤽𐤾𐤿𐥀𐥁𐥂𐥃𐥄𐥅𐥆𐥇𐥈𐥉𐥊𐥋𐥌𐥍𐥎𐥏𐥐𐥑𐥒𐥓𐥔𐥕𐥖𐥗𐥘𐥙𐥚𐥛𐥜𐥝𐥞𐥟𐥠𐥡𐥢𐥣𐥤𐥥𐥦𐥧𐥨𐥩𐥪𐥫𐥬𐥭𐥮𐥯𐥰𐥱𐥲𐥳𐥴𐥵𐥶𐥷𐥸𐥹𐥺𐥻𐥼𐥽𐥾𐥿𐦀𐦁𐦂𐦃𐦄𐦅𐦆𐦇𐦈𐦉𐦊𐦋𐦌𐦍𐦎𐦏𐦐𐦑𐦒𐦓𐦔𐦕𐦖𐦗𐦘𐦙𐦚𐦛𐦜𐦝𐦞𐦟𐦠𐦡𐦢𐦣𐦤𐦥𐦦𐦧𐦨𐦩𐦪𐦫𐦬𐦭𐦮𐦯𐦰𐦱𐦲𐦳𐦴𐦵𐦶𐦷𐦸𐦹𐦺𐦻𐦼𐦽𐦾𐦿𐧀𐧁𐧂𐧃𐧄𐧅𐧆𐧇𐧈𐧉𐧊𐧋𐧌𐧍𐧎𐧏𐧐𐧑𐧒𐧓𐧔𐧕𐧖𐧗𐧘𐧙𐧚𐧛𐧜𐧝𐧞𐧟𐧠𐧡𐧢𐧣𐧤𐧥𐧦𐧧𐧨𐧩𐧪𐧫𐧬𐧭𐧮𐧯𐧰𐧱𐧲𐧳𐧴𐧵𐧶𐧷𐧸𐧹𐧺𐧻𐧼𐧽𐧾𐧿𐨀𐨁𐨂𐨃𐨄𐨅𐨆𐨇𐨈𐨉𐨊𐨋𐨌𐨍𐨎𐨏𐨐𐨑𐨒𐨓𐨔𐨕𐨖𐨗𐨘𐨙𐨚𐨛𐨜𐨝𐨞𐨟𐨠𐨡𐨢𐨣𐨤𐨥𐨦𐨧𐨨𐨩𐨪𐨫𐨬𐨭𐨮𐨯𐨰𐨱𐨲𐨳𐨴𐨵𐨶𐨷𐨹𐨺𐨸𐨻𐨼𐨽𐨾𐨿𐩀𐩁𐩂𐩃𐩄𐩅𐩆𐩇𐩈𐩉𐩊𐩋𐩌𐩍𐩎𐩏𐩐𐩑𐩒𐩓𐩔𐩕𐩖𐩗𐩘𐩙𐩚𐩛𐩜𐩝𐩞𐩟𐩠𐩡𐩢𐩣𐩤𐩥𐩦𐩧𐩨𐩩𐩪𐩫𐩬𐩭𐩮𐩯𐩰𐩱𐩲𐩳𐩴𐩵𐩶𐩷𐩸𐩹𐩺𐩻𐩼𐩽𐩾𐩿𐪀𐪁𐪂𐪃𐪄𐪅𐪆𐪇𐪈𐪉𐪊𐪋𐪌𐪍𐪎𐪏𐪐𐪑𐪒𐪓𐪔𐪕𐪖𐪗𐪘𐪙𐪚𐪛𐪜𐪝𐪞𐪟𐪠𐪡𐪢𐪣𐪤𐪥𐪦𐪧𐪨𐪩𐪪𐪫𐪬𐪭𐪮𐪯𐪰𐪱𐪲𐪳𐪴𐪵𐪶𐪷𐪸𐪹𐪺𐪻𐪼𐪽𐪾𐪿𐫀𐫁𐫂𐫃𐫄𐫅𐫆𐫇𐫈𐫉𐫊𐫋𐫌𐫍𐫎𐫏𐫐𐫑𐫒𐫓𐫔𐫕𐫖𐫗𐫘𐫙𐫚𐫛𐫜𐫝𐫞𐫟𐫠𐫡𐫢𐫣𐫤𐫦𐫥𐫧𐫨𐫩𐫪𐫫𐫬𐫭𐫮𐫯𐫰𐫱𐫲𐫳𐫴𐫵𐫶𐫷𐫸𐫹𐫺𐫻𐫼𐫽𐫾𐫿𐬀𐬁𐬂𐬃𐬄𐬅𐬆𐬇𐬈𐬉𐬊𐬋𐬌𐬍𐬎𐬏𐬐𐬑𐬒𐬓𐬔𐬕𐬖𐬗𐬘𐬙𐬚𐬛𐬜𐬝𐬞𐬟𐬠𐬡𐬢𐬣𐬤𐬥𐬦𐬧𐬨𐬩𐬪𐬫𐬬𐬭𐬮𐬯𐬰𐬱𐬲𐬳𐬴𐬵𐬶𐬷𐬸𐬹𐬺𐬻𐬼𐬽𐬾𐬿𐭀𐭁𐭂𐭃𐭄𐭅𐭆𐭇𐭈𐭉𐭊𐭋𐭌𐭍𐭎𐭏𐭐𐭑𐭒𐭓𐭔𐭕𐭖𐭗𐭘𐭙𐭚𐭛𐭜𐭝𐭞𐭟𐭠𐭡𐭢𐭣𐭤𐭥𐭦𐭧𐭨𐭩𐭪𐭫𐭬𐭭𐭮𐭯𐭰𐭱𐭲𐭳𐭴𐭵𐭶𐭷𐭸𐭹𐭺𐭻𐭼𐭽𐭾𐭿𐮀𐮁𐮂𐮃𐮄𐮅𐮆𐮇𐮈𐮉𐮊𐮋𐮌𐮍𐮎𐮏𐮐𐮑𐮒𐮓𐮔𐮕𐮖𐮗𐮘𐮙𐮚𐮛𐮜𐮝𐮞𐮟𐮠𐮡𐮢𐮣𐮤𐮥𐮦𐮧𐮨𐮩𐮪𐮫𐮬𐮭𐮮𐮯𐮰𐮱𐮲𐮳𐮴𐮵𐮶𐮷𐮸𐮹𐮺𐮻𐮼𐮽𐮾𐮿𐯀𐯁𐯂𐯃𐯄𐯅𐯆𐯇𐯈𐯉𐯊𐯋𐯌𐯍𐯎𐯏𐯐𐯑𐯒𐯓𐯔𐯕𐯖𐯗𐯘𐯙𐯚𐯛𐯜𐯝𐯞𐯟𐯠𐯡𐯢𐯣𐯤𐯥𐯦𐯧𐯨𐯩𐯪𐯫𐯬𐯭𐯮𐯯𐯰𐯱𐯲𐯳𐯴𐯵𐯶𐯷𐯸𐯹𐯺𐯻𐯼𐯽𐯾𐯿𐰀𐰁𐰂𐰃𐰄𐰅𐰆𐰇𐰈𐰉𐰊𐰋𐰌𐰍𐰎𐰏𐰐𐰑𐰒𐰓𐰔𐰕𐰖𐰗𐰘𐰙𐰚𐰛𐰜𐰝𐰞𐰟𐰠𐰡𐰢𐰣𐰤𐰥𐰦𐰧𐰨𐰩𐰪𐰫𐰬𐰭𐰮𐰯𐰰𐰱𐰲𐰳𐰴𐰵𐰶𐰷𐰸𐰹𐰺𐰻𐰼𐰽𐰾𐰿𐱀𐱁𐱂𐱃𐱄𐱅𐱆𐱇𐱈𐱉𐱊𐱋𐱌𐱍𐱎𐱏𐱐𐱑𐱒𐱓𐱔𐱕𐱖𐱗𐱘𐱙𐱚𐱛𐱜𐱝𐱞𐱟𐱠𐱡𐱢𐱣𐱤𐱥𐱦𐱧𐱨𐱩𐱪𐱫𐱬𐱭𐱮𐱯𐱰𐱱𐱲𐱳𐱴𐱵𐱶𐱷𐱸𐱹𐱺𐱻𐱼𐱽𐱾𐱿𐲀𐲁𐲂𐲃𐲄𐲅𐲆𐲇𐲈𐲉𐲊𐲋𐲌𐲍𐲎𐲏𐲐𐲑𐲒𐲓𐲔𐲕𐲖𐲗𐲘𐲙𐲚𐲛𐲜𐲝𐲞𐲟𐲠𐲡𐲢𐲣𐲤𐲥𐲦𐲧𐲨𐲩𐲪𐲫𐲬𐲭𐲮𐲯𐲰𐲱𐲲𐲳𐲴𐲵𐲶𐲷𐲸𐲹𐲺𐲻𐲼𐲽𐲾𐲿𐳀𐳁𐳂𐳃𐳄𐳅𐳆𐳇𐳈𐳉𐳊𐳋𐳌𐳍𐳎𐳏𐳐𐳑𐳒𐳓𐳔𐳕𐳖𐳗𐳘𐳙𐳚𐳛𐳜𐳝𐳞𐳟𐳠𐳡𐳢𐳣𐳤𐳥𐳦𐳧𐳨𐳩𐳪𐳫𐳬𐳭𐳮𐳯𐳰𐳱𐳲𐳳𐳴𐳵𐳶𐳷𐳸𐳹𐳺𐳻𐳼𐳽𐳾𐳿𐴀𐴁𐴂𐴃𐴄𐴅𐴆𐴇𐴈𐴉𐴊𐴋𐴌𐴍𐴎𐴏𐴐𐴑𐴒𐴓𐴔𐴕𐴖𐴗𐴘𐴙𐴚𐴛𐴜𐴝𐴞𐴟𐴠𐴡𐴢𐴣𐴤𐴥𐴦𐴧𐴨𐴩𐴪𐴫𐴬𐴭𐴮𐴯𐴰𐴱𐴲𐴳𐴴𐴵𐴶𐴷𐴸𐴹𐴺𐴻𐴼𐴽𐴾𐴿𐵀𐵁𐵂𐵃𐵄𐵅𐵆𐵇𐵈𐵉𐵊𐵋𐵌𐵍𐵎𐵏𐵐𐵑𐵒𐵓𐵔𐵕𐵖𐵗𐵘𐵙𐵚𐵛𐵜𐵝𐵞𐵟𐵠𐵡𐵢𐵣𐵤𐵥𐵦𐵧𐵨𐵩𐵪𐵫𐵬𐵭𐵮𐵯𐵰𐵱𐵲𐵳𐵴𐵵𐵶𐵷𐵸𐵹𐵺𐵻𐵼𐵽𐵾𐵿𐶀𐶁𐶂𐶃𐶄𐶅𐶆𐶇𐶈𐶉𐶊𐶋𐶌𐶍𐶎𐶏𐶐𐶑𐶒𐶓𐶔𐶕𐶖𐶗𐶘𐶙𐶚𐶛𐶜𐶝𐶞𐶟𐶠𐶡𐶢𐶣𐶤𐶥𐶦𐶧𐶨𐶩𐶪𐶫𐶬𐶭𐶮𐶯𐶰𐶱𐶲𐶳𐶴𐶵𐶶𐶷𐶸𐶹𐶺𐶻𐶼𐶽𐶾𐶿𐷀𐷁𐷂𐷃𐷄𐷅𐷆𐷇𐷈𐷉𐷊𐷋𐷌𐷍𐷎𐷏𐷐𐷑𐷒𐷓𐷔𐷕𐷖𐷗𐷘𐷙𐷚𐷛𐷜𐷝𐷞𐷟𐷠𐷡𐷢𐷣𐷤𐷥𐷦𐷧𐷨𐷩𐷪𐷫𐷬𐷭𐷮𐷯𐷰𐷱𐷲𐷳𐷴𐷵𐷶𐷷𐷸𐷹𐷺𐷻𐷼𐷽𐷾𐷿𐸀𐸁𐸂𐸃𐸄𐸅𐸆𐸇𐸈𐸉𐸊𐸋𐸌𐸍𐸎𐸏𐸐𐸑𐸒𐸓𐸔𐸕𐸖𐸗𐸘𐸙𐸚𐸛𐸜𐸝𐸞𐸟𐸠𐸡𐸢𐸣𐸤𐸥𐸦𐸧𐸨𐸩𐸪𐸫𐸬𐸭𐸮𐸯𐸰𐸱𐸲𐸳𐸴𐸵𐸶𐸷𐸸𐸹𐸺𐸻𐸼𐸽𐸾𐸿𐹀𐹁𐹂𐹃𐹄𐹅𐹆𐹇𐹈𐹉𐹊𐹋𐹌𐹍𐹎𐹏𐹐𐹑𐹒𐹓𐹔𐹕𐹖𐹗𐹘𐹙𐹚𐹛𐹜𐹝𐹞𐹟𐹠𐹡𐹢𐹣𐹤𐹥𐹦𐹧𐹨𐹩𐹪𐹫𐹬𐹭𐹮𐹯𐹰𐹱𐹲𐹳𐹴𐹵𐹶𐹷𐹸𐹹𐹺𐹻𐹼𐹽𐹾𐹿𐺀𐺁𐺂𐺃𐺄𐺅𐺆𐺇𐺈𐺉𐺊𐺋𐺌𐺍𐺎𐺏𐺐𐺑𐺒𐺓𐺔𐺕𐺖𐺗𐺘𐺙𐺚𐺛𐺜𐺝𐺞𐺟𐺠𐺡𐺢𐺣𐺤𐺥𐺦𐺧𐺨𐺩𐺪𐺫𐺬𐺭𐺮𐺯𐺰𐺱𐺲𐺳𐺴𐺵𐺶𐺷𐺸𐺹𐺺𐺻𐺼𐺽𐺾𐺿𐻀𐻁𐻂𐻃𐻄𐻅𐻆𐻇𐻈𐻉𐻊𐻋𐻌𐻍𐻎𐻏𐻐𐻑𐻒𐻓𐻔𐻕𐻖𐻗𐻘𐻙𐻚𐻛𐻜𐻝𐻞𐻟𐻠𐻡𐻢𐻣𐻤𐻥𐻦𐻧𐻨𐻩𐻪𐻫𐻬𐻭𐻮𐻯𐻰𐻱𐻲𐻳𐻴𐻵𐻶𐻷𐻸𐻹𐻺𐻻𐻼𐻽𐻾𐻿𐼀𐼁𐼂𐼃𐼄𐼅𐼆𐼇𐼈𐼉𐼊𐼋𐼌𐼍𐼎𐼏𐼐𐼑𐼒𐼓𐼔𐼕𐼖𐼗𐼘𐼙𐼚𐼛𐼜𐼝𐼞𐼟𐼠𐼡𐼢𐼣𐼤𐼥𐼦𐼧𐼨𐼩𐼪𐼫𐼬𐼭𐼮𐼯𐼰𐼱𐼲𐼳𐼴𐼵𐼶𐼷𐼸𐼹𐼺𐼻𐼼𐼽𐼾𐼿𐽀𐽁𐽂𐽃𐽄𐽅𐽆𐽇𐽋𐽍𐽎𐽏𐽐𐽈𐽉𐽊𐽌𐽑𐽒𐽓𐽔𐽕𐽖𐽗𐽘𐽙𐽚𐽛𐽜𐽝𐽞𐽟𐽠𐽡𐽢𐽣𐽤𐽥𐽦𐽧𐽨𐽩𐽪𐽫𐽬𐽭𐽮𐽯𐽰𐽱𐽲𐽳𐽴𐽵𐽶𐽷

ساهمت إلى جانب كل ذلك الحالة الوبائية وظهور فيروس كورونا Covid 19 في المنطقة في تغيير الطقوس الجنائزية؛ حيث أصبحت أغلب هذه الطقوس محظورة وممنوعة، فلا أحد يرافق أهل الميت لدفن فقيدهم، أو مصافحتهم أو عناقهم، والاقتصار في تقديم التعازي على الاتصالات الهاتفية، والرسائل القصيرة، كما منع الخوف من تفشي الفيروس أسرة الفقيد من إقامة احتفالية المأتم. وبخصوص الأمور التي بقيت على حالها ولم تتغير، في حين كان من الواجب إعادة النظر فيها، تماشيا مع تطور المجتمع المغربي، وتوقيعه اتفاقيات تهم احترام حقوق الإنسان وسمو المعاهدات الدولية وحقوق الأقليات، هذا إلى جانب احترام حرية المعتقد المنصوص عليها في الفصل الثالث من الدستور المغربي. نسجل إحداث مقابر مدنية لدفن جثث الأقليات الدينية كالمسيحيين، والشيعيين، والبهايين، وأيضا الملحدين واللا دينيين، باعتبار ذلك حقا من حقوقهم الواجبة على الدولة أن توفرها لهم.

خاتمة عامة

هكذا يمكن اعتبار الطقوس والعادات المؤداة في المناسبات الاجتماعية من بين أهم المؤشرات التي تعبر عن الغنى الثقافي لأي مجتمع. ومن خلال هذا فإن المجتمع الأمازيغي بقبائل آيت باعمران يتميز بتنوعه وثرائه على مستوى هذه الطقوس والعادات، وكذلك المعتقدات المرتبطة بموضوع البحث. وهذا ما يتضح أكثر من خلال عرض نتائج هذا البحث التي توصلنا إليها، والتي تتمثل في:

كون موضوع الموت والعالم الآخر حاضر بقوة منذ أقدم العصور؛ فقد اهتمت الحضارات القديمة في الطقوس الجنائزية بالحياة أكثر من الموت، ويتضح ذلك بشكل جلي من خلال الموكب الجنائزي بمصر القديمة، الذي يقام وسط نوع من الرقص الديني الجنائزي وقرع للدفوف، كما لجأ سكان المغرب القديم إلى تجهيز مقابرهم على أرضيات ومواقع ذات مناظر جميلة، غالباً ما تكون مطلة على البحر، وذلك لاعتقادهم بأن ذلك يمكن موتاهم من الاستمتاع بالمناظر والتنزه فيها مثلهم مثل الأحياء.

سجلنا تشابهاً وتكاملاً بين الحضارات القديمة وما تضمنته الديانات السماوية على مستوى الموقف من الموت، وأيضاً الطقوس الجنائزية، فمهمة قبض الروح ذكرت في ملحمة "گلگامش" أثناء حديث "إنكدو" مع هذا الأخير، إذ وصف له قابض الروح على أنه مخلوق مخيف وجهه مثل وجه طير الصاعقة "زو"، وله مخالب كأظفار النسر، ذاك ما تضمنته كذلك الديانات السماوية، فأمر فصل الروح عن الجسد أسند إلى كائن سماوي تصفه الديانة اليهودية على أنه ملاك يقيم في السماء، وله أجنحة يسمى عزرائيل، وفي الديانة الإسلامية أسندت المهمة لنفس الملك "ملك الموت".

على مستوى تطهير الميت، فقد كانت الحضارات القديمة تلجأ إلى استعمال مواد يُعتقد أنها من مقدسة؛ حيث نجد أن المصريين القدماء يغسلون جسد الميت بماء النيل، لاعتقادهم بقدسيته وتبركا به. وفي الديانة الإسلامية يعمد المغسلون بعد الفراغ من تكفين الميت إلى رشه بماء زمزم، وفي اليهودية يذرى القليل من تراب بيت المقدس على عيني الميت، وأثناء الدفن يقوم الحزان بمزج حفنة من تراب قد جيء بها من فلسطين؛ حيث يعتقد هؤلاء أن هذه الحفنة من الرمل هي نبراس الجثة في رحيلها إلى الأرض المقدسة أرض الميعاد حسب اعتقادهم.

كما عمدت الحضارات القديمة خلال عملية الدفن إلى توجيه الموتى باتجاه مشرق الشمس، لاعتقادهم أنهم سيبعثون من هناك (الشرق)، ففي الديانة اليهودية ينظر الميت في مرقده نحو أرض الميعاد، والأمر

نفسه نجده في الديانة الإسلامية؛ إذ يدفن المسلمون موتاهم اتجاه المشرق لاعتقادهم أن البعث سيكون من الكعبة أو بيت الله حسب اعتقادهم.

وقد استعمل المجتمع الأمازيغي الميثولوجيا لتعزيز الهيمنة الذكورية والسيطرة على الأنثى، ويظهر ذلك من خلال تشخيص الموت في صفة أنثى، لكون المفردة المستعملة في اللغة الأمازيغية مؤنثة +oL++oL+ (تَامْتَانْتْ)، وتأتي المفردة العربية المستعملة بكثرة (لُمُوتْ). واعتقدوا أن ظهور الموت كان بسبب أنثى مدفوعة بعاطفة الأمومة وتحكيم رأيها الفردي ضدا على مصلحة الجماعة، أو فضولها وتهورها.

وقد رصدنا من خلال تتبعنا لقصص الخيال الشعبي ابتكار العديد من الأساطير والقصص التي تهم النساء اللواتي لم يلتزم بأيام العدة والحداد، ومن قبيل ذلك أسطورة بغلة القبور +oXLo+O+ I "تَكْمَارْتْ نْ إِصْمُضَالْ"، وتخص هذه الأسطورة المرأة التي لم تستطع الانسجام مع أعراف القبيلة، أو أنها متمردة فضلت الحرية على قيود الأسرة وأغلال المجتمع، وعقابا لها تحولت إلى بغلة مرتبطة بالموت وفضائه أي المقبرة، بينما ذهبت مجتمعات أخرى إلى اعتبار المرأة الحادة مصدر شؤم لمن رآها، فالناس يعتقدون أنها تمتلك قوة خارقة تلحق الضرر والمصائب بهم.

بينما خصت الأساطير الأمازيغية الذكور بمسألة الإمساك بالموت وسجنها، ومن ذلك نجد أسطورة الصياد الذي استطاع أن يتحايل على الموت وأن يسجنها في زوادته، وكذا اتحاد الرجال من أجل الإمساك بالموت؛ حيث كلفوا بذلك رجلا قويا استطاع الإمساك بها وحبسها بغار في أعلى الجبل.

أدرج المجتمع الأمازيغي موضوع الموت في الأمثال الشعبية من خلال اعتمادها كموضوع مباشر، وذلك بهدف التذكير بالمصير المحتوم لكل إنسان الذي هو الموت والفناء، أو توظيفه (الموت) في سياقات اجتماعية مختلفة، وأيضا تعمل على انتقاء الكلمات الأقل أثرا في نفسية المتلقي؛ حيث تستعمل بعض الأمثال، مثلا: عبارة oLLEH (أُصْمُضِلْ) "القبر"، بدل استعمال كلمة "الموت" لأثرها النفسي على المتلقي، وهذا يشمل أيضا طريقة التعبير عن موت أحدهم، إذ يتم تعويض كلمة مات فلان بكلمات أخرى أكثر لطافة وأكثر إحساسا بالأمان مثل: ٤٧٧٥ ٤٧٧٥ ٥ ٧٤٧٧٤ (ذهب حيث سذهب جميعا)، ٤٧٧٥ ٤٧٧٧٤ (غادر المسكين).

يتضح من خلال تتبع الأمثال أن الموقف من الموت، هو موقف يبعث الخوف الشديد من المصير المجهول الذي ينتظر الميت، مما يذل عن وحشية الموت وما تحمله من إشارات ومعان تدل على

قساوته، والخوف من المصير الذي آل إليه الميت، كما أن تعدد الأمثال التي تذكر الإنسان بالنهاية المحتومة يجعله يُقبل على فعل الخير طمعا في نِعَم الآخرة. وهنا يتبين لنا ذلك الجانب الأناني في الإنسان (المتدين)؛ بمعنى أنه لو لم يُوعَد بنِعَم الآخرة أي ما بعد الموت لما أقبل على فعل الخير.

من خلال دراستنا للطقوس السحرية بمجال آيت باعمران يتضح لنا جانبا آخر من علاقة الأمازيغ بالموت، والذي يتجلى في الاستعانة بالأموات من خلال استعمال بقايا الميت، كالشعر والأظافر في الطقوس السحرية، فمن الظواهر التي سجلناها في هذا السياق، هو أنه أثناء تغسيل الميت تحاول بعض النسوة التسلل إلى غرفة التغسيل والتكفين، لأخذ بعض بقايا شعر الميت وأظافره بغرض استعمالها في وصفات سحرية. وفي بعض الأحيان يتكفل بهذه المهمة المغيّلون أنفسهم (رجالا كانوا أو نساء)، أو موظفي مستودعات الأموات التابعة للمستشفيات الإقليمية أو الجهوية؛ إذ يقومون بتحضير الكسكس باستعمال يد الميت، ثم بيعها في ما بعد لتجار هذه المواد المعروفون باسم "لُعْشَابَة" أو "لُعْطَارَة" بأثمان تتراوح بين ثلاثمائة وخمسمائة درهم للكأس الواحد. تستعمل هذه الوصفات في أغراض سحرية انتقامية، إما تمنع العزاب من الزواج، أو لإعاقة انتصاب ذكر رجل متزوج بغرض تطليقه من زوجته.

بخصوص الفضاء الجنائزي عمل الباعمرانيون على إحداث مقابرهم خارج التجمعات السكنية؛ إذ توجد أغلب هذه المقابر على الهضاب المطلّة على الدواوير، مرتفعة قدر الإمكان، لتجنب أن تجرفها السيول والفيضانات، ولتكون بادية للسكان من أجل حراستها من دخول الغرباء إليها والعبث بقبورها. وتلعب الأعراف الأمازيغية دورا كبيرا في المحافظة على الأماكن المقدسة، كالمسجد، الزوايا، الأضرحة، وأيضا المقابر، حيث يغرم صاحب البهائم التي دخلت وسرحت في المقابر، في أعراف القبائل بمُدّ شعيرا لكل بهيمة، كما تعتبر هذه المقابر حرم مصان بشكل طبيعي، إذ أن كل من ضبط عابثا بمقابر المسلمين بنش أو تدنيس أو شعوذة يطرد من القبيلة.

يشمل تنظيم المقبرة اختيار قبر الميت، وهنا نسجل الرغبة الكبيرة لأهل الميت في أن يدفن فقيدهم في مقابر تحوي جثة ولي صالح، أو شيخ من الشيوخ المتصوفين، وذلك لاعتقادهم في قدسية المكان الذي يدفن فيه. أما مسألة بناء القبر فتكاد تنعدم في مجمل القبائل الباعمرانية، فعملية الدفن تتم بطريقة عادية باستعمال التربة وحجرتين (الشاهد)، في حين أن البناء كان حاضرا فقط في المجال الحضري، وبالضبط بمقبرة الشهيد يونس الدنوني، الشيء نفسه نسجل في ما يتعلق بشاهد القبر، فهو حاضر فقط في نفس المقبرة، وهو عبارة عن لوحة من الرخام منقوش عليها اسم الميت، تاريخ ولادته ووفاته، إضافة

إلى عبارات الدعاء له بالرحمة والمغفرة، أما باقي مقابر آيت باعمران فالشاهد فيها يكون على شكل حجرتين من حجارة "الحدود"، توضع واحدة عند الرأس والأخرى عند الرجلين إن كان القبر للذكر، أما إن كان الميت أنثى فتوضع حجرتين عند رجليها.

تنتشر داخل فخذات ودواوير قبائل آيت باعمران أضرحة مستقلة، كضريح سيدي محند يونس، وضريح سيدي علي إفني، وأضرحة ملحق بها جوامع وزوايا كضريح سيدي علي أوتول، وضريح سيدي سليمان بوتमित، كما تختلف هذه الأضرحة من الناحية المعمارية والهندسية فمنها ما هو مقبب ومنها غير مقبب، ويرجع هذا الاختلاف إلى مكانة الولي الاجتماعية، فعدم شهرة الولي تنقص من حجم الاهتمام به، فيقام له ضريح بمستواه. تؤدي هذه الأضرحة مجموعة من الوظائف المتنوعة، فهي إما وظائف اجتماعية كطلب الزواج، أو الزيادة في الرزق، أو ربط العهود والمواثيق، أو وظائف استشفائية كعلاج أمراض العقم، الإجهاض المتكرر، أو عدم إنجاب الذكور. الوظيفة التعليمية وتتجلى في تعليم وتحفيظ القرآن للصغار وإنشاء مدارس عتيقة متخصصة في تفسير القرآن، وتقليل دروس العلوم الشرعية. الوظيفة الاقتصادية والممثلة للمواسم السنوية التي تقام على شرف الدفين ولي الضريح، والتي تشكل مناسبة اقتصادية مهمة، ومتنفسا للتجار لتصريف سلعهم وبضائعهم.

اتضح بأن الطقوس الجنائزية تهم الأحياء أكثر مما تهم الأموات، فهي بمثابة أداة لإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد حدوث فاجعة الموت، وتتجلى هذه الفكرة بشكل كبير في عدة طقوس أهمها: إفراغ المنزل من كل ملابس وحاجيات الميت، عدم استحسان زيارة العائلة والأصدقاء بعد الرجوع مباشرة من العزاء، دق الطبول في كل مرة يسمع فيها أهل القبائل صوت الغراب الأسود في المساء لخوفهم الشديد من حدوث الموت، زيارة الأحياء للمحتضر وطلب الصفح والغفران منه قبل موته، إذ بعد ذلك لن يجدوا من يغفر لهم أخطاءهم التي ربما اقترفوها في حقه، تهافتهم على تجهيز وحمل نعش الأموات من المتصوفين والأولياء، بل وصل بهم الأمر إلى كسر النعش وأخذ أعواده للتبرك بها واعتبارها مصدر خير.

ومن الطقوس الجنائزية المستحدثة في مجتمعنا مسألة تكليف مموني الحفلات بتجهيز وإعداد احتفالية المأتم التي تقدم فيها مختلف أنواع الأطعمة، وتباهي عائلة الميت بارتداء أفخر أنواع الألبسة، وتزيين قبر ميتهم بالزليج والنقش على الرخام، وكل ذلك من أجل التفاخر بالمكانة الاجتماعية لهذه العائلة، بل أكثر من ذلك، هناك من يستغل هذه اللحظات والمناسبات لخدمة مصالحه الشخصية، وذلك

بالتقرب من عائلة الميت ومساعدتهم، سواء في الإجراءات الإدارية، أو في الإعداد للمأتم، وكل هذا لكسب قاعدة شعبية واسعة يلجأ إليها في الانتخابات المحلية والجهوية.

تتفق الطقوس الجنائزية بآيت باعمران على تحقير الجسد الأنثوي، مما يعزز النظرة الذكورية في المجتمع؛ إذ يمنع حضور النساء أثناء جلسات التلقين والاحتضار، على اعتبار أن الشيطان يكون مرافقا لهن، وتكفين جسد الأنثى في سبع قطع، بينما يُكفّن جسد الرجل في ثلاث إلى خمس قطع فقط. كما يمنع على النساء المشي في الموكب الجنائزي، وحضور طقوس الدفن، بدعوى أنهن ضعيفات وعاطفيات. يتغير أيضا موقع الإمام أثناء الصلاة بتغير جنس الميت؛ فإن تعلق الأمر بميت ذكر يقف الإمام عند رأسه ليصلي عليه، وإن كانت الجثة لامرأة وقف الإمام في الوسط بدعوى أنه يحجب باقي المصلين من النظر إليها أو إلى فرجها. وتمثل فترة الحداد دليلا آخر التمييز الحاصل بين الرجل والأنثى، فالمرأة المتوفى عنها زوجها تكون ملزمة بارتداء ثوب الحداد لمدة أربعة أشهر وعشر أيام، مع الامتناع عن وضع مساحيق التجميل والعطور، والخروج من بيت زوجها والاختلاط بالناس في الأماكن العمومية. بل ذهبت بعض العادات والتقاليد إلى اعتبار حياة هؤلاء النساء انتهت بموت أزواجهن، ولا يجب عليهن بدء تجربة جديدة وأن يتفرغن لتربية أبنائهن فقط، عكس الرجل الذي يقتصر عنده ارتداء ثياب الحداد فقط في الموكب الجنائزي، وأثناء احتفالية التأبين، ويحق له وضع العطور والتزين كيفما أراد، وله الحق في اختيار شريكة حياة أخرى بعد موت زوجته، بل يتدخل أقاربه وعائلته لحثه على الزواج من جديد إن هو رفض تلك الفكرة.

وهكذا فقد عرفت أغلبية الطقوس الجنائزية بفضاء آيت باعمران تطورا ملحوظا، بدءا بالتغسيل الذي كان في الماضي من مهام فقيه المسجد، أما الآن فقد انتشرت جمعيات أسست لهذا الغرض، وأخذت على عاتقها تغسيل أموات "المسلمين" باستعمال منتجات وأدوات عصرية. وانتقلت طريقة التكفين من الخياطة بالإبرة والخيط فوق جسد الميت إلى اقتناء كفن جاهز من المحلات التجارية، يلبس بسرعة وبطريقة سهلة. أما الدفن فتستعمل فيه الألواح الإسمنتية لتغطية القبور وتزينها بأنواع الزليج والرخام المنقوش، بدل البحث عن الأحجار المسطحة، وضرورة احترام العدد الفردي. تنظيم احتفالية المأتم من طرف مموني الحفلات الذين يقدمون مختلف أنواع الطعام والشراب، وتعرض فيها أفخر الألبسة والأثواب، بل أصبحت هذه الاحتفالية مجالا للتفاخر والتباهي بالمكانة الاجتماعية لأسرة الميت، عكس الاحتفالية البسيطة التي عرفت الأجيال الماضية. مَسَّ التغيير كذلك علاقة المرأة بالطقوس الجنائزية، فأصبحت

تشارك في الموكب الجنائزي، وتحضر طقوس الدفن داخل المقبرة، بل هناك من النساء من لا تلبس ثوب الحداد إلا في الأيام الثلاثة بعد الموت، لتعود بعد ذلك لممارسة حياتها العادية.

ونحن نروم في بحثنا هذا الكشف عن بواطن الممارسات المتعلقة بالطقوس الجنائزية، كان لابد من الوقوف عند بعض التجاوزات ورفع توصيات من شأنها الإسهام في التحسين والحفاظ على موروثنا الثقافي والاجتماعي الذي يشكل أساس هويتنا الامازيغية.

يمكن توصيف هذه التوصيات على سبيل المثال لا الحصر كالآتي:

- الدعوة إلى إجراء أبحاث اجتماعية وأنثروبولوجية في مختلف القبائل الأمازيغية، للوقوف على جوانب الحياة بها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لاستخلاص مادة علمية عن مؤشرات المتغير بين مجموع هذه القبائل، بغية الاستفادة منها عمليا في معالجة ما يفرزه التغير الاجتماعي من مشكلات، وتوجيه خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية وفق توجهات وتطلعات سكان هذه القبائل.
- الدعوة إلى تدخل استعجالي وتطبيق المادة 75 و113 من القانون الجنائي، والمادة 83 من القانون التنظيمي رقم 113.14 المتعلق بالجماعات، الرامي الى تنظيم وحماية و صيانة الفضاء الجنائزي، لكونه يعرف تدهورا كبيرا من حيث التسيير والأمن و الصيانة والحراسة.
- ضرورة إحداث مقابر مدنية، أو حذف شرط الإسلام من معايير الدفن، وتعويض ذلك بالمواطن المغربي، بالإضافة إلى حذف كل ما له اشارة إلى التمييز والتفضيل بين مواطنين لهم كامل المواطنة والحقوق، من قبيل "نقل أموات المسلمين"، "تكريم أموات المسلمين" و"المقابر الإسلامية".
- العمل على تعزيز خطاب المناصفة والتمييز الإيجابي في حق المرأة المغربية بصفة عامة، والقطع مع الإيديولوجية الذكورية، وذلك من خلال تعزيز مكانتها داخل المجتمع.
- تمرير وتعزيز القيم الأخلاقية لدى الناشئة، من خلال المدرسة العمومية وتدريبهم التربية الأخلاقية، وأيضا عبر وسائل الإعلام العمومية، والقطع مع سياسة الترهيب والتهويل.
- ضرورة تدريس العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة مادة الأنثروبولوجية بمختلف الشعب ووحدات التكوين بالجامعات المغربية، لما لها من أهمية قصوى في فهم تطور المجتمعات، وعدم تصديق بعض المعتقدات الخرافية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس بعهديه.
- إبراهيم نبيلة، *أشكال التعبير في الأدب الشعبي*، القاهرة، دار نهضة مصر، بدون طبعة.
- ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن، *مجموع فتاوى ومقالات متنوعة*، جمع وترتيب وإشراف: محمد بن سعد الشويعر، الجزء الثالث عشر، الرياض، دار القاسم للنشر.
- ابن فارس أبي الحسين أحمد بن زكريا، *معجم مقاييس اللغة*، الجزء الخامس، دار الفكر، 1979.
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، *لسان العرب*، بيروت، دار صادر، 1990.
- أحمد محمد، عبد الخالق، *قلق الموت*، منشورات عالم المعرفة، العدد 111، الكويت، 1987.
- أرحموش، أحمد، *القوانين العرفية الأمازيغية*، الجزء الأول، الرباط، مطابع أمبريال، الطبعة الأولى، 2001.
- أرحموش، أحمد، *مدونة القوانين الوضعية الأمازيغية إيزرفان إيمازيغن*، الجزء الثاني، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2006.
- أروض ادريس، وآخرون، *ألف مثل أمازيغي ومثلان*، الرباط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية 2012.
- أزلف، رشيد، *وثائق آيت باعمران بالأرشفيف الدبلوماسي الفرنسي بنانت: تقديم ودراسة*، أكادير، مطبعة سويسرا للنشر والطباعة، 2018.
- أسامة عدنان يحيى، *السحر والطب في الحضارات القديمة*، بغداد، اشور بانيبال للكتاب، والكتاب الومري، الطبعة الأولى، 2016.
- أسمان يان، *الموت والعالم الآخر في مصر القديمة*، ترجمة محمود محمد قاسم، الجزء الأول، المركز القومي للترجمة، 2017.
- أعشي مصطفى، *أحاديث هيرودوت عن الليبيين (الأمازيغ)*، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2009.

- أفقيهي مريم، *الفضاء الجنائزي اليهودي بمدينة الدار البيضاء*، منشورات الزمان، 2015.
- أكصيل اصطيفان، *تاريخ شمال إفريقيا القديم*، ترجمة: محمد التازي سعود، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 2007.
- الألباني محمد ناصر الدين، *أحكام الجنائز وبدعها*، الرياض، مكتبة المعارف، 1992.
- إلياد مرسيا، *المقدس والعادي*، ترجمة: عادل العوا، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع، 2009.
- إلياد مرسيا، *مظاهر الأسطورة*، ترجمة: نهاد خياطة، دمشق، دار كنعان للنشر، الطبعة الأولى، 1991.
- إلياد، مرسيا، *أسطورة العود الأبدي*، ترجمة عن الفرنسية: نهاد خياطة، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1987.
- أنيس إبراهيم، وآخرون، *المعجم الوسيط*، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 2004.
- أوسوس محمد، *دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي*، الرباط، منشورات المعهد الملكي الأمازيغي، 2007.
- أوسوس محمد، *كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية*، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2008.
- آيت الفقيه لحسن، *الرموز الدفينة بين القبرورية والمزارات الطبيعية*، الطبعة الأولى، الرشيدية، مطبعة الجنوب، 2013.
- آيت الفقيه لحسن، *المرأة المقيدة دراسة في المرأة والأسرة بالأطلس الكبير الشرقي*، المحمدية، شركة أوداد للاتصال، 2002.
- آيت تمزكو، مبارك، *ملاحم من حياة وكفاح أمغار سعيد أبا عمران (1884 - 1956)*، كلميم، منشورات جمعية تكدير - آيت بعمران للتنمية والبيئة، 2015.
- بارجييه بول، *كتاب الموتى للمصريين القدماء*، ترجمة زكية طبوزادة، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، 2004.
- باقر طه، *مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة*، الجزء 1، بيروت، دار الوراق للنشر المحدودة، الطبعة 1، 2009.
- باقر طه، *ملحمة كلكامش اوديسة العراق الخالدة*، دار الوراق للنشر، 2006.

- بامي جمال، دراسة حول حالة مقابر المسلمين بالمغرب، ومقترحات علمية من أجل إصلاحها، الرباط، المجلس الوطني لحقوق الإنسان 2012.
- بركات إلياس، الموت رؤية أرثوذكسية أنخاف الموت بعد؟ تعاونية النورالأرثوذكسية للنشر والتوزيع، بيروت، 2013.
- برنشفيك روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.
- البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992.
- بن حتيرة صوفية السحيري، الجسد والمجتمع دراسة أنتروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، تونس، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، 2008.
- بن سلامة رجاء، الموت وطوقسه من خلال صحيح البخاري ومسلم، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط.2، 2009.
- بنهيمية ياسر، لباس المتصوفة في المغرب الوسيط من خلال المصادر المناقبية، ترجمة راجي رضوان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2018.
- بوبريك، رحال، زمن القبيلة السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، الرباط، دار أبي رقيق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2012.
- بوزيدة عبد الرحمان، وآخرون، قاموس الأساطير الجزائرية، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، 2005.
- بيرن جوزيف، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، أبوظبي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، ط. الأولى، 2014.
- بيرن، جوزيف، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2014.
- البيضاوية بلكمال، وآخرون، الأعراف بالبادية المغربية، الرباط، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، الطبعة الأولى، 2004.
- البستاني، بطرس المعلم، قاموس محيط المحيط، لبنان، مطبعة نيوبرس، الطبعة الثانية، 1987.

- تشرنى ياروسلاف، *الديانة المصرية القديمة*، ترجمة أحمد قدرى، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1996.
- توفيق، أحمد، *المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850 - 1912)*، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة، 2011.
- توينبي، أرنولد ، وآخرين، *الإنسان وهموم الموت*، ترجمة وتقديم عزت شعلان، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2011.
- جرجس، حبيب، *عزاء المؤمنين*، القاهرة، مكتبة المحبة، 1979.
- الجزائري أبوبكر جابر، *منهاج المسلم كتاب عقائد وآداب وأخلاق ومعاملات*، القاهرة، دار السلام، 2004.
- الجزيري عبد الرحمان، *كتاب الفقه على المذاهب الأربعة*، الجزء الأول، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 2003.
- الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، تحقيق نديم مرعشلي، بيروت، دار النقاش، الطبعة الأولى، د.س، مادة طقس.
- جهادي الحسين، *من ذاكرة سوس وبصمات الحاضر نموذج آيت باعمران*، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2016.
- جوتفريد، روبرت. س، *الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى*، ترجمة وتقديم: أبو أدهم عبادة كحيل، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2017.
- جوليان شارل أندري، *تاريخ إفريقيا الشمالية*، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، مؤسسة تاولت الثقافية، 2001.
- الحاحي، رشيد، *النار والأثر بصدد الرمزي والمتخيل في الثقافة الأمازيغية*، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2005.
- حما، الحسن، *طقوس القربان في الأديان الوضعية والسماوية*، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2014.
- حركات إبراهيم، *المغرب عبر التاريخ*، الطبعة الأولى، البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1985.
- حقي محمد، *الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط*، بني ملال، مطبعة مانبال، 2007.

- حنون نائل، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986.
- الخوري، فؤاد اسحق، ايدولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة، بيروت، دار الساقى، الطبعة الأولى، 1997.
- دارون إدريس، الأمثال الشعبية المغربية، الدار البيضاء، مكتبة السلام الجديدة، الطبعة الأولى، 2000.
- الدستور المغربي، منشور بالجريدة الرسمية، تحت عدد 5964 مكرر، بتاريخ 30 يوليو 2011.
- دوتي، إدموند، الصلحاء مدونات عن الإسلام المغربي خلال القرن التاسع عشر، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2014.
- دوركايم إميل، الأشكال الأولية للحياة الدينية المنظومة الطوطمية في استراليا، ترجمة رندة بعت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2019.
- دوطي إدمون، السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة: فريد الزاهي، الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة الثالثة، 2019.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، 1986.
- روجيه، كايوا، الإنسان والمقدس، ترجمة: سميرة ريشا، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2010.
- الزاهي، نور الدين، المقدس الإسلامي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2005.
- الزعفراني حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبدالغني أبو العزم، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.
- سبنسر أ.ج.، الموتى وعالمهم في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
- السواح فراس، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دمشق، دار علاء الدين، الطبعة الثانية، 2001.
- السواح، فراس، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دمشق، منشورات دار علاء الدين، الطبعة الرابعة، 2002.
- السيد سابق، فقه السنة، القاهرة، دار الفتح للإعلام العربي، الطبعة الأولى، 2004.

- السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، شرحه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك. محمد أبو الفضل إبراهيم. وعلي محمد البجاوي، بيروت، المكتبة العصرية، الجزء الأول، 1986.
- شلحد، يوسف، *بُنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده*، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1996.
- شورون، جاك، *الموت في الفكر الغربي*، ترجمة كامل يوسف حسين، منشورات عالم المعرفة، العدد 76، الكويت، 1984.
- شارلوت، سيمور سميث، *موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية*، مراجعة وإشراف: محمد الجوهري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، 2009.
- صدقي، علي ءازيكو، *معلمة المغرب*، الجزء 3، سلا، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، 1991.
- الطباي بلقاسم، *الموت في مصر والشام*، ج. 2، طقوس الموت وعاداته في العهد المملوكي (1250-1517)، 2014.
- العامل عادل، *الأسطورة والنظريات الميثولوجية في الغرب*، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، الطبعة الأولى.
- عبد العزيز سالم، *تاريخ مدينة المرية الإسلامية، الإسكندرية*، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1984.
- العطري، عبد الرحيم، *المسألة القروية في المغرب الأرض والسلطة والمجتمع*، فاس، مقاربات للنشر والصناعات تانقافية، 2017.
- العمراني الخالدي، عبد السلام، *الكنز الثمين في كشف أسرار الدين*، بيروت، دار الكتب العلمي، الطبعة الثانية، 2003.
- فرايزر جيمس جورج، *الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين*، ترجمة: نايف الخوص، دمشق، دار الفرقد، الطبعة الأولى 2014.
- فرحات، المصطفى، *طقوس وعادات أهل "أبزو"*، الرباط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2007.
- فياض محمد، *المرأة المصرية القديمة*، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1995.

- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، *القاموس المحيط*، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، 2005.
- فيروللو شارل، *أساطير بابل وكنعان*، تعريب: ماجد خيربك، دمشق، مطبعة الكاتب العربي، 1990.
- الفيومي المقري، أحمد بن محمد بن علي، *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1977.
- القاضي عياض، بن موسى بن عياض السبتي، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*، تحقيق أحمد أعراب، ج7، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983.
- كامب غابرييل، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2014.
- كامب، في أصول بلاد البربر أو بداية التاريخ، تعريب: العربي عقون، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، 2009.
- الماجدي خزعل، *الدين المصري*، عمان، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1999.
- الماجدي خزعل، *متون سومر الكتاب الأول: التاريخ/ الميثولوجيا/ اللاهوت/ الطقوس*، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 1998.
- مبروك، أمل، *فلسفة الموت*، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2011.
- متاؤس، *روحانية صلوات التجنيز في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية*، الطبعة الأولى، جمهورية مصر العربية، دار الجيل للطباعة، 1993.
- المحمدي علي، *السلطة والمجتمع في المغرب*، نموذج آيت باعمران، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014.
- مدفون عبد الوفي، *المجال المقدس ووظائفه الاجتماعية*، الرباط، منشورات الزمن، 2014.
- مزين، محمد، *الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي*، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيه محمد زنيبر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المحمدية، مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، 1995.
- مستاوي، محمد، *ثان ولي زرينين أمثال أمازيغية معربة*، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2009.

- منديب عبد الغني، الدين والمجتمع دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2006.
- مومن محمد، أحكام المقابر الإسلامية في القانون المغربي، الطبعة الأولى دار الأفاق المغربية، الدار البيضاء، 2017.
- مونتاي فانسان، تقييدات حول إفني وآيت باعمران، ترجمة: هيبتن الحيرش، مراكش، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، الطبعة الأولى، 2014.
- ناردو دون، الأساطير المصرية، ترجمة: أحمد السرساوي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2011.
- وانيلز تشارلز، الجرمنتيون سكان جنوب ليبيا القدماء، تعريب: أحمد اليازوري، طرابلس، دار الفرجاني، 1991.
- وراغ، فيليب، معجم المعتقدات والخرافات، ترجمة رمضان مهلهل سدخان، الأردن، أزمنة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2007.
- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، الجزء 1، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1983.
- الوكيل، يونس، أنثروبولوجيا الشفاء الرقية الشرعية وصراع أنماط التدين، الدار البيضاء، المركز الثقافي للكتاب، الطبعة الأولى، 2021.
- وعراب مصطفى، المعتقدات السحرية وطقوسها في المغرب، القنيطرة، دار الحرف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2007.

مقالات

- بول باسكون، الأساطير والمعتقدات بالمغرب، في مجلة بيت الحكمة، العدد الثالث، السنة الأولى، 1986.
- بل الفابدة عبد العزيز، صورة الموت من خلال النقائش اللاثينية، ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، العدد 8، 2008، ص. 7 - 16.

- أعشي مصطفى، *القبور في المغرب القديم*، معلمة المغرب، الجزء 19، إشراف محمد حجي، مطابع سلا، 2004، ص. 6601 - 6603.
- أسليم، محمد، *الكتابة والموت نحو آيتيكا جديدة للحياة والموت*، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، منشور بتاريخ 4 أكتوبر 1996، ص. 4 - 5.
- أوجي، مارك، *ما نفقده هم الأحياء وليس الأموات أو حب الحياة*، ترجمة لحسن حيرا، ضمن مجلة فكر ونقد، السنة الرابعة، العدد 33، نوفمبر 2000، ص. 141 - 148.
- روث، مينحاييم، *الطقوس الجنائزية (الحداد)*، ترجمة محمد أسليم، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ 21 نونبر 1993، ص. 4 - 5.
- روث، مينحاييم، *ميثولوجيات الموت*، ترجمة محمد أسليم، ضمن جريدة العلم الثقافي، العدد 815، بتاريخ 6 مارس 1993، ص. 4 - 5.
- الغرايب، محمد، *طقوس الموت عند يهود المغرب*، في كتاب الوفيات والموت مقارنة تاريخية وأنثروبولوجية، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2017.
- النحال، مصطفى، *جليبر دوران والمتخيل الأنثروبولوجي*، ضمن مجلة فكر ونقد، السنة الرابعة، العدد 33، نوفمبر 2000، ص. 133 - 140.
- قنيقة، نورة، *الجسد الأنثوي ودلالاته الرمزية في قراءات أنثروبولوجية متعددة*، ضمن مجلة التغير الاجتماعي، العدد الرابع، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2017، ص. 461 - 476.
- مزين، محمد، *الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي*، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيه محمد زنيبر، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق محمد المنصور، محمد المغراوي، الطبعة الأولى، 1995، ص. 101 - 117.
- المحواشي، منصف، *الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول*، في مجلة إنسانيات، العدد 49، 2010.
- يشوتي، محمد، *الإنسان والموت*، ضمن مجلة علامات، العدد 18، 2004، ص. 15 - 22.
- يشوتي، محمد، *خطاب الموت*، مجلة علامات، العدد 15، مكناس، 2001.
- التقرير الوطني، *السكان والتنمية في المغرب خمس وعشرون سنة بعد مؤتمر القاهرة 1994*، الرباط، المندوبية السامية للتخطيط، 2019، ص. 36.

- الجطاري، بلقاسم، الطقوس الجنائزية في التراث الأمازيغي، في مجلة حفريات مغربية، وجدة، دار النشر الجسور، الطبعة الأولى.
- حسون يونس وسناء، أهم الخصائص الجغرافية لمصر القديمة، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 17، العدد 9، 2010.
- الدوري، رياض عبد الرحمن، والعماري، علي حسين فرج، الساحرات في العراق القديمة والتوراة والتلمود، مجلة سومر، المجلد 53، 2006/2005.
- ذيب كفافي منذر، النظام القيمي في المثل الشعبي السعودي، في مجلة الأثر، العدد 30، 218.
- راجحي، رضوان، تمثلات الموت في تاريخ المغرب من خلال أمثال شعبية وأقوال مأثورة، في مجلة الثقافة الشعبية، العدد 36، المنامة، 2017.
- راجحي رضوان، آفاق كتابة تاريخ الموت بالمغرب الأقصى الوسيط، في مجلة أنثروبولوجيا، العدد الأول، الجزء الثاني، الجزائر، 2016.
- روضان حمدي كاظم، جدلية الموت والحياة في فنون الحضارات القديمة، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، العدد 18، 2016.
- كشيك، منى، المضامين التربوية للأمثال السائدة في البيئة الدمشقية، في مجلة جامعة دمشق، المجلد 30، العدد الثاني، 2014.
- لفقة حسين، ايمان، الطقوس الجنائزية في بلاد وادي الرافدين خلال الألف الثالث قبل الميلاد، مجلة القادسية في الأدب والعلوم التربوية، المجلد 8، العدد 4، 2009.
- مذكرة إخبارية للمندوبية السامية للتخطيط، حول وضعية سوق الشغل خلال الفصل الأول من سنة 2018.
- مرسوم رقم 2.20.293، بخصوص إعلان حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا . كوفيد19، منشور بالجريدة الرسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 24 مارس 2020، ص. 1783.

بحوث وأطروحات

- بن عبد المؤمن محمد، عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة وهران، الموسم الجامعي: 2011-2012.

- جناحي حنان، طقوس الدفن والمدافن في الأديان (دراسة تحليلية مقارنة)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1. كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، 2015.
- خلفه، عبد الرحمان، الديانة الوثنية المغاربية القديمة منذ النشأة إلى سقوط قرطاجة 146 ق. م، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة منتوري قسنطينة، 2008.
- سليم صيفور، الأمثال الشعبية كخلفية للعنف في المجتمع الجزائري دراسة تحليلية، جامعة الجزائر 2، 2011.
- عيساوي، مها، المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم من عصور ما قبل التاريخ إلى عتبة الفتح الإسلامي، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في تاريخ المغرب القديم، جامعة منتوري قسنطينة، 2009 - 2010.
- فخري نضال طه، الطقوس والمعتقدات الشعبية والاجتماعية في الأدب الشعبي في محافظة رام الله، رسالة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009.
- قدوري عبد الوهاب، والعبيري، أحمد، أحكام القبور في الحديث الشريف (دراسة تحليلية) رسالة لنيل درجة الماجستير في أصول الدين تخصص (حديث) الجامع الإسلامية، بغداد، 2006.

الويبوغرافيا (Webographie)

- إحصائيات مؤسسات التعليم العتيق للموسم الدراسي 2017-2018، منشورة بموقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: <http://www.habous.gov.ma>
- الدغرنى أحمد، جنازة الحسين الملكي وتغير طقوس الدفن بالرباط، مقال منشور بتاريخ 05 أبريل 2018، على الرابط التالي: http://www.amazighworld.org/arabic/history/index_show.php?id=6273
- الريسونس أحمد، دفن الملحين، كيف؟ وأين، مقال منشور على موقع الجريدة الإلكترونية هوية بريس، بتاريخ 16 يوليوز 2016، على الرابط التالي: <http://howiyapress.com>
- الشامي طارق، تشييع جثمان المناضل الراحل محمد شاشا بمسقط رأسه رأس الماء بعنوان كسر الطابوهات، مقال منشور بموقع الجريدة الإلكترونية ناظور ستي على الرابط: <https://www.nadorcity.com>

- عطية كيجل البشير، عادات الدفن وتقديم القرابين عند الإنسان المغربي القديم، المقال رقم 04، مقال منشور بالموقع الإلكتروني التالي:
http://www.archaeologic.net/files/files_i50_dafen2.pdf
- العوفير ابتسام، الحنائر في المغرب مناسبات ل"الأفراح" و"التباهي" بالأكل واللباس، مقال منشور بجريدة هيسبريس الإلكترونية، بتاريخ 08 دجنبر 2012، على الرابط التالي:
<https://www.hespress.com>
- المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين، شرح الفصيح لثعلب، قراءة وتحقيق: سليمان بن إبراهيم العايد، الكتاب منشور بموقع المكتبة الوقفية
<https://waqfeya.com/book.php?bid=9402>
- ملطي، تادرس يعقوب، طقس الجناز والحياة المقامة في الكنيسة القبطية، كتاب منشور بمكتبة "مشروع الكنوز القبطية" على الموقع الإلكتروني: <https://coptic-treasures.com/book/> بتاريخ 10 ديسمبر 2019.
- الوراري عبد اللطيف، 2018، الأنثروبولوجيا التاريخية للموت: كيف يعيش الإنسان العربي والمسلم حالات الفقد؟ مقال منشور في المجلة الإلكترونية ذوات، عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، العدد 43، ص. 12.

ثانيا: مراجع باللغات الأجنبية

- Alhyane, Mohamed, *Etude Anthropologiques en Anti Atlas occidental: Lakhsass*, Rabat, Institut Royal de la Culture Amazighe, 2004.
- Akhmisse, Mustapha, *Médecine, Magie et Sorcellerie au Maroc*, Casablanca, Dar Kortoba, 4ème Edition, 2000.
- Caleb Sprague Henry, *A compendium of Christian antiquités, being a brief view of the orders, rites, laws and cutoms of the ancient church in the early ages*, Burlington, Powel printed
- Eliade, Mircea, *Le sacré et le profane*, Gallimard, 1965,
- Eva Ahrén, *death, modernityn and the body (sweden 1870-1940)*, 1 Edition, university of rochester press_ boy dell & brewer limited,

- Justinard, Lieutenant Colonel, *Villes et Tribus du Maroc: Tribus Berbères, Tome 1, Les Ait baamran*, Casablanca, Edition Frontispice, 2002.
- Hertz, Robert, (1928), *Sociologie religieuse et folklore*, Edition électronique réalisée par Gemma Paquet, collection développée en collaboration avec la Bibliothèque Pau-Emile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi.
- Hitous, Abdallah, *Le Droit outumier et les législations au Maroc*, Rabat, Organisation Tamaynut, 1^{er} Edition, 2007.
- Ragoug, Allal, et El Hazibi, Bouchta, *Les rites funéraires au Maroc: Permanences et évolutions*, in *La mortalité et la mort approches historiques et anthropologiques*, Rabat, Presse de l'Institut Universitaire de la Recherche Scientifique, 2017,
- Sguenfle, Mohamed, *Le proverbe amazighe (domaine tachelhit) Aspects formels et sémantiques*, in *Asinag*, 4- 5 pp. 151- 152
- Van gennep, Arnold, *Les Rites de passage*, Paris, Picard, 1981.

الملاحق

الملاحق

مغسلة الرحمة

جمعية مغسلة الرحمة: هي جمعية خيرية تعتمد التنسيق والشراكة مع الجمعيات والهيئات ذات الأهداف الإنسانية والاجتماعية المشتركة. يقع مقرها بمدينة كلميم¹، وتهدف إلى تكريم موتى "المسلمين" بالطريقة الشرعية، من خلال تجهيزهم وتكفينهم ودفنهم، إضافة إلى متابعة ملفاتهم القانونية والسعي في تيسير الإجراءات الإدارية المرتبطة بهم، والمساهمة في توفير وحماية المقابر والحرص على صيانتها.

أما مهامها فهي كالآتي: استمرارية نشاط الجمعية كمرفق لتغسيل وإكرام موتى المسلمين، العمل على اختيار وتكون المغسلين والمغسلات وفق أحكام الشرع الإسلامي، تنظيم أيام دراسية ومحاضرات دورية تهدف إلى التوعية بأحكام التغسيل وتبين فوائده الشرعية والإنسانية، توفير جميع وسائل وأدوات تغسيل وتجهيز أموات المسلمين بالمجان، العمل على إحداث وصيانة المقابر، بالإضافة إلى توفير وسيلة لنقل أموات المسلمين.

يتصل أحد أقرباء الميت بعد حدوث الوفاة، بالجمعية في شخص الرئيس أو نائبه لطلب تكفل الجمعية بعملية التغسيل والتكفين، والذي يطلب في بداية الأمر شهادة الوفاة التي تسلم من طرف طبيب البلدية أو طبيب المستعجلات في حالة وقوع الوفاة في المستشفى الإقليمي. ويأتي هذا الإجراء لغاية التأكد من أن الطبيب عاين الجثة. بعدها يتم الاتصال بالمكلفين بالتغسيل، وهم منخرطي الجمعية، ثلاث نساء إن كان الفقيد أنثى، أو ثلاثة رجال إن كان الميت ذكراً. ينتقل هؤلاء عبر سيارة الجمعية محملين بالتجهيزات الضرورية لهذه العملية، والمكونة من مغسلة متحركة مصنوعة من الألمنيوم تغسل عليها الجثة، وهي مجهزة لتجميع المياه المستعملة في التغسيل لترمى في دورة المياه بعد الانتهاء، قفازات مطاطية يضعها المغسلون، مناشف تنشف بها الجثة، أدوات منظفة كالصابون والشامبو، إضافة إلى مستلزمات التطيب أو ما يعرف بالحنوط، وتشمل خليط مطحون لأربع نباتات وهي الياسمين والريحان والورد والقرنفل، دون أن ننسى الكفن الذي يختلف حسب نوع الجثة، زيادة على الأحزمة التي يشد بها، وتكون من خمسة أحزمة إلى سبعة. ويتكون كفن المرأة كما قلنا سابقاً من خمسة قطع: سروال، قميص،

¹ شارع المسيرة الخضراء، رقم 98 الطابق الأول، مدينة كلميم جنوب المغرب.

خمار إضافة إلى لفافتين تلف فيهما جثة المرأة، أما بالنسبة لكفن الرجل فيتكون من سروال وقميص ولفافة تلف فيها الجثة. ونلاحظ هنا أن الاختلاف لا يشمل فقط عدد قطع الكفن، وإنما يصل إلى وقت وطريقة تحضير الجثة للدفن، لكون المرأة تتطلب وقتاً أطول في تغسيلها عكس الرجل.

يتعاون المغسلون أو المغسلات في عملية التغسيل من خلال تقسيمهم المهام، المغسل الأول يتكلف بتقنية الجثة والتوضؤ لها، المغسل الثاني يتكلف بأخذ الماء من الإناء المخصص لذلك وسكبه على مختلف مناطق جسد الميت من خلال اتباعه لإشارات المغسل الأول، المغسل الثالث يتكلف بمساعدة المغسل الأول والثاني في قلب الجثة والإمساك بها كي لا تقع على المغسلة، أو تنشيف الجثة بعد الفراغ من تغسيلها باستعمال المناشف المأخوذة من مستودع الجمعية.

تنتشر قطع الكفن بعد مرحلة التغسيل ومن تحتها الأحزمة التي تشده، وهذا مخالف لما كان في الماضي، إذ تتم آنذاك خياطة الكفن من أعلى رأس الجثة حتى قدميها، أما الآن فتستعمل الأحزمة لكونها توفر الكثير من الوقت والجهد. وتتراوح مدة التغسيل والتكفين، حسب ما أخبرنا به أحد متطوعي الجمعية، ما بين ساعة وساعة ونصف، وذلك حسب نوع وحجم الجثة. بعد التكفين، تنتشر على جسد الجثة كل أنواع العطور وكل مستلزمات التطيب كالمسك والكافور.

يستدعي تغسيل الأموات الذين لقوا حتفهم بسبب بعض الحوادث، كالحريق أو الفيضانات أو حوادث السير، انتباهاً أكثر وجهداً مضاعفاً؛ حيث يجب ترميم الجثة قبل تغسيلها، والمقصود بالترميم هو جمع أعضاء الجسد في حالة تشتتها، ويستعمل في ذلك كل الأدوات الممكنة، كقطع "سبارادرا" أو "السولوفان"، إضافة إلى القطن. تنطلق بعدها عملية التغسيل لتشمل فقط الأماكن الممكن تغسيلها، والاكتفاء برش وسكب الماء على المناطق المرممة، وإغلاق الأماكن التي تخرج منها الدماء باستعمال القطن والحفاظات كي لا يلطخ الكفن بالدم.

تنتهي بذلك مهمة الجمعية والخدمات التي استطاعت تقديمها لأسرة الفقيد، بعد فراغ المغسلين من طقسي التغسيل والتكفين، لتتسحب بذلك تاركة المجال لعائلته الذين يحملونه عبر سيارة نقل الأموات إلى المسجد الكبير للصلاة عليه، وبعد ذلك يتوجه الموكب للمقبرة من أجل دفنه.

وتغطي الجمعية على حد قول ممثلها المدينة بنسبة مئوية مهمة، فيما يخص تغسيل وتكفين الموتى، باستثناء وفيات المستشفى العسكري المتواجد بالمدينة، إذ يتوفر هو الآخر على مغسلين تسند

إليهم هذه المهمة. كما تنتقل خدمات الجمعية في بعض الأحيان إلى قرى مجاورة للمدينة كلما طلب منها ذلك، ومن هذه القرى التي سبق للجمعية أن قدمت خدماتها فيها: تلوين وعرون، القصابي، تغمرت، أسير وتسكنان.

من جانب آخر اقتنت الجمعية مجموعة من الألواح الإسمنتية التي تستعمل كغطاء للقبور، حيث تبلغ مصاريف إعداد هذه الألواح خمسة عشر درهما للوحة الواحدة، في حين يتطلب تغطية كل قبر بستة ألواح أي ما يعادل تسعون درهما للقبر الواحد. ونسجل هنا كملاحظة تراجع عدد قطع المكونة لغطاء القبر من سبع قطع كعدد فردي في الماضي إلى ستة قطع كعدد زوجي، وإذا احتسبنا مستلزمات التغليف والتكفين من مواد التنظيف والحنوط والعطور واقتناء الكفن، فتصل التكلفة الإجمالية من التغليف إلى الدفن ما مجموعه أربعمئة درهم للشخص الواحد.



الألواح الإسمنتية المستعملة لتغطية القبور، من أرشيف الجمعية، 2018

وتتوفر الجمعية على أرشيف يحتوي إحصائيات الوفيات التي تكلفت بتغسيلها وتكفينها، وهو مقسم حسب السنوات، وكذا نوع الجثة، ففي سنة 2017 مثلاً بلغ عدد الوفيات حسب الأرشيف 493 حالة، منها 240 من الذكور، و221 من الإناث، و31 من الصبيان، كما عرفت أعلى نسبة للوفيات في الفترة الممتدة ما بين شهر نونبر إلى حدود شهر مارس؛ أي الفترة التي تعرف فيها المنطقة موجة من البرد القارس، أما في صفوف الصبيان فكانت أعلى نسبة للوفيات في شهر يونيو ويوليوز ثم شهري يناير وفبراير.

معجم المصطلحات الأمازيغية

باللغة العربية	بالحرف العربي	باللغة الأمازيغية
الملك	أَكْلِيدْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الكبير	أَمْقَرَانْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الأرض	أَكَالْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الشيخ	أَمْعَارْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
العينين	أَلْنْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
تعال	أَشْكُذْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
يوم	أَسْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
شعر	أَشْكُوكْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الكلام	أَوَالْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
البرد	أَصْمِيضْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
العلاج	أَسْقَارْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الشاب	أَعْيَانْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الفرن	أَفَارْتُو	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الضيف	أَنْبَكِي	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
خذ	أَسِي	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الرجل	أَرْكَازْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الولد	أَرَاوْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
العصفور	أَكْخِيضْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الفرس	أَيْسْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
القمر	أَيُورْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
أظافر	أَسْكَازَنْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الماء	أَمَانْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
اليد	أَفُوسْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الثمن	أَتِيْگْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
الأول	أَمْزَوَارْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ
النوع	أَنَاوْ	ⵏⵔⵉⵎⵎⵓⵏ

٥٤٥Q	أَضَارَ	الرَّجُلُ
٥٧٥١٤٤	أَغَالِيْمُ	القصب
٥٨٧٥O	أَدْعَارُ	المكان
٥٨٩٤٥٤	أَكُوْشَامُ	مقعد
٥I٥Q٤٨	أَجَارِيْفُ	الصخر
٥٤٩	أُضُو	الرائحة
٥٨٨٨٥O	أَرْكَازُ	السدره
٥٨٥٥٩	أَغَايُوْ	الرأس
٥٥٨٨٥OO	أَيْدَارُسُ	عائلته
٩٨٤	أُوْدُمُ	الوجه
٩٨٨٤	أُوْلِيْ	الماشية
٩OO٥٥	أُوْسَانُ	الأيام
٩XO٥٥	أُوْحْسَانُ	الأسنان
٤٤٤٥	إِمَّا	الأم
٤٨I٤٥٥	إِكْنُوَانُ	السماء
٤٤٤	إِيْوِي	ابني
٤٤O	إِضْرُ	سقط
٤O٨I	إِرْكُنُ	قشور
٤٤I٥٤	إِمْنَسِي	وجبة العشاء
٤٨Q٤	إِرْرِي	الرؤية
٤OO٤٤	إِسِيْمُ	البرق
٤٨٨٤٨	إِكِّيْكُ	الرعد
٤II٥	إِنَّ	قال
٤٨٤٤٤٤I	إِكْشُوْضُنُ	الحطب
٤٧OO	إِغْرُسُ	ذبح
٤٨٩I	إِكُونُ	نام
٤٤٤	إِمِي	فم
٤+٤٤٥	إِنَّمَا	انتهى
٤٨٨٤O	إِلَيْسُ	ابنته

‡ⱮⱮ‡	تُمُوتْ	ماتت
‡∧∧◊	تَدَا	ذهبت
‡‡⋈⋈⋈	تُنِينْ	يقولون
‡◊⋈⋈⋈◊‡	تَأْفَقِيرْتُ	عجوزة
‡◊⋈⋈⋈◊‡	تَأْفُولُوسْتُ	دجاجة
‡⋈⋈⋈‡	تِيَكِينْتُ	قدر
‡◊⋈⋈	تَالُ	رفعت
‡◊Ɱ◊	تَاوَدَا	الخوف
‡◊⋈‡	تَاكَاتْ	نار
‡⋈⋈◊⋈⋈	تِيَفْرَحِينْ	بنات
‡⋈Ɱ⋈⋈‡	تِيَمَكِينْتُ	إناء
‡◊◊◊	تَاسَا	كبد
‡⋈⋈◊◊	تِيَلَّاسْ	ظلام
‡◊◊∧◊⋈‡	تَرْدَارْتُ	شبر
‡◊◊◊‡	تَارِبَاتْ	بنت
‡⋈∧◊‡	تُوذَرْتُ	حياة
‡◊◊◊	تُهُرْشْ	مريضة
‡⋈◊◊⋈⋈‡	تِسْكَنِيْتُ	إبرة
‡◊⋈⋈◊⋈⋈	تَرَانِينْ	أولاد
‡⋈◊Ɱ‡	تِيَرْمْتُ	وجبة
‡⋈⋈⋈	تِيَزِي	وقت
‡◊⋈⋈⋈⋈⋈	تَالُوفِي	رغوة
‡◊⋈‡	تَانُوتْ	عين
‡⋈◊◊	تُورُو	ولدت
‡⋈⋈◊◊⋈	تِيَغْرِسِي	ذبيحة
‡◊◊Ɱ◊	تَارَوَا	أبناء
‡◊Ɱ◊	تَامَا	قرب
‡⋈Ɱ⋈⋈⋈⋈	تِيُونِشِي	مساء
‡◊◊⋈⋈◊‡	تَاسْكَانْتُ	سوداء

†◡×◡◡◡†	تَاكْمَارْت	حصان
†◡◡×◡◡†	تَاذْكَالْت	مطلقة
◡◡◡◡◡†	دُنَيْت	الدنيا
◡◡◡	دَار	عند
◡◡◡◡◡	دَارْزُغ	عندنا
◡◡◡	دُو	تحت
◡◡◡†	لُمُوت	الموت
◡◡◡◡◡	لُومًا	الأمة
◡◡◡◡	لِيغ	عندما
◡◡◡◡◡◡	لَاشِيَاخ	الأولياء
◡◡◡◡◡	لُقْبَر	قبر
◡◡◡◡◡◡	لُخَوَانِج	ملابس
◡◡◡◡◡	لُخَزَز	طلاصم
◡◡◡◡◡◡	لُمسَوَاك	مسواك
◡◡◡◡◡†	لُمْدِينْت	مقبرة
◡◡◡◡◡◡◡	لُمَلَايْكََا	ملائكة
◡◡◡◡◡	لُكْفُن	كفن
◡◡◡◡◡◡	مِيدُن	ناس
◡◡◡	مَاس	أمه
◡◡◡◡◡◡◡	مُلُونِين	بيضاء
◡◡◡†	نَانْت	قلن
◡◡◡◡	نُبِي	النبي
◡◡◡◡◡	نَالَا	نبكي
◡◡◡◡	رِيغ	أريدُ
◡◡◡◡◡	رَبِي	ربي
◡◡◡◡◡	رُوح	الروح
◡◡◡◡◡◡◡	شُوكُو	اتبع
◡◡◡◡◡	طَامَز	أمسكت
◡◡◡◡◡◡◡†	طَارَالِيْت	صلاة

ἔκθεο	طَلَبَا	فقهاء
ὑποκομ	غَايَاذُ	هذا
οὐλοο	سَاقِيسَا	اسأل
οὐκοκο	سُوَزُرُ	أَنْزَلْ
οὐκοκο	سُكُسُو	كسكس
οὐκοκο	سُوْدُو	اركب
οὐκοκο	سِيْدِي	سيدي
οὐκοκο	ضَضِيضُ	سته
κοκοκο	يَاشْكُذُ	أتى
κο+	يَاثُ	واحدة
κοοο	يُورَا	كتب
κοοο	يُورُو	أَنْجَبْ
κοκο	يُوكِي	نزل
κοκο	يُوسِي	أخذ
κοκο	بِي	قَطَعَ
κο+κοοο	بُثْكَرَا	سلحفاة
κοκοκο	كِكَاكَ	الكثير
κοκοκο	كُوزُ	أربعة
κοοο	خُبُو	غَطَّى
εεεεεε	ضِيِيِيِيِيِي	الليل
κοκοκο	جَايَحَا	الجائحة
κοκοκο	زِيَكُ	باكر

لائحة المستجوبين

لقب المستجوبين	الجنس	السن	مكان المقابلة	تاريخها
السيدة فاطمة	أنثى	67 سنة	قبيلة امستيتن	27 يوليوز 2019 25 يناير 2021
السيدة مينة	أنثى	65 سنة	قبيلة آيت الخمس	27 يوليوز 2019 25 يناير 2021
السيدة خديجة	أنثى	63 سنة	قبيلة آيت النص	11 أبريل 2018 25 يناير 2021
السيدة عائشة	أنثى	55 سنة	قبيلة آيت الخمس	25 يناير 2021 26 يناير 2021
السيدة فاطمة	أنثى	53 سنة	قبيلة آيت عبد الله	19 غشت 2019 20 غشت 2020
السيد عبد الله	ذكر	68 سنة	آيت باعمران	10 أبريل 2018
السيد محمد	ذكر	55 سنة	قبيلة آيت عبد الله	24 غشت 2019
السيد الحسين	ذكر	50 سنة	قبيلة امستيتن	26 يناير 2021
السيد البشير	ذكر	45 سنة	الأخصاص	10 أبريل 2018 05 غشت 2019
السيد حسن	ذكر	40 سنة	قبيلة آيت الخمس	25 يناير 2021

لائحة الصور

43	طقوس التحنيط	1	• الصورة
45.....	الجرار الكانوبية	2	• الصورة
47.....	الموكب الجنائزي	3	• الصورة
51.....	الحيوان عمم	4	• الصورة
55.....	قطعة من هرم زوسر المدرج	5	• الصورة
58.....	حوانيت محفورة في حجر صواني	6	• الصورة
60.....	جثوة ذات مصلى	7	• الصورة
64.....	فخريات من مقبرة قسطل	8	• الصورة
164.....	مقبرة إد عدي آيت الخمس	9	• الصورة
167.....	مقبرة الشهيد يونس الدنوني	10	• الصورة
169.....	نموذج لشاهد القبر من مقبرة الشهيد يونس الدنوني	11	• الصورة
178	ضريح غير مقبب	12	• الصورة
186.....	ضريح سيدي علي إفني	13	• الصورة
209.....	طقس تغسيل الميت	14	• الصورة
212.....	تمثيل لطقس تكفين الميت	15	• الصورة
213.....	نثر الحنوط على جسد وكفن الميت	16	• الصورة
214.....	المرحلة الأخيرة من التكفين (شد الأحزمة)	17	• الصورة
222.....	وضع جرائد النخل على القبر	18	• الصورة
222	وضع أغصان شجرة السدر على القبر	19	• الصورة

226.....	نقل الميت في موكب جنازتي	• الصورة 20
228.....	حضور النساء في جنازة أحد المناضلين	• الصورة 21
236.....	تغطية قبر المرأة أثناء دفنها	• الصورة 22
237.....	وضع الألواح الإسمنتية لتغطية القبر	• الصورة 23
239.....	الدعاء للميت في المقبرة بعد دفنه	• الصورة 24

دليل المقابلات

- الإسم الكامل : السن :.....
القبيلة أو المدينة :..... الحي أو الدوار :
رقم المقابلة : تاريخها :.....الساعة :.....

الاستعداد للموت

1. كيف يتم الاستعداد للموت؟
2. ماهي أهم الممارسات المستعملة في هذه المرحلة؟
3. لماذا يستعد بعض الناس للموت؟
4. هل ينذر صوت الغراب بوقوع وفاة ؟
5. هل يعتقد ان وفاة الشخص في يوم معين يكون ذات دلالة على مصيره في العالم الآخر؟
6. كيف يكون شعور الأهل عند قرب أجل المحتضر؟

لحظة خروج الروح

1. هل يعتقد أن طريقة الرجال في الموت تختلف عن النساء؟
2. ماذا يفعل أفراد العائلة مباشرة بعد خروج روح المحتضر؟
3. كيف يواجهون صدمة الموت؟
4. ماهي ردود أفعال الجيران والأقارب لحظة سماع خبر الوفاة؟

تجهيز الميت

1. كيف يجهز الميت؟ ومن يجهزه؟ وهل يوصي بذلك؟
2. كم هي المدة الزمنية التي تستغرقها طقوس التجهيز؟

3. ما هي أهم المساعدات التي تقدم لأهل الميت؟

4. كيف تتم مواساتهم والتخفيف عنهم؟

أثناء الموكب

1. كيف يتم تشيع الجنازة؟

2. هل هناك طريق معين تمر به الجنازة ؟

3. ماهي الماكن التي يستحسن أن تمر منه ؟ وهل ينطبق ذلك على سائر الجنازات؟

4. هل يوصي الميت قبل وفاته بأن تمر جنازته بأماكن معينة؟

5. ماهي بعض الاختلافات بين القبيلة والمدينة؟

6. كيف يتم نقل الجثة في أيامنا الحالية وفي الماضي؟

حول الدفن

1. من يتكلف بحفر قبر الميت؟

2. كم تستغرق عملية الحفر؟

3. بماذا يقيس الناس طول القبر؟

4. هل يوصي الميت بدفنه بمقبرة معينة؟

5. هل هناك تراتبية في الأشخاص الذين يدفنون الميت؟

6. ماهي أهم التغيرات التي طرأت على عملية الدفن بين الماضي والحاضر؟

حول الحداد

1. ماهي مدة الحداد في المنطقة؟

2. هل القبيلة كلها معنية بالحداد أم فقط عائلة المتوفي؟

3. هل الرجال أيضا معنيون بالحداد أم فقط النساء؟ كيف ذلك؟

4. هل يطلق الرجال شعرهم ولحاهم كعلامة على الحزن على الميت؟

إعداد الطعام

1. كيف تتم الاحتفالية الجنائزية؟
2. هل يساعد أهل القبيلة عائلة المتوفي؟ كيف ذلك؟
3. ماهي أنواع الأطباق المقدمة في هذه المناسبة؟
4. هل نفس الأطباق هي التي كانت تقدم في الماضي؟
5. بماذا تفسر هذا التطور في نوع الأطباق المقدمة؟
6. بكم تقدر تكلفة هذه المناسبة؟

حول الأعمال السحرية:

1. ماهي الخصائص العلاجية لعظم الميت؟
2. هل تستخدم عظام الإنسان الميت في أغراض سحرية؟ كيف ذلك؟
3. ماهي الأعضاء الجسمية الأخرى التي تستعمل في أغراض السحر؟
4. ماهي الأوقات المفضلة لممارسة هذه الطقوس السحرية؟
5. هل يكره كنس المنزل أثناء وجود جثة به؟

حول الأحلام

1. ماهي دلالة رؤية أحد الأموات في الحلم؟
2. ماهي دلالة رؤية أحد الأقارب المتوفي؟
3. هل يعتقد أن رؤية أحدهم في الحلم متزوج يعني أنه سيموت؟
4. هل رؤية المرأة تؤم الرجال دليل على موتها لكون المرأة لا تتقدم الرجال إلا في الموت؟

5. هل صحيح أن من رأى أنه لا يموت قد دنا أجله؟
6. هل صحيح أن من رأى أنه مات ودفن سافر سفرا بعيدا ينال فيه مالا؟

7. هل يعتقد أنه إذا رأت امرأة أنها ماتت وحملت على النعش، إن لم تكن متزوجة

تزوجت وإن كانت متزوجة فسد دينها؟

8. ما قولك حول هذه المعتقدات :

- من رأى أنه يحفر لنفسه قبراً فإنه يبني لنفسه دار.
- من رأى أنه مكفوف في كفن دلت الرؤيا على موته.
- من رأى أنه حمل على نعش ارتفع شأنه وكثر ماله.
- من رأى أنه يحرق فهو في النار.
- من رأى أن باباً من أبواب الجنة أغلق عليه مات أحد أبويه.

حول الروح

1. كيف تخرج الروح من الجسد؟

2. أين تستقر أرواح الموتى؟

3. هل يعتقد أن أرواح الموتى تخرج من قبورهم وتقف على أبواب بيوتهم تطلب الصدقة عليهم والدعاء لهم؟

4. هل سبق وأن سمعت عن أشخاص تلبسهم أرواح الموتى؟

5. هل تظهر روح الميت للأحياء كي تساعد في تقديم الجزاء لمن صنع في الميت

معروفاً؟ أو معاقبة من سبب له أذى؟

6. هل يشعر الإنسان بأي ألم أو عذاب أثناء خروج روحه؟

7. ماهي الأدعية أو الممارسات التي تسهل عملية خروج الروح؟

8. ما هو رد فعل المحيطين بالمحتضر؟

حول الأولياء بالمنطقة

1. هل يوجد بالمنطقة أو بالمناطق المجاورة أولياء؟
2. كيف يكرم أهل القبيلة الأولياء؟
3. إلى أين ينسب أولياء المنطقة؟
4. هل يحضر الأولياء جناز القبيلة؟
5. ماهي الجناز التي حضرها الأولياء؟ (وصف لهذه الجناز)
6. هل سبق لك وان حضرت جنازة ولي؟ كيف تكون؟
7. أين يدفن الأولياء؟ (ضريح، قبة، داخل المسجد ...)
8. هل يشترط أن يتولى تجهيز ودفن الولي أشخاص معينون؟
9. ماهي دلالة أن يدفن الشخص بالقرب من الولي؟
10. هل هناك فرق بين جنازة ولي وجنازة شخص عادي؟
11. هل يوصي الناس بدفنهم بعد موتهم بالقرب من ولي معين؟ أو مقبرة معينة؟
12. هل يوجد بالمنطقة مسجد دفن به ولي؟
13. كيف تكون شواهد قبور الأولياء؟ (الشكل، الحجم، الكتابة...)
14. هل تغرس الأشجار بالقرب من قبر الولي؟ ما دلالة ذلك؟
15. هل ينقل قبر الأولياء؟ لماذا؟
16. هل يتم توجيه موكب الجنازة لزيارة ولي قبل دفنها؟



نموذج مقبرة بقبيلة اصبويا، التقطت الصورة سنة 2020



الإنارة بمقبرة الشهيد يونس الدنوني - سيدي إفني، التقطت الصورة سنة 2020



الألواح الإسمنتية المستعملة لتغطية القبور، التقطت الصورة سنة 2020



مقبرة مهجورة (خاصة بالأجانب) - سيدي إفني، التقطت الصورة سنة 2020



ضريح سيدي محند يوسف - تيوغزة (آيت باعمران)، التقطت الصورة سنة 2020



نموذج ضريح غير مقبب (سيدي محند أوخليف) - سيدي إفني، التقطت الصورة سنة 2020



صورة من داخل ضريح (سيدي محند أوكليف) - سيدي إفني، التقطت الصورة سنة 2020

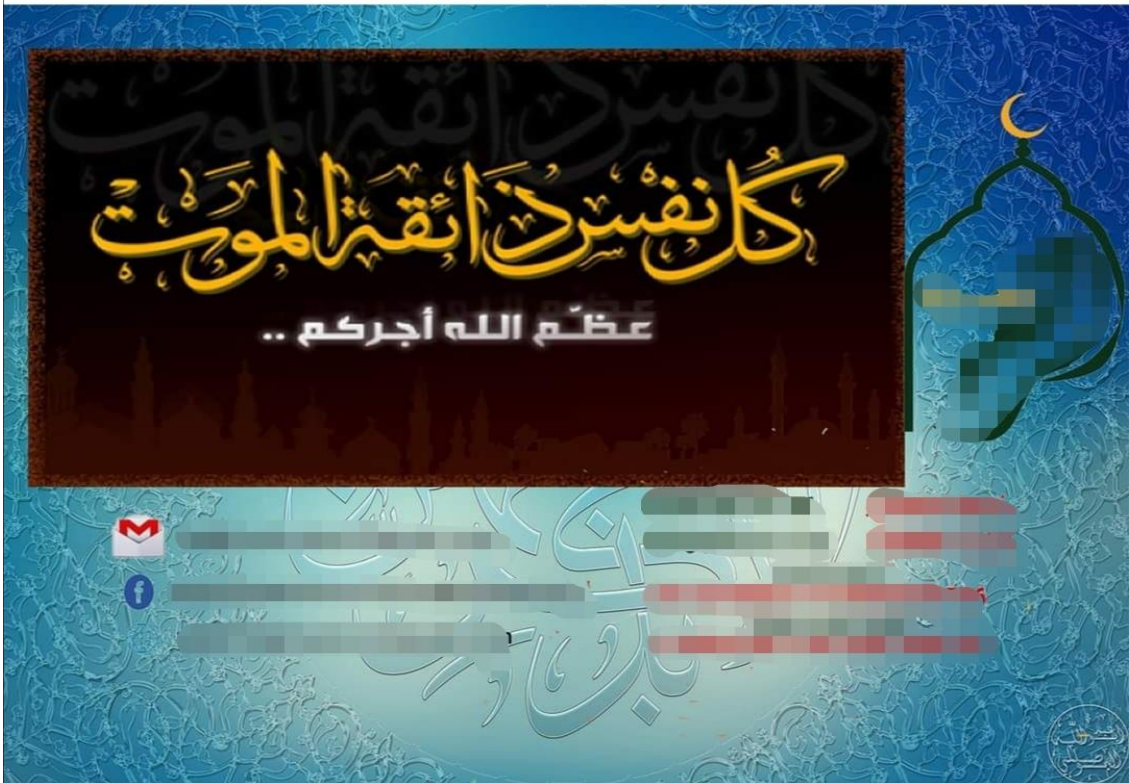


شاهد قبر مناضل أمازيغي مكتوب باللغة العربية والأمازيغية



3 h • 🌐

انتقلت الى دار البقاء أختكم
هذا اليوم بالمنزل 10/5/2021 لله مأخذ وله
ما أعطى وكل شئ عنده لأجل مسمى وستقام صلاة الجنازة
عليها بمسجد الهدى حي المصلى عقب صلاة
العصر مباشرة.



👍🥲 22

12 commentaires



J'aime



Commenter



Partager

نموذج لإستعمال مواقع التواصل الاجتماعي في نشر خبر الوفاة



كل نفس ذائقة الموت

الجمعية الخيرية
مغسلة الرحمة
كلميم
إحصائيات الجنائز التي قامت الجمعية الخيرية
مغسلة الرحمة كلميم
شعارنا إكرام
أموات المسلمين
بتغسيلها خلال شهر دجنبر من سنة 2019



أطفال 05



نساء 21



ذكور 16

المجموع العام 42

للإشارة فإن الجمعية تتوفر في أرشيفها على نسخة من شهادة وفاة كل متوفي
ونسخة من بطاقة تعريفه الوطنية وكذا نسخة من بطاقة تعريف الوطنية للمكلف به

الخدمات مقدمة في سبيل الله

مجانا



حساب التجاري وفا بنك

007320000511100000018746

الخزينة العامة:

310320103712270181920102

خدمة التغسيل: 06.66.62.31.46

إدارة المغسلة: 06.66.62.31.75

الهاتف الثابت: 05.28.77.47.97

العنوان:

رقم 98 الطابق الأول شارع المسيرة

كلميم، المغرب



maghsalarahma@gmail.com



facebook.com/maghsalarahma



www.maghsala.blogspot.com

نموذج لاحصائيات الجنائز التي غُسلت من طرف جمعية (مغسلة الرحمة)



جانب من الإهمال بمقبرة سيدي إفني



صورة قبر جرفته السيول (مقبرة سيدي إفني)

المملكة المغربية
وزارة الداخلية
إقليم سيدي افني
دائرة افني
قيادة املو-تنكرفا
جماعة تنكرفا
المصلحة التقنية

البطاقة التقنية للمشروع

- ✓ اسم المقبرة : آيت اعلاتن.
- ✓ موقع المقبرة : دوار اكادير نايت اعلاتن .
- ✓ سنة الإحداث : غير معروفة.
- ✓ سعة المقبرة :
- المساحة الإجمالية: حوالي 1 300.00 متر مربع.
- نسبة الملاء : 60%.
- ✓ طول السور :
- سور عادي : 152.00 متر.
- حائط وقائي بالاسمنت المسلح : 00.00 متر.
- ✓ عدد الأبواب المزمع انجازها : 1.00
- ✓ كلفة الأشغال : 93 600.00 درهم.
- ✓ مدة الانجاز : شهر واحد.
- ✓ سنة الانجاز : 2017.

تنكرفا في : 19 ماي 2017

إمضاء : رئيس الجماعة

نموذج بطاقة تقنية لمشروع تهيئة مقبرة آيت إعلاتن

البطاقة التقنية للمشروع

- ✓ اسم المقبرة : سيدي واملحافت.
- ✓ موقع المقبرة : واملحافت.
- ✓ سنة الإحداث : غير معروفة.
- ✓ سعة المقبرة :
- المساحة الإجمالية: حوالي 6 500.00 متر مربع.
- نسبة الملأ : 50%.
- ✓ طول السور :
- سور عادي : 372.00 متر.
- حائط وقائي بالاسمنت المسلح : 00.00 متر.
- ✓ عدد الأبواب المزمع انجازها : 2.00
- ✓ كلفة الأشغال : 228 000.00 درهم.
- ✓ مدة الانجاز : شهر واحد.
- ✓ سنة الانجاز : 2017.

تنكرفا في : 19 ماي 2017

إمضاء : رئيس الجماعة



نموذج بطاقة تقنية لمشروع تهيئة مقبرة سيدي واملحافت

قائمة بأسماء الأضرحة التي تمت معاينتها

الرقم الترتيبي	اسم الضريح	مكان تواجد
1	سيدي إفني	سيدي إفني
2	سيدي بو ابراهيم	
3	سيدي امحمد بن يوسف	تيوغزا
4	سيدي ابراهيم أعبد الله	
5	سيدي علي بوزيد	
6	سيدي محمد بن عبد الله	ميراللفت
7	سيدي اعزا السملالي	
8	سيدي ابراهيم اوبلا	ايت الرخاء
9	سيدي محمد اوصالح	
10	الشيخ سيدي احمد ايمان	سيدي عبد الله اوبلعيد
11	سيدي محمد اولحسن	الاخصاص
12	سيدي عبد الله	
13	سيدي المستور	
14	سيدي مبارك	
15	سيدي الحسن	سيدي مبارك
16	سيدي محند الشريف	
17	سيدي علي اوسعيد	
18	سيدي داود	
19	سيدي محند يونس	سيدي حساين او علي
20	سيدي عبلا السائح	
21	سيدي ابراهيم بن الحسين	اسبويا
22	سيدي علي أتول	
23	سيدي محند بن داود	مستي
24	سيدي وارزك	
25	سيدي الغيات	إمي نقاست
26	سيدي معطا الله	
27	سيدي واملحافت	سنتكرفا
28	سيدي واحرا	
29	سيدي سليمان بوتوميت	إثنين أملو
30	سيدي محمد ايدير	ابضر
31	سيدي المستور	
32	سيدي عبد الرحمان بن ابراهيم الشبيش	سبت النابور
33	العاج عبد الله بومروان	
34	سيدي علي بن أبي مروان بن عبد عبد المالك	



شارع القاهرة - عمارة الهرجاني - جوار صيدلية الوافي، ودادية الفتح . سيدي إفني
الهاتف و الفاكس: 28 78 09 05

قائمة الأضرحة المتواجدة بإقليم سيدي إفني

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
المنذوبية الإقليمية للشؤون الإسلامية
سيدي إفني



قائمة بأسماء الزوايا التي تمت معاينتها
بإقليم سيدي إفني

الرقم الترتيبي	اسم الزاوية	مكان تواجدها
1	الزاوية التيجانية	سيدي إفني
2	الزاوية الناصرية	
3	الزاوية الدرقاوية	
4	الزاوية	الأخصاص
5	زاوية ادويحمان	
6	الزاوية التيجانية	اسبويا
7	الزاوية الدرقاوية	
8	زاوية سيدي علي أتول	
9	زاوية أهل الشيخ ماء العينين	سيدي مبارك
10	زاوية مولاي أحمد الدرقاوي	
11	الزاوية التيجانية اذ بيبس	
12	زاوية بيبس	
13	زاوية اد بنشاول	
14	زاوية ادويحمان	
15	زاوية ايت امجوض	سيدي حساين او علي
16	الزاوية التيجانية ايت طالب براهيم	
17	زاوية بوزكني	
18	زاوية بوسكا	ايت الرخاء
19	الزاوية التيجانية تموجارت	
20	زاوية للا يحاندو	سيدي عبد الله اوبلعيد
21	زاوية سيدي اعبلا او بلعيد	
22	الزاوية التجانية	إبضر
23	الزاوية القادرية البودشيشية	
24	الزاوية البودشيشية القادرية	سبت النابور
25	الزاوية التجانية إد مولاي	
26	الزاوية الدرقاوية	
27	الزاوية الدرقاوية اشوكاك	انفك
28	زاوية ازروالن الدرقاوية	بوطروش

شارع القاهرة - عمارة الهرجاني - جوار صيدلية الوافي، ودادية الفتح - سيدي إفني
الهاتف و الفاكس: 28 78 09 05

قائمة الزوايا بإقليم سيدي إفني



مركز دراسات الدكتوراه: "الآداب والعلوم الإنسانية والفنون وعلوم التربية"
تكوين الدكتوراه: اللغات والآداب والتواصل والإعلام
محور: الدراسات العربية
مختبر: العلوم الإنسانية التطبيقية

ملخص أطروحة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية في موضوع:
الموت في الثقافة الأمازيغية من خلال الطقوس الجنائزية:
قبائل آيت باعمران نموذجاً

الأستاذ المشرف:

د. سعيد الناجي

إعداد الطالب الباحث:

أحمد أورير

السنة الجامعية: 2021-2022

ملخص البحث

تهدف الدراسة إلى تحليل الطقوس والعادات المرتبطة بالموت بقبائل آيت باعمران، المكونة من سبع قبائل وهي: آيت اخلف، وآيت النص، وآيت عبلا، وآيت يعزي، وآيت الخمس، وإمستيتن، وقبيلة صبوايا؛ وذلك من خلال المقارنة بين الطقوس المؤداة في الماضي وطقوس الحاضر، من أجل الوقوف على الثابت والمتحول فيها، إضافة إلى مقارنتها مع عادات وتقاليد القبائل والمدن المجاورة، لمعرفة ودراسة مدى تأثر الجنائز الأمازيغية بمختلف الثقافات الأخرى، سواء في كيفية الدفن أو نوعية لباس أهل الميت والمعزين، أو في طريقة إقامة احتفالية التأبين والحداد.

تعتمد الدراسة في تحليلها للطقوس الجنائزية على فرضيتين أساسيتين، تفسر الأولى رمزية الطقوس المؤداة والممثلة في: الحزن والخوف، وأيضاً محاولة تسيير حدث الموت، دون أن ننسى انتقال الميت إلى عالم جديد، ومحاولة إدماجه في هذا العالم (عالم الأموات) وكذلك إدماج حدث الموت في عالم الأحياء من خلال مجموعة من الطقوس. وتفسر الثانية تغير الطقوس المرتبطة بالموت من خلال التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي تشهدها القبائل.

في ما يخص المنهجية العامة للدراسة فتم الاعتماد على مناهج الأنثروبولوجية الاجتماعية التي تقوم على تركيب مناهج فرعية أهمها: المنهج الوصفي التحليلي، وذلك في محاولة لوصف عادات الموت المتبعة في كل مرحلة من مراحله، وتحليل دلالتها الاجتماعية والنفسية والدور الذي تؤديه، فضلاً عن الاعتماد على أساليب وأدوات علمية كالملاحظة، حيث شاركت في مناسبات جنائزية، كما اعتمدت على روايات المخبرين، إذ كان من الصعب الإحاطة بالموضوع وجرى جميع طقوسه، خاصة تلك التي تمارس في الخفاء دون الرجوع إلى هؤلاء. من أجل ذلك كلفت إمرأتان لوصف وجرى الطقوس الخاصة بالنساء، ورجلان لوصف وجرى الطقوس الخاصة بالرجال، ذلك ما سمح لي بالإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، والسؤال بأريحية عن جميع التفاصيل الصغيرة.

المنهج المقارن، وذلك بالاعتماد على المقارنة الزمنية للتعرف على التغيرات التي طرأت على عادات الموت وتقاليده في المنطقة المدروسة، من خلال الاعتماد على المقابلة المفتوحة لتأكيد ودعم النتائج التي خلصت إليها في المرحلة الأولى، وكذا التعرف على مدى تباث عادات الموت وتقاليده أو تغييرها في مجتمع البحث، وكانت أغلب هذه المقابلات مع المسنين وذلك لما لهم من معارف وتجارب كبيرة في

الحياة. واعتمدت كذلك المقارنة المكانية؛ حيث قارنت بين عادات وتقاليد القبيلة والمدينة للوقوف على مدى الثبات والمتغير الذي طرأ على الظاهرة موضوع الدراسة.

خلصت الدراسة إلى اعتبار الطقوس والعادات المؤداة في المناسبات الاجتماعية من بين المؤشرات التي تعبر عن الغنى الثقافي لأي مجتمع، ومن خلال ذلك فإن المجتمع الأمازيغي بقبائل آيت باعمران تميز بتنوعه وثرائه على مستوى هذه الطقوس والعادات رغم تأثره بثقافات أجنبية، وهذا ما يتضح من خلال نتائج البحث التي توصلنا إليها والتي تتمثل في ما يلي:

إن من بين الطقوس الجنائزية في الحضارات القديمة ما يهتم بالحياة والاحتفال أكثر من الموت؛ حيث تدل طقوس الموكب الجنائزي في مصر، أنها لم تكن حزينة أبدا بل كانت طقوسا احتفالية تذكر بالرحلة إلى العالم الآخر؛ إذ كانت تقام وسط نوع من الرقص الديني الجنائزي، وقرع للدفوف. أما في شمال إفريقيا فقد عمد سكان هذه المنطقة على تجهيز مقابرهم على أراضي ومواقع ذات مناظر جميلة، غالبا ما تكون مطلّة على البحر، وذلك لكي يمكنوا موتاهم من الاستمتاع بهذه المناظر مثلهم مثل الأحياء. يتجلى هذا في مقابر المغرب القديم التي تعود إلى العهد الفينيقي، والتي احتلت مواقع استراتيجية بمناظرها الطبيعية، مثل مقابر الأندلسيات بالغرب الجزائري، منطقة لكسوس بالمغرب الأقصى، وهنشير العليا جنوب المهدية بتونس.

في ما يخص المقارنة بين طقوس الحضارات القديمة والديانات السماوية، سجلنا تشابها وتكاملا على مستوى الموقف من الموت، وأيضا الطقوس الجنائزية، ويتمثل ذلك في ما يلي:

خروج الروح: ذكر في ملحمة كلكاشم أثناء حديث "إنكيديو" مع هذا الأخير حين قص عليه رؤياه عن الموت أثناء مرضه قال:

كنت واقفا وحدي فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه

كان وجهه مثل وجه طير الصاعقة "زو" ومخالبه كأظفار النسر

لقد عراني من لباسي وأمسك بي بمخالبه وأخذ بخناقِي حتى خملت أنفاسي¹

أسندت مهمة فصل الروح عن الجسد في الديانات السماوية، إلى إحدى الكائنات السماوية لتقبضها وتسافر بها إلى عالم الأرواح. يوصف هذا الكائن في المعتقد اليهودي على أنه ملاك يقيم في السماء وله أجنحة يسمى عزرائيل، يقف عند رأس المحتضر بسيفه المرفوع، لاعتقادهم أن الروح تخرج من الفم أو

¹ باقر، طه، ملحمة كلكاشم، المرجع السابق، ص.70.

تبقى في الحلق. الشيء نفسه في الديانة الإسلامية؛ حيث كلف بمهمة قبض الأرواح نفس الملك "ملك الموت" تقول الآية: "قل يتوفاكم ملك الموت النبي وكل بكم ثم إليه ترجعون".²

تطهير الميت: يعتمد المصريون القدماء إلى غسل جسد الميت بماء النيل، لاعتقادهم بقدسيته وتبركا به، ويقابل هذا الطقس في الديانة الإسلامية رش الميت بعد الفراغ من تكفينه بالقليل من ماء زمزم لقدسيته وتبركا به. أما اليهود فأثناء حدوث الوفاة، يذرى القليل من تراب فلسطين على العينين، كذلك أثناء الدفن يقوم الحزان بمزج حفنة من تراب قد جيء بها من فلسطين، حيث يعتقد هؤلاء أن هذه الحفنة من الرمل هي نبرس الجثة في رحيلها إلى الأرض المقدسة، أرض الميعاد كما يعتقدون.

اتجاه الدفن: مارست الحضارات القديمة الدفن في اتجاه الشرق منذ أقدم العصور؛ حيث كشفت البقايا الأثرية التي تعود إلى ذلك العصر عن قبور متجهة نحو الشرق، وذلك لأنهم رأوا الشمس تشرق كل يوم من هناك، وبالتالي اعتقدوا بأن أمواتهم سيبعثون من الشرق. في الديانة اليهودية كذلك يكون القبر متجها نحو الشرق "مزارح" بحيث يكون الميت في مرقده ينظر نحو القدس أو أرض الميعاد حسب اعتقادهم. الشيء نفسه عند المسلمين إذ يدفنون موتاهم في اتجاه الشرق لقول الرسول في الحديث الشريف: "قبلتكم أحياء وأمواتا" كذلك لاعتقاد المسلمين بأن البعث سيكون من الكعبة أو بيت الله.

ما بعد الموت: تؤمن جميع الديانات السماوية بيوم الحساب، ففي اليهودية ذكر يوم الحساب في عدة آيات من العهد القديم، منها: "قُلُّهُ قَرِيبٌ يَوْمُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ الْأُمَّةِ. كَمَا فَعَلْتَ يُفَعْلُ بِكَ. كَمَا كُنْتَ يَرْتُدُّ عَلَى رَأْسِكَ".³ أما في الديانة المسيحية فنقرأ في الكتاب المقدس (العهد الجديد): "لَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَلَّغْتُهَا يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْضُونَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الْغَيْنِ"⁴، وفي الإسلام تقول الآية: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا الْحَرَامُ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ.⁵ في يوم الحساب توزن حسنات المؤمن وسيئاته، فإن ثقلت حسناته فهو من أهل الجنة، وإن خفت فهو من أهل النار. يوم الحساب المذكور في الديانات السماوية، يقابله ما يسمى بـ "المحاكمة" لدى المصريون القدماء؛ حيث يؤمن هؤلاء بأن الإنسان تنتظره المحاكمة في السماء، وتكون من خلال وضع قلب الميت في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى الريشة المقدسة، فإذا توازنت الكفتين فذلك انتصار ونجاح، أما إذا مال الميزان وكان القلب أثقل من الريشة، ظهر وحش فضيع يلتهم الميت ويشرب دمه حسب اعتقادهم.

² سورة السجدة، الآية: 11.

³ سفر عوبديا 1: 15.

⁴ متى 12: 36.

⁵ سورة القارعة، الآية: 6- 11.

الأسطورة عن المرأة التي لم تتسجم مع أعراف القبيلة، أو أنها متمردة فضلت الحرية على قيود الأسرة وأغلال المجتمع، وعقابا لها تحولت إلى بغلة مرتبطة بالموت وفضائه أي المقبرة، بينما ذهبت مجتمعات أخرى إلى اعتبار المرأة الحادة مصدر شؤم لمن رآها، فالناس يعتقدون أنها تمتلك قوة خارقة تلحق الضرر والمصائب بهم.

يتم إدراج موضوع الموت في الأمثال الشعبية الأمازيغية من خلال اعتمادها كموضوع مباشر، وذلك بهدف التذكير بالمصير المحتوم لكل إنسان الذي هو الموت، وبأن نعم الدنيا ستزول عاجلاً أم أجلاً. هذا إلى جانب أن للأمثال الشعبية قابلية التأويل وتوظيفها في سياقات اجتماعية مختلفة، فالمثل القائل $\Sigma Q E_{\circ} \cup_{\circ} \text{XIX} \Sigma \Sigma \Sigma \% + \text{I} \circ \oplus \Sigma_{\circ} + \Sigma + \text{I}_{\circ} \text{XO}_{\circ} \text{OI}$ (الميت راضي بمن يجره)، يعبر على من يستغل أزمات الغير ليفرض عليهم شروط معينة مقابل مساعدته لهم في أمر ما. كذلك المثل القائل $\Psi \cup_{\circ} \text{III}_{\circ} \text{X} \% \text{IA} \cup_{\circ} \text{XIX} \Sigma \text{OX} \cup_{\circ} \text{XI} \oplus \% \text{XIX} \text{X} \Sigma \Sigma \text{XIX} \oplus \text{O}_{\circ} \wedge \Psi \text{XJ} \text{XZ} \Theta \text{Q} \mid \Sigma_{\circ} \ominus$ (ذاك كمن فر بالفأس الذي سيحفرون به قبر أمه)، هنا استعمال كلمة القبر ليس بغرض معالجة موضوع الموت والنفاء، وإنما بغرض إبراز التناقض بين من تسعى جاهدا لمساعدته في أمر يهمه، بينما هو غير مهتم بأموره الشخصية ولا بما تفعله من أجله.

يتضح من خلال تتبع الأمثال أن الموقف من الموت، هو موقف يبعث الخوف الشديد من المصير المجهول الذي آل إليه الميت، مما يذل على وحشية الموت وقساوته، لذلك تعمل هذه الأمثال على انتقاء كلمات وعبارات لها وقع خفيف على نفسية المتلقي، ويتضح ذلك في استعمال أمثال متضمنة لعبارات $\theta\sigma\epsilon\chi\eta$ (القبر) والتي تعبر عن فكرة الموت والنهاية المحتومة لكل إنسان على وجه الأرض، بدل استعمال كلمة "الموت" بطريقة مباشرة لكونها مزعجة ومقلقة ولما لها من وقع على سامعها، وهذا يشمل أيضا طريقة التعبير عن موت أحدهم، إذ يتم تعويض كلمة مات فلان بكلمات أخرى أكثر لطافة وأكثر إحساسا بالأمان مثل: $\epsilon\lambda\lambda\eta\sigma\alpha\iota$ (غادر المسكين).

[illegible]

ولعبت الأعراف الأمازيغية دورا كبيرا في المحافظة على الأماكن المقدسة، كالمسجد، الزوايا، الأضرحة، وأيضا المقابر باعتبارها حرم مصان بشكل طبيعي؛ حيث يغرم صاحب البهائم التي دخلت وسرحت في المقابر بمُدا شعيرا لكل بهيمة، كما أن كل من ضبط عابثا بمقابر المسلمين بنش أو تدنيس أو شعوزة يطرد من القبيلة. ويستدعي تدبير المقابر والمحافظة عليها كما نص على ذلك نموذج القرار الجماعي: تعيين المجالس الجماعية لشخصين من أعوانها لتدبير شؤونها والمحافظة عليها، تنظيم الزيارات وذلك بفتح المقابر طيلة أيام الأسبوع من طلوع الشمس، إلى غروبها، باستثناء الأجنحة المغلقة فتفتح فقط من يوم الاثنين إلى غاية يوم الجمعة، ومن الساعة التاسعة صباحا، إلى الساعة الخامسة بعد الزوال. كما يشمل صيانة المقابر تسيجها بسياج صلب، أو احاطتها بسور يحفظها من اعتداءات الإنسان، وولوج الحيوانات والدواب إليها.

يتضح أن لمؤسسة الضريح لدى قبائل آيت باعمران عدة وظائف، إما اجتماعية كطلب الزواج، طلب وظيفة أو عمل، أو طلب الزيادة في الرزق خاصة في صفوف ممتني التجارة، بالإضافة إلى طلب التحكيم بين المختصمين، وربط العهود بين الشركاء حيث لا يجرؤ أحد على نكث العهود المبرمة في حضرة الوالي. أو وظائف استشفائية كالتخلص من الاضطرابات التي تلحق الإنسان بسبب اعتقاده أنه مصاب بعين حاسد، أو سحر حاق، هذا إلى جانب علاج أمراض عضوية كالعقم، الإجهاض المتكرر، أو عدم إنجاب الذكور، علاج أمراض نفسية وعقلية يعتقد أنها ناتجة عن مس الجن، أو عمل سحري. أو وظيفة تعليمية حيث انشأت ملحقات لبعض الأضرحة، دورها تعليم وتحفيظ القرآن للصغار، بالإضافة إلى إنشاء مدارس عتيقة متخصصة في تفسير القرآن وتلقين دروس العلوم الشرعية. أخيرا لدينا الوظيفة الاقتصادية، حيث تلعب المواسم السنوية التي تقام على شرف الدفين ولي الضريح مناسبة اقتصادية مهمة، ومتنفسا للتجار لتصريف سلعهم وبضائعهم، ونذكر من بن هذه المواسم: موسم سيدي محمد بن عبد الله بميرلفت، موسم سيدي علي إفني بمدينة سيدي إفني، موسم سيدي الغازي بمدينة كلميم، وموسم سيدي احساين بجماعة الأخصاص.

اتضح بأن الطقوس الجنائزية تهم الأحياء أكثر مما تهم الأموات، فهي بمثابة أداة لإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد حدوث فاجعة الموت، وتتجلى هذه الفكرة بشكل كبير في عدة طقوس أهمها: إفراغ المنزل من كل ملابس وحاجيات الميت، عدم استحسان زيارة العائلة والأصدقاء بعد الرجوع مباشرة

من العزاء، دق الطبول في كل مرة يسمع فيها أهل القبائل صوت الغراب الأسود في المساء لخوفهم الشديد من حدوث الموت، وأخيرا زيارة الأحياء للمحتضر وطلب الصفح والغفران منه قبل موته.

تعتبر أغلب الطقوس الجنائزية التي تمارس في قبائل آيت باعمران أثناء حدوث الموت، امتداد لمختلف الطقوس التي انتشرت لدى شعوب الحضارات القديمة، فمثلا طقس تغسيل الموتى عرفه المصريون القدماء منذ أكثر من 3000 سنة قبل الميلاد، حيث يغسلون موتاهم بماء النيل قبل تحنيطهم، وكذلك يلجأ البابليون والآشوريون، والسوماريون، أثناء تطهير موتاهم إلى غسلهم أو حرقهم، بهدف تطهير الجسد من النجاسة والدنس. بالنسبة لطقوس الموكب الجنائزي، فقد كانت تؤدي في مصر القديمة وسط نوع من الرقص الجنائزي؛ إذ يسير الرجال في المقدمة وتتبعهم النساء، ليقوم الكهنة بحرق البخور، وترتيل التراتيل الحزينة، في حين تتقدم طائفة من الراقصين يؤدون رقصة دينية للمتوفى. أدخلت مجموعة من التعديلات على هذا الطقس بعد انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، وأصبحت بذلك النساء ممنوعات من حضور الموكب الجنائزي والمشاركة فيه، على غرار الديانة اليهودية. كما أقر المذهب المالكي على ضرورة حمل الميت إلى متواه الأخير في صمت وخشوع والتفكير في الموت والأخرة؛ لكن ذلك لم يكن في الواقع، إذ يردد الناس عبارات التشهد (لا إله إلا الله... محمد رسول الله)، إضافة إلى قراءة القرآن والتهاليل وهم في طريقهم للمقبرة.

مورست كذلك طقوس تقديم الطعام المعروفة عند الأمازيغ بـ "سُلُوكُتْ" منذ القديم، ففي سومر عرفت هذه الطقوس باسم "الكسبا" وتقدم فيها مختلف الأطعمة إلى روح الموتى، وتذبح فيها الخراف، ويقدم الزيت والبخور والنبذ الأبيض والفاكهة. كذلك جاء في أسطورة "موت بعل" أن أخته "عانات" أقامت على قبره قربانا ضخما مكونا من أربع مئة وعشرين حيوانا، وهدف ذلك أن يقضي "بعل" حياته هادئة بين أحضان الأرض. وخلافا لذلك رأى الإسلام أن تقديم الطعام يجب أن يكون من طرف أهل القبيلة بحيث يقدم لأسرة المتوفى، وضيوفهم الذين جاؤوا من مكان بعيد لتقديم التعازي، إلا أن الواقع يحكي عكس ذلك؛ حيث أصبح الناس يتنافسون في إعداد وتجهيز المنزل لاستقبال المعزين، بل بلغ بهم الأمر إلى اكتراء قاعات الأفراح الممتلئة، وتكليف مموني الحفلات لتجهيز وإعداد احتفالية المآتم، وتقديم ما لذ وطاب من الأكل والشرب، وأيضا استقدام المنشدين الدينيين والفقهاء لقراءة القرآن وترديد الأناشيد الدينية.

تتفق الطقوس الجنائزية بآيت باعمران على تحقير الجسد الأنثوي؛ إذ يمنع حضور النساء أثناء جلسات التلقين والاحتضار، على اعتبار أن الشيطان يكون مرافقا لهن، كما يكفن جسدهن في سبع قطع،

بينما يُكفّن جسد الرجل في ثلاث إلى خمس قطع فقط. يمنع كذلك على النساء المشي في الموكب الجنائزي، وحضور طقوس الدفن، كما يتغير موقع الإمام أثناء الصلاة بتغير جنس الميت؛ فإن تعلق الأمر بميت ذكر يقف عند رأسه ليصلي عليه، وإن كانت الجثة لامرأة وقف الإمام في الوسط بدعوى أنه يحجب باقي المصلين من النظر إليها أو إلى فرجها. وتمثل فترة الحداد دليلاً آخرًا على التمييز الحاصل بين جسد الرجل وجسد الأنثى، فالمرأة المتوفى عنها زوجها تكون ملزمة بارتداء ثوب الحداد لمدة أربعة أشهر وعشر أيام، مع الامتناع عن وضع مساحيق التجميل والعطور، والخروج من بيتها والاختلاط بالناس في الأماكن العمومية. بل ذهب بعض العادات والتقاليد إلى اعتبار حياة هؤلاء النساء انتهت بموت أزواجهن، ولا يجب عليهن بدء تجربة جديدة، وأن يتفرغن لتربية أبنائهن فقط، عكس الرجل الذي يقتصر عنده ارتداء ثياب الحداد فقط في الموكب الجنائزي، وأثناء احتفالية التأبين، ويحق له وضع العطور والتزين كيفما أراد، كما له الحق في اختيار شريكة حياة أخرى بعد موت زوجته.

تجدر الإشارة كذلك إلى أن أغلبية الطقوس الجنائزية بفضاء آيت باعمران عرفت تطوراً ملحوظاً، بدءاً بالتغسيل الذي كان في الماضي من مهام فقيه المسجد، أما الآن فقد انتشرت جمعيات أسست لهذا الغرض، وأخذت على عاتقها تغسيل أموات "المسلمين" باستعمال منتجات وأدوات عصرية. وانتقلت أيضاً طريقة التكفين من الخياطة بالإبرة والخيط فوق جسد الميت، إلى اقتناء كفن جاهز من المحلات التجارية، يلبس بسرعة وبطريقة سهلة. أما الدفن فاستعمل فيه الألواح الإسمنتية لتغطية القبور وتزينها بأنواع الزليج والرخام المنقوش، بدل البحث عن الأحجار المسطحة. دون أن ننسى تكليف مموني الحفلات لتنظيم احتفالية التأبين، التي يعرض فيها أفخر أنواع الألبسة والأثواب، بل أصبحت هذه الاحتفالية مجالاً للتفاخر والتباهي بالمكانة الاجتماعية لأسرة الميت، عكس الاحتفالية البسيطة التي عرفت الأجيال الماضية. مسّ التغيير كذلك علاقة المرأة بالطقوس الجنائزية، فأصبحت تشارك في الموكب الجنائزي، وتحضر طقوس الدفن داخل المقبرة، بل هناك من النساء من لا تلبس ثوب الحداد إلا في الأيام الثلاثة بعد الموت، لتعود بعد ذلك لممارسة حياتها العادية.

وعرف المجتمع الباعمراني كسائر بلاد العالم خلال السنوات الأخيرة ظهور فيروس كورونا (Covid 19)، وما صاحبه من تعيير شامل في الطقوس بصفة عامة والطقوس الجنائزية بصفة خاصة؛ إذ أصبحت بذلك هذه الأخيرة محظورة وممنوعة، فلا أحد يرافق أهل الميت لدفن فقيدهم، أو مصافحتهم أو

عناقمهم، والاقتصار في تقديم التعازي على الاتصالات الهاتفية، والرسائل القصيرة، كما منع الخوف من نقشي الفيروس أسرة الفقيد من إقامة احتفالية المآتم.

وسجلنا بخصوص الأمور التي بقيت على حالها ولم تتغير، في حين كان يجب إعادة النظر فيها، تماشيا مع تطور المجتمع المغربي، وتوقيعه اتفاقيات تهم احترام حقوق الإنسان وسمو المعاهدات الدولية وحقوق الأقليات، هذا إلى جانب احترام حرية المعتقد، المنصوص عليها في الفصل الثالث من الدستور المغربي، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: إحداث مقابر مدنية لدفن جثث الأقليات الدينية كالمسيحيين، والشيعيين، والبهائيين، وأيضا الملحدين واللا دينيين، باعتبار ذلك حقا من حقوقهم الواجبة على الدولة أن توفرها لهم.

وكان من بين أهم التوصيات التي ختمت بها هذه الدراسة:

- الدعوة إلى إجراء أبحاث اجتماعية وأنثروبولوجية في مختلف القبائل الأمازيغية، للوقوف على جوانب الحياة بها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لاستخلاص مادة علمية عن مؤشرات المتغير بين مجموع هذه القبائل، بغية الاستفادة منها عمليا في معالجة ما يفرزه التغير الاجتماعي من مشكلات، وتوجيه خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية وفق توجهات وتطلعات سكان هذه القبائل.
- الدعوة إلى تدخل استعجالي وتطبيق المادة 75 و113 من القانون الجنائي، والمادة 83 من القانون التنظيمي رقم 113.14 المتعلق بالجماعات، الرامي الى تنظيم وحماية و صيانة الفضاء الجنائزي، لكونه يعرف تدهورا كبيرا من حيث التسيير والأمن و الصيانة والحراسة.
- ضرورة إحداث مقابر مدنية، أو حذف شرط الإسلام من معايير الدفن، وتعويض ذلك بالمواطن المغربي، بالإضافة إلى حذف كل ما له اشارة إلى التمييز والتفضيل بين مواطنين لهم كامل المواطنة والحقوق، من قبيل "نقل أموات المسلمين"، "تكريم أموات المسلمين" و"المقابر الإسلامية".